تاريخ العصر الحديث

للسنة الخامسة الثانوية

وفق آخر منهج قررته وزارة المعارف

تأليف

عباس الخرادلي

المدرس بمدرسة الأمير فاروق الثانوية

الطبعة الأولى

١٣٥١ هـ – ١٩٣٣ م

يطلب من عبد الحميد محمود

صاحب مكتبة الفجالة المصرية بمصر

تليفون ٥٥٨٦٥

الثمن : ١٦ صـ

المطبعة الرحمانية بمصر

شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢



حضرة صاحب الجلالة احمد فؤاد الاول ملك مصر



صورة محمد على باشا منشئ مصر الحديثة

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى بني وطني أقدم هذا الكتاب راجيا أن ينتفعوا به ، وليس لي فيه على الحقيقة إلا جمعه وتصنيفه ، إذ هو ملتقى جهود كتاب أعلام تقدمونا فأناروا لنا سبيلا لولاهم لظلت حتى اليوم مبهمة لا وضح فيها ولا جلاء . ومما يدعو إلى الغبطة والفخر أن جل اعتمادي كان على ما دبجته يراعة إخواننا المصريين والشرقيين

ولا أنسى تلك المعاونة الجليلة والتشجيع الجميل اللذين تفضل بهما على زميلاي العزيزان والاستاذان الجليلان عباس على صيام وشاكر خليل ، فقد قرأت عليهما مسودات هذا الكتاب وأجريا فيها قلمهما البليغ العالم ببعض الاصلاح

وقد حاولت جهدي أن يكون في الكتاب ما يجتذب الناس إليه حتى لا يتبرموا به أو يعرضوا عنه ، وأن يكون على أسلوب عربي سليم حتى لا يفسد عليهم لغتهم وأدبهم

ولا يهولن الطالب كبر الكتاب فالتفصيل خير ما يوضح الحقائق ويجليها ، وما على الطالب إلا أن يلخص في سطور ما قرأه في صفحات . وقد لخصت له موضوعين من موضوعات الكتاب ليكونا له نحوا ينحو عليه

وإن جاءت في الكتاب زلة من قلم الكاتب أو هفوة من هفوات الطابع ، فليس الانسان بمعصوم عن الزلل ، وليس القارىء الكريم بباخل علينا بنعمة الصفح وسعة الصدر

وإن جاء الكتاب على ما يهوى إخواني وأبنائي وبني وطني ، فالشكر لله الذى وفقني الى ما فيه رضاهم ، وان قصر عما تاقت نفوسهم إليه ، فالخير أردت ، والنفع قصدت . والله الهادى إلى سواء السبيل

١٠ مارس سنة ١٩٣٣ عباس الخرادلي

أهم المصادر التي استقيت منها الكتاب

تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة للاستاذ محمد رفعت
معالم تاريخ أوربة الحديث » » »
الحركة القومية للاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك
مفاوضات الانجليز بشأن المسألة المصرية للاستاذ أمين الرافعي بك
فتح مصر للاستاذ حافظ عوض بك
عجائب الآثار في التراجم والأخبار للاستاذ عبد الرحمن الجبرتي
حقائق الأخبار عن دول البحار » اسماعيل سرهنك باشا
تاريخ مصر في عهد اسماعيل » الياس الأيوبي
تاريخ مصر » ابن اياس
انجلترا في مصر لمدام جوليت آدم (تعريب علي فهمي كامل بك)
تاريخ الشيخ محمد عبده (جمعه الشيخ محمد رضا)
تاريخ مصر الحديث للأستاذ جورجي زيدان
تراجم مشاهير الشرق » » »
المسألة المصرية (Egypt's Ruin) تأليف روذشتين وتعريب الاستاذين
عبد الحميد العبادي ومحمد بدران
مصر للمصريين (٩ أجزاء) لخليل النقاش
معضلات المدنية الحديثة للاستاذ اسماعيل مظهر
مركز مصر الدولي للدكتور محمد أبو طايلة
التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر تأليف بلنت وتعريب جريدة البلاغ
المالية المصرية تأليف مصطفى الصادق بك
صفحة من تاريخ محمد علي تأليف سير تشارلس مري وتعريب الاستاذ السباعي
مصطفى كامل في ٣٤ ربيعا بقلم علي فهمي كامل بك
كشف الستار عن سر الأسرار لاحمد عرابي باشا
تاريخ مصر من الفتح العثماني للاستاذين عمر الاسكندري وسليم حسن
تاريخ العصر الحديث للدكتور محمد صبري
جولة في ربوع آسيا للاستاذ محمد ثابت
الوزارات المصرية » حسن محمد درويش

تاريخ القرن التاسع عشر   تأليف الاستاذين محمد قاسم ودكتور حسين حسنى
تقريرات اللورد كرومر السنوية
الجمعيات الوطنية   للاستاذ عبد الرحمن الرافعى بك
مقالات نشرت فى جريدتى الأهرام والبلاغ عن الشئون المصرية الحديثة
إيران   تأليف شاهين مكاريوس

The Beginnings of the Egyptian Question, & the Rise of Mehemet Ali (Shafik Ghorbal)

England in Egypt (Lord Milner)

Modern Egypt (Lord Cromer)

Abbas II (Lord Cromer)

The United States of America (Edward Channing)

Essentials of American History (John Lowler)

The Expansion of the British Empire (Woodward)

The Story of the World (M. B. Synge)

General History (Myres)

The Outline of History (H. C. Wells)

A History of the United States (Cecil Chesterton)

The Dethronement of the Khedive (A. H. Beaman)

The Colonisation of Africa (Harry Johnston)

Outlines of General History (Renouf.)

Landmarks of European History (M'Dougal)

A Political History of Contemporary Europe (Seignobos)

Grey Wolf (H. C. Armstrong)

La Question d' Egypte (Freycinet)

L' Egypte et les Provinces Perdues (Chaillé Long)

L'Epoque Contemporaine (J. Uny)

Lincoln (Lord Charnwood)

History of India (Trotter)

Arabi Pasha (john Ninet)

Eqypt under Ismail (Mac Coan)

Harmsworth Universal Encyclopedia

The Encyclopedia Britannica

فهرس

تاريخ مصر الحديث

تمهيد

مصر فى عصورها القديمة

قال الاستاذ بيترى المؤرخ « لقد كان بلد الفراعنة مهد الحضارة ومشرق شمسها ومنبع فيضها مدة خمسين قرنا ، ثم أهرمه كر الغداة ومر العشى فلا أقل من أن نذكره بالشكر ونعترف له بالجميل »

فمصر كانت قديما كالمصباح المنير أضاءت لمن عاصرها ومن خلفها من الأمم

ولما أصابها الضعف اكتسحها الاشوريون ثم الفرس ثم الاغريق وكانت فى جميع هذه الأطوار محافظة على طابعها وشخصيتها وإن كانت فى غالب أطوارها[1] قد فقدت استقلالها

ثم فتح الرومان مصر وعدها أباطرتهم مزرعة من مزارعهم الخاصة وخمل شأنها ، وأمر الامبراطور تيودوسيوس عام ٣٨١ م أن تغلق معابد أوثانها ، فأغلقت ، فتزعزع دينها ، وأهملت الكتابة الهيروغليفية [2] حتى نسيت واستعمل المصريون الحروف اليونانية ، واعتنقوا المسيحية ، فزال

---

(١) كانت مصر مستقلة زمن البطالسة (وهم اغريق) . ولا يضير ذلك الاستقلال أن يكون الملوك من الاغريق ، فان الامة لاتفقد استقلالها اذا حكمها ملوك من غير جنسها ولكن تفقده إذا خضعت لدولة أخرى أو احتمت بحمايتها

(٢) ومعناها الحروف المقدسة وكان غالب استعمالها فى النقش على المبانى لاسيما المعابد ، فلما أغلقت المعابد قل استعمالها

كل ذلك شيء كثير من الصبغة الفرعونية التى كانت من أكبر مميزات مصر فى عصورها القديمة .

مصر فى عصورها الوسطى

لقد بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا فدخل الناس فى دينه أفواجا وفتح الله على العرب بفتح فارس والشام ومصر واعتنق الاسلام كثير من أهل مصر ، وتزوجوا من العرب ، ولما ولى الخلافة الوليد بن عبد الملك حرم استعمال اللغة القبطية في الدواوين ، فأصبحت اللغة العربية لغة أهل مصر ، وظل العنصران المصرى والبدوى (العربى) يمتزجان حتى نشأ منهما شعب جديد .

ولما كانت مصر ذات تاريخ مجيد ، وكانت بحكم ظروفها الطبيعية وحدة أقليمية لاتفتقر إلى موارد غيرها من البلاد ، وكان أهلها ينزعون دائما إلى الاستقلال — رأيناها مستقلة أيام الطولونيين ، ثم الاخشيديين ثم الفاطميين ثم الأيوبيين ثم المماليك

المماليك : المماليك جمع مملوك ، وهو ظاهر المعنى ، وأصل مماليك مصر يرجع الى غارات التتار (جنكيزخان ومن تلاه) ، إذ كانوا يأسرون من استطاعوا أسره من أهل غربى آسيا ويتخذون منهم أرقاء يقومون على خدمتهم ، ومن فضل عن حاجتهم باعوه فى أسواق النخاسة ، فاشترى الايوبيون منهم اثنى عشر ألفا ، وكان أشد الايوبيين شغفا باقتنائهم الملك الصالح أيوب وسماهم الحلْقة — إشارة إلى أنهم يحيطون به دائما كالحلقة

وكان المماليك يُدربون على القتال حتى صار أحب ماتصبو إليه نفوسهم الحرب والميدان

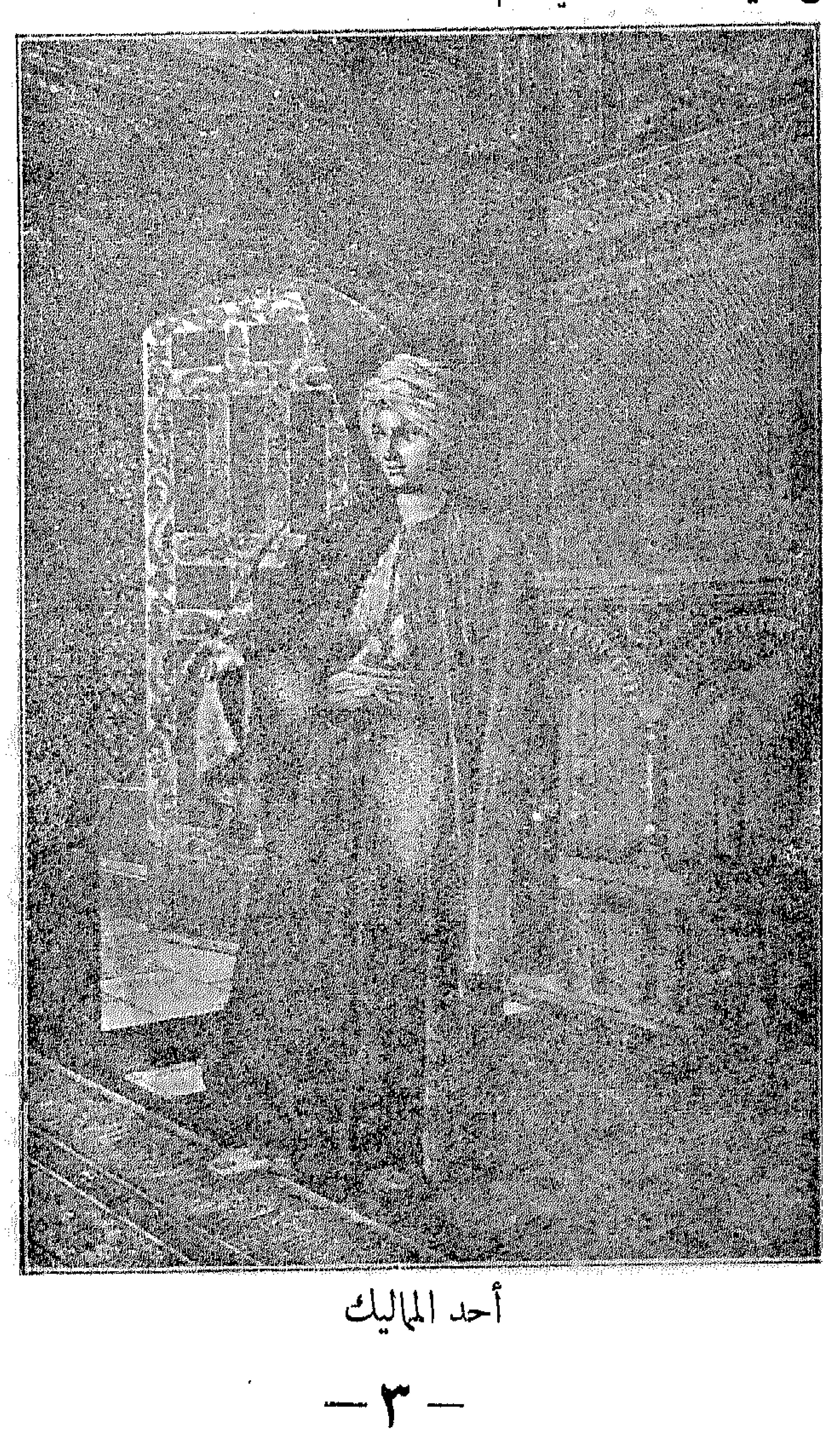
وأسكن الملك الصالح مماليكه فى جزيرة الروضة ، فأطلق عليهم اسم « المماليك البحرية »

والمؤرخون عادة يقسمون المماليك قسمين هما : —

(١) المماليك البحرية (١٢٦٠ — ١٣٨٢)

(٢) المماليك الشراكسة أو البرجية (١٣٨٢ — ١٥١٧) وسموا الشراكسة لأن أغلبهم من الشركس ، وسموا البرجية لأنهم أُسكنوا أبراج القلعة ونواحي أخرى من القاهرة

غير أنه من المستحسن أن يقسم المماليك قسمين غير التقسيم السابق حتى يسهل علينا دراسة تاريخهم ، والقسمان هما : —



أحد المماليك

(١) المماليك قبل الفتح العثماني (١٢٦٠ — ١٥١٧)
(٢) المماليك في عهد العثمانيين (١٥١٧ ـ ١٧٩٩)

المماليك قبل الفتح العثماني

سلف القول بأن الملك الصالح أيوب اشترى المماليك المعروفة بالبحرية ومات وهو يدفع الصليبيين عن مصر فاخفت سُرِّيته شجرة الدر خبر موته حتى جاء ابنه طوران شاه من آسيا وأجلى الصليبيين عن مصر ، ثم اختلف مع المماليك فقتلوه ، وتولت أمر مصر شجرة الدر ، ثم حدث نزاع بين المماليك والأيوبيين تغلب فيه المماليك وحكموا مصر مابين ١٢٦٠ و ١٣٨٢ وكان من أكبرهم قدراً وأظهرهم أثراً السلطان الظاهر بيبرس البندقداري . فقد كان قوي البأس ، دائب الاصلاح ، تقيا حتى قال عن عهده أحد الشعراء المعاصرين :

ليس لابليس عندنا أرب غير بلاد الأمير مأواه

واستقدم بيبرس أحد سلالة العباسيين الى مصر ـ وكانوا قد شردهم التتار ـ واعترف له بالخلافة ولقبه « بالمستنصر بالله العباسي » ومنح الخليفةُ بيبرسَ لقب « سلطان » وظل بيبرس ومن تبعه من سلاطين المماليك أصحاب الأمر في مصر ، ولم يكن للخلفاء العباسيين إلا سلطة اسمية

وكان المماليك قبل الفتح العثماني في الغالب أرقى خلقا وأفضل سياسة من البكوات المماليك الذين ظهروا بعد الفتح ، واليك بعض مناقبهم : —

(١) كانت مصر في عهدهم دولة حربية كبرى ، تكسرت دونها قوى التتار الذين اكتسحوا غربي آسيا وأسقطوا بغداد

(٢) كانت مصر منذ أواسط القرن الثالث عشر المركز الأوحد للمدنية الاسلامية بعد أن حطم التتار مدنية العرب في بغداد وأصبحت مدنية العرب في الاندلس محصورة داخل أسوار غرناطة ، وصارت القاهرة عاصمة

العالم الاسلامى ، وإنا لانزال نري القاهرة مزدانة بكثير من آثارهم التى تحدث عن شغفهم بالفن ومن تلك الآثار جوامع قلاوون والناصر والسلطان حسن (الخ) . وقد كانت هذه الجوامع دور عبادة ومعاهد علم فى وقت واحد كل ذلك وأوربة لم تخرج بعد من جهلها وظلامها ! !

(٣) كان المصريون فى عهدهم لا يشعرون بثقل الضرائب ، إذ كان السلاطين ينالون ما تتطلبه حروبهم ومبانيهم ونفقاتهم بالوسيلتين الآتيتين :

(ا) كانت تجارة الشرق تصل إلى أوربة عن طريق مصر أو الشام وكان كلاهما فى حوزة المماليك . فكانوا يفرضون عليها الضرائب ، وقد قدّرها أحد المؤرخين بقوله : إن سِلَعاً تشترى بعشرة آلاف من الجنيهات من الهند ، تفرض عليها مصر ضريبة فى مثل هذا القدر ، فاذا بلغت السلع أوربة بيعت على الأقل بثلاثين الف جنيه

(ب) كان بيت المقدس فى يد المماليك فكان المسيحيون يدفعون جُعلا ليسمح لهم بزيارة هذا البلد المقدس .

ومجمل القول أن مصر كانت تسير فى طريق النمو الطبيعى ، فكان شأنها فى ذلك شأن دول غربى أوربة فى العصور الوسطى ، ولم يقف ذلك النموّ إلا حادثُ استيلاء الأتراك العثمانيين على مصر عام ١٥١٧

المماليك فى عهد العثمانيين

نشأة العثمانيين : أنشأ الأتراك العثمانيون لهم إمارة صغيرة فى آسيا الصغرى ، وما زالت تلك الامارة تنمو حتى شملت كل آسيا الصغرى ثم فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وجعلها عاصمة ملكه عام ١٤٥٣ ثم فتح هو ومن خلفه نواحى كثيرة فى شرقى اوربة الجنوبى (اى البلقان) كما فتحوا الشام ومصر

فتح مصر : كان الاتراك ينفسون على مصر عظمتها وزعامتها على الممالك

الاسلامية فحارب السلطان سليم الاول قانصوه الغورى سلطان مصر ، وكان المماليك (رجال قانصوه) قد دب فى نفوسهم الضعف والوهن . فظهر عليهم سليم فى « مرج دابق » بالقرب من حلب ، وسقط قانصوه تحت سنابك الخيل . ولم يعثر له على أثر ، وزحف سليم على مصر ، فانبرى له طومان باى ابن اخى قانصوه الغورى ، ولكنه هزم ، ونصب على باب زويلة (بوابة المتولى) عام ١٥١٧ فصارت مصر ايالة عثمانية بعد ان كانت بلداً مستقلا

تجريد مصر من مظاهر عظمتها: ولقد جرد سليم مصر من كل ما يشعرها بعظمتها فمن ذلك : —

(١) انه اغتصب الخلافة من الخليفة العباسى ، فانتقلت للعثمانيين الزعامة على المسلمين

(٢) ونفى من مصر الى القسطنطينية أبناء سلاطين المماليك ومعظم امرائهم

(٣) ويقول ابن اياس فى الجزء الثالث من تاريخ مصر : —

« ان السلطان سليم خرج من مصر ومعه الف جمل محملة من الذهب والفضة (! !) فضلا عن التحف والسلاح وأعمدة الرخام والصينى والنحاس وأخذ من مصر من كل شيء أحسنه وذلك عدا ما غنمه وزراؤه من الاموال الجزيلة ، وكذلك عسكره فانهم غنموا ما لا يحصى وبطل من مصر نحو خمسين صنعة [1] »

تحويل طريق التجارة : وكأن القدر قد أراد أن يقترن العهد العثمانى بكل صنوف الخسر فان البرتغاليين قد كشفوا قبيل الفتح العثمانى طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند فتحول طريق التجارة من مصر والشام الى ذلك الرأس فخسرت مصر أرباحها الهائلة من تجارة الشرق

---

(١) وذلك لان سليم نقل الصناع المهرة إلى الاستانة

نظام الحكم : وأنشأ سليم لحكم مصر نظاما يعرف بالنظام الثلاثى لانه يتألف من ثلاث سلطات متنافسة وهي :ـ

(١) الوالى اى الباشا : ويقيم في القلعة ، وأخص أعماله إبلاغ الاوامر التى ترد عليه من السلطان الى عمال الحكومة ومراقبة تنفيذها ومدة ولايته عام واحد يجدد عند الحاجة ! وذلك حتى لا يُمَكِّن لنفسه فى مصر ويخرج على السلطان

(٢) جيش الحامية وعلى رأسه قائد يقيم فى القلعة : وهو مؤلف من ست وجاقات (اى فرق) وأهمها وأقواها جميعا وجاق الانكشارية وجُعل على كل وجاق ستة (١) من الضباط وكُوِّن من جميع الضباط مجلس (ديوان) يساعد الوالى فى إدارة البلاد ، ولا يستطيع الوالى أن يبرم امراً



جنود الانكشارية

(١) رئيس الوجاق يسمى الاغا ، ونائبه يسمى الكخيا أو الكتخدا وأقدم الضباط يسمى « باش اختيار » والدفتردار مدير الشؤون المالية والخازندار أمين الخزانة والرزنامجى حافظ السجلات

الا بموافقته ، وإذا اختلف الوالى والديوان على امر اختصموا الى السلطان وللديوان طلب عزل الوالى ، فمن هذا نرى ان الديوان كأنه الرقيب على الوالى

(٣) المماليك : قد أبقى السلطان عليهم ليحولوا بين الوالى والاستقلال إن أراده ، وليحفظوا الموازنة بين الوالى والضباط . وجعل السلطان منهم ٢٤ بيكا أو سنجقا [١] تتألف منهم الادارة المحلية ، فمنهم السناجق حكام المديريات ومنهم بعض موظفى الحكومة [٢] كنائب الوالى (الكتخدا او الكخيا) . الخ

ولما تولى سليمان القانونى عرش الدولة العثمانية أنشأ مجلسين هما : الديوان الاكبر للشئون الخطيرة وأعضاؤه ضباط الجيش والعلماء والاعيان ، والديوان الاصغر ويجتمع كل يوم وليس فيه أحد من العلماء والاعيان ، ويرأس الوالى الديوانين ولكن من وراء ستار ولا صوت له فى أحدهما ! !

وأضاف سليمان وجاقا سابعا للحاميه فبلغت عشرين ألفا

ذلك هو النظام الذى وضعه الاتراك لمصر : ثلاث سلطات متنافسة يعترض بعضها بعضا حتى يضمن الاتراك بقاء مصر فى قبضتهم ، سواء أأفلحت فى ظل هذا النظام أم أصابها الخسران .

وظل ذلك النظام الشائن يفى بالغرض الذى أنشىء من أجله نحو قرنين من الزمان ، وبعدها جمع المماليك السلطة فى أيديهم ولم يبق للسلطتين الأخريين من الامر شىء وذلك للاسباب الآتية : —

(١) ضعفت الدولة العثمانية لفساد نظام الحكم فيها ، ولطول محاربة النمسا وروسيا لها : مما شغلها عن شؤون مصر

(٢) كثر عزل الولاة أو تغييرهم حتى زالت هيبتهم

---

(١) سمى سنجقا لانه كان يتسلم سنجقا أو بيرقا رمزا لرتبة البيكوية والجبرتى مؤرخ هذا العصر يسمى المماليك «الامراء المصرية»

(٢) هؤلاء الموظفون هم : نائب الوالى (الكخيا أو الكتخدا) والدفتردار والرزنامجى والخازندار وأمير الحج . وقباطين دمياط والسويس والاسكندرية .

(٣) احتفظ المماليك بعصبيتهم وقووا صفوفهم بشراء مماليك جدد

(٤) لما كان أمر الاقاليم وخيراتها بيد المماليك . استطاعوا ان يستميلوا جل رجال الحامية بما يبذلون لهم من الاعطيات والارزاق ، هذا الى أن كثيرا من رجال الحامية استوطنوا مصر واقتنوا الاملاك واندمجوا فى المصريين فضعف على مر السنين ارتباطهم بالآستانة واختصوا المماليك بالطاعة والولاء وصار المماليك رؤساء الوجاقات

لكل هذا أصبح المماليك أصحاب الكلمة العليا فى مصر ، وقبضوا على أكبر منصبين فى البلاد هما مشيخة البلد (القاهرة) وإمارة الحج — وكثيراً ما منعوا السلطان الجزية أو أنقصوها ، وصارت (مشيخة البلد) كأنها امارة مصر ، وأصبح الوالى الذى يعينه السلطان كأنه سجين القلعه لا يخرج منها فى الغالب الا معزولا أو مقتولا (١)

خلق المماليك : كانت أخلاق البكوات المماليك الذين تجمعت السلطة فى أيديهم قد بلغت الدرك الأسفل من الانحطاط ، فقد كانت حياة الفرد منهم سلسلة من الجرائم والقتل والغدر والمؤامرات والدسائس ، وكانوا يتورطون فى حمأة الرذيلة ، وكان النظام قد أصبح ولا أثر له فى صفوفهم والطاعة قد ذهبت من قلوبهم .

وكانوا يذبحون الولاة المعينين من قبل السلطان كما كانوا يتذابحون ويتحاربون فيما بين أنفسهم

وكانوا يحيطون أنفسهم بكل ألوان الترف والبذخ والتنعم ، وحسبنا

---

(١) اذا أجمع المماليك أمرهم على عزل وال أرسلوا اليه رسولا « اوده باشى » من ضباط الوجاقات يحمل قرار العزل فيدخل على الوالى فى مجلسه بالقلعة ويحييه فى احترام عظيم ثم يثنى السجادة التى يجلس عليها الباشا ويقول له « انزل يا باشا » فينزل من القلعة مكرها ويصبح فرداً عادياً لا خطر له ولا شأن . ويسمى العامة « أوده باشى » أبا طبق لانه كان يلبس (لبادة) سوداء كالقبعة ذات حافة كالطبق

دليلا على سرفهم أن حلة البك تبلغ من الثمن ما لايقل عن ستمائة جنيه ، وهو مبلغ عظيم إذا علمنا أن قيمة الجنيه كانت يومئذ بضعة أمثال قيمته اليوم .

نتائج تسلط المماليك البكوات : ولقد كان لتسلط المماليك وأخلاقهم آثار هي : —

(١) انتشار الفوضى ، واضطراب الامن

(٢) تعس الشعب وشقاؤه ، إذ أن المماليك وقد حرموا مكاسب تجارة الشرق ، قاموا يبتزون أموال الناس للانفاق على ملاذهم وأتباعهم .

(٣) انتشار الجهل [1] وانحطاط جميع العلوم والآداب والفنون بعد أن كانت مصر فى عهد سلاطين المماليك مركز العلم والمدنية فى العالم الاسلامى

(٤) كساد التجارة ونقصان عدد المحال التجارية ، وإهمال شئون الرى مما أدى الى تأخر الزراعة .

(٥) تفشى الأوبئة نتيجة الفقر والجوع وإهمال الشئون الصحية .

استقلال على بك الكبير بمصر : ظلت الفوضى والفتن قائمة فى مصر بين المماليك والوالى والجنود حتى ظهر على بك واستقل بها

كان على مملوكا لابراهيم بك القازضغلى ، ثم أعتقه سيده وجمله بيكا ، وما زال يرقى حتى صار شيخ البلد سنة ١٧٦٣ ، ثم صبت نفسه للاستقلال عن الدولة العثمانية ، فلما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا عام ١٧٦٨ خلع الوالى التركى وأعلن استقلال مصر ، ومنع السلطان الجزية (١٧٦٩) وقام يصلح أحوال مصر ، ثم أرسل جيشا فتح بلاد اليمن وشاطىء البحر

---

(١) اهملت المساجد حتى سرق الناس أبوابها وشبابيكها ورخامها وامتدت يد الطمع الى أوقافها وانقطع التدريس فيها وصار بعضها زاوية صغيرة أو زريبة أو حوشا (كما يقول على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية) . وأصبح الأدب قصص أبى زيد الهلالى وأضرابه وصار الناس يطلقون لفظ « شاعر » على الذى يجلس فى المقاهى لينشد الناس سير أبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس على نغمات الرباب

الأحمر ، وبلاد العرب ، ولقبه شريف مكة بسلطان مصر وخاقان البحرين ، وأرسل جيشا بقيادة محمد بك أبي الذهب[1] زوج ابنته ليفتح الشام ، ففتح جانبا كبيراً منه ، ولما وصل إلى دمشق ، حسد سيده على ما أنعم الله به عليه من فتح وسلطان . وخشى أن تفرغ تركيا من محاربة روسيا فتبعث بجيوشها الى مصر وتقضى على على بك وصحبه ، لذلك فاوض الباب العالى سراً وعاهده على الغدر بعلى بك ثم يقبض هو على أزمة الأمر بمصر خاضعا للدولة العلية ، فسار إلى مصر بجيشه (١٧٧٢) واحتل الصعيد ثم القاهرة ففر على الى الشام واحتمى بحا كم عكا . وهنالك وجد اسطولا لروسيا . ففاوضه فى التحالف معها ، فأمده الأسطول برجال وذخيرة ، وسار على مصر بجيش صغير ، ولكنه هُزم وأسر ، ومات بسبب جراح أصابته .

وعادت مصر إيالة عثمانية مرة أخرى وكافأ الباب العالى «أباالذهب» بتثبيته «شيخاً للبلد» ومنحه لقب «باشا» وتنصيبه واليا على مصر

وهكذا حاول على بك أن يستقل بمصر ويقوّم ما اعوج من أمورها ، ولو لم تعترضه خيانة صهره لظفر بما أراد ، ولتغير وجه التاريخ ، والمماليك فى غدرهم كأبي الذهب ، ولوكانوا أوفياء يخضعون ويخلصون لزعيم واحد لاستقلوا بمصر ونهضوا بها

ومات أبو الذهب بعد عامين من توليته ، وقبض على أزمة الحكم بعده اثنان من مماليك على بك هما : ابراهيم بك ومراد بك ، واتفقا على أن يتوليا مشيخة البلد وإمارة الحج بالتناوب كل عام ، وبعثت الدولة عام ١٧٨٦ بحملة الى القاهرة انتزعت السلطة منهما ووضعتها فى يد الوالى ولكنهما عادا وقبضا على الحكم (١٧٩٠) وبدأا يبتزان أموال التجار فشكا الأجانب منهما إلى دولهم فاتخذ الفرنسيون هذه الشكوى ذريعة لحملتهم على مصر (١٧٩٨)

---

(١) سمى أبا الذهب لكثرة ذهبه

ملخص حال مصر فى عهد العثمانيين : تنازع وتحارب بين السلطات حتى آل الأمر الى المماليك ، وفساد فى الادارة وكساد فى التجارة ، ومظالم حاقت بالناس ، وضرائب بهظت كواهلهم ونقص فى السكان وجهل بالعلوم ، وجهل بالسياسة إلى حد أن المماليك لم يصل الى مسامعهم اسم نابليون بونابرت الذى طبقت شهرته العالم أجمع

كل ذلك جعل العصور الوسطى بمميزاتها لاصقة بمصر إلى نهاية القرن الثامن عشر مع انها زالت من أوربة فى أواخر القرن الخامس عشر . ولم تبدأ العصور الحديثة فى مصر إلا بمجىء الحملة الفرنسية .



مراد بك

مصر فى عصورها الحديثة

الحملة الفرنسية على مصر

متى فكر الفرنسيون فى الحملة ؟ لم تكن الحملة الفرنسية على مصر فجائية بل سبق مجيئها تفكير طويل فمن ذلك أن فيلسوفا ألمانيا اسمه ليبنتز لما رأى لويس الرابع عشر يعتزم غزو هولندة خاف على نهر الرين سنة (١٦٧٢) فأراد أن يحول وجهه عنه فقدم له تقريراً ، يقول فيه « اذا كان مولاى يرغب فى القضاء على الجمهورية الهولندية ، فخير الطرق لذلك هو ضرب هذه الأمة فى مصر إذ مصر طريق الهند ، وفى الاستطاعة تحويل التجارة الهولندية الى طريق مصر » غير أن لويس لم يأبه لمشروع ليبنتز (Liebnitz) لأن السيادة على أوربة كانت تملك عليه مشاعره ، ولأن استيلاءه على مصر يغضب تركيا وكانت تركيا حتى ذلك الوقت لاتزال قوية مرهوبة الجانب يحسب لغضبها حساب كبير .

وعرض الوزير شوازيل (Choiseul) على لويس الخامس عشر فتح مصر لتستعيض بها فرنسا عن خسارتها فى الهند وأمريكا ولكن ألهى لويس تنعمه واستهتاره

وظلت فكرة فتح مصر عالقة باذهان الساسة فى عهد لويس السادس عشر ، ولكن حالت الثورة الفرنسية دون تنفيذها ، ثم تمخضت الثورة عن نابليون ، فدرس أثناء الحملة الايطالية ما كتبه المؤلفون عن مصر ، وفاوض رجال الادارة فى فتحها فوافقوا .

أسباب فتح مصر : ولنستعرض الآن الاسباب التى حدت برجال فرنسا الى غزو مصر :

١ — الأسباب السياسية والاقتصادية

ا — فتح مصر الخطوة الاولى لضرب انجلترا فى الهند ، إذ ضربُ الأنجليز فى بلادهم صعب المنال ، فكتب نابليون فى ذلك لرجال الادارة قبيل الحملة يقول « أن الدولة الاوربية التى تحكم مصر هى التى لابد أن ستحكم الهند » (١)

ب — فتح مصر يجعل البحر الابيض المتوسط بحيرة فرنسية خصوصا بعد أن صارت قرشقة وايطالية للفرنسيين

حـ — امتلاك مصر بخيرها الكثير خير مايعوض على فرنسا ما انتزعته انجلترا فى أمريكا والهند فى حرب السبع سنين

د — كتب مجالون (Magallon) ممثل فرنسا فى مصر الى حكومته يشكو ابتزاز المماليك أموال التجار الفرنسيين ويهوّن على حكومته فتح هذه البلاد

٢ — الأسباب الشخصية

ا — رأى نابليون أن بقاءه فى باريس بغير قتال (بعد صلح كامبو فرميو ١٧٩٧) يقضى على نفوذه

ب — أراد أن يضم اسمه إلى أسماء فاتحى الشرق كالاسكندر الا كبر وقال فى ذلك لبوريين صاحب سره : « إن أوربة بأسرها ليست إلا جحر فأر وما صدرت الشهرة العالمية وما دوّى الصيت الخالد إلا من الشرق وفى الشرق»

حـ — كان يأمل نابليون أن تفشل حكومة الادارة فى فرنسا وتنتاب البلاد المحن فى غيبته ، فيتلهف الفرنسيون على رجوعه من مصر لانقاذهم ، وبذلك يستطيع أن يقبض على أزمة الحكم ، لاسيما اذا اصطحب إلى مصر عدداً من أعاظم قواد فرنسا وقال فى ذلك وهو فى سنت هيلانة « إذا

---

(١) والانجليز اليوم يقولون « إن من يحكم الهند لابد أن يحكم مصر »

أردت أن أكون سيد فرنسا وجب أن تفشل حكومة الادارة ثم أعود أنا من مصر والنصر معقود بلوائى » (١)

لكل هذه الاسباب أصدر رجال الادارة أمرهم الى الجنرال بونابرت فى ٢ ابريل ١٧٩٨ بغزو مصر وشق قناة فى برزخ السويس ، والاستيلاء على موانى البحر الاحمر وضمها إلى الحكومة الفرنسية .

وأرادت فرنسا أن تبرر حملتها على مصر فقالت انها تقصد تأديب المماليك الظلمة بسبب ابتزازهم أموال التجار الفرنسيين وبسبب تمردهم على سلطان العثمانيين حليف فرنسا من قديم .

اعداد الحملة : أعد نابليون الحملة وهو يكتم وجهتها حتى عمن سيرافقه من الضباط والعلماء ، وذلك كى لا تعلم انجلترا وجهة الحملة فتعترضها



نابليون

(١) يزعم بعض المؤرخين أن رجال الادارة قبلوا مشروع الحملة الذى عرضه عليهم نابليون خوفا على سلطانهم منه ، إذ لايبعد أن يمثل معهم دور يوليوس قيصر وينكر آخرون هذا الزعم . وحجتهم فى ذلك أن حكومة الادارة لايعقل أن تستغنى عن أمهر قوادها وستة ثلاثين ألف جندى وحالتها الدولية لم تستقر بعد

وكان الجيش الذى أعده نحو ٣٦٫٠٠٠[1] مقاتل يقودهم قواد مبرزون مثل كليبر وديزية ومورا وأعد لنقلهم إلى مصر اسطولا مؤلفا من ٣٠٠ سفينة يقودها أمير البحر ده بروى (Brueys) ومن بين هذه السفائن لوريان (L'orient) أى الشرق وكانت تحمل عشرين ومائة مدفع

وقد اصطحب نابليون ١٤٦ من رجال العلم والفن ليدرسوا حال مصر درسا وافيا يساعد على تكوين مستعمرة جديدة

الحملة فى البحر الأبيض المتوسط : أقلعت الحملة فى ١٩ مايو ١٧٩٨ وبلغت مالطة وكانت فى أيدى فرسان القديس يوحنا منذ أيام سليمان القانونى سلطان العثمانيين ، وكانوا وقت الحملة قد فقدوا استبسالهم الذى عرفه الناس فيهم أيام الحروب الصليبية ، وكان رئيسهم الأكبر ضعيف الرأى خائر العزم ، ولم يحاولوا أن يدفعوا غارة الفرنسيين ويقول فى ذلك أحد قواد الحملة « لقد خدمنا التوفيق إذ وجدنا في داخل الحصون من فتح لنا أبوابها » وترك نابليون حامية فى حاضرة الجزيرة ، وفرح نابليون بامتلاك هذه الصخرة العاتية لأنها تساعد على حفظ مواصلاته مع فرنسا

وارتابت انجلترا فى أمر الحملة وظنت أنها موجهة إلى ايرلندة وكلفت نلسن أمير البحر أن يتعقبها غير أن نلسن فطن إلى أن الحملة تقصد مصر لا ايرلندة وقد قوى فى نفسه هذا الرأى أنه علم أن نابليون اصطحب معه عدداً من المغاربة والمترجمين

وبلغ نلسن مالطة فالفى نابليون قد برحها منذ أيام خمسة ، فتيقن أنه يمم مصر ، فأقلع إلى الاسكندرية ووصلها فى ٢١ يونية (أى قبل أن يصلها نابليون) .

---

(١) وثائق وزارة الحربية الفرنسية تقول ان الجيش كان ٣٦٫٨٢٦ ولكن نابليون فى منفاه يقول ان جيشه كان ٣٢٫٠٠٠ والظاهر أنه يقلل من عدد جيشه تباهيا وتفاخرا

وكان على هذه المدينة حاكم مصرى يسمى السيد محمد كريم فأرسل اليه نلسن يسأله عن قدوم الأسطول الفرنسى ويؤكد له أنه إنما جاء لرد الفرنسيين عن مصر وأنه لايطلب إلا أن يرخص له ولرجاله في البقاء خارج المدينة وفى شراء ما يحتاجون اليه فارتاب الحاكم فى نواياهم وقال لهم « إن مصر بلاد السلطان ؛ وليس للفرنسيين أو سواهم شىء فيها فاذهبوا أنتم عنا » ، فغادر نلسن الاسكندرية ، وضرب فى البحر يبحث عن غريمه ولقد جمعتهما صفحة الماء ولكن شاء ربك ألاّ يتقابلا ، ووصل نابليون إلى الاسكندرية فى أول يولية وكان قد وصفها ڤولنى الرّحالة الفرنسى بقوله « ليس فى المدينة سوى أربعة مدافع فى حالة صالحة وليس بين الحامية التى يبلغ عددها ٥٠٠ من يستطيع إصابة المرمى بل جميعهم من العمال العاديين الذين لايحسنون سوى التدخين »

ولم يكن غرض نابليون النزول الى الاسكندرية نظراً لوجود صحارى إذ ذاك تفصلها عن النيل وكان غرضه أن ينزل عند رشيد (أو دمياط) والسير بمحاذات النيل ، ولكن لما علم عند الاسكندرية أن نلسن كان قد سبقه وأنه يبحث عنه، رأى أن ينزل فى الاسكندرية خوف الأسطول الانجليزى فأنزل رجاله فى مكان يبعد ثلاثة أميال عن الاسكندرية من جهة الغرب ثم زحف على المدينة وأعمل النار فيها ودافع أهلها دفاعا مجيداً ثم أمّنهم نابليون على أموالهم وأنفسهم وذكر لهم أنه ما جاء إلا ليدرأ شر المماليك عنهم فسلّمت مدينة أكبر قائد فى العصور القديمة (الاسكندر) لأكبر قائد فى العصور الحديثة، وكرّم نابليون الحاكم ورد اليه سيفه قائلا له « لقد أخضعتك بقوتى ولى أن أعاملك معاملتى للأسرى ولكنى تقديراً لشجاعتك والشجاعة والشرف متلازمان أرد اليك سيفك وأملى أن تخلص للجمهورية الفرنسية

بقدر ما أخلصت لحكومة بني عثمان » ، وكان السيد محمد كريم قد بعث إلى ابراهيم ومراد [1] بنبأ مجيء الفرنسيين فاجتمعا فى منزل ابراهيم بك (القصر العينى الآن) ومعهما الأعيان والوالى التركى ، وقرروا أن يسير مراد إلى الاسكندرية لقتال الفرنسيين ويبقى ابراهيم فى القاهرة للدفاع عنها

وقبل أن يخرج نابليون إلى القاهرة أمر أن يُطبع بالمطبعة التى أحضرها منشور باللغة العربية أهم ما جاء فيه . —

(١) أنه يحترم النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) وأنه ما جاء مصر عدوًّا للسلطان ولكن ليخلص السلطان والشعب المصرى من المماليك الظالمين .

(٣) وأنه يعتزم إنشاء حكومة أهلية يكون النفوذ فيها للمصريين

وغرضه من ذلك المنشور أن يجتذب إليه قلوب المصريين عامة ، والمسلمين منهم بصفة خاصة إذ هم غالبية السكان .

وخرج نابليون من الاسكندرية فى ٧ يوليه قاصداً القاهرة ، وسلك طريق الصحراء إلى دمنهور فلقى رجاله فيها جوعا وعطشا وحراً شديداً حتى فسدت دخيلتهم[2]

---

(١) ارسل السيد محمد كريم الى ابراهيم ومراد يقول « ان العمارة التى حضرت الى الاسكندرية تتألف من سفائن جمة لا أول لها يعرف ولا آخر لها يوصف . فبالله ورسوله أدركونا بالرجال » فلم يبال المماليك بالخبر وقالوا انهم قادرون على أن يطئوا الافرنج جميعا بسنابك خيولهم . وقال مراد للقنصل الفرنسى « ان الفرنسيين جميعا مكارون (أى حمارون) » وقال « اعطهم من المال قليلا ودعهم ينصرفون لانى لا أريد أن أوذيهم » ولم يوفق القنصل فى تفهيمه من هو نابليون ، فما أجهل حكام مصر إذ ذاك بالعالم وشؤونه ! وأرسل الوالى إلى السلطان يخبره بنبأ الحملة أو كما يقول الجبرتى « ليأتى بالترياق من العراق » !

(٢) لقد بلغ من حنق الجند ان تبرموا بالعلماء لوقوفهم فى أماكن متعددة يقيسون ويرسمون وسخروا منهم حتى سموا الحمير (رجال العلم) واتهموهم بأنهم هم الذين

وبلغ الفرنسيون دمنهور ، ثم هزموا مراد عند شبراخيت فتقهقر إلى امبابه ، ولما سمع ابراهيم بهزيمة مراد شرع فى تحصين بولاق (فُرضة القاهرة إذ ذاك) وأعد فى الوقت نفسه عُدته للفرار إن تخطاهم التوفيق فأودع ظهور الدواب وأجواف السفن ما استطاع جمعه من تحف وكنوز . أما سكان القاهرة فجزعوا أول الأمر ، والتفوا حول ابراهيم يجأرون بالدعاء لله عسى أن ينجيهم من عدوهم

وجاء نابليون إلى امبابه وأراد أن يستثير حماسة جنده فنظر إلى الاهرام وقال لهم « إن أربعين قرنا تنظر إليكم من قمة هذه الاهرام » ، وفى ٢١ يوليه دارت رحى المعركة التى يسميها المصريون إمبابه ويسميها الفرنسيون « الاهرام » تفاخرا ، إذ للاهرام عند الأوربيين صيت ذائع . . ولم تمض ساعة حتى دُحر المماليك رغم استبسالهم ، وكادوا يهلكون قتلا وغرقا في حين أن الفرنسيين لم يخسروا غير عشرة من القتلى وثلاثين جريحا . ويرجع انهزام المماليك إلى أسباب أهمها :

(١) جهل المماليك بأساليب الحرب الحديثة واهمالهم تحصين البلاد وتركهم القلاع التى أنشأها السلاطين المماليك حتى تهدمت ، وحسبنا دليلا على غفلتهم أن قلعة القاهرة لم يكن بها إذ ذاك غير ستة مدافع عتيقة يحشى الواحد منها فى نصف الساعة على الاقل

(٢) لم يجتمع مراد مع ابراهيم فى بولاق ، ولو فعل لاضطرَّ نابليون أن يعبر النهر تحت قذائف جيش المماليك المتحد ، ويعزو المؤرخون عدم اجتماع

خدعوا قائدهم وحسنوا له فتح مصر وبلغ ببعضهم اليأس أن قتل نفسه بين سمع نابليون وبصره،وحدث مرة أن جماعة من الساخطين قالوا لنابليون « هل تريد أن تسير بنا هكذا حتى تبلغ الهند ؟ » فقال « ليس بكم أستطيع أن أبلغ هذه الغاية » . وكانت الجنود تتحسر كلما قارنت بين خيرات ايطاليا ومدنيتها وبين جدب هذه الصحراء وحقارة سكانها

مراد وابراهيم إلى وقوع التنافس بينهما وافتقار كل منهما إلى الثقة بصاحبه

(٣) فساد نفوس المماليك[1]

(٤) لم يحاول مراد أن ينقض على الفرنسيين وهم يجتازون الصحراء متعبين ساخطين ، ولم يحاول أن يحول بينهم وبين الماء

وطارد ديزيه (Désaix) مراد فى الصعيد ، أما نابليون فبعد أن دخل القاهرة خرج يتعقب ابراهيم حتى أدخله أرض الشام .

نابليون والشعب المصري بعد الواقعة : فر مراد وابراهيم تاركين أهل القاهرة عزّلا أمام جيش فاتح . فكان شعورهم بالطبيعة أول الأمر شعور فزع ورَهَب حتي هاجر كثير منهم فى جوف الليل بنسائهم وأطفالهم وانتهز اللصوص هذه الفرصة وسلبوا المنازل والحوانيت ، واجتمع علماء الأزهر وتداولوا فاجمعوا أمرهم على أن يوفدوا إلى قاهرهم من يلتمس الصلح منه ، فاحسن نابليون مقابلة وفدهم وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم ، وعبر نابليون وجيشه النهر وسكن هو منزل محمد الألفى بك على شاطىء الأزبكية (حديقة الأزبكية الآن) .

وقرّب نابليون العلماء وكان يزور[2] الأزهر، وذلك حتى يرضى المصريون عنه

---

(١) يقول الجبرتى « لكن الأجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة أراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم »

ولما هزم المماليك فى امبابه غنم الفرنسيون منهم رياشا أنيقا وسجاجيد فخمة وصحافا من فضة وأشياء أخرى كثيرة

(٢) كان يلبس القفطان والعمامة ويجلس بين العلماء فى الأزهر خاشعا خانعا ويظهر إجلاله العظيم للنبى صلى الله عليه وسلم وأمر أن يرسم تصميم لمسجد يسع جيشه كله ليشهد أمام الجيش بأن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وقال للعلماء مرة « الحمد لله ولا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنا صديق محمد وأمجد القرآن

وجمع نابليون العلماء وأمرهم أن ينتخبوا من بينهم تسعة يتألف منهم « الديوان » لحكم البلاد ، ففعلوا [1] (٢٥ يوليه ١٧٩٨) واختار التسعة أحدهم الشيخ عبد الله الشرقاوى ليكون رئيسا عليهم ، واختاروا (من غير أعضاء الديوان) الشيخ محمد المهدى سكرتيراً [2] وأهمية إنشاء هذا الديوان مزدوجة : فهو يعتبر فاتحة السلطة النيابية فى مصر (وإن لم تكن له سلطة قطعية)، وهو فى الوقت عينه قد جعل للمصريين لأول مرة منذ حكم المماليك صوتا فى حكم بلادهم : كل ذلك حتى يرضى الشعب المصرى عن الفرنسيين .

بعض اصلاحات نابليون وأعماله : أنشا فى كل مديرية ديوانا (مجلسا) ينظر فى شؤونها وأنشأ المجمع العلمى المصرى على مثال المجمع العلمى الفرنسى الذى هو عضو فيه واختار [3] رجاله من العلماء الذين رافقوا الحملة : وقد خدم المجمع العلم خدمة كبرى

ونظّم نابليون القضاء والمالية ، ولمّا كان فى حاجة إلى المال وضع ضرائب على المواريث والتركات وتسجيل العقود والممتلكات والمواليد والوفيات ، وفرض على المسافرين من بلد إلى آخر مغارم لابد من دفعها ، كما فرض على مختلف الطبقات [4] قروضا إجبارية ، وفرضها كذلك على نساء

وغاية ماتصبو إليه نفسى أن أزور قبر النبى وأقدسه فى مكة المقدسة (اقرأ ص ٧١ و٤٢١ و٤٢٢ و٤٢٣ من فتح مصر للأستاذ حافظ عوض بك)

(١) أمر نابليون مصورى الحملة أن يصوروا أعضاء الديوان ففعلوا ،ولا تزال صورهم فى متحف فرساى

(٢) يقول الجبرتى إن أعضاء الديوان عشرة مع أن أمر نابليون بتأسيسه ينص على أنهم تسعة ، وتفسير ذلك أن الجبرتى يعتبر السكرتير عضوا مع أن الأمر يقضى بأن ينتخب الديوان سكرتيره من غير أعضائه

(٣) كان رئيس المجمع العالم الرياضى الأستاذ مونج (Monge) ووكيله نابليون .

(٤) فرض على التجار ٥٠٠ ألف ريال وعلى الأقباط الذين يحصلون الضرائب ١٠٠ ألف ريال وتجار الفاكهة ٦٠٠٠ ريال والسقائين ١٥٠٠٠ ريال (الخ) . وذلك فى وقت تعانى فيه البلاد عسرا شديدا

المماليك [1] . وأخرج الخلق من بيوتهم لا سيما فى حى القلعة بحجة تحصينها ، وبدأ يحصن القاهرة فهدم فى سبيل ذلك بعض أبواب الحارات وبعض المساجد والآثار وأمر الناس بالكنس والرش ووضع المصابيح على المنازل .

وقعة بوقير البحرية (أغسطس ١٧٩٨)

بينما نابليون يُجِدّ فى أعماله ومنشآته إذ عثر نلسن ذو العين الواحدة والذراع الواحدة على أسطول الفرنسيين فى خليج بوقير ونشبت بين الأسطولين معركة تطاير شررها حتى رآها أهل رشيد . وقضت على الأسطول الفرنسى حتى لم ينج منه من الغرق والحريق إلا أربع سفن [2] وجُرح نلسن وقُتل بروى

ولقد كان لهذه الواقعة آثار هامة منها : —

(١) قضت على أسطول فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط فقضت على نفوذهم فيه ، وضياع هذا الأسطول هو العامل الأكبر على فشل الحملة

(٢) قطعت سبيل الاتصال بين نابليون وفرنسا وهذا شجع أعداء فرنسا على تكوين التحالف الدولى الثانى ضدها .

(٣) أصبح نابليون محصوراً فى مصر فاعتزم أن يجعل مصر دار إقامة

---

(١) دفعت (الست) نفيسة المرادية زوجة مراد بك وحدها نحو ٦٠٠ ألف فرنك

(٢) لم ينج إلا السفن الأربع التى فرت من الميدان بقيادة فلنوف أما الباقى فقد احترق بعضه وغرق البعض الآخر ، وغنم الانجليز ست سفن ضموها إلى أسطولهم وغرق وقتل من الفرنسيين نحو ٤٠٠٠ ولم ينج من بحارة الأسطول إلا ٣٠٠٠ وخسر الانجليز ٢٨١ قتيلا و ٦٧٨ جريحا وقتل بروى وهو على سفينته (لوريان) وهى تحترق ولم يشأ أن ينقل منها ، وجرح نلسن وانهدل جلد جبهته على وجهه فرفعه إليها بيده وهو يلقى الأوامر ، ولا ننسى إذا ما ذكرنا هذه الوقعة ذكر الفتى كازابيانكا الفرنسى الذى أمره أبوه أن يثبت فى مكان خصصه له فوقف فيه والمركب يحترق حتى قضى ضحية الطاعة والوطن .

بعد ان كان يريدها مستعمرة من مستعمرات فرنسا فحسب ، لهذا نراه يحبب إلى قواده ورجاله البقاء فى مصر ويشجعهم على احتمال الكارثة، ويقول لهم إنهم جديرون بالقيام بأمور أعظم مما قاموا بها حتي ذلك الوقت ، وينشىء مدرسة لتعليم أولادهم ومسرحا ومستشفى وجريدتين ومعامل للأسلحة والبنّ (الأقمشة) والورق (الخ) ويُجدّ فى تحصين القاهرة والموانىء، كذلك تراه يسعى فى خطب ود الاتراك ويبالغ فى التودد إلى المصريين كأن يشترك فى حفلاتهم (كحفلة وفاء النيل والاحتفال بالمولد النبوى ويقول الجبرتى إنه أرسل الطبلخانة الكبرى ، اى الجوقة الموسيقية الفرنسية ، إلى دار السيد البكرى إحتفالا بهذا العيد) غير أن المصريين والاتراك لم يحققوا أحلامه وآماله فالمصريون قاموا بثورة ، والاتراك تحالفوا مع الانجليز على قتاله

ثورة القاهرة و الاقاليم : كانت روح الاستياء متسلطة على نفوس المصريين رغم تودد نابليون اليهم[1] ويرجع الاستياء إلى أسباب أهمها : —

(١) كان الفرنسيون يحسون من المصريين سخطا عليهم وتبرما بهم رغم توددهم لهم فيلجئون أحيانا للشدة ليدخلوا الرهبة[2] على قلوبهم فمن ذلك أنهم ضبطوا كتاب ولاء كان قد بعث به السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية إلى مرادبك فقتل الفرنسيون الحاكم ولم يقبلوا فيه شفاعة وطافوا[3] برأسه

(١) يتجلى ذلك من أن الفرنسيين باحتفالهم بعيد جمهوريتهم فى ٢٢ سبتمبر أقاموا سارية عالية وسط الازبكية قال عنها نقولا الترك « ان الفرنساويين يسمونه (أى الصارى) شجرة الحرية ، أما نحن فنقول ان هذا إشارة إلى الخازوق الذى أدخلوه فينا باستيلائهم على مملكتنا »

(٢) يدل على ذلك ما جاء فى خطاب من نابليون للجنرال زايونشك قومندان المنوفية «إنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة وآمر أن يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، وهذه هى الطريقة الوحيدة لاخضاع هؤلاء الناس »

(٣) أصدر نابليون أمره فى ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ باعدامه رمياً بالرصاص وخوله حق افتداء نفسه ب ١٣٫٠٠٠ ريال فى أربع وعشرين ساعة فلم يقبل السيد

فى القاهرة وعليها هـذه الكتابة «هذا جزاء الخائن»

(٢) فرض الفرنسيون على المصريين ضرائب شتى وقروضا اجبارية فشعر المصريون انهم خرجوا من ظلم فوضى فى عهد المماليك إلى ظلم منظم فى عهد الفرنسيين

(٣) هدم الفرنسيون كثيراً من أبواب الحارات فارتاب المصريون فيهم وتوقعوا شرا يُراد بهم

(٤) اعتبر المصريون الكنس والرش والنور تدخلا فى شؤونهم الشخصية[1]

(٥) كان المصريون يختلفون عن الفرنسيين في الدين واللغة والعادات وهذا جعل التفاهم بين الفريقين أمراً عسيراً أو مستحيلا : فالمصريون غالبهم من المسلمين الذين يعطفون على سلطان العثمانيين لأنه خليفة رسول الله ، ويكرهون الفرنسيين لاعتدائهم على مُلكه . وأذكى المماليك نار تلك العاطفة الدينية فى قلوبهم بمنشورات أذاعوها بينهم سرًّا يحرضونهم فيها على قتال الفرنسيين الكفار . وزادها ضراما تهديم الفرنسيين بعض المساجد ، وقطعهم أرزاق الأوقاف عن مستحقيها وتسليمها لغير المسلمين ، واباحتهم المسكرات والحشيش فى المقاهى ودخولهم بيوت النساء بحجة البحث عن السلاح وغرضهم على الحقيقة سلب عرض أو مال .

لكل هذه الأسباب تجمع السخط فى نفوس الناس وقام العلماء والمستنيرون يعملون للثورة ويدعون لها حتى من فوق المآذن[2] وكان

محمد كريم وكان ثريا قادراً على الدفع فسأله المستشرق فانتور Venture فى ذلك فقال « إذا كان مقدراً على أن أموت فلا يعصمنى من الموت دفع هذا المال ، وإذا كان مقدراً لى الحياة فلم أدفعه ؟ » ، وتقدم إلى الاعدام رابط الجأش

(١) لقد كانوا يقولون أنهم ليسوا من القذارة حتى يتدخل الفرنسيون فى شؤونهم وإن الصحة إنما يرزقها الله من يشاء بقطع النظر عن النظافة أو القذارة

(٢) حملة مصر ، الجزء الثالث ، دى لاجونكيير

الأزهر مركز هذه الدعوة ، وشجع الثائرين انهزامُ الفرنسيين فى واقعة بوقير ، وخرج المصريون فى القاهرة فى ٢٢ أكتوبر خروجا عاما [١] لم يتوقعه أحد من ذلك الشعب الوديع الهادىء ، فجاء خروجه دليلا على انبثاق تلك الروح القومية التى تأبى الخضوع لفاتح أو قاهر .

وقتل الثائرون كثيراً من الفرنسيين وكان أشدهم فتكا أهل الحسينية، إذ كان غالبهم من القصابين الذين ألفوا منظر الدماء ، ولكن نابليون نصب مدافعه على ربا المقطم وصوبها على الأزهر وما جاوره من المساكن [٢]. حتى أخلد المصريون إلى السكينة ، ودخلت طائفة من الفرنسيين الأزهر بخيولها وكسرت مصابيحه وأزالت بعض ما كتب على جُدُره من الآيات الكريمة وجعلته مربطا لخيولها [٣] ولم يُطهَّر الجامع الكريم إلا بعد أن مثَل بين يدى نابليون وفد من العلماء يعتذر عما فرط من قومهم ، وسرت الثورة إلى الأقاليم [٤] وقام الفرنسيون يسرفون فى الإرهاب وإراقة

---

(١) وصف الجبرتى الثورة بقوله : «كثر اللغط وبجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم ، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية ولهم صياح عظيم وهول جسيم فذهبوا إلى بيت القاضى وتجمعوا ، وتبعهم نحو الألف أو الأكثر ، وهدموا الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ليعوق هجوم العدو فى وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس»

(٢) يقول الجبرتى « ولما سقط عليهم القنبر ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم قد عاينوه ، نادوا يا سلام من هذه الآلام ، يا خفى الالطاف، نجنا مما نخاف »

(٣) ويقول الجبرتى « ... ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها . . . وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه . . . ومن ثيابه أخرجوه »

(٤) يجب أن لا ننسى اسم سليمان الشوارلى فى هذه الثورة فقد هرع الى القاهرة فى كثير من عربان قليوب لنصرة الثائرين ، وقاتل قتالا شديدا ولكن الفرنسيين قتلوه بعد أن ترك لأسرته تاريخا يتحدث الناس به

الدماء[1] حتى بعد إخماد الثورة .

وهكذا تغلبت القوة الغاشمة مرة ثانية على شعب أعزل ، ولكنها قضت إلى الأبد على آمال نابليون فى اكتساب قلوب ذلك الشعب .

أثر الثورة : لقد بات نابليون بعد هذه الثورة يحذر المصريين وبدأ يعاملهم بالقسوة : فمن ذلك أنه نصّب أحد الأروام المسمى « برطلمان » وكيلا لحاكم القاهرة فقسا على الناس فى القاهرة وفى الأقاليم أيضا ، ويسميه العامة « فرط الرمان » تحريفا . كذلك عاقب نابليون العلماء بأن منعهم المناقشة فى الديوان ولم يُبق لهم إلا إمضاء المنشورات ليسكن الشعب بها ، ثم ألغى الديوان . وبدأ يحيط القاهرة بسلسلة من القلاع[2] لينزل الرهب فى قلوب أهلها

نابليون يعود إلى محاسنة المصريين : اضطر نابليون أن يتخلى عن سياسة الارهاب لأمرين : —

(أولهما) أن الارهاب قد أدى إلى كساد التجارة ووقوف دولاب العمل ، حتى شح المال وافقرت خزانة الحكومة والجيش

(وثانيهما) علم نابليون أن تركيا تستعد لقتاله ، فرأى من الحكمة أن يترضى المصريين حتى لا يخرجوا عليه مرة أخرى وهو مشغول بقتال تركيا .

لهذا أعاد الديوان فى أسلوب جديد ، إذ جعله مؤلفا من هيئتين هما : —

(١) الديوان العمومى (أو الكبير) ويتألف من ستين عضوا عيّنهم

---

(١) يقدر نابليون من قتل فى هذه الثورة من المصريين بألفين أو ألفين وخمسمائة ويقدر ريبو الضحايا بأربعة آلاف فى حين ان الفرنسيين لم يخسروا غير ٢٠٠ قتيل ويقول المسيو بورين كاتم سر نابليون ان المسجونين كانوا يساقون إلى القلعة ، وكان يقتل منهم إثنا عشر سجينا كل ليلة وتوضع جثثهم فى (زكائب) وتغرق فى النيل واستمر ذلك ليالى عديدة وكان من بين الضحايا كثير من النساء !!

(٢) بلغت الحصون التى أنشئت فى القاهرة ١٩

الفرنسيون تعيينا من بين المصريين (علمائهم وأعيانهم وممثلي طبقاتهم) ومن الاجانب أيضا [1]

(٢) الديوان الخصوصي (أوالدائم — أو الديمومى كما يسميه الجبرتى — وسمى بالدائم لأنه يجتمع كل يوم لمعاونة الحكومة)، وهو مؤلف من أربعة عشر عضوا يختارهم الديوان العمومى من بين أعضائه

حملة نابليون على الشأم : كانت تركيا صديقة فرنسا منذ عهد سليمان القانوني وفرنسوا الاول . وتكدر الصفاء بين البلدين لما غزا نابليون مصر ، وسعت انجلترا فى ضم تركيا إلى جانبها . فترددت هذه طويلا لأن الفرنسيين ملئوا الارض انهم انما يحاربون المماليك لا السلطان وانهم يحترمون الاسلام ، ولكن حدثت وقعة بوقير البحرية فدفعت بتركيا من ترددها فانضمت إلى التحالف [2] الدولى الثانى ضد فرنسا ، واستولى المتحالفون على مالطة وجزائر الايونيان

وشرعت الدولة العثمانية فى إعداد جيشين تسوقهما على الفرنسيين فى مصر فى وقت واحد : الأول يغزوها من جهة الشام بقيادة أحمد باشا الجزار [3] والى عكا ، والثانى يتجمع فى جزيرة رودس ومنها ينقله الاسطول

---

(١) تألف هذا الديوان من ١٤ من العلماء والمشايخ و ٢٦ من التجار والصناع و ١١ من رجال العسكرية و٢ من مشايخ الأخطاط و ٤ من الأقباط و٣ من الأجانب

(٢) كان هذا التحالف مكونا من انجلترا وروسيا والنمسا وتركيا وبعض أمراء ألمانيا . وملك نابلى وملك بيدمنت (الخ)

(٣) أصله من بلاد البوسنة وخدم بعض الولاة والمماليك فى مصر ثم صار تابعا لعلى بك الكبير فقلده كشوفية (أى وكالة مديرية) البحيرة ، وقسا على أهلها حتى لقب بالجزار ، ثم صار حاكما على عكا من قبل الدولة العثمانية وسيطر على كل فلسطين، وكثيراً ماعصى السلطان ، وأمره السلطان بطرد الفرنسيين من مصر ، ليتخلص منه أو منهم ، وكان الجزار جبارا غضب مرة على وزرائه فقطع أنف البعض وصلم أذن البعض الآخر

الانجليزى إلى سواحل مصر ، ولـكن ساء التدبير إذ وصل الجيش الاول إلى العريش قبل أن يبحر الثانى الى مصر فاستطاع نابليون أن يقابل كلا منهما على حدة .

وسارع نابليون إلى الشام ، ولم ينتظر مجيء جيش الجزار إلى مصر لأسباب أهمها : —

(١) كانت خطة نابليون فى حروبه تنطوى دائما على السرعة فى مباغتة عدوه

(٢) إن تريثه حتى يبلغ الجزار مصر يسقط هيبته في أعين المصريين ، و يجدد الأمل فى نفوس هؤلاء للتخلص منه

(٣) أراد أن يمنع السفن الانجليزية من التزود من ثغور الشام .

وقبل أن يغادر مصر أصدر منشورات ذكر فيها أنه خارج لقتال فلول المماليك لا ليقاتل السلطان ، وذلك ليوهم المصريين أن السلطان لا يزال حافظا ود الفرنسيين ، واختار جماعة من علماء[1] مصر ليرافقوه فى خرجته ارضاء للمصريين عامة والمسلمين خاصة

وانتزع العريش من العثمانيين ، وأخلى سبيل ١٥٠٠ من حاميتها بعد أن أقسموا له بشرفهم العسكرى ألا يحاربوه قط فى سورية (ولـكنهم بعد أن يمموا دمشق ولوا وجوههم شطر يافا لمحاربته) ، ثم استولى نابليون على غزة ، ثم افتتح يافا عنوة فى ٣ مارس سنة ١٧٩٩ ، وقتل حاميتها[2]

---

(١) منهم الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان الخصوصى والشيخ محمد المهدى كاتم سر ذلك الديوان

(٢) لما بلغ نابليون يافا أوفد ضابطا يحمل راية السلام يرافقه أحد الأدلاء ، ودعا الضابط رجال الحامية الى التسليم فقطعوا رأسه ورأس صاحبه وعلقوهما على المزاريق فوق أحد أبراج المدينة ، فحنق نابليون حنقا شديدا ، وحمل على المدينة حتى افتتحها ، وتحصن بعض حاميتها فى بعض دورها ولما ضيق الفرنسيون عليهم الخناق استأمنوهم فأمنهم الضابطان بوهارنيه Beauharnais وكروازييه Croisier وساقاهم أسرى إلى نابليون وكانوا نحو ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ وقالا له «هاهى حامية المدينة

بعد أن أمنها بعض ضباطه ، فكان غدره وصمة فى جبينه . وسببا من أسباب فشله فى حملته لأن أعداءه ضاعفوا جهودهم حتى لا يقعوا فى يده فيصيبهم ما أصاب حامية يافا

وزحف نابليون على عكا بعد أن أرسل إلى سفنه التى نجت من كارثة بوقير ، والراسية فى دمياط ، أن توافيه إلى الشام تحمل اليه مدافع الحصار . ولكن سير سدنى سمث (قائد الاسطول الانجليزى فى شرقى البحر الابيض) باغت بعض هذه السفن واقتادها أسيرة الى عكا فاستخدم الجزار هذه المدافع فى محاربة الفرنسيين ، وبلغ نابليون عكا والقى عليها الحصار فدافع عنها أبطال ثلاثة هم : احمد الجزار واليها الجرىء وسير سدنى سمث والكولونيل فيليبو Philipeaux وهو ضابط من ضباط المدفعية وكان زميلا ومنافسا لنابليون فى المدرسة وصار من المهاجرين الذين يكيدون للثورة الفرنسية وقد جاء به سير سدنى سمث كما جاء بكثير غيره من المهاجرين لافساد دخيلة الساخطين من رجال نابليون ، وكان فيليبو من أكبر مهندسى الحروب فساعد على تحصين المدينة .

وجاء العثمانيون لنجدة المدينة فدحرهم الفرنسيون فى واقعة تل طابور فى ابريل ١٧٩٩ ودام حصار عكا ٦٢ يوما ، وهجم نابليون هجمة هائلة

قد سلمت وقد جئنا بها اليك » فقال « وماذا أفعل بهذا القدر ؟ ألديكم من الزاد ما يكفيهم أو من السفن ما ينقلهم الى مصر أو فرنسا ؟ واذا ما أرسلناهم فى البر فمن يتولى حراستهم » فقالا « اننا قد أمناهم حقنا للدماء » فقال : « لكم أن تفعلوا مثل ذلك ولكن مع الأطفال والنساء والشيوخ ، وليس مع هذا القدر من الرجال الاشداء المسلحين » وأمر بالاسرى فصفوا على شاطىء البحر وأعدموا رميا بالرصاص وتلك وصمة فى جبينه ويعتذر عنها بانه قد احتوته الحيرة فى أمرهم وأنه لمح من بينهم جنوداً قد عاهدوه على الحيدة فى العريش ثم حنثوا بعهودهم . ويقول فيما بعد إن الدوق ولنجتن وهو من أشرف القواد كان يفعل ما فعل لو وجد فى مثل ظرفه : تلك أعذاره يقولها للتاريخ ولكن الانسانية لا تنصت اليها

اقتحم بها أسوار المدينة وكانت الهجمة الرابعة عشرة ودخل المدينة فوجد بيوتها محصنة وشوارعها تعترضها المتاريس فقنط من فتحها ، وتخلى عن مشروع فتح الشام

ويرجع فشل نابليون فى عكا الى الأسباب الآتية :

(١) كانت سيادة الانجليز على البحر الابيض السبب الاكبر فى امتناع عكا عليه فالاسطول الانجليزى هو الذى أوصل الى المدينة من جهة البحر ما تطلبته من ذخائر ومؤن ، وهو الذى اقتنص مدافع الحصار فى البحر وكانت ضرورية للحصار

(٢) كان الدفاع عن المدينة يشرف عليه اوربيان هما فيلبو وسمث وهما لايقلان كثيراً عن نابليون في الخبرة بفنون الحرب ، هذا الى أن نابليون قد غرّه حسن طالعه فلم يحكم خطة الهجوم والحصار [1]

(٣) استماتة الجزار وجنوده فى الدفاع حتى لايصيبهم ما أصاب حامية يافا من قبل [2] ، والمساعدة القيمة التى قدمتها الدولة العلية للمدينة من جهة البر

(٤) نصب سدنى سمث لنابليون مكائد منها : أنه أرسل الى المسيحيين فى الشام بعض منشورات نابليون التى نشرها على المصريين والتى يقول فيها إنه قوّض أركان الدين المسيحى وزعزع عرش البابا . فنقموا عليه ومنعوه الخمور والبارود ، فلا عجب إذن أن يقول نابليون عن سدنى سمث « لقد حال هذا الرجل بيني وبين آمالى »

(٥) فشا الطاعون فى الجيش فشوًّا مروّعا ، ولما كانت عكا حصنا منيعا

---

(١) قال كليبر « اننا هاجمنا عكا على الطريقة التركية فى حين ان الدفاع عنها كان على الطريقة الفرنسية »

(٢) قال ريبو فى كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية « . . . . وحصد نابليون تحت أسوار عكا ماغرسه على شاطىء يافا »

لايستطيع نابليون بحال أن يوالى زحفه بغير أن يفتحه ، أمر بالرجوع الى مصر [١]

وكان لفشل نابليون في عكا آثار هامة هى :

(١) كان نابليون يحلم وهو يحاصر عكا بالزحف على الآستانة وانشاء امبراطورية فى الشرق تزينها بلاد الهند فدُفن ذلك الحلم الجميل تحت أسوار عكا

(٢) لقد كان لعكا أثر كبير فى مصير شعوب الشرق إذ لولا مقاومتها لصار من المحتمل جداً تغلب نابليون على شعوب الدولة العثمانية واقتحامه بلاد الهند

(٣) تضعضعت هيبة فرنسا فى نظر الشرقيين عامة والمصريين خاصة وأدركوا أن فى نفوسهم قوة كامنة تكتسح الظالمين .

ورجع نابليون من حملته الخاسرة ولم يحتل بلدا ، ولم يترك فى الشأم جميعه جنديا واحدا من جنوده وجاهد في ايهام المصريين [٢] ، أنه تغلب

---

(١) إنا لانزال نضرب المثل بعكا وامتناعها فنقول للرجل تحقيراً لما عمل « يعنى هو انت فتحت عكا »

(٢) أرسل فى ١٦ مايو رسالة الى الديوان ذكر فيها أنه هدم دار الجزار بعكا وخرب البلد بقنابله وأن أهلها فروا الى البحر وأن الجزار مشرف على الموت لجراح بالغة أصابته غير أن هذه الرسالة لم يصدقها أحد فقد سبقها صحيح الاخبار وأعد الفرنسيون لاستقباله فى القاهرة احتفالا كبيراً وزينوا له المدينة ودخلها جنوده صفوفا منفردة ليوهم المصريين انه لم يخسر كثيرا من رجاله ويقول المسيو جومار عضو المجمع العلمى المصرى انه شهد هذا الموكب « ورأى دخول الجنود مستمرا طول النهار ، لأن نابليون أمر أن يدخل الجنود من باب ويخرجون من باب آخر ثم يدخلون ثانيا من الباب الاول وذلك ليؤثر فى نفسية الشعب الذى كان يتحرش بالفرنسيين فى أثناء حصار عكا » . ويؤسفنا جد الاسف أن نذكر ان بعض كبار مصر قدموا إلى نابليون الهدايا تزلفا ومن هؤلاء الشيخ خليل البكرى سليل أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقد قدم الى قاهر بلاده جوادا عربيا يقوده مملوك يسمى رستم وهدايا أخرى

على أعدائه فلم يلق فى ذلك نجاحا وبلغ العريش فى ٢ يونيه ، ولاقى فى رجوعه مصائب واهوالا [١]

وقعة ابوقير البرية ٢٥ يوليه ١٧٩٩ : ما كاد نابليون يلقى عصا الترحال فى مصر حتى وافاه النبأ بوصول العمارة العثمانية وإنزالها ١٠٠٠٠ من الجنود فى بوقير (١٣ يونية ١٧٩٩) فسارع نابليون إليهم فى كافة جيشه وقهرهم وأسر قائدهم المشير كوسه لى مصطفى باشا فى ٢٥ يوليه ، وغرق منهم عدد هائل وهم يلتمسون الفرار ، وكان السير سدنى سمث فى البر مع طائفة من ضباط الانجليز بوصف كونهم أركان حرب للمشير مصطفى باشا ، ولما رأى الهزيمة فى الجيش العثمانى وبعد أن كاد يقع أسيراً فى يد الفرنسيين أسرع فى النزول فى قاربه ليلحق بسفينته ، ويذكر الفرنسيون أن من بين العثمانيين الذين رموا بأنفسهم فى الماء فرارا من القتل جندي كاد يغرق لولا أن انتشله سير سدنى سمث ، وهذا الجندى هو محمد على عزيز مصر وبطلها الاكبر فيما بعد

وكان لانتصار نابليون فى وقعة بوقير البرية أثر كبير إذ محا من عقول أهل فرنسا ذكرى كارثة بوقير البحرية ، فاستطاع نابليون احداث الانقلاب الذى أحدثه فى حكومة فرنسا بعد مغادرته مصر

---

(١) كان رجوعه صورة مصغرة لانسحابه من موسكو (١٨١٢) إذ ناب فى هذا الرجوع العطش والقيظ مناب الثلج والزمهرير فى روسيا ، وإن ما اختطفه الطاعون من جنوده يذكرنا بما اختطفه القوزاق ممن تخلف من رجاله ، وركب الاصحاء نعالهم وتركوا للجرحى والمرضى دوابهم ، كذلك قذفوا بمدافعهم فى اليم أو أتلفوها وألقوها بين الرمال ليستخدموا عرباتها فى حمل العاجزين عن السير . ويروى أن نابليون مر بيافا فوجد بعض المرضى قد تركهم فيها وهو متوغل فى الشام ، ووجدهم لا يقوون على السير وخاف أن يغدر الجزار بهم كما غدر هو برجاله من قبل فطلب إلى الأطباء أن يجرعوهم السم فقال كبير الأطباء « لا يا سيدى ان عملنا الابراء لا القتل » . وبلغ الفرنسيون العريش فى ٢ يونيه وقد اشتد بهم القيظ وكان فى الماء الذى يشربونه علق يعلق بحلوقهم فيعذبهم عذابا أليما .



رجوع نابليون من الشام

رحيل نابليون إلى فرنسا : أرسل نابليون فى اليوم التالى للواقعة ضابطين الى سمث فى سفينته (تيجر Tiger) ليفاوضاه فى تبادل الاسرى فأحسن سمث ملقى الضابطين وقدم لهما طائفة[1] من الصحف الانجليزية والفرنسية علم منها نابليون أن التحالف الثانى قد تكوّن فى أوربا ضد فرنسا وهزمها فاعتزم الرحيل إلى فرنسا سرا . وذلك لأنه رأى أن انقاذ فرنسا أهم بكثير من توطيد سلطانها فى مصر[2] وانه رغم فوزه فى بوقير لا أمل له

(١) لعل سمث قدم الصحف للضابطين ليعرف نابليون منها أن التحالف الدولى الثانى قد تألف ، وأن الهزيمة باتت فى فرنسا ، فيسرع لنجدتها ، فيجلو بذلك عن مصر ، وهذا ما ترغب انجلترا فيه ، أو ليطوح بنفسه فى البحر فيباغته سمث ، وقد يكون تقديم الصحف مجرد مجامله كثيرا ما قدمها قائد لآخر فى وقت الحرب

(٢) قال لبوريين Bourienne كاتم سره بعد اطلاعه على الصحف «لقد حدث ما كنت أخشاه ، لقد حسر اولئك البلهاء إيطاليا ، وذهبت انتصاراتنا أدراج الرياح فلا بد من مغادرة مصر فى الحال »



كليبر

فى انشاء أمبراطورية كبرى فى الشرق بعد إخفاقه فى عكا ، وأن الغرب قد أصبح المجال الذى يأمل فيه المجد والسلطان . وعاد إلى القاهرة وظل فيها سبعة أيام ثم غادرها [1] إلى الوجه البحرى ثم الى الاسكندرية . وهناك كتب إلى كليبر [2] (Klèber) يعهد إليه قيادة الحملة بعده لكفاية يعرفها

---

(١) وتباحث نابليون وهو لا يزال بالاسكندرية مع الأميرال غانتوم وقر الرأى على أن يكون الرحيل على بارجتين بحارتهما ما بين ٤٠٠و٥٠٠ ثم رجع الى القاهرة ليوهم سمث أنه معتزم البقاء فى مصر ، وليأخذ معه من رجاله من أراد ، وقابله أعيان القاهرة بالموسيقى ! ! وظل فى القاهرة أسبوعا واحداً ، ثم كتب إلى الديوان خطابا يقول فيه إنه مسافر إلى منوف وغيرها من جهات الوجه البحرى ليقف على المظالم بنفسه ، وقصده بذلك الخطاب الايهام حتى لا يفطن أحد إلى رغبته فى الرحيل

(٢) ولد كليبر فى مدينة ستراسبورج عاصمة الالزاس ، وكان منظره أقرب إلى الألمان منه إلى الفرنسيين ، وأبان فى حروب الثورة الفرنسية عن كفاية ودراية ، وعرف بالصراحة والاقدام ، وامتاز بالنزاهة وعلو النفس

فيه ، ولم يقو على مقابلته قبل الرحيل لانه كان القائد الوحيد الذى يجرؤ على الاعتراض على أعماله . ثم رحل نابليون ورمقته العناية حتى بلغ فرنسا سالما

دهش الناس لرحيل نابليون . وغضب كليبر غضبا شديداً ولم يغتبط بمنصبه الجديد لأسباب هى : —

(١) فقد الجيش الفرنسى نحوا من ثلثه من جراء المعارك والأمراض والمتاعب ، والباقون منه يتبرمون بالبقاء في مصر لتحرج الحال المالية ولتأخر مرتباتهم من جهة ، ولانقطاع الصلة بينهم وبين بلادهم من جهة أخرى ،

(٢) كان الفرنسيون يعيشون وسط أمة معادية لهم تتحفز دائما للخروج عليهم (١)

(٣) كان الانجليز والأتراك يعدون العدة لمعاودة القتال ، أما المماليك فكانوا يقاتلون الفرنسيين فعلا

معاهدة العريش (يناير سنة ١٨٠٠) . أزاء تلك الظروف المقلقة لم ير كليبر بُدا من أن يسعى للخروج من مصر بغير أن يلحق عارا ببلاده وشرفه ورأى غالبُ الجنود والعلماء ما رآه ، واستخدم المشيرَ كوسه لى مصطفى باشا فى عرض الصلح على الصدر الاعظم (وكان هذا قد بلغ العريش على رأس جيش جديد) واشترك السير سدنى سمث فى المفاوضة لا كطرف ثالث بل كوسيط (٢) ولم يكن تدخله رسميا ولا بأمر حكومته ، وحدثت المفاوضة فى سفينته وسعى سمث سعيه فى انجاح المفاوضة حتى يترك الفرنسيون مصر بغير قتال ، فقد رأى أن ليس فى مقدور تركيا بمفردها

---

(١) يقول المسيو بوسيليج عن المصريين فى تقرير إلى حكومة الادارة فى فرنسا « . . . إنهم يمقتون حكم المماليك ، ويرهبون نير الاستانة ولا يحبون حكمها ، ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه إلا بأمل التخلص منه »

(٢) يريد بذلك ألا يتقيد بشىء حتى لا يقيد حكومته

أن تطرد الفرنسيين وأن لانجلترا من مشاغل أوربة وحروبها فيها ما يحول دون تقديمها المساعدة الكافية لتركيا. ووقع الفرنسيون والاتراك على اتفاقية العريش (يناير ١٨٠٠) وهى تقضى بجلاء الجنود الفرنسية عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم وأثقالهم، وإقلاعهم على السفن الفرنسية والسفن التي تعدها الحكومة العثمانية

وارتاح الفرنسيون والأتراك والمصريون لهذه الاتفاقية وشرعوا فى تنفيذها وعاد المماليك إلى القاهرة، ودخل الصدر الأعظم أرض مصر فخرج إليه علماؤها وأعيانها يقدمون فروض التعظيم لجلالة السلطان فى شخص وزيره، غير أن انجلترا لم يرقها الصلح واستنكرت تصرف سمث وأمرته ألا يقبل من الفرنسيين صلحا إلا إذا سلموا أنفسهم بأسلحتهم وأمتعتهم وأثقالهم بوصف كونهم أسرى حرب، ووعدت الاتراك بتقديم مساعدة جدية فى البر والبحر، وإنا ليعرونا الدهش لمسلك انجلترا الغريب فهى ترفض صلحا يوفر عليها ويوفر على الانسانية ماينجم عن هذا الرفض من حرب وثورة واحراق وتدمير، ويوفر على تركيا مجهوداتها فى إخراج الفرنسيين من مصر! ويعزى هذا المسلك الى أمرين (أولهما) أن فى رحيل الجيش الفرنسى من مصر بمهماته إمدادا لجيوش فرنسا في أوربة ويقول فى ذلك جرانفيل الوزير الانجليزى «ان كليبر بجيشه ليضايقنا وهو فى مصر أقل من مضايقته لنا وهو فى أى مكان آخر» (وثانيهما) أن انجلترا تيقنت أنها لابد قاهرة جيش كليبر، لانها سقطت على مذكرة كتبها كليبر الى حكومته يصف فيها سوء حال جيشه ورغبته عن البقاء بمصر

غضب كليبر ونشر على رجاله خطاب الرفض وعلق عليه بهذه الكلمة «أيها الجنود، ليس لنا مانجيب به على هذه الصفاقة الا النصر فهيا الى القتال» ففعلت هذه الكلمة فعلها فى نفوس الجنود حتى أن عشرة آلاف منهم

بطشوا بأربعة أضعافهم من الاتراك عند المطرية (أو عين شمس) فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ وفر الصدر الاعظم برجاله جهة الصالحية

ثورة القاهرة الثانية ٢٠ مارس – ٢١ ابريل ١٨٠٠ : في الوقت الذى اشتبك فيه كليبر بالعثمانيين فى عين شمس ، اندلع لهيب ثورة جديدة فى القاهرة وذلك بتحريض بعض العلماء والاعيان والتجار على رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الاشراف وآزرهم فى ذلك التحريض ابراهيم بك والالفى بك (من المماليك) وبعض كبار الاتراك ، ومنع الثائرون الفرنسيين عن دخول القاهرة بعد فراغهم من معركة عين شمس ، وسرت الثورة إلى الوجه البحرى ونشب بين الفريقين قتال أوضح للعالم تلك النفسية الجديدة التى انبثقت فى مصر فى ذلك الحين ، وتغلبت قوة النار والحديد للمرة الثالثة على ذلك الشعب الاعزل ، فأخمدت ثورة الوجه البحرى فى أوائل ابريل وهدمت أسوار بولاق وأضرمت النار فيها وقاتلت الناس فى الشوارع حتى أكرهتهم على التسليم فى ٢١ ابريل ، وطردت العثمانيين من القاهرة ، وفرضت الغرامات على زعماء الثائرين[1]

وأعجب الأمور موقف مراد ، فما أن وافى النصرُ الفرنسيين فى عين شمس حتى خطب ودهم واتفق معهم على أن يحكم الصعيد مستظلا بحمايتهم ويقول أحد الكتاب الفرنسيين[2] « بعد أن تم التوقيع على معاهدة (كليبر — مراد) أرسل لنا مراد بك المؤن وسلم لنا العثمانيين اللاجئين إلى معسكره ، وسعى لدى أعوانه فى القاهرة لتسليم المدينة ، لكنه رأى أن

---

(١) فرض على سكان القاهرة غرامة قدرها إثنا عشر مليونا من الفرنكات يقدم نصفها نقدا ونصفها عروضا . وفرض عليهم تقديم عشرين الف بندقية وعشرة آلاف سيف وعشرين ألف (طبنجة) ، ودفع كبار الأعيان والعلماء أغلب هذه الغرامة

(٢) المسيو جالان فى كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى)

مسعاه لم يؤد إلى نتيجة سريعة ، فعرض علينا إحراق المدينة ، وأرسل لنا لهذا الغرض المراكب محملة أحطابا »

ومات مراد فى ١٨ ابريل ١٨٠١ وهو لا يزال مواليا للفرنسيين يقدم الخدمات لهم .

وهكذا خُلُق المماليك : لا يهمهم من الدنيا إلا أشباع شهواتهم وارضاء أطماعهم .

مقتل كليبر : كان سليمان الحلبى سورى يطلب العلم فى مصر ، وصمم فى اغتيال كليبر فكمن له فى حديقة داره (١) واغتاله ، ويقال إنه فعل ذلك بايعاز من أحد أغوات الانكشارية فى نظير أن يُعفى أبوه فى حلب من بعض الضرائب (ولكن لم يقم على هذا القول دليل) وقبض على القاتل وحوكم وأعدم على الخازوق ، ودفن كليبر فى القصر العينى ثم حمل رفاته الى فرنسا وقت الجلاء كما حمل هيكل قاتله

مينو : خلف مينو كليبر(٢) إذ كان أقدم القواد ، ولم يكن ذا بصر

---

(١) أصلها دار الألفى بك وموقعها الآن فندق شبرد

(٢) ولد جاك فرنسوا مينو عام ١٧٥٠ من أسرة فرنسية شريفة . وكان عضوا فى الجمعية الأهلية إبان الثورة الفرنسية ومع ذلك فقد انضم إلى نواب الشعب ، ونزل عن رتبة (البارون) وعن امتيازاته ، وعمل من البذاءة على التقرب من نابليون والتزلف له فعطف عليه نابليون ، رغم افتقاره الى النشاط والكفاية ، فهو لم يحسن الركوب ، ولم يكسب موقعة . وكان ينتحل الأعذار أبدا حتى تنتهى المعارك التى يندب لها ، وأسلم فى مصر وتزوج من سيدة مطلقة تدعى زبيدة كريمة السيد محمد البواب احد أعيان رشيد وسمى مينو فى وثيقة الزواج عبد الله باشا مينو ، ورزق من زوجته ولدا سماه سليمان مراد جاك مينو ، وقد نقم الجنود منه كراهيته لكليبر وعدم اجلاله ذكراه وكان لاختياره إسم سليمان يسمى به ابنه أثر سيء فى نفوسهم وغلا بعضهم حتى نسب إليه الاشتراك فى قتل كليبر ، وسموه القائد المضحك ، وقائد الصالونات ، وسخروا منه لزواجه من شابة وهو مسن . ورسم له مصورو هم صورا هزلية منها صورة تمثله (مسرعا) للاسكندرية عند ما هاجمها ابركرومبى (وسيرد ذكره) وهو على ظهر سلحفاة ووراءه قافلة من جمال على إحداها زوجته

بالحروب ولم يكن راغبا فى الجلاء لهذا لم يفز باحترام رجاله ولا برضاهم

وكان كليبر قد أبطل الديوانيين عقب عقد اتفاقية العريش مع الأتراك ولم يعدها حتى قتل ، ولما خلفه مينو أراد أن يتقرب الى المسلمين فأنشأ ديوانا واحدا من تسعة[1] أعضاء، كلهم من المسلمين، وعهد الى المسلمين جباية الخراج بدل القبط ، ونهى القواد عن جباية ضرائب لم تقرر رسميا، وأخذ يبتكر المشروعات المتضاربة وينظم البلاد آملا اتخاذها مستعمرة خالدة

اخراج الفرنسيين من مصر : لقد أظهرت موقعتا بوقير البرية وعين شمس أن الأتراك لن يستطيعوا وحدهم طرد الفرنسيين ، فاعتزم الانجليز أن يشتركوا فى هذا الأمر اشتراكا فعّالا واختطوا بالاتفاق مع تركيا الخطة الآتية :—

(١) تتقدم قوة برية تركية من الشام بقيادة يوسف باشا الصدر الاعظم

(٢) وينزل فى ابو قير جيش تركى انجليزى بقيادة السير رالف ابركرومبى (Abercromby) ويحميه الأسطولان الانجليزى والتركى

(٣) وينزل بالسويس جيش هندى[2]

وجاءت حملة ابركرومبى الى الاسكندرية فى أول مارس ١٨٠١ فعهد مينو الى القائد بليار (Beillard) بالدفاع عن القاهرة . وسار بنصف الجيش الى الاسكندرية ، ولكنه هُزم عند كانوب قرب بوقير وارتد الى الاسكندرية وحوصر فيها . ومات ابركرومبى من جراح أصابته فى الواقعة فتولى القيادة بعده هتشنسن (Hutchinson)

وتقدم الجيش التركى (جيش يوسف باشا) من العريش فسار هتشنسن للانضمام اليه بعد أن وكل الى أحد قواده فتح الاسكندرية ،

(١) منهم الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ هذا العصر

(٢) وصل ذلك الجيش إلى مصر متأخراً فلم يشترك فى الحرب إلا قليلا

واستولى فى طريقه على الرحمانية ثم امبابة ، ووصل يوسف باشا الى مكان يقابله على الشاطىء الشرقى للنيل ، واجتمع القائدان فى معسكر يوسف باشا ورسما خطة العمل ، ولم يحاول بليار صدهما لأنه قدّر ضعفه إزاء قوة الحليفين وتحفز سكان القاهرة للانتقاض عليه ، ورغبة الفرنسيين فى الرجوع الى بلادهم : لذلك أرسل الى الحليفين مندوبا يعرض عليهما تسليم المدينة على شريطة أن تخرج الجيوش الفرنسية من مصر مخفورة إلى فرنسا على نفقتهما فقُبل منه ماعرض (٢٧ يونيه ١٨٠١) واستعد الفرنسيون للجلاء ودعوا الديوان ليعقد « جلسة الوداع » فانعقد فكانت آخر جلسة لهم وجلا الفرنسيون عن القاهرة وتسلمها الانجليز والاتراك[1] ومعهم ابراهيم بك والألفى بك والسيد عمر مكرم .

وعاد هتشنسن الى الاسكندرية وشدد الحصار عليها ، وكان رجاله قد قطعوا الجسر من حولها ، فأحاطها بالماء الملح وأغرق أراضى واسعة ، واشتد الضيق بالفرنسيين فى المدينة وفتكت بهم الأمراض ، وافتقروا إلى الأقوات فأُرغم مينو على التسليم بالشروط التى سلم بها بليار ، ورحل بجنوده الى فرنسا فى ١٨ سبتمبر ١٨٠١ وبذلك تم جلاء الفرنسيين عن مصر بعد أن قضوا فيها ثلاثة أعوام .

ويتضح من شروط التسليم أنها مطابقة لشروط معاهدة العريش ، فكأن الانجليز برفضهم تلك المعاهدة لم يجنوا إلا إراقة الدماء وتدمير المدن واهلاك الحرث والنسل .

وإن السبب فى قبول الانجليز تلك الشروط بعد أن رفضوها من قبل ، ان الحرب الاوربية كانت قد انتهت بصلح لونفيل (فبراير ١٨٠١) ، فرحيل الفرنسيين إلى بلادهم لايلحق ضررا بانجلترا وحلفائها فى أوربة

(١) رأى أحد قواد الانجليز حصون القاهرة فدهش وقال « يخيل إلى أن هذا التسليم أحط عمل سمعت به طول حياتى »

وبعد جلاء الفرنسيين عسكر الانجليز فى الجيزة ، أما الأتراك فماشوا فى القاهرة .

تقدير الحملة : لم تلق الحملة الفرنسية نجاحا من الوجهة الحربية كما رأينا ، وقد قال عنها بعض المؤرخين « انها دليل كاف على روح المغامرة التى أودت بحياة نابليون السياسية » وقال آخر « انها أشد تهورا من حملته على روسيا » وكان العامل الأكبر على فشلها قوة انجلترا فى البحر .

والحملة وإن كانت قد فشلت من وجهة الحرب ، فقد صادفت نجاحا وتوفيقا عظيمين من وجهة العلم فان العلماء الذين رافقوها درسوا شئون مصر الزراعية والصناعية والتجارية والجغرافية والاثرية والادارية والخلقية والصحية ، وبالاجمال كل ناحية من نواحى الحياة فى مصر ، وكفاهم فخرا أنهم أول من كشف الستار عن عظمة مصر القديمة ولفتوا نظر العالم والمصريين أنفسهم الى تلك العظمة وبدءوا دراسة آثارها العظيمة ، وكشفوا كثيرا من المدن والآثار القديمة ، ورسموا لها بالقلم والقرطاس صورا جميلة متقنة ، وعثر بوسار أحد ضباط نابليون على حجر رشيد المعروف فضله فى فك رموز الكتابة الهيروغليفية ، ومن مآثر الفرنسيين فى العلم دراستهم بعض الامراض الخاصة بمصر وطرق علاجها كالرمد . ودرسوا برزخ السويس ، وفحصوا عن مشروع انشاء قناة فيه توصل البحرين ، وكان يرأسهم فى ذلك الفحص مهندسهم الكبير لابير ، وكتبوا فيه تقريرا استعان به دلسبس فيما بعد ، والذى حدا بهم إلى التخلى عن هذا المشروع توهمهم خطأً أن سطح البحر الاحمر أعلى من البحر الابيض بتسعة أمتار ، وأنه يُخشى على الدلتا من الغرق اذا شقت القناة

وقد أمرت الحكومة الفرنسية عام ١٨٠٢ بجمع ابحاث[1] علماء الحملة فى

---

(١) حدث أن هتشنسن أراد اغتصاب أوراق العلماء وأبحاثهم ومقتنياتهم فاستمسكوا بها ، فأصر على أخذها ، فاصروا على رفضهم وهددوه باحراقها أو رميها

مؤلف واحد ، فظهرت في ذلك السِّفر النفيس المسمى « وصف مصر » ويقع فى تسعة عشر جزءاً وظهر فى عشرين عاما

آثار الحملة فى مصر وفى العالم : (١) للحملة الفضل الأكبر فى انهاء العصور الوسطى فى مصر وبدء العصور الحديثة وذلك للأسباب الآتية :

ا : ان الحملة هي التى أثارت فى مصر روح القومية والرغبة فى الاستقلال فقد أثارها نابليون أول الأمر بتذكير المصريين بعظمة أجدادهم وبلادهم ، ثم أثارها كذلك باعتداءاته هو ورجاله على البلاد وأهلها. ويدل على انبعاث تلك الروح وقت الحملة وقوف المصريين وهم عزل في وجه الفاتحين وخروج المعلم يعقوب القبطى على رأس وفد مصرى مع الفرنسيين عند خروجهم وكان غرضه أن يفاوض انجلترا فى استقلال مصر لولا انه قضي فى الطريق

ب : كان نابليون أول من أدخل فى مصر المبدأ النيابى بانشائه الدواوين وجعل أهم عناصرها العلماء فكان بذلك قد علم المصريين المطالبة بنصيبهم فى حكم بلادهم ، كذلك كان اختياره أغلب الأعضاء من العلماء مما قوى نفوذهم حتى استطاعوا فيما بعد اختيار محمد على واليا على مصر

ولم يكن نابليون فى الواقع يقصد ايجاد الروح الدستورية فى مصر ، إذ من خلقه الانفراد بالحكم كما اتضح إبان حكمه فى فرنسا ، ولكنه أنشأ الدواوين لتكون وسيلة التفاهم بينه وبين الشعب المصري

ج : أبادت الحملة كثيرا من المماليك فمكّن ذلك محمد على فيما بعد من القضاء عليهم ، كذلك أظهرت الحملة للمصريين ضعف نفوس المماليك وتخاذلهم فشعر المصريون لأول مرة أن فى استطاعتهم أن يعتمدوا على أنفسهم دون

فى البحر بإلقاء تبعة حرمان العالم منها على عاتقه فأسقط فى يده ، وتركها لهم خلا العاديات التى أرادوا تهريبها ، فانه أخذها منهم بحجة أنها ملك لمصر وحدها ، ثم خزنها مصر بدوره ، ونقلها إلى بلاده ومن بين تلك الكنوز المسروقة حجر رشيد الذى لا يزال يزين المتحف البريطانى حتى اليوم

المماليك ، وأن ينشئوا لأنفسهم دولة مصرية عربية حديثة

ى : كانت الحملة عاملا كبيرا على إيقاظ الروح العلمية في المصريين ، فقد شاهدوا العلماء يجوبون البلاد يدرسون ويبحثون وفى مجمعهم يتذاكرون ويتباحثون ، وفى دار كتبهم « يتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر » كما يقول الجبرتي ، ورأوهم في معاملهم يقومون بتجارب لهم فيها « أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا ... » كما يقول الجبرتي أيضا ، ورأوا مطبعة عربية ومصانع ومنشآت حديثة ، وصحيفتين يقرأهما الفرنسيون حتى جنودهم : كل ذلك بهر المصريين وهزهم هزة عنيفة ولدت فيهم حب الاستطلاع والبحث ، وبدأوا من ذلك الوقت يعدون فرنسا ممثلة مدنية الغرب ويأخذون عنها أدبها وعلمها وفنها ومدنيتها

(٢) الحملة الفرنسية هي التى خلقت ما يسمى « المسألة المصرية » أى : من يحكم مصر؟ ففرنسا هى التى فكرت فى الاستيلاء على مصر لتنتفع بخيراتها وبمركزها بين القارات الثلاث ، ولتهدد الهند منها ، فلفتت بذلك نظر انجلترا اليها ، وفى ذلك يقول محمد على باشا[1] سنة ١٨١٤ « ان السمك الكبير يبتلع السمك الصغير وسيأتى اليوم الذى تبتلع فيه انجلترا مصر كنصيبها من الغنيمة العثمانية » ، وما زالت انجلترا وفرنسا تتنازعان مصر حتى اتفقا عام ١٩٠٤ على أن تطلق يد انجلترا فيها : ونحن المصريين لا نزال حتى اليوم نجاهد لنرفع عنها هذه اليد الثقيلة المذلة .

(٣) كان نابليون أول من فكر في مشروع انشاء دولة عربية تضم كل العناصر الخاضعة لتركيا المضمحلة ، ولكنه لم يستطع تنفيذه لفشل حملته على مصر ، وكاد محمد على أن يوفق فيه لولا أن وقفت انجلترا والدول فى وجهه . ثم استخدم الحلفاء ذلك المشروع فى الحرب العظمى سلاحا ماضيا يحاربون به تركيا ، واليوم تجهد انجلترا فى تحقيقه .

---

(١) قال ذلك للرحالة بورخارت (Burckhardt)



الحاج محمد على باشا

(محمد علي باشا)

طوت الحملة الفرنسية صحائف العصور الوسطى فى مصر وماسطر فيها من فتن وفوضى، وجهل وجمود، وظهرت على أثرها عصورها الحديثة بصحائف جديدة، أولاها وأبرزها صحيفة المجد الخالد، صحيفة العبقرية الجبارة التى استهانت بالشعب المصري حتي قطعت دابر الفوضى، وملكت قياد النظام، ووضعت أسس الثقافة والعمران، وأنشأت قوات البر والبحر، والتمست الاستقلال حتى ظفرت بة : وناشر تلك الصحيفة الخالدة بطل مصر الأكبر محمد على باشا.

نشأة محمد علي : والده ابراهيم أغا من قولة فى مقدونية، وكان متوليا خفارة الطرق، وقد رُزق سبعة عشر ولدا احتسبهم جميعا الا محمد على، وكان مولد محمد على سنة ١٧٦٩ أى في السنة التى أنجبت كذلك نابليون وولنجتن. ومات ابراهيم أغا وزوجه وتركا محمدا عليا فى الرابعة عشرة من عمره، فكَفَلَهُ عمه طوسون حتى أمر الباب العالى بطوسون فقتل فضمه اليه الشوربجى متصرف (حاكم) قوله وحاطه برعايته ودربه مع بنيه على الفروسية وفنونها حتى حذقها، وانتظم فى سلك الجند تحت إمرة مربيه. وعاونه معاونة كبرى فى جمع الضرائب بما أوتى من بسالة ودهاء، فرفعه إلى رتبة (بلوك باشى) وزوّجه من إحدى قريباته وكانت مطلقة ذات مال، فولدت له ابراهيم وطوسون واسماعيل وزهرة وزينب، ثم ترك الجندية، ومارس التجارة وبخاصة التبغ، فاكسبته حدة فى الذهن وخبرة فى شؤون المال، وتعرف إذ ذاك إلى تاجر فرنسي يدعى ليون، ونقل عنه كثيرا من عادات الفرنسيين، وظل على الوفاء له حتى ولى أمر مصر، وعلم أنه يشكو العسر

فبعث اليه يُشْخصه اليه ولكن المنية عاجلت ليون وهو يعتزم السفر إلى مصر، فأسف محمد على لوفاته وأرسل لاخته عشرة آلاف فرنك ، ولما أراد السلطان طرد الفرنسيين من مصر جمع متصرف قوله ٣٠٠ من الالبانيين (الارناءود) وولىّ قيادتهم ابنه على أغا ، وجعل محمد على وكيلا له ، غير أن على أغا نال منه الضجر فرجع إلى بلدته تاركا رجاله في يد محمد على ، فرقى هذا نفسه (كما كانت العادة إذ ذاك) إلى رتبة بمباشي واشترك في وقعة ابو قير البرية وكاد يهلك فيها غرقا لولا أن أدركه سمث فنجّاه ، وعاد إلى قوله ثم رجع إلى مصر مرة أخرى مع الرّبان (القبطان) حسين باشا لمساعدة ابر كرومبى ومُنِح رتبة القائد جزاء بسالته يوم الهجوم على الرحمانية .

مصر من ١٨٠١ الى ١٨٠٥

جلا الفرنسيون عن مصر سنة ١٨٠١ فعاد اليها الشغْبُ والفوضى . إذ قام المماليك ينهبون ويسلبون كسابق عهدهم ، ونافسهم فى ذلك الأتراك ، وذريعتهم أنهم جاهدوا فى انقاذ المصريين من الفرنسيين ، فعلى المصريين إذن ألاّ يضنوا عليهم بمال أو عتاد ، ويقول الجبرتى إن المصريين عادوا يأسفون على عهد الفرنسيين

وظهرت فى ذلك الحين ثلاث قوات تتطاحن جهراً لامتلاك مصر ، وهي : —

(١) جيش الانجليز تحت إمرة أمير البحر (لورد كيث Keith) ، وكان فى الاسكندرية وامبابه (وهذا يعرف بالاحتلال الانجليزى الأول لمصر)

(٢) الأتراك : وعلى رأسهم يوسف باشا فى القاهرة وحسين باشا الرّبان فى الاسكندرية . وكان جيشا خليطا من انكشارية وأرناءود

(٣) المماليك : وجيشهم من المماليك لا من المصريين

وقامت هذه القوات تتنازع غير حافلة بقوة رابعة ظهرت إثر دخول

الفرنسيين مصر ، ونشطت رويدا واشتد ساعدها حتى ظفرت في النهاية ووكلت أمرها الى الرجل الذى فطن وحده إليها وهى مستترة كامنة وسعى فى التقرب اليها ، وهذه القوة الرابعة هى قوة الشعب المصرى والرجل هو محمد على باشا

مطامع الانجليز : وجّه الفرنسيون نظر الانجليز إلى مصر وخطر شأنها ، فصممت فى احتلال أو حماية شواطىء مصر لتضمن السيادة فى البحار ولترقب طريقها إلى الهند ، واتخذت لبلوغ غرضها طريقا ذا شُعبتين أحداهما الاتفاق مع الأتراك وثانيتهما الاتفاق مع المماليك :—

أما الشعبة الأولى : فسُدت فى وجهها لانها ناصرت المماليك وأنقذتهم مرة من غدر الأتراك (وإنا ذاكرون هذا الامر بعد) ، فحقد الاتراك عليها ، ولان نابليون سبقها فى خطب ود الاتراك بوساطة الكولونيل سبستيانى سفيره فى الاستانة حتى تم بينهما الصلح فى يونيه سنة ١٨٠٢

أما الشعبة الثانية : فسدت فى وجهها كذلك وتفصيل ذلك أن انجلترا عاهدت فرنسا في صلح اميان ١٨٠٢ على أن تجلو عن مصر فجلت جيوشها سنة ١٨٠٣ ورافقها محمد بك الالفى أحد زعماء المماليك ، فا كرم الانجليز مثواه ، ورحبت به صحافتهم واستقبله ملكهم وولى عهده ، وطلب اليهم كتابة أن يحيطوا المماليك بعطفهم وحمايتهم ، فاهملوا شأنه حتى يروا مَنْ مِن الاتراك والمماليك سيتغلب فى النهاية فينضموا اليه

فلما رجحت كفة المماليك تبدل شأنهم مع الالفى وعاهدوه على أن يسعوا لدى الباب العالى ليعيد السلطة فى مصر الى المماليك برآسته وإذا وُفقوا فى سعيهم ترك لهم الالفى إدارة السواحل .

وجاء الالفى إلى مصر على سفينة انجليزية وكان ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى (المنافسين للالفى) متحالفين إذ ذاك مع محمد على ، ولم يقو الالفى على مقاومتهم جميعا ففر إلى الصعيد

أما انجلترا فطفقت تعمل لدى السلطان من أجل المماليك ، ولكن حبطت مجهوداتها فى هذه السبيل فانفذت حملة فريزر للاخذ بيدهم ، ولكن قُدّر لها الفشل فى ذلك أيضا (وسيرد كل ذلك مفصلا)

محمد على يشق لنفسه طريقا : لنتبع الآن النضال بين الأتراك والمماليك والانجليز والخطوات التى مكّنت محمد على من الفوز :

(١) **العثمانيون يكيدون للمماليك** : كان الاتراك يرغبون حتى قبل الحملة الفرنسية فى التخلص من المماليك ونفوذهم ، فلما غادر الفرنسيون مصر ، دبر العثمانيون مؤامرة للقضاء على المماليك فى القاهرة والاسكندرية [١] . فتصدى الانجليز لهم وأحبطوا مؤامرتهم فكره الاتراك الانجليز ، وحقد المماليك على الاتراك وألقوا بأنفسهم فى أحضان الانجليز يتلمسون الحماية

---

(١) اتفق يوسف باشا الصدر الأعظم وحسين باشا الربان على أن يدعو كل منهما بعضا من المماليك بحجة تكريمهم وتقليدهم الحكم فى البلاد ، فدعا حسين باشا كثيرا من اتباع مراد بك إلى زيارته فى معسكره فى بوقير ، فلبوا دعوته فرحب بهم وأقاموا فى ضيافته أياما فاطمأنت نفوسهم ، ثم دعاهم إلى زيارة سفينته الراسية فى خليج بوقير وامتطى معهم زورقا يقلهم إلى السفينة ، وبينما الزورق يضرب فى البحر قدم عليهم زورق آخر يحمل رجالا قالوا انهم يحملون للربان رسالة . فانتقل الباشا إلى الزورق القادم بحجة الاطلاع على الرسالة وما احتواه الزورق حتى صب رجال الباشا الرصاص على الضيفان فدافعوا عن أنفسهم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم وقتل بعضهم ، وجرح الآخرون واعتقلوا فى سفينة الباشا . ولما علم هتشنسن نبأ المؤامرة هدد الربان بالحرب ان لم يطلق سراح الأسرى فأطلقهم واحتفل الانجليز بدفن القتلى احتفالا عظيما .

ودعا الصدر الأعظم مماليك القاهرة وأمر بأن يتلى عليهم فرمان سلطانى ينص على تعيين ابراهيم بك « شيخ البلد » وأعقب هذا تلاوة فرمان آخر يقضى بالقبض على المماليك وارسالهم إلى الاستانة مسلسلين . وقبض عليهم وأمر الجنود أن تقبض على كل مملوك تعثر عليه ، وتصدى الانجليز كذلك لانقاذهم

منهم وزاد مقت المماليك للأتراك لما نصّبوا خسرو باشا واليا على مصر وكان خسرو هذا مملوكا لحسين باشا الربان ثم (كتخدا) له .

(٢) محمد على يلتزم الحيدة : لمّا لم يستطع الأتراك القضاء على المماليك عن طريق الختل والغدر لجئوا إلى الحرب والكفاح وكان المماليك أطول منهم باعا في هذا المضمار ، لأنهم حاربوا الفرنسيين أكثر منهم فنقلوا من فنونهم الحربية أكثر مما نقلوا ، ولأنهم كانوا حكام الاقاليم ، ولأن المصريين ألفوا طاعتهم من قديم

ودارت الحرب فى الصعيد بين عثمان بك البرديسي أحد زعماء المماليك وبين طاهر باشا[1] قائد الارناءود ، ودحر عثمان بك جيش طاهر وطارده إلى الوجه البحرى ، فأرسل خسرو باشا جيشين لقتال المماليك يقودهما يوسف كتخدا (أى وكيل الباشا) ومحمد على ، وهُزم يوسف كتخدا عند دمنهور (٢١ نوفمبر ١٨٠٢) ، ولم يتقدم محمد على لنصرة صاحبه ، لأنه أراد أن أن يتطاحن الجانبان حتى يُفني بعضهما بعضا ، ويتقدم هو بعد ذلك ليقبض على أزمّة الحكم . ولما بُلغ خسرو ما كان من محمد على ، أضمر له الشر وكتب إليه يوافيه فى منتصف الليل إلى القلعة ليحادثه فى بعض شأنه فأجابه محمد على أنه سيلبى الدعوة فى وضح النهار وفى وسط جنوده ، وحمل كل منهما الضغن لصاحبه

أما الانجليز فكانوا فى هذه الأثناء قد أخفقوا فى الاتفاق مع تركيا ، إذ عقدت صلحا مع فرنسا (فى ٢٦ يونيه ١٨٠٢ كما سلف القول) . ورأى

---

(١) كان الارناءود أكثر جيوش الأتراك همجية وأشدهم فتكا ، ويقول الجبرتى عنهم إنه لايعرف لهم ملة . وكان طاهر باشا نحيفا أسمر اللون ويقول الجبرتى إنه كان يذكر ليلا مع الذكيرة

الانجليز – وهم « وقوف على علوة ينظرون إلى الفريقين بالنظارات[1] » – ان المماليك أقوى بأسا وأشد بطشا من الأتراك . فقر رأيهم على الانحياز لجانبهم ، ولما جلوا عن مصر اصطحبوا محمد بك الألفي

(٣) محمد على يتحد مع المماليك : أبى الألبانيون (الأرناءود) أن يعاودوا محاربة المماليك إلا إذا دُفع لهم ماتأخر من أعطياتهم ، فأحالهم خسرو على الدفتردار (مدير الشؤون المالية) ، ولم يكن لدى هذا كل المال المطلوب فلم يدفع لهم ، فثاروا ونهبوا داره (أى دار الدفتردار) وكثيرا غيرها فى القاهرة ، ولم يأبه خسرو لهذه الفتنة . وخيل إليه ان الانكشارية أنصاره قادرون على إخمادها ، لذلك لما جاءه طاهر باشا قائد الثائرين يعرض عليه وساطته فى الصلح ، رفض مقابلته ، وأمره ألا يغادر داره ، فحنق طاهر ، وانضم إلى رجاله الثائرين واستولوا على القلعة وأضرموا النار فى قصر خسرو ففر خسرو وأسرته إلى دمياط ، ومن العجيب انه كان يفرض ضرائب على الناس فى البلاد وهو في طريق الفرار

وطلب طاهر باشا إلى كبار العلماء أن يختاروا نائبا عن الوالى حتي يُعين السلطان واليا ، فاجتمعوا فى بيت القاضى (أى دار المحكمة) واختاروا طاهراً باشا (٦ مايو ١٨٠٣) ، ولم يستطع دفع مرتبات جند الانكشارية فذهب إليه نحو المائتين منهم فى ٢٦ مايو ، ودخل عليه اثنان من أغواتهم (ضباطهم) ، وطالباه بالمرتبات المتأخرة فأغلظ لهما القول ، فأطار أحدهما رأسه بسيفه ورمى به من النافذة ، فعادت السلطة الى الانكشارية واختاروا لولاية مصر احمد باشا – وكان والى المدينة المنورة وصادف وجوده فى القاهرة فى ذلك الحين – أما محمد على فقد صار بعد قتل طاهر رئيس الجند لأن رتبته كانت تلى رتبة طاهر باشا وكان فوق ذلك محببا إلى العلماء والمصريين لعطفه

---

(١) الجبرتى

عليهم وتقربه منهم ، وكان فى مقدوره أن يُنصّب نائبا للوالى ولكنه رأى من الحزم أن يتريث فى الأمر خشية أن يعترضه من أمر المرتبات ما اعترض خسرو وطاهرا ، وخيفة أن يتضافر عليه المماليك وخسرو ولا قِبل له بهما ، لذلك اعتزم أن يتخذ المماليك سلما يصعد بهم إلى أغراضه فاذا ماوصل قذف بهم من حالق ، لهذا انضم اليهم واختار معهم ابراهيم بك الكبير نائبا للوالى لكبرسنه ، وطردوا احمد باشا (ولم يحكم غيريوم وليلة) والانكشارية، وقاتلوا خسرو وساقوه إلى القاهرة أسيراً

هال تركيا ماأصاب هيبتها لما حدث لخسرو ، وأزعجها رجوع الأمر إلى المماليك ، فأرسلت على باشا الجزائرلى[1] فجاء فى ألف جندى ليس غير ليعيد لها هيبتها وسلطانها وبلغ الاسكندرية (يوليه ١٨٠٣) ! ! وشجرت بينه وبين المماليك مناوشات ، ثم كتب البرديسى اليه (بايعاز من محمد على) يقدم له ولاء زائفا ويدعوه إلى القاهرة ، فتردد الجزائرلى ثم رحل إلى القاهرة ولكن اعترضه مماليك البرديسى عند شلقان بالقليوبية وقتلوا أتباعه ، واقتادوه هو إلى حدود الشام وقتلوه[2] (يناير ١٨٠٤)

وفى الشهر التالى وصل الألفى بك (كما ذكرنا) ونزل بوقير ثم سار إلى رشيد وركب سفينة القنصل الانجليزى فى النيل يرفرف عليها العلم الانجليزى ! وحسب محمد على حسابا كبيراً للألفى إذ كان على الحقيقة أشد المماليك بأسا ، وكره البرديسى أن ينتزع الألفى السلطة منه ومن أعوانه ، فاشترك محمد على والبرديسى في قتاله وا كرهاه على الفرار .

ولا ريب ان محمد على كان المحرك لكل هذه الحوادث ولكن كان ذلك من وراء ستار . فألقيت التبِعَة على البرديسى وأعوانه المماليك

---

(١) سمى الجزائرلى لأنه كان مملوكا لمحمد باشا حاكم الجزائر

(٢) لم يكن الجزائرلى يتوقع أقل من ذلك من المماليك ، فقد وجد ساعة قتله لابسا كفنه تحت ملابسه

(٤) محمد على يتخلص من المماليك : ترك محمد على الأمر للبرديسى حتى يتحمل تبعة الحكم ويستهدف لغضب الناس من جراء ما يفرضه عليهم من ضرائب . وتأخرت مرتبات الجند ، وقام الأرناءود يطالبون بها صاخبين ساخطين ، فضرب البرديسى ضريبة جديدة على العقار فى القاهرة فتجمع الناس يحملون الرايات والطبول ؛ ويصيحون قائلين (إيش تاخدمن تفليسى ، يابرديسى) ، فرأى محمد على فى كل ذلك فرصة كان يرقبها ، فنزل إلى الجماهير واختلط بهم ، وذهب إلى العلماء فى الأزهر وتقرب اليهم ، مظهراً سخطه على هذه الحال ، واعداً ببذل الجهد في رفع الضريبة ، ولكن البرديسى أبى رفعها عناداً وصلفا ، ولم يدرِ أن فى الشعب روحا غير التى استكانت لهم دهورا ، وثار ثائر الشعب وقام محمد على بجنوده وحاصر قصور ابراهيم والبرديسى وغيرهما من المماليك ، ورشا رجال مدافعهم فانضموا إليه ، وفر المماليك خاسرين ، وامتلك محمد على القلعة ، وأبطلت الضريبة ، فشمل الناس الفرح ، ورأوا محمدا عليا جديرا بشكرهم .

(٥) محمد على يحاول إرضاء السلطان : كان محمد على يستطيع أن يكون نائب الوالى لو أراد ، ولكنه تعفف مرة أخرى عن السلطة لا زهدا فيها بل تريثا وتعقلا . فجنوده لا طاقة لهم بمحاربة المماليك إذا تحالفوا عليه ، والسلطان يعده عاصيا لاشتراكه فى خلع خسرو : لكل هذا اعتزم أن يتقرب إلى السلطان وعلماء مصر وشعبها ، وأن يُدخل فى روعهم جميعا أن لا مطمع له فى جاه أو سلطان ، فاطلق سراح خسرو وأعاد إليه الأمر فرضى السلطان عنه ، وأعجب المصريون بعفته ، غير أن الأرناءود أبوا أن يعترفوا بخسرو واليا ، إذ اعتبروه علة قتل قائدهم طاهر ، وطردوه من مصر بعد أن حكم ثلاثة أيام .

وتعفف محمد على مرة أخرى وأشار على العلماء أن يتخذوا خورشيد

باشا محافظ الاسكندرية واليا ، فقبلوا ما أشار به ، وكتب محمد على إلى السلطان يلتمس موافقته على تعيين خورشيد . غير أن خورشيد لم يلبث أن داخله الريب فى محمد على ، وخاف منه على نفوذه ، فلجأ للسلطان واستصدر منه فرمانا يقضى بخروج الألبانيين ورؤسائهم (وفيهم محمد على) من مصر ، فتظاهر محمد على بالاذعان . ولكن الناس بهتوا وشملهم الغم واستمسكوا ببقائه بينهم ليرد شر الولاة والجنود عنهم ، فأعلن بقاءه نزولا على أمرهم ، فكره خورشيد تلك الظاهرة ، وبعث بمحمد على لقتال المماليك فى الصعيد ليتخلص منه ولو إلى حين ، وطلب الى السلطان أن يمده برجال يعتمد عليهم فارسل اليه ثلاثة آلاف من الجنود الدلاه [1] ـ أى الحمق ـ فكانوا عليه لا له ، لأنهم عاثوا فى الأرض ، وسلبوا الناس مالهم ، فكرهوهم وكرهوا مَن استجلبهم إلى ديارهم .

وعلم محمد على وهو فى الصعيد ما يُبيت له فسار إلى القاهرة فاعترضه الدلاة عند طره ، فطلب أن يقابل رؤساءهم فقابلوه وخطب ودهم واسترق بالمال قلوبهم ، فافسحوا الطريق له ، ودخل القاهرة (١٩ ابريل ١٨٠٥) وبالغ فى التودد الى المشايخ : اذ هم زعماء الشعب وقادته ، ثم استصدر خورشيد من السلطان فرمانا جديدا بنقل محمد على واليا على جُدة ، وأرسل الى محمد على يستقدمه الى القلعة ليخلع عليه خِلعة الولاية (وهى الفروة والقاووق) ، فخشى محمد على الغدر به ، فطلب أن ينزل خورشيد الى بيت أحد الأصدقاء ، فنزل مكرها ، ولما انفض الاجتماع خرج محمد على الى داره (بقرب فندق شبرد الحالى) . وهو يظهر استعداده للرحيل ، وينثر على الناس الذهب (٣ مايو ١٨٠٥)

---

(١) مفردها دلى (على وزن ولى) وهى كلمة تركية معناها المجنون أو الاحمق واطلق عليهم هذا اللقب لحمقهم واستهتارهم ، وغالبهم من الاكراد ، وكانوا كقطاع الطرق أو أشد فتكا ، ولم ير الناس أحط منهم فى ملابسهم وطراطيرهم .

وحدث أن اعتدى الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من دورهم ، فاجتمع العلماء والأعيان وطلبوا الى خورشيد أن يخرج الدلاة من البلاد وحددوا له موعدا لاجابة طلبهم ، فلما انقضي الموعد والدلاة لا يزالون بالبلاد اجتمع الزعماء فى ١٣ مايو فى بيت القاضى — أى فى دار العدل — وكان السيد عمر مكرم نقيب الاشراف أكبر الزعماء وأنبلهم نفسا وأقواهم شكيمة ، وأرسل القاضى يطلب وكلاء الوالى فحضروا وقدم الزعماء مطالبهم وأهمها : —

(ا) ألا تفرض على الناس ضريبة الا اذا أقرها العلماء وكبار الأعيان

(ب) أن تجلو الجنود عن القاهرة وتعسكر فى الجيزة .[1]

وبعث القاضى بالمطالب الى الوالى ، فاستنكرها ، فاجتمع الزعماء فى اليوم التالى فى بيت القاضى أيضا ، واحتشد الشعب من حولهم ، وأقروا عزل الوالى وتعين محمد على بدله : وانتقلوا الى دار محمد على وقالوا « إننا لا نريد هذا الباشا واليا علينا ، ولابد من عزله من الولاية » فقال محمد على « ومن تريدونه واليا » فقالوا « لا نرضى إلا بك وتكون واليا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » وألبسوه حلة الولاية

وفى تلك القصة معنيان جليلان (أولهما) أن الشعب تنبه لحقه فى تقرير مصيره (وثانيهما) أن الشعب ممثلا فى زعمائه يشترط أن يكون الحكم بالعدل وأن يكون بمشورة العلماء ، فكأنه بذلك يشترط أن يكون الحكم دستوريا .

ورفض خورشيد أن ينزل على حكم « الفلاحين » واستعد للقتال ،

---

(١) وما أشبه هذه المطالب بوثيقة « حقوق الانسان » التى أقرها البرلمان البريطانى عام ١٦٨٨

واستعد الشعب وزعماؤه كذلك ، وقامت الحرب بين الفريقين[1] ، ولم يكن محمدعلى بطل هذه الحرب بل كان بطلها وفخرها السيد عمر مكرم ، وظلت الحرب قائمة حتى ورد من الاستانة فرمان فى ٩ يوليه سنة ١٨٠٥ يولى محمد على حكم مصر « حيث رضى بذلك العلماء والرعية وان خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر » فوقفت رحى الحرب ، ونزل خورشيد من القلعة ورحل الى الآستانة ، وفى نفسه من الغيظ ما ليس وراءه غاية .

ويقال ان فرنسا ساعدت محمد على ، وان محمداً عليا بذل فى الآستانة مالا كثيرا حتى نال الولاية ، فان صدق القول أولم يصدق ، فالفضل الاكبر فى توليته عائد بلا جدال الى ارادة الشعب المصرى

ويمكننا أن نلخص العوامل الرئيسية التى ساعدت محمد على على النجاح فيما يلى : (١) تطاحن الأحزاب وحمقها (٢) ضجر المصريين من الفوضى وبحثهم عن رجل رشيد يحكمهم حتى وجدوا ضالتهم فى شخص محمد على (٣) دهاء محمد على وصبره . (٤) ضعف الدولة العلية

العقبات التى اعترضت محمد على عقب التولية : اعترضت محمد على بعد التولية عقبات ثلاث هى : —

(١) حاجته المُلِحَّة الى المال (٢) عداء الباب العالى له (٣) تضافر المماليك والانجليز عليه ، ولقد تمكن من تذليل هذه العقبات بالتجائه الى الشعب عن طريق زعمائه من علماء وأعيان . وقد ساعده الفرنسيون بعض المساعدة .

(١) حاجته الى المال : كان محمد على فى حاجة حافزة الى المال ، ليرضى به الباب العالى حتى لا يعزله ، والجنود حتى لا يثبوا عليه ولا يخذلوه في حروبه

---

(١) تلك كانت رابع ثورة قام بها الشعب منذ الحملة الفرنسية فالاولى كانت فى وجه نابليون ، والثانية فى وجه كليبر ، والثالثة فى وجه المماليك ، والرابعة فى وجه خورشيد

وفطن الى ما لزعماء الشعب من التأثير فى الناس ، فكان كلما أعوزه المال واحتاج الى فرض أتاوة على الناس جديدة ، لجأ الى الزعماء يفهمهم الضرورة الحافزة فيفوز بموافقتهم ، ولولا هذه الموافقة لتعرض — وهو فى بدء حياته السياسية — الى تبرم القوم به .

كذلك ألزم أقباط القاهرة دفع قدر من المال ، كما ألزم الجباة منهم أن يدفعوا نحو ٤٨٠٠ كيس[1] ، اتضح من مراجعة دفاترهم انهم قد اختلسوها .

(٢) عداء الباب العالى : محمد على غرسُ القومية المصرية ، وقد قبل السلطان توليته وهو مكره نزولا على إرادة الشعب المصرى ، ولكنه ظل يرقب فرصة تخلصه من ذلك الوالى القوي ، وفطن الوالى الى ما ينتويه السلطان له ، فعمل جهد الطاقة على ارضائه ، فقدم له من المال ما أرضاه ، وتزلف اليه بالهدايا ، وسارع الى قتال أعدائه (كالانجليز والوهابيين واليونان) فتظاهر السلطان بالرضا وان كان لا يزال على واليه حاقدا

(٣) عداء المماليك والانجليز : (ا) لم يمض شهران على تولية محمد على حتى اعتزم المماليك الهجوم على القاهرة ، واختاروا لذلك يوم الاحتفال بوفاء النيل إذ يكون محمد على مشغولا فى الاحتفال بمصر القديمة بعيدا عن القاهرة ، فبلغ محمداً عليا ما يُبيتُ له ، فدس لهم بعضا من رجاله أوهموهم انهم على الولاء لهم ، وانهم على استعداد لنصرتهم وفتح الأبواب لهم ، فجاءوا يوم ٥ أغسطس وَالفَوْا باب الفتوح مفتوحا يستقبلهم ، فدخلوا آمنين ويمموا بيوت زعماء الشعب يستميلونهم الى جانبهم فلم يفلحوا ، وبينما هم في سيرهم إذ أخذهم وابل من الرصاص تساقط عليهم من النوافذ ، فقتل منهم من قتل واعتصم الباقون بجامع برقوق حتى أكرهوا على التسليم ، فذبح محمد على كثيرا منهم

(ب) تعتبر انجلترا محمدا عليا رجل فرنسا ونصيرها ، لذلك واصلت

---

(١) الكيس خمسة جنيهات

جهادها فى صالح المماليك ، فعرضت على الباب العالى فى الحاح : — أن يستبدل بمحمدعلى واليا جديدا ، وأن يعفو عن المماليك ويعيدهم الى مناصبهم الأولى ، وأن يدفع له محمد بك الألفى جزية سنوية قدها ١٥٠٠ كيس ، وأن تكفله هى فى ايفائه الجزية وطاعته للسلطان

وكان السلطان ينقم من محمد على قوته واستمساك المصريين به. فقبل ما عرضه الانجليز ، فعفا عن المماليك ، وولى محمدا عليا على سلانيك وموسى باشا على مصر ، وأرسل الربان (القبطان) صالح باشا فى أسطول إلى مصر ومعه موسى باشا ، لينفذ ما قر عليه الرأى .

استعان محمد على مرة أخرى بالدهاء : فتظاهر بالاستعداد للرحيل ، ثم فزع إلى السيد عمر مكرم كبير الشعب يبثه ما يدبره الانجليز والمماليك له ،فنصره السيد عمر وزملاؤه وكتبوا للسلطان مُلتمسا(عريضة)يلتمسون فيه بقاءه بينهم ، وقام الجنود يستمسكون به لئلا يفقدوا برحيله ما تأخر من أرزاقهم ، ولم ينس محمد على شفيعا له الأثر الفعال فى نفوس الترك وهو : الرشوة ، فقدمها للربان ولموسى باشا ، وأرسل عشرة آلاف من الجنيهات لرجال الدولة فى الآستانه ، كل هذا والمماليك متخاذلون [1] متنافرون يحسد بعضهم بعضا ، ولم يقدموا للربان ما تعهد الألفى له به [2] . فانحاز الربان إلى جانب محمد على ، وجاءت فى هذه الاثناء رسالة من الباب العالى تخول الربان عمل ما يراه صالحا ، والرسالة لا ريب ثمرة الرشوةِ وجهادِ سفير فرنسا في الآستانة ، فاتفق الربان مع محمدعلى أن يؤدى للباب العالى أربعة آلاف كيس ، وأن يكون ابراهيم بن محمد على رهينة بالآستانة حتي يؤدى هذا

---

(١) كان الالفى يعتمد على انجلترا . أما البرديسى فكان يرى الاعتماد على فرنسا

(٢) كان الالفى قد تعهد أن يقدم له ١٥٠٠ كيس فى نظير مساعدته لهم فى الرجوع الى الحكم ، ولم يقبل المماليك أن يساعدوا الالفى فى جمع هذا المبلغ

المال . ورحل الوبان يصحبه موسى باشا وابراهيم بن محمد على (أكتوبر سنة ١٨٠٦) وفى نوفمبر أرسل محمد على المال المطلوب ، وفى الشهر عينه ورد فرمان سلطانى ينص على «إبقائه واستمراره على ولاية مصر . حيث أن الخاصة والعامة راضية باحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس» وفرح أهل القاهرة وزينوها ثلاثة أيام ، ابتهاجا لخلاصهم من شر رده الله عنهم ، أما الانجليز والألفى فقد أصابهم الغم والخزي ، ووعد الانجليزُ الألفى أن يرسلوا إلى مصر حملة يشتدبها أزره .

جـ — كانت انجلترا تحارب نابليون ، وكانت تساعدها دول التحالف الدولى الثالث ومن بين هذه الدول روسيا . وانحازت تركيا إلى نابليون . فحاولت انجلترا اكتسابها إلى جانب التحالف فلم توفق ، فأرسلت أسطولا بقيادة أميرالبحر دكورث (Duckworth) ليقهرها على قطع علاقاتها مع نابليون وطرد سفيره من الآستانة والانحياز إلى جانبها ، وعبر الاسطول الدردنيل وبحر مرمره ، وكاد السلطان يسلم بما يُفرض عليه لولا أن حثه سبستيانى سفير فرنسا على المقاومة ، فتحمس الترك وأقاموا الاستحكامات ونصبوا المدافع . وألحقوا بالأسطول العطب ، ولم ينج منه إلا بعض سفن خرجت تجر أذيال الخزى . (أول مارس ١٨٠٧)

وأرسلت انجلترا كذلك حملة بقيادة فريزر (Fraser) لغزو مصر ، وكان لها فى ذلك الغزو وجهان : الأول إذلال تركيا بضربها فى مصر ، والثانى تحقيق مطامعها فى مصر عن طريق القوة بعد أن فشلت فى تحقيقها عن طريق السياسة . ولم تزد الحملة على ستة آلاف ليس من بينهم فرسان ، اعتمادا على ما سيقدمه المماليك لهم من المساعدة ، ولكن الألفى [1] كان

(١) توفى البرديسى فى أكتوبر سنة ١٨٠٦ اما الالفى فمات فى يناير سنة ١٨٠٧ وهو يقول « لقد قضى الأمر وستصبح مصر طعمة لمحمد على ، إذ ليس فى مقدور أحد أن يجالده وسيخضع المماليك له ، ولن يخفق لهم لواء » وقد صح ما تنبأ به

قد مات قبل مجيء الحملة بأربعين يوما ، وتفرق اتباعه وجيشه وهم الوف فكانت وفاته خسارة كبرى على الانجليز

ألقت السفن الانجليزية مراسيها عند العجمى (غربي الاسكندرية) . وأنزلت جنودها ، وسلمت لهم الاسكندرية (٢١ مارس) بغير أن يطلق الانجليز (قنبلة) ولا رصاصة ، وذلك لأنهم استمالوا حاكمها التركى بالمال ، فسلم نفسه وحاميته كأسرى حرب[١] وأرسل فريزر أحد قواده فى ألفين من رجاله ليفتح رشيد فوصل القائد[٢] إلى أسوار المدينة . وأمر حاكم[٣] المدينه حاميتها وأهلها أن يأووا إلى بيوتهم حتى يصدر لهم أمره بالقتال ، ولما لم يلق الانجليز مقاومة خيل إليهم أن الحامية قد أخلتها . فألقوا بسلاحهم ، والتمسوا الراحة بعد أن أضناهم السير بين الرمال من الاسكندرية إلى رشيد . وإنهم لكذلك إذ بالحاكم يأمر باطلاق الرصاص عليهم من النوافذ ومن فوق السقوف والجدران . فقتل بعضهم وأسر البعض الآخر وفر الباقون إلى الاسكندرية (٣١ مارس)

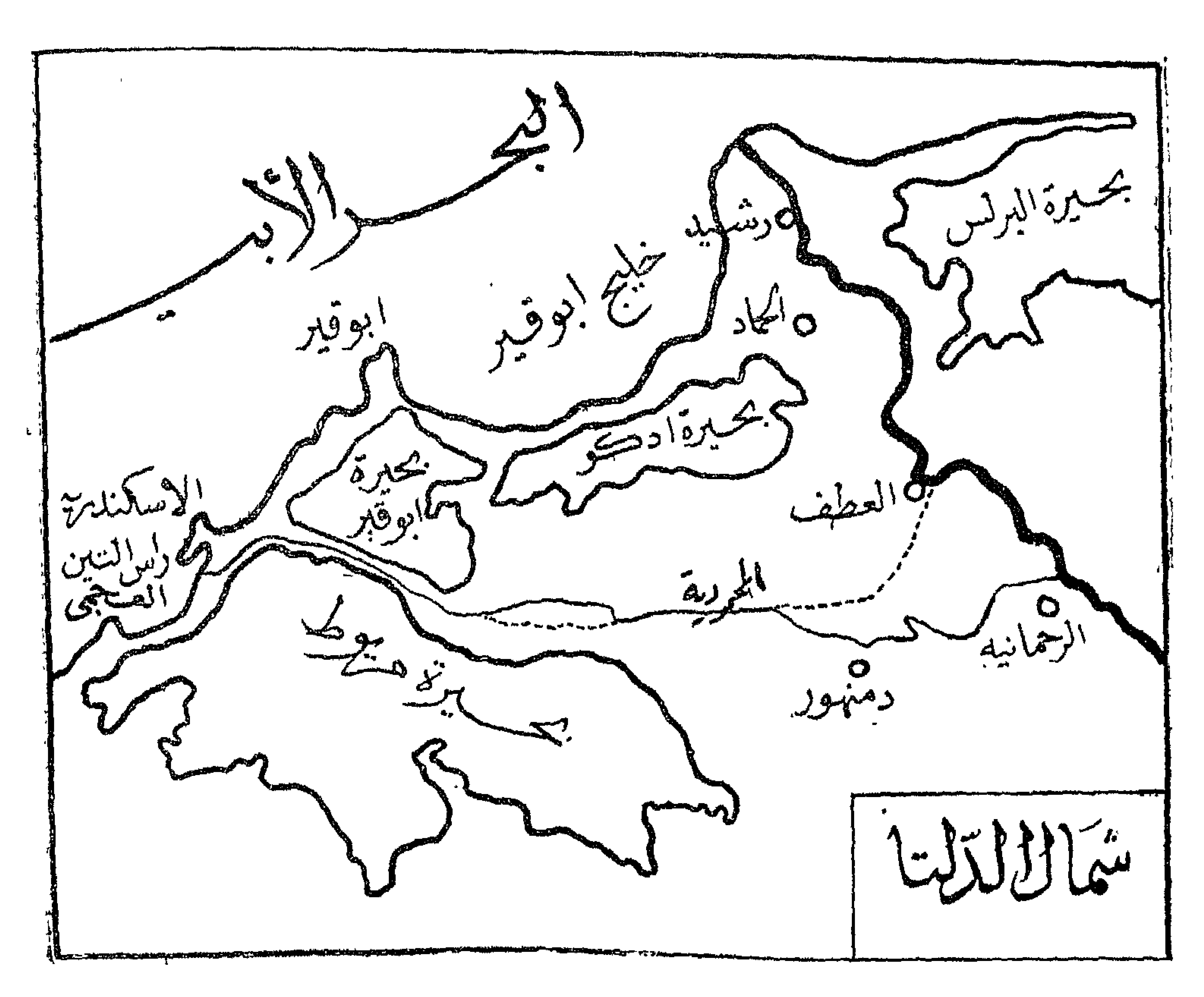
وكان محمد على إذ ذاك يحارب المماليك فى الصعيد . فلما وافاه النبأ خاف أن ينضم المماليك إلى الانجليز فيستهدف لخطر عدوين ، فدس العلماء للمماليك يفهمونهم أن فى انضمامهم إلى الانجليز خروجا على الدين وخيانة للوطن ، ورأى من الحكمة كذلك أن يصالحهم ، ريثما يتخلص من الانجليز فعرض عليهم أن يحكموا الصعيد على شريطة أن يؤدوا خراجه وأن

---

(١) كانت الاسكندرية تابعة للسلطان رأسا وداخلة فى منطقة نفوذ ربان الأسطول التركى ، وكان حاكمها الخائن ضابطا يسمى أمين أغا ، فشتان ما موقف هذا وموقف السيد محمد كريم حاكمها وقت دخول الفرنسيين

(٢) اسمه ويكوب Wacop

(٣) على بك السلانكلى



يكونوا له عونا فى طرد الأعداء ، فقبلوا ما عرضه ولا ريب فى أن لضعفهم وتفرق كلمتهم دخلا كبيرا فى هذا القبول

تسلم المماليك الصعيد ، وجاء محمد على إلى القاهرة (١٢ أبريل) فوجد زعماء الشعب قد جهزوا الناس للقتال وحفروا الخنادق ، وقام هو الآخر ينظم جيشه بمعونة صديقه دروفتى (Drovetti) ممثل فرنسا فى مصر .

وخرج الانجليز مرة أخرى من الاسكندرية يريدون تطويق رشيد وفتحها حتى يستردوا هيبة ضاعت . وجاءوها وألقوا عليها الحصار اثنى عشر يوما حتى جاء جيش(٢) محمد على وهزم الجيش الانجليزى المرابط فى الحماد

---

(١) كان يقوده طبوزأوغلى وهو جد المرحوم حسين باشا رشدى أحد رؤساء الوزراء السابقين

(على مقربة من رشيد) ، ولم ينج من الانجليز أحد[1] فذُعر بقية الانجليز المحاصرين رشيدوانسحبوا إلى الاسكندرية ،ونقل أسراهم ورءوس قتلاهم إلى القاهرة حيث شاهدها الناس (على نحو عادات ذلك العصر) فامتلأت قلوبهم زهوا وثقة بالمستقبل

وشرع محمد على يعد العُدة لاجلاء الانجليز عن الاسكندرية ، غير ان فريز أرسل إليه يفاوضه فيالصلح ، وتم الصلح بتبادل الأسرى[2]، وغادر الأسطول مياه الاسكندرية وهو يجر أذيال الخزى هو الآخر (سبتمبر ١٨٠٧) ، والسبب فى انسحاب فريز ان نابليون عقد صلحا فى تلست مع اسكندر قيصر روسيا (يوليه ١٨٠٧) ، فاستطاع أن يوجه كل جهوده للقضاء على عدوته انجلترا ، فرأت هذه أن تستجمع كل قواها لترد بها هجمات خَصمها العتيد، وهكذالم تستطع انجلترا اذلال تركيا فى مصر[3] ، ولم تتمكن من تحقيق مطامعها هذه المرة فى وادى النيل

(ى) منع المماليك خراج الصعيد عن محمد على . فحاربهم وظهر عليهم لتفرقهم وانحلال عزائمهم . وتقدم شاهين بك الألفى (أى خليفة الألفى وزعيم مماليكه) وطلب العفو من محمد على ، فعفا عنه (١٨١٠) ورد اليه الأراضى الواقعة على ضفة النيل اليسرى من الجيزة الى بنى سويف وفيها الفيوم (وكانت تلك الأراضى فى يد شاهين منذ اتفاق محمدعلى مع المماليك ١٨٠٧) ، كذلك وهب له محمد على دارا جميلة فى الأزبكية ، وسكن شاهين

---

(١) قتل منهم ٤١٦ وأسر ٤٠٠

(٢) كان محمد على يحسن معاملة الأسرى من الانجليز ، ويعنى بالجرحى ورفض عند الصلح أن يأخذ من الانجليز فدية عن أسراهم

(٣) فرح السلطان بهذا النصر وأرسل إلى محمد على رسولا يحمل اليه سيفا ثمينا وخلعة ، وأنعم على ابراهيم بك وطوسون بك (ولدى محمد على) والسيد عمر بك مكرم وغيرهم بالرتب والخلع

القاهرة . وحذا كثير من المماليك حذوه ، وعادوا إلى القاهرة ، وعاشوا بين اعطاف الترف والنعيم

(هـ) ندب السلطان محمد على ليخضع له الوهابيين فى بلاد العرب ، (وسنذكر هذا الأمر بعد) فقام يُعد جيشه وعُدته وينشيء اسطولا فى البحر الأحمر يحمل عليه الجيش الى بلاد العرب ، وبينما هو فى السويس يشرف على إعداد السفن ، أبلغه الكخيا محمد بك لاظ اوغلى أن المماليك يتدبرون فى قتله وهو راجع من السويس ، فأسرع الى القاهرة فجأة فى جوف الليل لا يصحبه الا أربعة من أمناء خدمه ، وذلك حتى يُفسد على المماليك تدبيرهم . وصحت عزيمته على الغدر بهم لأنه لا يستطيع إنفاذ جيشه إلى بلاد العرب ويبقى هو فى مصر مستهدفا لعدائهم وغدرهم

مذبحة القلعة

أعد محمد على مهرجانا فخما فى القلعة ، وعين يوم الجمعة (أول مارس ١٨١١) موعداً للاحتفال بإلباس ابنه طوسون خلعة قيادة الحملة على الوهابيين ودعا إلى الحفل كثيراً من وجوه القوم وأصحاب المناصب والضباط والجنود والمماليك . ولما ألبس طوسون خلعة القيادة بدأ الموكب يتحرك من القلعة ليخترق شوارع القاهرة حتى يصل إلى معسكر الجيش فى القبة ، ولكن قبل أن يخرج المماليك غلقت الأبواب [1] وأطلقت عليهم النيران من كل

(١) للقلعة من الجهة الغربية باب يسمى باب العزب وكان يسمى وقت المذبحة باب الرميلة وإن الداخل من هذا الباب يجد ممرا متعرجا منحوتا فى الصخر تشرف على جانبيه صخور ويصعد فيه حتى يبلغ رحبة القلعة ويصل من هذه إلى جامع محمد على (ولم يكن قد بنى عام ١٨١١) ثم إلى القصر .

ولما دعى المماليك إلى الاحتفال عدوا ذلك من أمارات الرضى عنهم وتزينوا وامتطوا خير جيادهم واستقبلهم محمد على متلطفا شاكرا قبول دعوته وألبس طوسون الخلعة ثم دقت الطبول وصدحت الموسيقى إيذانا بتحرك الموكب ، وأخذ المماليك مكانهم منه ، وتحرك الموكب يتقدمه جماعة من الدلاة ويتبعها والى الشرطة

صوب فهلكوا جميعا إلا واحدا ، وكانوا نحو الخمسمائة ، وتلا ذلك نهبُ الجنود المدينة بدعوى البحث عمن لم يلق حتفه في القلعة من المماليك ، ولم يقف النهب حتى نزل محمد علي وطوسون وأمرا الجنود بالكف عما يقترفون ، وقام حكام الأقاليم بامر من محمد على يفتكون بمن وقع فى أيديهم من المماليك ، فكان جميع من هلك فى هذه المذبحة ولواحقها نحو الألف ، ومن نجا منهم فر إلى اقليم دنقلة فى بلاد النوبة ، وأخذ محمد على أولاد المماليك وضمهم إلى خدمته وأجرى الارزاق على نسائهم وزوّجهم من ضباطه وأتباعه ، وهكذا قُضى على أغلب تلك الفئة التى عاثت فى مصر قرونا واستبدت باهلها وأذاقتهم النكال والعذاب .

مذبحة المماليك فى نظر التاريخ : — لا ريب أن المذبحة من الوجهة الانسانية والخلقية وصمة فى جبين محمد على ، ونقطة سوداء وسط صحيفة أعماله الناصعة ، ولو أبادهم فى ميادين الحرب ، باذلا فى سبيل ذلك ما بذل ، لكان أشرف له وأصون لسمعته . ولكننا لو نظرنا اليها من وجهة السياسة

والأغا (محافظ المدينة) والمحتسب ثم الوجاقلية ، ثم جماعة من الارناءود يقودهم صالح قوش ثم المماليك ثم بقية الأرناءود فرسانا ومشاة . ثم كبار المدعوين وسار الموكب على هذا النظام فى الممر المنحدر الضيق الموصل الى باب العزب ولما بلغ المماليك الباب اقفل فى وجوههم وتسلق الأرناءود الصخور على الجانبين فصار المماليك يحيط بهم الأرناءود من خلفهم ويمينهم وشمالهم ، والباب مقفل فى وجوههم ، وانهال الرصاص عليهم وهم على جيادهم لا يستطيعون تقهقرا ولا حركة لضيق الممر ، ولم يكن معهم غير سيوفهم . وهى لا تغنى فى هذا الموقف وكدست الجثث بعضها فوق بعض حتى بلغ ارتفاعها أمتارا فى بعض الجهات ولم ينج من السبعين والاربعمائة مملوك إلا واحد هو أمين بك فانه صعد بجواده فوق الصخور ولكز الجواد فقفز به من أعلى السور (على أرتفاع ستين قدما) وقبل أن يصل الجواد إلى الأرض قفز هو من على ظهره وطفق يعدو فى الصحراء متنكرا حتى دخل الشأم

التى قد تظلم شعبا وتكتسح آخر لوجدنا له من المعاذير ما يخفف عنه اللوم .
فمن ذلك . —

(١) انهم كانوا يأتمرون بحياته ، وكان كلما صالحهم اتقاء شرهم نكثوا مع الله عهدهم وأثاروا عليه حربا

(٢) إن السلطان وهو حاسد محمداً عليا لا يمكن أن يحفظ عليه ولايته إن اتضح له ضعفه أمام المماليك

(٣) لا يستطيع محمد على أن يبعث بجيوشه لمحاربة الوهابيين ويبقى بمصر بغير جيش فيستهدف لهجماتهم

(٤) لا يتسنى له أن يقوم بالاصلاح الذى ينشده مادام المماليك يعتبرون أنفسهم أصحاب البلاد ، ومَن سواهم دخيلا لا شأن له فيها ، لذلك كان فناء ألفين أو أكثر من المماليك خيراً من جمود وفوضى يلازمان شعبا إلى الأبد .

(٥) إن حكم البكوات المماليك كان مقترنا بالاستبداد والقسوة والاستهتار والفجور

(٦) لم يخرج محمد على عن عادات عصره وأساليبه وقال محمد على نفسه لمن لامه من سياح الافرنج إنه يريد « أن يرسم صورة يضع فيها مذبحة المماليك بجانب حادثة اغتيال دوق دنجين D'Engein [1] ليحكم الناس على الحادثتين »

---

(١) دنجين أحد أفراد أسرة البربون فى فرنسا وحدث أن تآمر الملكيون على نابليون فأراد نابليون أن يرعب البربون (الأسرة الملكية فى فرنسا قبل الثورة الفرنسية) فقبض على دون دنجين وهو برىء وحاكمه محاكمة عسكرية صورية واعدمه وكان القبر معدا قبل المحاكمة

خلاصة موجزة للحوادث من ١٨٠١ – ١٨١١ [1]

١٨٠١ هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر

تولية خسرو على مصر

الربان والصدر الأعظم يحاولان الفتك بالمماليك غدرا فيتصدى الانجليز لهم

١٨٠٢ خسرو يحارب المماليك . وينتصر المماليك فى وقعة دمنهور (نوفمبر) ومحمد على لا يساعد الأتراك

١٨٠٣ جلاء الانجليز بناء على معاهدة اميان التي عقدت سنة ١٨٠٢ وسفر الألفى الى لندن

فرار خسرو إثر فتنة الارناءود ، وتولية طاهر قائد الارناءود نائبا للوالى ، وقتل الانكشارية له — اتحاد محمدعلى والمماليك — تولية احمدباشا والى ينبع وعزله على يد المماليك بعد يوم وليلة ثم مجيء على باشا الجزائرلى

١٨٠٤ قتل على باشا الجزائرلى ، ثم وصول الألفى من انجلترا وطرده — محمد على يتقرب إلى الشعب ويطرد المماليك ، ويولى خورشيد إرضاء للسلطان وتظاهراً بالعفة أمام الشعب — فرمان باخراج الالبانيين (وفيهم محمدعلى) من مصر ، وتمسك الشعب المصرى به ثم خروجه لقتال المماليك فى الصعيد — مجيء الدلاة وفظائعهم

١٨٠٥ رجوع محمدعلى من الصعيد واستمالته رؤساء الدلاة وتودده إلى المشايخ — فرمان بنقل محمدعلى إلى جده ويستمد للرحيل — اعتداء الدلاة على أهالى

---

(١) كتبت هذه الخلاصة لتعدد حوادث هذه المدة واستطرادى فى بحثها

مصر القديمة ـ اجتماع الزعماء فى بيت القاضى ومطالبهم الخاصة بالضرائب والجنود ـ رفض الوالى المطالب ـ قرر الزعماء والشعب من حولهم اختيار محمدعلى واليا على مصر ورفض خورشيدالنزول عن الولاية ودارت حرب بينه وبين الشعب حتى جاء فرمان التولية ٩ يوليه

أول فتك بالمماليك (أغسطس)

١٨٠٦ مجىء الربان وموسى باشا، وتثبيت محمد على فى الولاية (نوفمبر) وموت البرديسى قبيل التثبيت

١٨٠٧ يناير موت الألفى

مارس خيبة دكورث فى الاستانة

٢١ مارس استيلاء فريزر على الاسكندرية من الحاكم التركى

٣١ مارس الفتك بالانجليز فى رشيد

كان محمد على فى الصعيد وتمكن من كسب المماليك إلى جانبه مؤقتا ثم عاد إلى القاهرة

٢١ إبريل نكبة الانجليز فى الحماد، ثم جلاؤهم فى سبتمبر

امتناع المماليك عن أداء الخراج عن الصعيد فحاربهم

١٨١٠ طلب المماليك الصفح واتفاق محمد على وشاهين بك

١٨١١ مذبحة القلعة

حال تركيا منذ أواخر القرن الثامن عشر :

قد وضح مما سقناه من الحوادث ضعف تركيا ولقد تجلى للعالم هذا الضعف منذ أواخر القرن الثامن عشر ، ويرجع إلى عوامل هي :

(١) كانت الدولة مؤلفة من شعوب متباينة دينا وجنسا ولغة (كاليونان والصقالبة والبلغاريين والعرب والمصريين الخ) . ولم تحاول الدولة ادماج هذه العناصر بل تركت لكل شعب من هذه الشعوب مميزاته وشخصيته ، هذا إلى أنها منحت تلك الشعوب قسطا كبيرا من الحكم الذاتى مما أطمعها فى الخروج عليها

(٢) عظم نفوذ الانكشارية ، وفسدت ضمائرهم فشقوا عصا الطاعة ، وأبوا كل اصلاح . وتطاولوا [1] على السلاطين فتضعضعت هيبة هؤلاء فى أعين الدول الاجنبية والشعوب المحكومة

(٣) كان السلاطين (إلا قليلا [1] منهم كالسلطان محمود الثانى) ينفرون من الأساليب الاوربية فى تنظيم الادارة وتجييش الجيوش . وظلوا يستأثرون بالأمر ، ويعتمدون على قوة الجيش لا قوة الشعب ، حتى إذا ما فسد الجيش ، تزلزلت قوة الدولة

(٤) كان حاكما الافلاق والبغدان (رومانيا الحالية) يخصان روسيا بالولاء دون تركيا

(٥) أوهن الدولةَ كثرةُ الحروب التى شنها الروس والنمسويون عليها

---

(١) أراد السلطان سليم الثالث أن يدخل النظام الحديث فى الجندية عام ١٨٠٨ فقام العلماء وساعدوا الانكشارية على الثورة وعزلوا السلطان . وولوا مصطفى الرابع واستبدوا بالأمر ولم يلبث أعداؤهم أن عزلوا السلطان وولوا محمودا الثانى ، وكان محبا للاصلاح

لم تفتر روسيا تلتمس الذرائع لقتال تركيا حتى تنفذ سياسة بطرس وكاترين الثانية التى تقضى بالتهام تركيا .

وإن هذا الضعف الذى فصّلنا أسبابه كان من العوامل التى استخدمها محمد على فى بناء مجده

حرب الوهابيين

نشأ الوهابيين : الوهابيون طائفة اسلامية تنسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب واضع مذهبها ، وقد ولد هذا عام ١٦٩٦ فى العُيَيْنَة من إقليم العارض من نجد ، وكان أبوه فقيها فتربى على يديه على المذهب الحنبلى ثم جاور بمكة والمدينة ومعظم مدن الشرق الكبرى وبخاصة البصرة ، ولما رأى أن الدين الصحيح قد أفسدته بدع ومنكرات ، عزم إصلاحه والرجوع به إلى فطرته وبساطته الاولى ، فوضع مذهبه المعروف بالمذهب الوهابى ، ونجمله فيما يلى —

(١) لا يتوسل الانسان إلا لربه ، ولا يتوسل إلى من مات من الانبياء والأولياء الصالحين ، وان مَنْ يحلف بالنبى صلى الله عليه وسلم يرتكب اثما كبيرا ، كذلك من يلفظ بلفظة « سيد » للنبى فى صلاته ، لأن النبى عبد من عباد الله وعباد الله عند الله سواء

(٢) اغفال الكتب الدينية قاطبة ما عدا القرآن والحديث

(٣) الصلاة خمس مرات فى اليوم . والصوم فى رمضان ، والحج مرة على الاقل ، وتوزيع جزء من مائة من الأموال زكاة على الفقراء .

(٤) هدم المزارات وقباب الانبياء والاولياء وتحريم زيارتها لأنها مظهر من مظاهر الوثنية ، ولأنها تشغل الناس عن مخاطبة الله رأسا .

(٥) تحريم الفسق والخمر ، ومواد التخدير ، والدخان ، والسحر والربا ، ولبس الرجال الحرير والتزين (إذ ذلك من شأن النساء) والترف فى العيش

والنحيب على الأموات ، والعدول عن الحق والانصاف

(٦) أخذُ الذين يخالفون أصول مذهبهم بالشدة الرادعة .

وشرع محمد بن عبد الوهاب ينشر مذهبه ، فاعتنقه بعض من أهل بلدته والبلاد المجاورة ، واشتد على الذين خالفوا مذهبه حتى عدهم كفارا يشركون بالله ، فغضب عليه أمير الحسا وتهدده بالقتل أو النفي ، ولكن بعض أنصار مذهبه في الدّرعية دعوه ليقيم بينهم خوفا عليه ، فأقام ، وكان على الدرعية إذ ذاك محمد بن سعود ، فاعتنق مذهبه وتزوج من ابنته [1] (فولدت له عبد العزيز) وشرع ينشر ذلك المذهب بحد السيف حبا في نشره ، ورغبة في مد سلطانه على جزيرة العرب عن طريقه .

عبد العزيز : خلف أباه وافتتح كربلاء سنة ١٨٠١ وفيها قبور الحسين وأئمة الشيعة ، وهدم المزارات كلها ومن بينها قبر الحسين ، ثم فتح مكة [2] سنة ١٨٠٣ وقتله أحد الاعجام وهو يصلي إنتقاما للفظائع التي ركبها في كربلاء

سعود الثاني : الملقب بسعود الكبير خلف أباه عبد العزيز ، ودخل المدينة سنة ١٨٠٥ وهدم قبر النبي صلى الله عليه وسلم ونهب نفائسه [3] . وماوافى

---

(١) مات الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن ثمانية عشر ولدا من عشرين زوجة وكانت وفاته (١٧٨٧) في الخامسة والتسعين من عمره

(٢) كتب عبد العزيز بن سعود الى السلطان سليم الثالث « من سعود الى سليم . أما بعد فقد دخلت مكة في الرابع من المحرم ١٢١٨ ه وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد ما هدمت ما هناك من أشباه الوثنية ، وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقا ، وثبت القاضي الذي وليته أنت طبقا للشرع الاسلامي ، فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء الى هذا البلد المقدس بالمحمل والطبول والزمور فان ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته »

(٣) يقول الجبرتي عن هذه النفائس انها « ملأت أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت العظيم القدر . من ذلك أربعة شمعدانات من الزبرجد وبدل الشمعة قطعة ماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام ، ونحو مائة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص المطعم بالماس والياقوت ونصالها من الزبرجد والبشم وسلاحها من الحديد الموصوف . وعليها دمغات باسم الملوك والخلفاء السابقين »

عام ١٨٠٩ حتى أصبح مسيطرا على جميع بلاد العرب ، وتعطلت مراسيم الحج لكثرة مافرضه على الحجاج من ضرائب .

التجاء تركيا إلى محمد على : لم تقو تركيا على الوقوف في وجه الوهابيين لضعفها الذى ذكرنا ، فالتجأت إلى محمد على . ليعيد لها فى بلاد العرب ملكا زال وسلطانا ذهبَ ، فقبل محمد على أن يضطلع بهذا الأمر على مافيه من مشقة ونفقة وذلك حتي يحقق الأغراض الآتية : —

(١) أن يرضى السلطان

(٢) أن يتخذ الحرب ذريعة لانشاء قوات بحرية وبرية

(٣) أن يرمى بجنوده الأرناءود فى حرب تفنيهم أو على الاقل تبعدهم عن مصر لأنهم يعارضونه فى اصلاح جيشه على النظام الفرنسى

(٤) أن يفتح طريق الحج للمسلمين ، فيعلو شأنه بينهم .

اعداد الحملة : أدرك محمد على أن سير جيوشه إلى بلاد العرب برًا مجهد شاق قد يفنى فيه الكثيرمن الرجال والدواب ، لهذا فكرفى إنشاء أسطول فى البحر الأحمر ينقل الحملة إلى ينبع فجمع ، الاخشاب فى دار صناعة أقامها فى بولاق ، وهناك صنعت أجزاء خمس عشرة سفينة ونقلتها الابل الى السويس حيث رُكِّبت ، وكان محمد على قائما على تركيب هذه السفن ، فبلغه أن المماليك يأتمرون به ليقتلوه ، فعاد الى القاهرة كما سلف القول ، وفتك بهم فى مذبحة القلعة ، وتفرغ من بعد ذلك لمقاتلة الوهابيين

الدور الأول من الحرب : كانت الحملة التى سيرها محمد على تبلغ خمسة آلاف وغالبها من الأرناءود وقائدها طوسون باشا بن محمد على وهو لايزال يافعا لم يعد الثامنة عشرة ونقل الاسطول الحملة إلى ينبع

ويجدر بنا أن نذكر أن هذه الحرب كانت من أمرّ الحروب التى خاضها محمد على لأنه كان يحارب الوهابيين وهم فى أوج عزهم وتحمسهم ، وعلى رأسهم سعود الكبير ، وفى وسط بلادهم ذات المفاوز المضنية والمسالك المبهمة ، ولأنه لم يتلق مساعدة قط من الباب العالى .

وفتح طوسون المدينة المنورة (١٨١٢) بغير أن يستخدم المدافع احتراما للحجرة النبوية ، ودخل مكة فى السنة ذاتها ، وسلمه غالب شريف مكة مفاتيح الكعبة فأرسلها مع مفاتيح الحجرة النبوية لأبيه فأرسلها هذا الى السلطان

الدور الثانى : غامر طوسون فى التوغل فى داخل البلاد مطارداً الوهابيين ولكنهم تصدوا له وهزموه عند تربة [1] (شرقى مكة وبقربها) وتحرج موقف طوسون وهددت المدينة ، فجاء محمد على بنفسه فى مدد (١٨١٣) [2] وتسلم القيادة وساعدت العناية محمداً عليا بموت سعود الكبير (ابريل ١٨١٤) وتولى ابنه عبد الله وكان خائر العزم ضعيفا ، فقهره محمد على عند تربة ولم يبق أمامه إلا الدرعية ، ثم جاءت الأنباء بفرار نابليون من البا ، فخشى محمد على أن تنشب الحرب الاوربية من جديد ، وخيل اليه أن نابليون قد يفكر فى حملة جديدة لغزو مصر ، كذلك أبلغه الكخيا محمد بك لاظ أن لطيفا [3] باشا أحد ضباطه كان يتآمر على قتله ليلى أمر مصر ، ولكن الكخيا قتله .

---

(١) كانت بين الوهابيين سيدة تدعى غالية وكانت تحثهم على الجهاد وتتقدم صفوفهم ، فجاهدوا حتى ظفروا

(٢) ورأى محمد على فى مسلك غالب تذبذبا بين الفريقين فقبض عليه وأرسله الى الاستانة أسيراً وهناك قتل (وفى رواية أخرى انه نفى الى سلانيك حيث توفى)

(٣) كان لطيف أغا أحد مماليك محمد على المقربين فأرسله الى الاستانة ليبلغ السلطان سقوط المدينة فى يد طوسون ، فمنحه السلطان رتبة الباشوية سرورا بما سمع فاغتر لطيف وحرضه بعض رجال السراى على دم محمد على ولى نعمته ، ولما عاد الى مصر شرع يستكثر من الاتباع والمماليك ، فداخل الكخيا الريب . وقبض عليه وعقد ديواناً من كبار رؤساء الحكومة وقضى باعدامه ، فأعدم تحت سلم سراى القلعة

ويرجح بعض المؤرخين ان المؤامرة لم توجد الا فى مخيلة الكخيا ، فهو يكره المماليك ولطيف أحدهم . وزاد كرهه له لما رجع من الاستانة مزهوا بنفسه مفتونا برتبته فألصق به تهمة المؤامرة وقتله . ويؤيد هؤلاء المؤرخين ان السلطان كان فى حاجة فى ذلك الوقت الى سيف محمد على ليرد له بعض ملكه المفقود ، فلا يعقل أن يحرض على قتله .

لكل هذا عاد محمد على الى مصر عجلا ودخل القاهرة فى ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ (أى فى يوم واترلو)

أما عبد الله بن سعود فقام يعرض على طوسون الصلح رغم مناعة موقعه فقبله طوسون مشترطا أمورا أهمها: أن يحتل المصريون الدرعية وأن يكون عبد الله تابعا لحاكم المدينة المنورة وأن يعلق الصلح على موافقة محمد على ولكن محمد على تشدد فى أن يعامل عبد الله معاملة الخوارج العصاة وأن يسلم عبد الله نفسه[1] للسلطان ، فرفض عبد الله تسليم نفسه لأن ذلك سيؤدى حتما الى حز رقبته ، فعادت حالة الحرب

وفى أثناء ذلك كان محمد على فى مصر يحاول ادخال النظم الفرنسية فى جيشه ولكن الجيش ثار عليه وكاد يفتك به لولا أن اعتصم بالقلعة ولما سمع طوسون بهذا الخبر سارع الى مصر ليعاضد أباه ودخل القاهرة فى نوفمبر ١٨١٥ ومات فى سبتمبر ١٨١٦[2]

الدور الثالث : أرسل محمد على ابنه ابراهيم (سبتمبر ١٨١٦) ليتم اخضاع الوهابيين . وقد أظهرت هذه الحرب مواهب ابراهيم العظيمة ، تلك المواهب التى رفعته الى مرتبة الأبطال وكبار الفاتحين .

أردف ابراهيم النصر بالنصر حتى بلغ الدرعية وألقى عليها الحصار . وكانت مؤلفة من خمسة أحياء يحيط بكل منها سور . وطال الحصار[3] نحو ستة أشهر

---

(١) لعل محمدا عليا أراد أن يقضى على دولة الوهابيين قضاء تاما كى يبسط حكمه على بلاد العرب

(٢) لما رأى محمد على تمرد الجند عليه شتتهم فى الأقاليم حتى لا يتجمعوا عليه ، وجعل طوسون على رأس فرقة منهم تعسكر فى برنبال بقرب رشيد وهنالك انغمس فى الترف واللذات كأنه أراد أن يعوض ما قاسى فى بلاد العرب ، وانتابه مرض عجل به فى عشر ساعات وكان محبوبا عند الجنود والأهالى وكان أبوه يحبه حبا جما ويرى فيه صورته المصغرة

(٣) حدث أثناء الحصار أن هبت عاصفة أطارت شرارة من نار موقد

(ابريل — سبتمبر ١٨١٨) حتى سلم عبدالله وجاء الى معسكر ابراهيم فأرسله إلى أبيه فأكرمه[١] ثم بعث به الى السلطان فطيف به في الاستانة ثلاثة أيام ثم قتل

وخلع السلطان على ابراهيم خلعة شرف وسماه واليا على مكة ، ومنح محمدا عليا لقب « خان » وهو لقب لم يمنح لأحد من وزراء الدولة إلا خان القرم، وظلت بلاد العرب خاضعة لنفوذ محمد على حتى أواخر عهده .

نتائج الحملة (١) كوّن محمد على اسطولا للبحر الاحمر (٢) قضت الحملة على كثير من الالبانيين (٣) علا شأن محمد على بين المسلمين إذ فتح لهم طريق الحج (٤) نجح محمد على فى الذى أخفق فيه السلطان فحقدهذا عليه رغم ماأظهره من علامات الرضا (٥) كاد العرب (الوهابيون) يتغلبون على الترك ، ولكن جهود محمد على قلبت كفة الميزان . ولولا ذلك لتمت الغلبة للعرب ولتغير وجه التاريخ (٦) قضى محمد على على سلطة الوهابيين السياسية أما الدينية فبقيت لهم حتى ظهرت اليوم فى مظهر سياسى جديد .

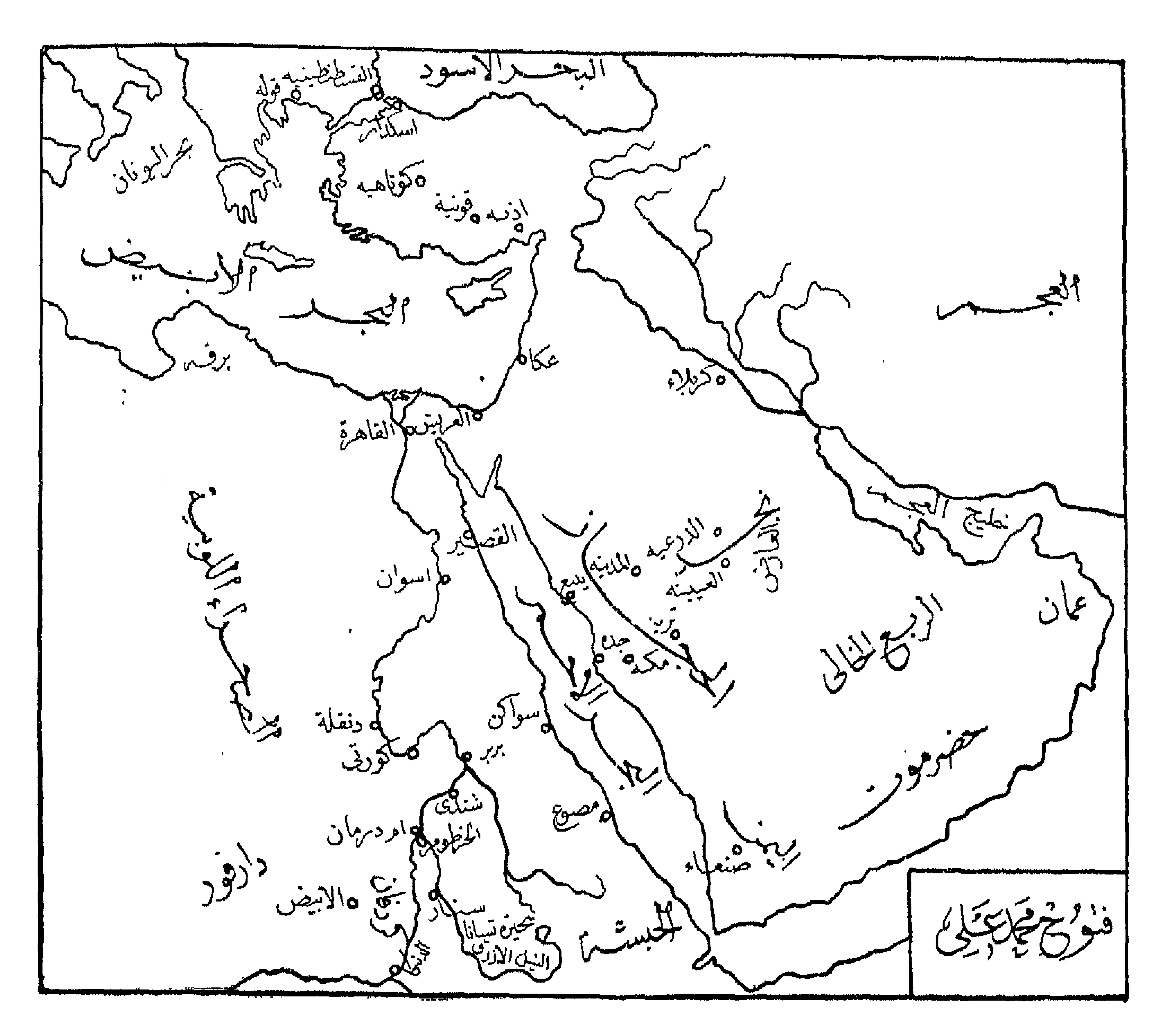
اصلاحات محمد على الداخلية

كانت مصر فوضى قبل أن يلى محمد على أمرها وكأنها كانت خلوا من الحكومة . فاستبدل بالفوضى نظاما وبالاضطراب حكومة ، وقد لاقى

فأحرقت خيمة وامتدت النيران إلى مخزن للذخيرة فانفجر وكان بالمخزن نصف ذخيرة الجيش فاغتم الجنود ولكن ابراهيم تجلد وتماسك وقال « لم يبق لنا بعد إلا الشجاعة . فلندرع بها ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض »

(١) استقبله محمد على فى قصره فى شبرا ووقف له وأجلسه بجواره وقال له « ماهذه المطاولة » فقال « إن الحرب سجال »قال « فكيف وحدت ولدى ابراهيم » أجاب « ما قصر وقد فعلنا نحن فعله حتى كان ما قدر الله » قال « اشفع لك عند الخليفة إن شاء الله » قال « ما قدر يكون »

فى ذلك مصاعب ومتاعب ويقول عن نفسه « إن ثمرة أعمالى سيجنيها أحفادى من بعدى » فكأنه كان يشعر بثقل العبء الذى أخذه على عاتقه . وحسبنا ما قاله عنه السير شارلس مرى[1] « إن العالم الاسلامى منذ فناء دولة العرب



الزاهرة من بلاد الأندلس لم يظهر فيه حاكم يضارعه في أعماله وصفاته ، فمثله مثل صلاح الدين فى عدله وتسامحه الدينى ويفوق أشهر خلفاء بغداد فى

---

(١) قنصل انجلترا فى مصر عام ١٨٤٤

خبرته وتنوره » . ذلك بعض ما يقال عنه وهو ذلك الأمى الذى لم يقرأ إلا وجوه الرجال كما يقول عن نفسه

ولئن أخطأ محمد على بعض الأخطاء الاقتصادية ، فله العذر كل العذر فهو لم يتعلم ، ولم يكن ملما كل الالمام بمدنية أوربة ، وكان فوق ذلك موزع الجهود بين انشاء وإصلاح

نظام الحكومة

المجالس التنفيذية : — بدأ محمد على يصلح الحكومة منذ عام ١٨٢٦ فأنشأ بالتدريج سبعة دواوين (مجالس) تنفيذية لتنظر في شئون الحكومة المختلفة [1] وهذه المجالس هى :

الديوان العالى أو الخديوي ومقره بالقلعة ويرأسه هو بنفسه وينوب عنه الكتخدا (وكيل الوالى) فى غيبته

ويتداول الديوان فى شئون الحكومة الداخلية العامة قبل الشروع فى تنفيذها ، وكان له الاشراف والرآسة على مصالح منوعة ، منها مصلحة الابنية والخبز الملكى ، والكيلار العامر ، والسلخانة ، وديوان المواشى ، وبيت المال والاوقاف والبوسته (الخ)

ولهذا الديوان اختصاص قضائى إذ يفصل فى القضايا التى يعرضها عليه ضابط القاهرة بعد تحقيقها فى مخافر الشرطة (القره قولات) بشرط ألا تكون من اختصاص القاضى الشرعى

والدواوين الستة الاخرى هى بمثابة فروع للديوان العالى . وهى :

---

(١) فى سنة ١٨٣٧ وضع محمد على قانونا سياسيا يعرف بقانون الساستنامة أوضح فيه نظام الحكومة وحدد اختصاص كل ديوان من هذه الدواوين

ديوان الايرادات وديوان الجهادية ، وديوان البحر ، وديوان المدارس ، وديوان الامور الافرنكية والتجارة المصرية ، وديوان الفابريقات . ورؤساء هذه الدواوين تقدم تقريراتها للوالى كل خميس

وأنشأ فى ١٨٤٧ المجلس الخصوصى واختصاصه النظر فى شئون الحكومة الكبرى وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، فهو بمثابة مجلس الوزراء ورئيسه ابراهيم باشا [١]

الهيئة الشورية : جميع المجالس المتقدمة هى مجالس تنفيذية تتكون فى الجملة من كبار الموظفين ، وليست هيئات شعبية ، ولكن هناك هيئة واحدة أنشأها محمد على عام ١٨٢٩ ويصح اعتبارها نواة للنظام النيابى وهذه الهيئة هى مجلس المشاورة الملكى (أو مجلس المشورة) ويتكون من ١٥٦ عضواً [٢] من بينهم كبار الموظفين والعلماء والأعيان برآسة ابراهيم باشا ، ويعينهم الوالى بنفسه ، وتعرض عليهم القوانين قبل سنها ، ورأيهم استشارى . ورغم هذه المجالس المتعددة كان محمد على كنابليون مستبدا ، ولكنه كان المستبد المصلح

التقسيم الادارى : قسم محمد على القطر بعد مسحه (١٨١٣) الى سبع مديريات يحكمها مديرون باشوات أو بكوات من الاتراك لهم (كساوى) لرتبهم ، وقسم المديريات الى مراكز يحكمها مأمير من الوطنيين لهم وسامات من ماس ، وقسم المراكز الى أقسام أو أخطاط يحكمها نظار لهم أوسمة من ذهب ، وقسم الاقسام الى قرى عليها مشايخ لهم وسامات من فضة ، وجعل فى كل قريه بجانب شيخ البلد (الخولى) ووظيفته الاشراف على الزراعة ومسح اطيان القرية ، والصراف وعمله جمع الاموال وتقديمها للمأمور ، والشاهد وهو (المأذون)

---

(١) وأعضاؤه كتخدا باشا (عباس باشا حفيد محمد على) واحمد باشا يكن وحسن بك رئيس جمعية الحقانية وبرهان بك .

(٢) الوقائع الرسمية : عدد ٤٩

النظام القضائى : لم يُدخل محمد على إصلاحا فى هذا النظام ، غير انه جعل للديوان العالى اختصاصا قضائيا (كما ذكرنا) وأنشأ هيئة تسمى جمعية الحقانية [1] وهى بمثابة محكمة جنايات وجنح ، وأنشأ محكمة تجارية [2] ، وكان المديرون يجمعون بين السلطتين الادارية والقضائية

وكان من أثر الاصلاح الذى أدخله محمد على فى الحكومة ان استتب الأمن وساد النظام ويقول السير شارلس مرى « لانزاع فى انه صاحب الفضل الكبير واليد البيضاء على السياح والأجانب فهو الذى مهد لهم سبيل الأمن فى مصر حتى جعلها تضارع من هذا الوجه اقليم يوركشير »

الشئون الاقتصادية والمالية

نظام الملكية قبل عهد محمد على : لما فتح السلطان سليم مصر قرر ان أرض مصر جميعا أصبحت ملكا له ، وان أصحابها لايمتلكون عينها ، بل حق الانتفاع بها فقط ، فكأنهم قد أصبحوا مستأجرين لها ، فاذا ماتوا عادت أرضهم إلى بيت المال إلا إذا اشترى ورثتهم حق الانتفاع من جديد بدفع قدر معين من المال . لذلك عيّن السلطان موظفا خاصا يُعرف بالدفتردار لتسجيل جميع أراضى القطر (بعد مسحها) ، وفرض على كل فدان [3] ضريبة معلومة

غير ان المماليك استعادوا نفوذهم فى مصر (كما بينا) وصار لهم نحو ثلثى

---

(١) مكونة من رئيس وستة أعضاء منهم : اثنان من أمراء الجهادية واثنان من البحرية واثنان من ضباط البوليس

(٢) مكونة من رئيس وباشكاتب وكاتب وثمانية أعضاء من التجار خمسة منهم من الوطنيين وثلاثة من الأجانب ، وكان بكل من الاسكندرية والقاهرة محكمة من هذا النوع

(٣) اعتبروا مساحة الفدان ٤٠٠ قصبة مربعة

أرضها، ووُقف كذلك جانب كبير من الأرض على المساجد والمعاهد يشرف عليه جماعة من المشايخ والعلماء [1]، وما بقى من الأرض بعد كل ذلك فهو للحكومة - أى للسلطان - وقد عجزت الحكومة عن جباية الضرائب من أرضها من جرّاء سوء الادارة وإهمال الاشغال العامة ، فلجأت إلى **نظام الالتزام** وهو ان يلتزم من يشاء من ذوى المكانة فى البلاد بجمع خراج بلدة أو عدة بلاد ، ويحدّد ذلك الخراج إما بالمزايدة أو بالاتفاق ، ويدفع الملتزم سلفا مال سنة واحدة ويُعطى وثيقة (عقد) الالتزام[2] وهذه تخوله حق التصرف فى القرى الداخلة فى دائرة التزامه لانه كان يحل محل الحكومة فى السيادة على هذه الدائرة . ويُعطى كذلك رُقعة [3] لاهل دائرته تلزمهم طاعته ودفع مايفرضه عليهم ، والادارة تساعده ان دعت الحاجة . وقد تطور الالتزام فبعد أن كان لسنة واحدة أو لمدة سنوات صار يعطى مدى الحياة [4]. ودائرة الالتزام قسمان : — قسم يعرف باطيان الفلاحين لان الفلاحين كانوا يستغلونه ويدفعون للملتزم الايجار المفروض عليهم ، ومن هذا الايجار يدفع الملتزم الضرائب للحكومة . وللابن أن يرث أباه فى استغلال أرضه وليس للفلاح المستغلّ للأرض أن يتصرف فيها بالبيع . وليس له أن يتخلى عنها . (٢) وقسم ويسمى أوسية (وسية) ويعفَى الملتزم من دفع ضرائب عنه جزاء ما ينفقه على الأشغال العامة (كتطهير الترع وصيانة السواقى) وعلى المساجد والمدارس وايواء الضيفان . ويقوم الفلاحون بخدمة أوسية الملتزم سخرة بلا أجر

---

(١) لقد انتشر نظام الوقف فى العهد العثمانى إذ كان الوسيلة الوحيدة التى يأمن الناس بها على ممتلكاتهم من عسف المماليك

(٢) كانت تسمى تقسيطاً

(٣) هذه الرقعة (أى الخطاب) كانت تسمى « فاميك »

(٤) وإذا مات الملتزم يستطيع ورثته استبقاءها إذا دفعوا للحكومة إتاوة

نظام الملكية في عهد محمد علي : اعتزم محمد علي أن يمتلك أرض مصر جميعا : فاستولى على بعض ممتلكات المماليك في الوجه البحرى بعد التخلص من حملة فريزر ١٨٠٧ ثم استولى على بقية ممتلكاتهم بعد مذبحة القلعة ١٨١١، ثم حل محل العلماء في (نظارة) الأراضي الموقوفة بحجة أنه أجدر الناس بهذه (النظارة) لأنه نائب عن خليفة المسلمين في مصر (ولا يزال الوقف حتى اليوم تشرف عليه أسرته) ، ثم استولى على أراضي الملتزمين بأن طلب اليهم أن يطلعوه على وثائقهم فقدموها اليه ، فأبادها وأرضى الملتزمين بوسيلتين :–

(الاولى) انه أبقى لهم أوسياتهم مدى حياتهم معفاة من الضرائب (ولكنهم لا يورثونها أعقابهم [1])

(الثانية) وأجرى عليهم رواتب سنوية توازى ما كانوا يربحونه [2] من الالتزام .

وهكذا أصبح محمد على محتكر الأرض إلا جزءا صغيرا كان في يد بعض الأمراء والعلماء ، وعهد إلى ابنه ابراهيم أن يشرف على مسح أرض القطر فمسحت عام ١٨١٣ ، فكان مسحها من أجل أعماله العمرانية ، ثم وزع الارض على الفلاحين ، فأعطى كل فلاح من ثلاثة إلى خمسة أفدنة يستغلها هو وذريته مادام يدفع ما يفرض عليها من الضرائب وترك لمشايخ القرى ٥ ٪ من مجموع أراضي قراهم في نظير خدماتهم للحكومة وايوائهم

---

(١) وقف كثير من الملتزمين أوسياتهم حتى لا يحرم ورثتهم ريعها حتى اضطر سعيد باشا عام ١٨٥٥ إلى تخويل أصحاب الأوسيات حق توريثها أعقابهم إلى أن تنقرض ذراريهم فتعود إلى الحكومة

(٢) كانت هذه الأرباح تسمى « الفائض » وسلك محمد على سبيل الدهاء في تقدير الفائض لكل ملتزم وذلك أنه قبل أن يعلن عزمه على إلغاء الالتزام طلب إلى الملتزمين أن يطلعوه على « فائضهم » أى أرباحهم فظنوا أنه يريد أن (يربط) عليهم ضرائب أكثر من التي يدفعونها ، فأنقصوا أرباحهم إلى أقل حد ممكن ، فحدد محمد على رواتب لهم مساوية لأرباحهم التي قدروها بأنفسهم. فما أوسع حيلته !

من ينزل بدورهم من الموظفين ، ويسمى ما يترك للمشايخ « مسموح المشايخ » أو « مسموح المصطبة » . وتسمى الأراضى التى وزعت على الفلاحين بالخراجية [1] .

وهكذا تحقق حلم محمد على الذى رآه فى صباه فى قوله ، إذ رأى نفسه يكرع كل ماء النيل فلا يرتوى .

نظام الاحتكار : كان الاحتكار أساس النظام الاقتصادى الذى أنشأه محمد على فى مصر ، ولنتبع ذلك الاحتكار : —

ا — احتكر محمد على **معظم أرضه مصر** باستيلائه على أرض المماليك والاوقاف والملتزمين بالوسائل التى سلفت

ب — واحتكر **محصولات الأرضه** أيضا ، وذلك لأن الفلاحين صاروا كأنهم مستأجرو الارض التى يزرعونها وكان هو يمدهم — على نحو ما كان يفعل الملتزمون من قبل — بالآلات والمواشى وماء الرى والبذور على أن يكون ثمنها دينا عليهم وكان يعيّن (عن طريق مأموريه) أنواع المحصولات التى تزرع فى كل بقعة من بقاع مصر ، ويشرف الخولى على زراعتها ، ويحظر على الفلاحين أن يبيعوا للتجار شيئا من محصولاتهم ، وانما تجمع جميع المحصولات فى مخازن للحكومة ويقدر أثمانها موظفون ، وتستولى الحكومة على جزء منها نظير الآلات والمواشى والبذور والضرائب المقررة ، والباقى تشتريه اذن فالحكومة كانت تحتكر الغلات

---

(١) هناك نوع من الأرض يسمى (ابعاديات) وسميت كذلك لأنها استبعدت عن مساحة فك الزمام التى عملت سنة ١٨١٣ وقدرها كلوت بك بنحو مائتى ألف فدان وكانت بورا فأقطعها محمد على لكثير من الموظفين والأعيان وأعفاهم من الضرائب عنها ليستغلوها فتزداد مساحة أرض مصر المنزرعة

أما الشفالك فكانت ابعاديات كبرى خص بها أفراد أسرته وكبار حاشيته

وجدير بنا أن نذكر أن الحكومة لم تحتكر من أنواع المحصولات إلا القطن والارز والنيلة والافيون والسكر أما معظم الحبوب فقد تركت للفلاحين يتصرفون فيها

حـ ٤ ى: قلنا إن الحكومة كانت تستولى على جزء من المحصول نظير الآلات والمواشي والبذور والضرائب، والباقي تشتريه، لتستخدم جانبا منه فى مصانع أنشأتها *لتحتكر الصناعة*[1] والجانب الآخر *تبيعه للأهالى وللتجار الأوربيين*

ومما تقدم يتضح أن محمدا على احتكر الأرض ومحصولاتها كما احتكر التجارة والصناعة. وللاحتكار فوائد ومضار: فمن فوائده: —

(١) استطاع محمد على أن يحسن طرق الزراعة ويشرف عليها ويمد الفلاحين بالآلات الحديثة، ويُدخل محصولات جديدة من شأنها أن تزيد فى ثروة مصر، ومن هذه المحصولات القطن الحديث[2] والنيلة[3]

---

(١) من الصناعات التي احتكرها محمد على القطن والكتان والحرير، (والقصب والتلى) والصابون الخ

(٢) كان القطن معروفا فى مصر قبل عهد محمد على ولكنه كان من صنف ردىء. وكان يزرع فى الدلتا سنويا أما فى الوجه القبلى فكان يزرع ويبقى قائما على سوقه مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنوات. ففي السنوات الثلاث الأولى يزرع بين شجراته بعض الخضر لاسيما البامية. وفى السنوات السبع الباقية تبقى شجيراته قائمة وحدها وكان هناك صنف نادر يزرع فى الحدائق ويفوق القطن العادى فى نعومته وطول تيلته. وكان محصوله قليلا إذ يزرع كالفا كهة فى الحدائق وتغزله النسوة فى البيوت وحدث أن استقدم محمد على مسيو جومل Jumel الفرنسى لتنظيم النسيج (١٨٢١) فوجد جومل هذا النوع الجيد فى حديقة محو بك أحد كبار الحكام فى عهد محمد على فأشار بزرعه فى المزارع بعد أن كان لايزرع إلا فى الحدائق وصار يعرف بقطن محو أو قطن جومل. ثم استجلب محمد على بذوراً أخرى جديدة من الهند ومن أمريكا.

(٣) كانت زراعتها معروفة فى مصر، ولكن محمد على استجلب عام ١٨٢٦ بزور النيلة الهندية واخصائيين فى زراعتها من جزائر الهند الشرقية

والخشخاش (الأفيون) [1] والدخان، كذلك استطاع أن يزرع الغابات والحراج ليستمد منها الأخشاب ويستكثر من زراعة الزيتون ليستخرج منه الزيت وليكون للجنود والبحارة غذاء صالحا ، ويوسع نطاق زراعة القنب (التيل) لعمل الحبال ويعنى بفلاحة البساتين، ولا شك أن الفلاح لو ترك وشأنه لما أقبل بل لما فكر في ادخال الآلات والمحصولات الجديدة .

(٢) لو ترك الفلاح حراً في بيع منتجات أرضه ، لخدعه التجار في الأسواق وباعها بأثمان بخسة أما محمد على — وهو تاجر من قديم — فقد استطاع أن يبيعها في أسواق أوربة ، وكان له من ذلك ربح وافر

(٣) إن الأرباح التي كان يجنيها محمد على من الاحتكار مكنته من القيام باصلاحاته ومنشآته ، ومضار الاحتكار هي : —

(١) حرم الفلاح الاستمتاع بحقه الطبعى في التصرف في ملكه ، وذلك مناف لأبسط قوانين العدالة

(٢) كان عمال الحكومة يقدرون أثمان الغلات تقديرا دون التقدير النزيه فلحق الفلاح من وراء ذلك خسارة . وكان لا يعطى ثمن محصوله نقداً بل يرغم في احيان كثيرة أن يستبدل به مصنوعات من مصانع الحكومة ترويجا لها (وقد يكون في غير حاجة إليها) . وقد يحتاج فيما بعد إلى شراء سلعة كالتي اشترتها الحكومة منه فيبذل في شرائها ثمنا أكبر من الذى باع به

(٣) حرم الفلاح الانتفاع بتزاحم التجار على الشراء

(٤) كان في البلاد صناعات يتولاها الأفراد ويربحون من بيع مصنوعاتهم، فلما احتكر محمد على هذه الصناعات واتخذ صناعها اجراء يعملون لحسابه فترت [2] همتهم لأنهم يعملون لغيرهم لا لأنفسهم .

---

(١) استحضر محمد على بعض الأرمن لزراعته

(٢) قدر المسيو مانجان أن الصناع كانوا يربحون من صناعاتهم قبل الاحتكار نحو ١٥٠٫٠٠٠ جنيه

(٥) قتلت روح الاقدام فى نفوس الافراد سواء أكانوا زراعا أم تجاراً أم صناعا فضرب على الناس حجاب من جمود وخمول .

وقد ظل الاحتكار قائما حتى ولى عباس ، فألغى احتكار التجارة ولما ولى سعيد ألغى مابقى منه لما يلحق الناس من اضراره

(٦) الزراعة ومنشآت الرى : أدرك محمد على من بداءة الامر أن مصر بلد قائم على الزراعة فوجه اليها القسط الأكبر من عنايته ، فأدخل محصولات جديدة واستجلب لها الزراع الاخصائيين . وأنشأ القناطر والجسور والحيضان (والهواويس) وحفر الترع الكثيرة .

وأجل أعمال محمد على فى هذا الباب القناطر الخيرية ، لذلك نبدأ بذكرها وإن كانت آخر منشآته الخاصة بالرى . وكان الغرض من انشائها ضبط ماء النيل الذى كان يضيع منه جانب كبير هدراً فى البحر وفى الاراضى غير الصالحة للزراعة التى يرويها الفرع الغربى ، وضبط هذا الماء حيوى للزراعة فى الدلتا صيفا (أى زمن التحاريق).

وعلماء الحملة الفرنسية أول من فكر فى مشروع القناطر ، وقال عنه نابليون « ان هذه الفكرة لابد أن تخرج يوما الى حيز الوجود ». وكانت من أكبر الأمور التى حدت بمحمد على الى انشائها رغبته فى تنشيط زراعة القطن فى الوجه البحرى ، اذ أن القطن ينمو فى الصيف ، والصيف يقل الماء فيه

وأمر محمد على باشا مهندسه الفرنسى لينان باشا أن يدرس المشروع وينفذه (١٨٣٥) فصدع بما أمر به ، وبدأ فى اقامة القناطر ، وظل العمل جاريا زمنا تتخلله [1] فترات عطل فيها حتى تم فى عهد سعيد ، وقد تعاقب

(١) أبطأ لينان فى العمل لان مالية الحكومة لم تكن تسمح بالانفاق على المشروع دفعة واحدة وضجر محمد على من البطء حتى أمر بوقف المشروع واستخدم ما بقى من المواد المعدة له فى أعمال أخرى ، وظل المشروع موقوفا حتى جاء مصر

على الإشراف على بنائها ثلاثة من أعظم المهندسين وهم لينان باشا (Linan) وموجل بك (Mougel) ومظهر بك ، وبلغت نفقاتها نحو ۱٫۸۰۰٫۰۰۰ جنيه عدا أعمال السخرة .

وأنشأ محمد على ترعا كثيرة أهمها ترعة [1] المحمودية (نسبة الى السلطان محمود الثانى) بين فرع رشيد والاسكندرية . ولانشاء هذه الترعة فوائد منها : —

مهندس فرنسى آخر هو المسيو موجل فأعد لبناء القناطر مشروعا جديداً سحر محمداً عليا إذ تضمن انشاء قلاع على القناطر ترد من أراد بالبلاد سوءا

ويختلف تصميم موجل عن تصميم لينان فى أن لينان كان يرى إنشاء القناطر على اليابسة بعيدا عن المجرى الاصلى للفرعين حتى إذا ما تم انشاؤها حول الفرعين اليها بحفر مجريين جديدين ، ولكن موجل بك رأى انشاءها مباشرة فى حوض النهر ومات محمد على ولم يتم المشروع بعد ، وعزل عباس الاول موجل بك لبطء العمل وأحل مكانه مظهر بك وقد أراد عباس الاول أن يقتلع أحجار الهرم الكبير لاستخدامها فى بناء القناطر ، ولكن أقنعه المهندسون أن نفقات اقتلاعها من الهرم تزيد على نفقات اقتطاعها من المحاجر . وتم انشاء القناطر عام ۱۸٦۱ فى عهد سعيد ولكن كان فيها من الخلل ما يحتاج الى الاصلاح وقد أصلحت فى عهد الاحتلال عام ۱۸۹۱ وجيء بموجل بك من باريس ليشرف على أعمال الاصلاح وقد بلغ الخامسة والسبعين من عمره

(۱) كانت هناك قبل أن تنشأ ترعة المحمودية ترعة تسمى خليج (أى ترعة) الأشرفية وكانت تأخذ مياهها من النيل عند الرحمانية وتصب فى البحر عند الاسكندرية ولكن طمرتها الأتربة والرمال فحفرها محمد على من جديد وجعل مبدأها عند العطف لا الرحمانية ، وأشرف على حفرها المهندسان الفرنسيان كوستا وماسه وبلغت نفقاتها نحو ۳۰۰٫۰۰۰ جنيه وسخر فى حفرها ۳۱۳٫۰۰۰ من الفلاحين لمدة عشرة أشهر وهلك منهم نحو اثنى عشر ألفا جوعا وإعياء ودفنوا على ضفتى الترعة تحت أكداس التراب الذى كانوا يرفعونه من قاعها ، ويقول الجبرتى (وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه الروح)

(١) كانت الأراضي التي تمر فيها الآن الترعة صحراء جرداء لا تنبت ، فلما شقت هذه الترعة صارت تلك الارض مزارع وعمرانا

(٢) أحلت الترعةُ الاسكندرية محل رشيد ودمياط فقد كانتا ثغرين تجاريين ولكنهما كثيراً ما تراكمت فيهما رواسب من غِرْيَن (طمى) النيل ورمل البحر فصارتا غير صالحتين للسفن الكبيرة التي تتاجر بين مصر والبلاد الاجنبية ، وبدأت الاسكندرية من ذلك الحين عظمتها التجارية والعمرانية ، وأمر محمد على موجل بك باصلاح مرفئها وبُنيت فيها دار صناعة هائلة (ترسانة) وأحواض لبناء السفن

(٣) صارت هذه الترعة طريق نقل المحصولات بين مصر والاسكندرية حتى انشئت السكك الحديدية

(٤) أمدت أهل الاسكندرية بماء الشرب ، وكانوا يشربون من الآبار من قبل

وقد نجح محمد على نجاحا كبيراً في جهوده الزراعية . فقد كانت مصر لاتزرع أكثر من مليون فدان ، فما انقضى عهده حتى زرعت نحو أربعة أمثال هذا القدر .

منشآت الصناعة: قام محمد على بانشاء المصانع الكبرى واستخدم الفرنسيين للاشراف عليها حتى تعلم المصريون منهم ، فأنشأ ١٨ معملا لغزل القطن ونسجه ، أهمها جميعا معمل بولاق الذى كان يطلق عليه (معمل مالطة) لكثرة المالطيين فيه وكان رئيسه مسيو جومل ، وأنشأ معملا للجوخ في بولاق وآخر للطرابيش بفوه يديره رجل مغربي وآخر للصابون ومعامل أخرى للسكر ومعاصر للزيت ، واجتهد في انماء دودة القز لصناعة الحرير فزرع اشجار التوت بكثرة وجلب اناسا يعرفون تربية دودة القز ، وأنشأ مصانع للاسلحة والذخائر ، واهم هذه المصانع مصنع القلعة ، وهو في نظامه كأحسن مصانع فرنسا .

والذى لفت محمد على الى إنشاء هذه المصانع أمور هى : —

(١) أشار عليه مسيو بكتى ممثل السويد بـ « مشروع الاستقلال الاقتصادى » الذى يقضى بانشاء مصانع تغنى مصر عن استيراد مصنوعات أوربة

(٢) وجود المواد (الخام) كالقطن والحرير والتيل وصبغة النيل (النيلة) واصباغ أخرى تستخدم فى النسيج

(٣) رخص أجور العمال فى مصر

(٤) حاجة جيشه الكثيف وأسطوله الضخم الى الملابس والأسلحة والذخائر

غير أن محمداً عليا فاته أن مصر تفتقر إلى المعادن والوقود ، لهذا كانت الصناعات تكلفه الأموال الطائلة وكانت السلعة بعد صنعها أغلى من مثيلتها لو اشتريت من أوربة ، غير ان الغرم كله كان على خزانة الحكومة لأنها كانت المالكة لجميع المصانع ، ولقد اضمحلت تلك المصانع على التدريج وبخاصة لما نقص الجيش بعد ١٨٤١ ، ولم تضمحل جملة واحدة لأن الوالى كان يروّج مصنوعاته بأن يقدم للفلاحين بدل حاصلاتهم سلعا من معامله

وبعد عهد محمد على زار مهندس انجليزى بولاق فالفى فيها آلات مهملة صادئة قدرها بأكثر من مليون جنيه

وزالت البقية الباقية من المصانع فى عهد عباس الاول .

ومهما يكن افتقار مصر الى الوقود والمعادن ، فاننا نستطيع أن نقول ان انشاء بعض الصناعات كالطرابيش وبعض المنسوجات والسكر والصابون والزجاج مستطاع وحيوى لمصر [1] وبخاصة عند ما نستخدم الكهرباء فى ادارة الآلات

---

(١) قام أبناؤنا الطلبة عامنا هذا (١٩٣٢) وألفوا لجنه تسمى « لجنة مشروع القرش » وجمعت من الناس (قروشا) لانشاء مصانع ، وقد بدأت عملها المبارك باقامة مصنع للطرابيش فى العباسية

التجارة : رأينا أن الحكومة تحتكر غلات الأرض لتنتفع بجانب منها فى معاملها وتبيع الجانب الآخر فكان لها من وراء هذا البيع ربح وافر

وقد بذل محمد على همة كبرى فى تنشيط التجارة داخل القطر فقد عبّد الطرق وكانت من قبله مهملة[1] ، وأنشأ الترع ، وأبعدُها أثرا ترعة المحمودية واستكثر من السفن ، ولما أدخل البخار فى السفن ، أمر بسفينة تجارية فبنيت له ، وراجت تجارته في الخارج كذلك ، إذ فتحت جيوشه أسواقا لتصريف بضائعه (كالسودان وبلاد العرب والشام) وحمت أساطيله تجارته فى البحرين الأحمر والأبيض ، وأصلح مرفأ الاسكندرية حتى صار صالحا لرسو السفن الكبرى ونصح له بعض الفرنسيين ان يشق فى برزخ السويس قناة فقال « لا أريد أن أجعل وادى النيل طريقا دوليا » وقال أيضا « أخاف أن تكون هذه الترعة بسفورا آخر » ، وهو وإن كان قد رفض شق قناة السويس الا انه فكر فى اعادة الطريق التجارية[2] البرية بين الهند والشرق الأقصى وبين أوربة ، فطهر البحر الأحمر من لصوص البحر ، ووطد الأمن فى الصحراء بين السويس والقاهرة واتخذ من الابل وسيلة للنقل بين المدينتين وحفر ترعة المحمودية (التى ذكرناها).فصارت التجارة تنتقل آمنة من الهند الى السويس بحرا،ثم على ظهور الابل فى الصحراء الى القاهرة ثم فى النيل وترعة المحمودية حتى تبلغ الاسكندرية ومنها الى أوربة. وأنشأ بين القاهرة والاسكندرية على طول الطريق محاطّ للبريد والرسائل

---

(١) كان الأتراك قبل عهد محمد على يعتقدون أن الطرق الممهده تسهل نقل المدافع من مكان لآخر فيتمكن العدو من غزو البلاد ! !

(٢) كشف فاسكودى جاما (١٤٩٨) طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند فتحولت التجارة بين أوربة والشرق الاقصى عن الطريق البرية (مصر والشام) إلى طريق رأس الرجاء الصالح

التلغرافية [1] . ولما رأى الانجليز ان الطريق البرية بين الهند وأوربة قد أصبحت آمنة بفضل جهود محمد علي ، قام توماس وجهورن (Thomas Waghorn) أحد ضباط الانجليز والموظف في شركة الهند الشرقية وحبذ احياء طريق مصر الى الهند ، وجاء مصر ورحب محمد علي بالمشروع ، اذ لا خطر فيه على مصر بل يُربحها ، والمشروع فوق ذلك قد يرضى انجلترا التي لا تفتأ تناوئه حسدا وغلا وفي النهاية حقق وجهورن أمله ، وقامت أول ١ اكتوبر ١٨٤٥ باخرة من بمباي تحمل بريدا فوصلت الى السويس ، ثم نقل ما عليها الى الاسكندرية ثم حمل بحرا الى لندن في ٣١ اكتوبر في حين ان طريق رأس الرجاء الصالح يستغرق ستة شهور ، ومن ذلك الحين نشطت التجارة بين أوربة والشرق وغنمت مصر لمرورها بأرضها مغنما كبيرا ، ويعرف مشروع وجهورن بأوفرلاند روت Overland Route ومشروع وجهورن يفضل مشروع دلسبس ، لأن انشاءه لم يبهظ خزانة مصر ، ولم يسخر أهلها ، ولم يَلحقها من جرائه شر ولا ضير ، (كمشروع دلسبس)

وأهدى بعض الانجليز الى محمد علي وساما (مدالية) نُقش على أحد وجهيه رسمه ، وكتب على الوجه الآخر « الى نصير العلم والتجارة والنظام والحامي لرعايا وأملاك الدول المعادية له »

الضرائب : لم تكن الضرائب أول عهد محمد علي ثابتة القدر بل كان كلما حفزته الحاجة الى المال استعان بالزعماء وجمع إتاوة ولكنه بعد ان مسح

---

(١) أقام أبنية عالية تشبه الابراج ممتدة على خط واحد ، وأقام في رأس كل بناء آلة التلغراف على طريق (شاب) القديمة فكانت الرسالة تنتقل من بناء الى آخر وتستغرق من الاسكندرية إلى مصر خمسا وثلاثين دقيقة أما البرق (التلغراف) الحديث فأدخل في عهد سعيد

الارض عام ١٨١٣ قرر فرض ضريبة ثابتة على الأطيان ، وهذه الضريبة تعرف بالضريبة العقارية (أو الخراج أو الميرى) ، وكانت تختلف تبعا لجودة الأرض ، فكانت تتراوح بين ستين قرشا وأربعة وعشرين قرشا عن الفدان الواحد ، وكانت تلك الضريبة أهم موارد محمد على اذ كان يحصل منها على نصف ايراد الحكومة

ولكي يضمن محمد على ايراد الحكومة جعل القرى يضمن بعضهابعضا فى دفع ضرائبها حتى اذا ما أعسرت قرية دفعت عنها جارة لها موسرة ، ولاشك ان فى ذلك غبنا على الناس ، فالموسر لا يستمتع بيسره وقد يبعثه ذلك على التراخى فيما يعمله

وكانت الحكومة تجبى كذلك ضريبة الرءوس (أى ضريبة الدخل) ، وهى جزء من اثنى عشر جزءا من دخل الرجل على وجه التقريب ، ويدفعها كل ذكر مسلم أو قبطى بلغ الثانية عشرة وتتباين تبعا لثروة الرجل فهى ما بين خمسين وخمسة عشر قرشا

وكانت الحكومة تجبى كذلك مكوسا وعوائد على الماشية [1] وقوارب النيل والنخيل والمحصولات عند دخولها فى مدن معينة (الخ)

ميزانية الحكومة : بلغ الايرادعام ١٨٢١ ، ١٩٢٠٠،٠٠٠ جنيه والمنصرف يقرب من هذا المبلغ ، وبلغ الايراد عام ١٨٣٨ ٤٥٠٠،٠٠٠ جنيه والمنصرف ٣٥٠٠،٠٠٠ جنيه

وهذه الأرقام دليل مُحَسّ على اطّراد التحسن فى مالية الحكومة ، وعلى حكمة الوالى الجمة اذ لم يلجأ الى الدين (بل ادخر) رغم مشروعاته العظيمة .

عدد السكان : كان سكان مصر أول عهد محمد على نحو ثلاثة ملايين ،

(١) يدفع عن البقر والجاموس عشرون قرشا للرأس الواحد فى السنة ، وسبعون إذا كانت تباع للجزارين للذبح على أن تقدم جلودها للحكومة (الخ)

وصاروا نحو أربعة ملايين ونصف فى آخر عهده

نهضة التعليم : كان التعليم قبل عهد محمد مقصورا على الجامع الأزهر وبضع مكاتب . فلما جاء محمد على أنشأ المدارس العالية والثانوية والابتدائية وأرسل البعثات إلى أوربة . وعُنى أولا بتأسيس المدارس العالية وايفاد البعثات ليتخذ من خريجيها معلمين فى المدارس الأخرى وعمالا للحكومة وكان يختار طلبة المدارس العليا والبعثات من بين طلاب الأزهر واستجلب من أوربة أساتذة لمدارسه واعتبرهم « معلمين بالنيابة » ليحل المصريون محلهم على التدريج

وكان المصريون بادىء الأمر ينفرون من التعليم حتى كانوا أحيانا يجرون إلى المدارس مسلسلين مع أن الحكومة كانت تتكفل بايوائهم واطعامهم والباسهم وتُجرى عليهم رواتب شهرية وتعفيهم من الخدمة العسكرية

واننا نلاحظ أن عناية محمد على بالجيش ورغبته فى ترقيته كانت الباعث الاكبر على عنايته بالتعليم إذ كان فى حاجة إلى ضباط ومهندسين وأطباء وصيادلة (الخ) وقد كانت ادارة المدارس أول الأمر تابعة لديوان الجهادية ، ولما نقص الجيش بعد سنة ١٨٤١ قل اهتمامه بالمدارس

المدارس العليا والخاصة والثانوية : بدأ محمد على منشآته التعليمية بمدرسة الهندسة ليتخرج فيها رجال يتعهدون أعمال العمران . ثم أنشأ فى أبى زعبل مدرسة للطب نقلت فيما بعد إلى القصر العيني وكان يشرف عليها كلوت بك الطبيب الفرنسى الكبير، ثم أسس مدارس أخرى للطب البيطرى، والقابلات، والصيادلة والموسيقى ، والفنون والصنائع، ومن مفاخر محمد على انشاء مدرسة للالسن وكانت تدرس فيها آداب اللغة العربية والاجنبية (وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ثم الايطالية والانجليزية) وعلوم التاريخ والجغرافية والشريعة الاسلامية، فهى إذن كادت تكون كلية للآداب والحقوق معا وكان يُشرف



رفاعه بك رافع

عليها رِفاعة بك رافع[1] حامل لواء نهضة الأدب والعلم فى عهد محمد على (وأُلحق بمدرسة الالسن قلمٌ للترجمة) ولم ينس محمد على التعليم الزراعى ، فأنشأ له مدرسة فى نبرُوه بالغربية ، ولكن جهل الأهالى حال دون تقدمها ، فاضمحلت ثم أغلقت . وأنشأ مدرستين ثانويتين بالاسكندرية والقاهرة .

---

(١) رفاعة بك رافع من طلبة الأزهر النابغين ثم عين واعظا وإماما فى الجيش ١٨٢٤ ثم اماما للبعثة الأولى ١٨٢٦ فتعلم اللغة الفرنسية ودرس شتى العلوم وألف وترجم كثيرا وهو فى باريس وعاد إلى مصر (١٨٣١) وظل مكبا على التأليف والترجمة ، وصار رئيسا لمدرسة الألسن (١٨٣٦) وقد كافأته الحكومة برتبة القائمقام فأصبح يعرف برفاعة بك بعد أن كان يعرف بالشيخ رفاعة (وكانت الحكومة تكافىء إذ ذاك من تريد من رجال السلك المدنى بمنحهم الرتب العسكرية) ولما ولى الأمر عباس الأول ، وكان لا يرغب فى نشر التعليم ، أرسل رفاعة بك إلى الخرطوم ليشرف على مدرسة ابتدائية تخلصا منه

وكانت لغة التعليم أول الأمر التركية ثم حلت العربية محلها على التدريج

البعوث العلمية : كان محمد على أول حاكم شرقى أرسل البعثات إلى أوربة لا سيما فرنسا ، فارسل أول بعثة كبرى إلى فرنسا عام ١٨٢٦ وكان عددها أربعين طالبا ، وأنشأ لهم فى باريس مدرسة خاصة (وممن تعلم فى هذه المدرسة بعض أمراء البيت المالك كالخديوى اسماعيل باشا وبعض من نبه ذكرهم فى مصر مثل شريف باشا وعلى باشا مبارك) ولما عاد رجال البعثة استقبلهم محمد على وأعطى كلا منهم كتابا ليترجمه إلى اللغة التركية ، وأسكنه القلعة لا يبرحها حتى يتم الترجمة ، وتوالت البعثات الكبرى حتى بلغت تسعا [1] وبلغ ما تخرج فى البعثات جميعا ٣١٩ طالبا كانوا أساس النهضة الكبرى التى ميزت عهد محمد على وكان محمد على كثيراً ما أسدى اليهم النصح وهم فى أوربة واستحثهم على الدأب [2]

ديوان المدارس (أى وزارة المعارف) . كانت إدارة المدارس أول الأمر تابعة لديوان الجهادية ولما اتسع نطاق التعليم انشأ محمد على ديوانا (مجلسا) للمدارس ، غالب أعضائه [3] من خريجى البعثات

التعليم الابتدائى : قرر ديوان المدارس تنظيم التعليم بالمدارس ووضع لائحة لنشر التعليم الابتدائى تنص على انشاء خمسين مدرسة ابتدائية فى

---

(١) أرسل محمد على ثلاث بعثات صغرى من ١٨١٣ إلى ١٨٢٥ ومجموع تلاميذها ٢٨

(٢) أرسل مرة إلى طلبة البعثة الأولى خطابا جاء فيه « قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم . . . . . وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه . . . . فان أردتم أن تكسبوا رضانا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون . . . »

(٣) كان يتألف من اثنى عشر عضوا من بينهم رئيس لهم . وتولى مصطفى مختار بك الرآسة حتى مات ١٨٣٨ فخلفه أدهم بك

القطر، لهذا نرى المدارس الابتدائية لم تنشأ إلا بعد سنة ١٨٣٧ (أى سنة إنشاء الديوان) وأنشئت مدرسة تسع ٥٠٠ تلميذ يتعلم فيها نخبة أبناء الأمة وسميت كلية الأمراء

مطبعة بولاق : أدرك محمد على أن النهضة العلمية لا تقوم إلا على النشر لذلك أوفد بعض الطلبة إلى اوربة لتعلم فن الطباعة ، وأنشأ على انقاض المطبعة التي اسستها الحملة الفرنسية مطبعة أميرية [1] في بولاق طبعت فيها الكتب المؤلفة والمترجمه ، ولما حلت العربية محل التركية طبعت بها الكتب فساعد ذلك على انهاضها بعد أن كادت العامية تطغى عليها . وطبعت فى مطبعة بولاق صحيفة الوقائع الرسمية [2] التي لا تزال بيننا حتى اليوم .

الآثار المصرية شجع محمد على شامبليون وغيره من العلماء الغربيين على درس الآثار المصرية ، وأصدر فى ١٨٣٥ أمرا يحظر خروج العاديات المصرية وأسس دارا لها .

أثر سياسة محمد على التعليمية : يقدر من تعلم فى عهد محمد على بنحو عشرة ألاف وهذا القدر يسير بالنسبة لسكان مصر إذ ذاك ولكنه كان نواة صالحة لنهضة مصر العلمية ، ولو حذا عباس الاول وسعيد حذو سلفهما العظيم ، لَماوهنت تلك النهضة ولما ظلت على وهنها حتى أخذ بيدها الخديوى اسماعيل باشا من جديد .

---

(١) أنشأ غيرها مطابع صغيرة منها مطبعة بمدرسة المدفعية فى طره وأخرى فى أبى زعبل وثالثة فى مدرسة الفرسان فى الجيزة

(٢) ظهر أول عدد منها فى ٢٥ جمادى الأولى ١٢٤٤ ﻫ (٣ ديسمبر ١٨٢٨ م)

انشاء الجيش المصرى : إن الجيوش التى اعتمد عليها محمد على فى حروبه الأولى كانت أخلاطا من الارناءود والانكشارية والدلاة وغيرهم . وكان يطلق عليهم لفظة (باشبوزق) أى الجنود غير النظاميين ، وكانوا إذا نزلوا الميدان ركب الواحد منهم نعله أو جواده وشهر سيفه أو رمحه أو بندقته وهجم على من شاء . وكان محمد على يُركّز غالب ثقته فى الأرناءود ولا غرو فهم أبناء جلدته . ولكنه لم يكن فى نظرهم ممتازا عنهم الا برتبته العسكرية ولم يكونوا ليخلصوا له الا على قدر ما يدفع لهم من رواتبهم ، وكانوا كأقرانهم الانكشارية ينفرون من كل جديد فى نظام الجيش ، اذ عدّوا كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار . وان مثل هذا الجيش المضطرب المتمرد لأحقر من أن يدفع عن مصر ظلما أو يحرز لها فتحا

المحاولة الأولى لتنظيم الجيش : رأى محمد على نظام الجيوش الفرنسية أثناء اشتباك الأتراك معهم فى مصر فأعجب بهذا النظام ، وظل يرقب فرصة تمكنه من ادخاله فى جيشه ، فلما عاد عام ١٨١٥ من بلاد العرب ظن ان الفرصة قد سنحت له لوجود كثير من الارناءود المتمردين فى بلاد العرب ، فطفق يستميل كبار الضباط الى مشروعه ولكنهم وضعوا أصابعهم فى آذانهم فصمم فى تنفيذ مشروعه على كره منهم ويقول الجبرتى انه أراد « احصاء العسكر وترتيبهم على النظام الجديد ، وأوضاع الافرنج ، ويلبسهم الملابس المقمطة ، ويغير شكلهم » وبدأ محمد على بتمرين احدى الفرق ووضع على رأسها ولده اسماعيل ليكون لها قدوة ، ولكن رجالها ائتمروا على دمه وكادوا يقتحمون عليه قصره بالأزبكية ، لولا أن اعتصم بالقلعة ليلا ، وركب الشيطان رءوسهم فثاروا وسلبوا الحوانيت ، فلم يجد محمد على بدا من ان يستميل رؤساءهم ويُدخل فى روعهم انه قد انصرف عن المشروع ، فخضعوا

له ، وعوّض أرباب الحوانيت عما فقدوه فى تلك الثورة ففرحوا واستيقنوا ان الله قد رزقهم راعيا يعدل بينهم ويشفق عليهم

المحاولة الثانية : كانت ثورة الالبانيين السالفة شرا يحمل فى باطنه الخير لمحمد على اذ لو قبلوا النظام الجديد لاعتمد عليهم ، والاعتماد عليهم خُرق لاحتمال تمردهم ولاحتمال تحريم السلطان عليهم خدمة والى مصر كما حرم على المماليك من قبل أن يشتروا مماليك جددا

لذلك نقول ان الله أراد له الخير بثورتهم ، فلقد انصرف عن اصلاح ذلك الجيش العاصى المتمرد وشتت بعضه فى معسكرات الأقاليم ورمى ببعضه الآخر فى بلاد العرب والسودان حتى لا يتضافروا على التمرد عليه

ولما عاد ابراهيم باشا مظفرا من بلاد العرب ، عاودت محمدا عليا فكرة اصلاح الجيش ، وكان من حسن طالعه ان جاء الى مصر فى هذا الوقت (١٨١٩) الكولونيل سيف Séves الفرنسى المعروف بسليمان باشا الفرنسوى (وهو صاحب التمثال المعروف فى القاهرة) فناط به محمد على أمر تكوين الجيش الجديد

وسيف هذا من مدينة ليون بفرنسا وكان أبوه تاجراً ورغب هو عن التجارة وألحق بالخدمة البحرية الفرنسية ، وحارب فى موقعة الطرف الاغر ثم انضم الى جيش نابليون البرى ، ولما هُزم نابليون فى واترلو ، اشتغل سيف بالتجارة حينا ثم وفد على محمد على يحمل اليه خطاب توصية ، فاتخذه منشئا لجيشه الجديد وسيذكر التاريخ اسم سليمان باشا الفرنسوى كلما ذكر مجد ابراهيم وبسالة الجيش المصرى الجديد

وجمع له محمد على نحو خمسمائة من خاصة مماليكه ، ليدربهم حتى يكونوا فيما بعد ضباطا فى الجيش الذى يعتزم انشاءه ، ورأى محمد على أن يكون تدريبهم فى اسوان حتى يكونوا بمنجاة عن دسائس المشايخ الذين ساءهم

تعليم المسلمين على يد ضباط من الافرنج ، وحتى لا يشغلهم عن عملهم لهو ؛ وأنشأ لهم فى اسوان مدرسة مؤلفة من أربع ثكنات فسيحة وكان ابراهيم باشا يصحب أحيانا الكولونيل سيف فى اسوان

وظل الكولونيل سيف يعلم تلاميذه ثلاثة أعوام ، ولاقى فى تعليمهم صعوبة كبرى ، اذ لم يألفوا قبلا سوى الصخب والضوضاء فى القتال ، وسيف يريدهم على النظام والسكون فشق ذلك على نفوسهم ولولا سعة صدره وكرم نفسه وقوة جنانه (١) لقضوا عليه . واعتنق الاسلام فساعد ذلك على استمالة قلوبهم

وكان محمد على اذ ذاك قد بعث بحملته على السودان ، واستجلب منه نحو ثلاثين الفا وعهد الى تلاميذ سيف تدريبهم عند بني عدى قرب منفلوط (١٨٢٣) فقضوا فى ذلك عاما ونصف عام وأرسل محمد على من هؤلاء السودانيين فرقا الى بلاد العرب وأخرى الى السودان وغيرها الى المورة — غير انهم لم يطيقوا خشونة المعسكر وحر القتال بعيدين عن أوطانهم ولم تحتمل أبدانهم البرد فاقتحمها المرض ، لهذا اعتزم محمد على أن يؤلف جيش مصر من المصريين أنفسهم ، وحينئذ يكون حاكما وطنيا يتخذ جيشا وطنيا لخدمة وطنه الجديد

غير أن بعض نصحائه حذروه عاقبة هذا المشروع ، وذكروا له أن

---

(١) فطن سيف مرة الى أن تلاميذه ينتوون الغدر به ، فجمعهم وقال لهم إن الشرف العسكرى يأبى أن يلجأ الضابط إلى سبل الخسة والنذالة . وطلب إليهم أن يبارزوه متعاقبين الواحد تلو الآخر ، فأصابهم الخزى ، وحدث مرة أخرى أن رماه أحد تلاميذه برصاصة كادت ترديه ، فلم يتزعزع ووقف أمام صفوف تلاميذه رابط الجأش عارى الصدر وطلب إليهم أن يصوبوا إليه بنادقهم من جديد عسى أن يصيبوا ما أخطئوا فشملهم العار والخزى والتمسوا صفحه نادمين ولم يحاولوا من بعد ذلك عصيانا ولا غدرا

المصريين قوم ضربت عليهم الذلة من قديم فلم تبق لهم بين جنوبهم نفوسا تُقبل على الميدان والحرب ، وذكروا له كذلك أن التجنيد لابد منتزع من الأرض عمالها فتضمحل الزراعة ، فلم يبال نصح الناصحين ، وقام بجمع الفلاحين قسرا ، ففر منهم[1] كثيرون إلى الشام ، وعمد الآباء إلى أبنائهم يقطعون أصابعهم أو يسملون أعينهم أو ينزعون ثناياهم تشويهاً لهم ، غير أن محمدا عليا قطع عليهم السبل بأمرين (أولهما) أنه تعقب الفارين وألقى القبض عليهم حتى ولو اعتصموا بالكهوف أو الصحارى أو استجاروا بعبد الله الجزار والى عكا ، (وثانيهما) انه جنّد العور ومقطوعى السبابات أو الابهام فى فرقة خاصة بهم .

ولم يمض طويل وقت حتى أقبل المصريون على الجيش إذ رأوا الجندى مهيبا حسن البزة مبسوط الرزق يعمل لرفعة بلاده

ولما تضخم الجيش استقدم محمد على طائفة جديدة من ضباط الفرنسيين فأعانوه على إنشاء مدرسة المشاة بدمياط ومدرسة الموسيقى بالقلعة ومدرسة الفرسان بالجيزة ومدرسة المدفعية بطره ، ونما الجيش على التدريج فبعد أن كان ٢٥٠٠٠ عام ١٨٢٣ أصبح نحو ٢٦٠,٠٠٠ [2] عام ١٨٣٨ ما بين جنود وغير نظامية وعمال (الخ) وهذا القدر كثير بالنسبة لعدد سكان مصر وهو نحو أربعة ملايين فى أواخر عهده

هذا وقد أفعم محمد على البلاد بالحصون والاستحكامات

---

(١) وعلة ذلك أن المصريين لم يألفوا الجندية من زمان بعيد لأن حكامهم الأجانب كانوا يتخذون جنودهم من بنى جلدتهم

(٢) يقول اسماعيل سرهنك باشا أن الجيش بلغ ٢٧٦ ، ٦١٦

آثار تكوين الجيش فى مصر :

(١) كان الجيش المصرى عنوان الوحدة الوطنية ، إذ المسلم والقبطى فيه سواء

(٢) بث الجيش فى البلاد روح نظام كانت معدومة فيها من قرون ، إذ أخاف العناصر التى كانت تعبث بالأمن

(٣) اعتز أفراد الجيش بأنفسهم فنزعوا عنهم رداء الجمود والذلة وشعروا بلذة الوطنية والتضحية والتجلد على المكاره واحتمال الخطوب(١)

(٤) اعتز المصريون بجيشهم عند ما رأوه يحرز النصر على الاتراك الذين كانوا حتى ذلك الحين سادة المصريين ، وكان من أثر ذلك ظهور روح قومية قوية تزينها ثقة بالنفس

(٥) كان الجيش الأصل الذى تفرعت منه اصلاحات محمد على ومنشآته الاخرى، فالجيش فى حاجة الى المال ، لذلك عنى بإنماء موارد البلاد ، والجيش فى حاجة إلى مدافع وذخائر وملابس وأطباء ومهندسين، فقام ينشىء المصانع والمدارس ليهيىء للجيش ما يحتاج إليه ، وقد تضاءلت الحركة الاصلاحية بعد نقص الجيش وقصر حكم محمد على على مصر (١٨٤١)

(٦) كان الجيش الاداة التى حققت لمصر استقلالها ، ولولاه لاستطاع الاتراك أن يعيدوا مصر ولاية عثمانية ويعيدوا إليها الفوضى والظلم والجمود

---

(١) ذكر كلوت بك حوادث عدة تدل على نفسية المصريين الجديدة نذكر بعضها :ــ حدث فى معركة حمص أن جنديا من الاورطة السابعة من الفرسان يسمى منصورا أطارت قنبلة إحدى ذراعيه ، فلم يغادر الميدان بل ظل يحمل على العدو حتى قضى . وحدث فى معركة قونية أن جميع الجرحى القادرين على حمل السلاح ، غادروا المستشفى إلى الميدان ليشاركوا زملاءهم مجد النصر أو شرف الموت . وجرح حامل نفير جرحا بليغا فظل ينفخ فى بوقه حاثا على الهجوم ، وكان زملاؤه قد ولوا الأدبار فلما رأوا بسالته استخذوا وعادوا إلى الصفوف ليوثا

البحرية : أنشأ محمد على أول اسطول له في البحر الاحمر أثناء محاربته الوهابيين ، ثم أنشأ اسطولا آخر لحماية تجارته فى البحر الابيض المتوسط واشترى سفنا كثيرة من الموانى الاوربية ، وكان لترسانة بولاق الفضل الكبير على انشاء السفن حتي جاءت وقعة نوارين (١٨٢٧) وقضت على اسطول مصر ، فلم ينل اليأس من قلب محمد على ، بل أنشأ ترسانة [1] كبرى فى الاسكندرية تشغل من بسيط الارض ستين فدانا ، وعهد ادارتها الى مسيو سيريزى Cerisy وهو من كبار مهندسى طولون ، وجمع لها عمالا مصريين يعملون تحت اشراف معلمين أوربيين ، وكان الحاج عمر (من أهالى الاسكندرية) من أبرع الخلق فى بناء السفن وإن لم يكن له نصيب فى علم الهندسة ، فاتخذه سيريزى مساعده القدير ، ولقد احتفل محمد على فى ٣ يناير ١٨٣١ بانزال سفينة ذات مائة مدفع

وأنشأ محمد على مدرسة بحرية يديرها المسيو بيسون Besson ، وتدرج هذا حتى صار امير البحر فى الاسطول المصرى . وأوفد محمد على عدداً من التلاميذ ليستكملوا تدريبهم على السفن الانجليزية

وبلغ الاسطول المصرى فى سنة ١٨٣٢ ثلاثين قطعة تحمل ١٣٠٠ مدفع و ١٢٠٠٠ بحار ، وقد كان هذا الاسطول بعيد الاثر فى حروب محمد على اذ حاصر ساحل الشام ، وكاد يقتحم الدردنيل متعقبا أسطول الترك لولا أن اعترضته الدول .

---

(١) كانت الترسانة مؤلفة من ورش للحبال والحديد والأشرعة والساريات والبوصلات والنظارات ، وصب الآلات ومسابك الحديد ، والبويات . والمخرطة لعمل البكرات . والطرزية لعمل الاعلام .

سياسة محمد على الخارجية

ولى محمد على أمر مصر رغم ارادة السلطان واعتزم أن يجعلها موطنا له ولأسرته من بعده ، فشرع فى اصلاحها ، ورد حملة فريز ، وأباد المماليك ، وأخضع الوهابيين ، وقد اعتز بما أصاب من توفيق فطمحت نفسه الى توسيع رقعة بلاده فافتتح السودان ثم ساعد السلطان فى اخضاع المورة ليلى حكمها فانفتح باب المسألة الشرقية ، وأضاعت الدول على محمد على حكم المورة ، ثم افتتح الشام وبعضا من الاناضول ليتخذ جبال طوروس سياجا بينه وبين السلطان ، فاعترضته انجلترا وروسيا فانفتح باب المسألة الشرقية من جديد وباب المسألة المصرية باعتبار مصر جزءا من الدولة العثمانية وتم الامر فى النهاية بقصر حكم محمد على على مصر والسودان

فتح السودان

السودان شقيق مصر وقد ارتبط بهـا من قديم بروابط الدم واللغة والدين والمصالح المشتركة ومن مفاخر محمد على ومآثره أن جمع الشقيقين بعد أن فرّق الدهر بينهما حينا .

أغراض الحملة على السودان : اعتزم محمد على فتح السودان للأسباب الآتية

(١) أدرك منزلة السودان إذ فيه ينبع النيل قوام الحياة فى مصر ،

(٢) كان السودان بالطبيعة البلاد التى اتجه اليها نظره لما صمم فى توسيع بلاده ، فالسودان متمم لمصر وينتظمهما عمود فقرى واحد هو النيل .

(٣) أراد أن يفتح للتجارة سوقا جديدة لاسيما وقد أنشأ مصانعه الكبرى

(٤) ورأى أن يرمى بجنوده الارناءود في حرب تخلصه منهم لتمردهم عليه وأن يجند من السودانيين بدلا منهم

(٥) واستهواه ما شاع على الألسنة من توافر التبر فى اقليم سنار

(٦) وأقلقه أن فلول المماليك نصّبوا أنفسهم حكاما على اقليم دنقلة .

فاراد أن يقطع دابرهم حتى يأمن على حدوده منهم

(٧) وإن البحر الأحمر ليصبح بحيرة مصرية إذا ما فتح السودان

وألف محمد على جيشا مكونا من ٣٠٠٠ من المشاة و٢٥٠٠ من الفرسان، وزوده بأربع وعشرين مدفعا وأمّر عليه اسماعيل باشا ثالث أولاده وجعل فى ركابه ثلاثة من علماء المسلمين [1] عملهم دعوة السودانيين الى الدخول فى طاعة مصر حقنا للدماء، كذلك رافق اسماعيل باشا بعض علماء الفرنسيين ليمدوه بالمعلومات الجغرافية والمعدنية

وأرسل محمد على محمد [2] بك الدفتردار فى أربعة آلاف جندي ليفتح كردفان، وكان السودان إذ ذاك قسمة بين ملوك عدة: يسمى الواحد منهم (مِك). وكان سكان الشمال مسلمين من نسل العرب، أما سكان الجنوب فزنوج وثنيون ينتشر الاسلام بينهم على مهل

أدوار الحملة: (١) خرجت الحملة فى يوليه ١٨٢٠ وصعّد المشاة فى النيل فى قوارب أما الفرسان فساروا على ضفتيه حتى بلغوا دنقلة، فذعر المماليك وسلم بعضهم الى اسماعيل واستجار البعض الآخر بملك شندى فلم يجرهم، فهاموا على وجوههم. واغتصب السودانيون أسلحتهم، وانقطع عن الناس ذكرهم [3]

---

(١) وخاف محمد على أن يتذمر الجنود المسلمون لأن السودانيين سنيون مثلهم لاهم شيعة ولا وهابيون، فاستصدر من العلماء فتوى بجواز فتح السودان

(٢) زوج نازلى هانم ابنة محمد على وكان معروفا بالقسوة: ويروى عنه أن أحد نظار الأقسام طالب فلاحا بضريبة قدرها ستون قرشا وكان معسرا. فأمر الناظر ببقرة كانت للفلاح فذبحت وقسمت ستين قسما بيع الواحد منها بقرش واحد وأعطى الجزار رأس البقرة أجرا فحصل بذلك على الضريبة، فشكا الفلاح أمره إلى الدفتردار، فأمر بناظر القسم فذبح وقسم ستين قسما وأعطى الجزار رأس الناظر أجرا: حدث ذلك والدفتردار يضحك طربا

(٣) كان ابراهيم بك قد مات فى دنقلة قبيل الحملة

وتوغلت الحملة في الجنوب حتى تصدى لها ثلاثون ألفا من قبيلة الشايقية (أو الشيخية) وكانوا همجا يجهلون فنون الحرب ، وكانت عدتهم رماحا وأسلحة ساذجة لا تقوى على مغالبة البنادق والمدافع فغلبوا على أمرهم رغم استبسالهم[1]، واستولى اسماعيل على مدينتهم كورتى (نوفمبر ١٨٢٠) ثم سار إلى بربر[2] وملكها (مارس ١٨٢١) ثم خضع له نمر ملك شندى (فى مايو) ثم سار والنيل الأزرق إلى اقليم سنار (وكان يسمى إذ ذاك بالسلطنة الزرقاء) واستولى على عاصمته سنار بعد جهاد قصير[3] وكانت أكبر حاضرة فى السودان (يونيه) ، وقبل سلطانها بادى أن يعترف بسيادة محمد على وأن يكون واليا من قبله على هذه الارجاء

وأرسل اسماعيل إلى مصر آلافا من السودانيين ليتعلموا فيها فنون الحرب

وبينما كان اسماعيل يفتح اقليم سنار كان محمد بك الدفتردار يجد فى فتح كردفان من اقليم دارفور

الدور الثانى من الحملة : كانت الأمراض لاسيما الحمى أعدى أعداء الحملة وأكثرها فتكا بها فقل عدد الجيش حتى كادت البلاد تفلت من يد اسماعيل ، فشكا إلى أبيه أمره فاوفد اليه مددا بقيادة ابراهيم بطل الحجاز واجتمع الاخوان عند ملتقى النيل الابيض بالأزرق وأجمعا أمرهما على أن يوالى اسماعيل الزحف إلى أعالى النيل الازرق وأن يكشف ابراهيم اصقاع[4]

(١) قتل منهم ٨٠٠ ولم يقتل من جنود اسماعيل إلا ثلاثين . ولقد أعجب اسماعيل بشجاعة الشايقية . فعرض عليهم بعد أن فرغ من قتالهم أن ينضموا إلى الجيش المصرى ، فقبلوا ، وأخلصوا لمصر . ولا غرو فهى بلادهم .

(٢) اخترق الفرسان صحراء بيوضة المهلكة ، أما المشاة فساروا بجانب النيل حتى بربر .

(٣) كان يتنازع بلاد سنار السلطان بادى وأخوه ، فنصر اسماعيل بادى ، فدان له واعترف بسياده مصر

(٤) يذكر المؤرخون أن ابراهيم كان يبغى الوصول إلى المحيط الأطلسى إذا ما وجد النيل متصلا بالنيجر ، فان وجد خلاف ما توقع عاد إلى مصر عن طريق كردفان والصحراء وطرابلس

النيل الأبيض ، غير ان ابراهيم وصل بلاد الدنكا ثم أصابه الزحير (الدوسنطاريا) فعاد إلى مصر . أما اسماعيل فخرج فى مهمته ومعه العالم الفرنسي « كيار » ليساعده فى البحث عن التبر ، فلم يجد منه الا قليلا . وانتهى اسماعيل الى قرب حدود الحبشة ثم عاد الى سنار وشرع ينظم الحكومة التى أسسها . وبُلغ أن نمرا ملك شندى يحرض الناس على الخروج عليه ، فخف اسماعيل الى شندى وأمر بنمر فجىء به اليه فأخذ يؤنبه ثم غلا فى الأمر ولطمه على وجهه (بالشبُك) وفرض عليه ذهبا كثيرا (يملأ زورقا صغيرا على ما يقال) وألفا من العبيد، فتظاهر نمر بالامتثال والخضوع. وهو يضمر له شر ما يضمر عدو لعدوه ودعا اسماعيلَ وحاشيته إلى مأدبة فى داره ، فلبّى اسماعيل وأحاط نمر الدار بقش وتبن كثير بدعوى العلف لخيل اسماعيل ، ثم أشعل النار فى القش والتبن فهلك اسماعيل وبطانته . وكان الدفتردار فى ذلك الوقت يفتح كردفان ، فلما وافاه النبأ سارع إلى شندى وأحرقها، وقتل نحو عشرين الفا ولكنه لم يظفر بنمر إذ فر إلى حدود الحبشة .

وبنى الدفتردار مدينـة الخرطوم [1] وأنشأ فيها دارا للصناعة وبنى البيوت وأنشأ السفن وصارت الخرطوم مركزا للتجارة وينبوعا للمدنية فى السودان

قيمة الحملة من وجهة محمد على : لقد حققت الحملة غالب الأغراض التى أرسلت من أجلها ، ولم تفشل إلا فى الحصول على التبر والتجنيد من السودانيين فان ما وجد من التبر قليل لا يفى بنفقات استخراجه ، والجنود السودانية لم يلائمها جو مصر

قيمة الحملة من وجهة السودانيين : لقد ضحى المصريون بأرواحهم وأموالهم حتى فتحوه فأفادوه ، إذ أنشئوا فيه حكومة [2] منظمة تستمد

(١) سميت كذلك لأنها عند ملتقى النيلين وهو يشبه خرطوم الفيل

(٢) مقر هذه الحكومة الخرطوم ، وفيها يعيش (حكمدار السودان) ، أى

وحيها من محمد على بطل الاصلاح ، فاستتب الأمن ، وظهرت أمارات العمران كانشاء الخرطوم وكسلا وغيرها من المدن وإدخال الزراعات المصرية كالقمح والخضر وأنواع الفاكهة واصلاح الطرق وحفر الآبار فى صحراء النوبة .

ولا يعيب هذا الحكم إلا أمران : (أولهما) ان الأمر فى السودان كان فى يد اتراك هَمُّ أغلبهم جمع الثروة عن طريق الضرائب ، فكانت الضريبة كثيراً ما تدفع ثلاث مرات : مرة لصاحب القضاء وأخرى للجابى ومرة ثالثة للحكمدار . ولم يتورع هؤلاء الأتراك عن اتخاذ كافة ألوان التنكيل والتعذيب فى جمع هذه الضرائب .

(وثانيهما) أن النخاسة (أى اقتناص الرقيق) كانت ناشطة ورابحة فى السودان : إذ كان النخاسون أغنياء أقوياء لهم كلمة نافذة ولهم أتباع مسلحون ينقضون على الاهلين يقتنصونهم اقتناصا ويصدرونهم إلى مصر وغيرها حيث يعرضونهم للبيع وكثيرا ما كان هؤلاء التجار يستظلون بحماية الحكام مقابل مساهمتهم فى الأرباح . ولما ركب النخاسون الشطط فى تجارتهم تدخلت انجلترا وفرنسا فى الأمر فذهب محمد على بنفسه إلى السودان (١٨٣٨) وقد بلغ السبعين وأعلن الغاء تجارة الرقيق ، ارضاء للدول وبخاصة انجلترا ، لا اعتقادا منه بضرورة ذلك الالغاء . وأدخل فى هذه الزورة إصلاحا كبيرا فى أنظمة السودان

قيمة الحملة من وجهة العلم : كان لفتح السودان فضل كبير على العلم ، إذ أرسل محمد على الحملات[١] الجغرافية لاستكشاف منابع النيل ، كذلك شجع

حاكمه العام ، وقسم محمد على السودان أقساما ادارية على نمط أقسام مصر . على رأس كل منها مدير . وصارت هذه المديريات سبعا فى أواخر عهد محمد على وهى : دنقلة وبربر والخرطوم وكردفان وكسلا وسنار وفازوغلى

(١) عهد بهذا العمل إلى البكباشى المصرى سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية

العلماء والباحثين الاوربيين على ارتياد هذه الاصقاع وحاطهم بعنايته وحماهم برجاله ، ولولا ذلك لما استطاع مستكشف أن يرمى بنفسه فى تلك المجاهل النائية .

ثورة اليونان واشتراك مصر فى اخمادها

تحركت نفوس اليونانيين للثورة على تركيا لا لظلم أحسوه بل لأن اليسر [1] الذى كانوا ينعمون فى ظلاله هو الذى أغراهم بالاستزادة منه ، ولأن الثورات التى اندلع لهيبها فى كل أوربة قد تطاير منها شرر إلى بلادهم ، ولأن زملاءهم الصربيين قد خرجوا على السلطان وظفروا منه ببعض الامتيازات .

وانتهز اليونانيون فرصة قيام على باشا والى يانينا في وجه الدولة ، وثاروا فى ولايتى البغدان والافلاق بقيادة إبسلنتي (مارس ١٨٢١) وكانوا يأملون العونَ من اسكندر الأول قيصر روسيا ، ولكنه كان إذ ذاك يعتنق مذهب مترنيخ الرجعى . ففشلت الثورة .

ثورة المورة : غير أن الثورة مالبثت أن انفجرت مرة أخرى فى بلاد المورة أى في أرض اليونانيين أنفسهم وأخذوا الأتراك على غرة ، وما زالوا بهم يقاتلونهم حتى قوّضوا نفوذهم ، وأعلنوا استقلالهم (١٨٢٢) وقد ساعدهم فى حركتهم هذه أمور أهمها :

(١) اشتغال جانب من الجيش التركى [2] فى محاربة على باشا والى يانينا

(٢) تفوقُ اليونانيين على الاتراك فى البحر ، واستخدامهم الحراقات

المصرية وأمده بجند ومراكب نيلية ، فقام بثلاث حملات متعاقبة ، وصل فى الثانية إلى جزيرة جونكر (يناير ١٨٤١) وهى تجاه غوندوكرو ، ولم تصل الحملة الثالثة إلى أبعد من هذه النقطة .

(١) يراجع هذا الموضوع مفصلا فى منهج السنة الرابعة

(٢) كان قائد هذا الجيش خورشيد باشا الذى كان واليا على مصر (١٨٠٥)

التي تساق ملتهبة على سفن الأعداء فتضرم النار فيها

(٣) تسلطهم على طرق بلادهم (إذ كان يعهد اليهم حراستها قبل الثورة)

(٤) معاضدة أوربة لهم على اعتبار أنهم نسل الاغريق الذين ورثوا العالم مدنيتهم ، وكان من أكبر أنصارهم لورد بيرون الشاعر الانجليزي وفكتور هيجو الفرنسي

(٥) أخذ اليونانيين الأتراك على غرة ، وذبحهم منهم خلقا كثيرا

ورغم أن العثمانيين قد ظهروا على والى يانينا وساقوا جيوشهم جميعا على اليونانيين ، إلا أنهم لم يستطيعوا الظفر بهم ، لهذا دعا السلطان واليه محمدا عليا إلى مساعدته ووعده جزاء هذه المساعدة أن ينصب ابراهيم على كريت[1] والمورة وصدر الفرمان الخاص بهذا الأمر فى مارس ١٨٢٤ ، وخرج ابراهيم باشا فى ١٧٠٠٠ جندى ، وعمارة بحرية ضخمة [2] ولما استيقن ابراهيم أنه لن يقهر اليونانيين فى البحر لكثرة سفنهم وما سلحت به ، لجأ إلى جزيرة كريت (ديسمبر ١٨٢٤) ، وظل هناك يرقب فرصة تمكنه من العبور إلى المورة بغير أن يشتبك معهم ، وسنحت له الفرصة المرجوة وأنزل جنوده على ساحل المورة فى فبراير ١٨٢٥ ، فتحولت كفة الميزان ، إذ سقطت فى يد ابراهيم مدن اليونانيين الكبرى أمثال نوارين (مايو ١٨٢٥) وتريبولتزا (يونية) ومسولنجى (ابريل ١٨٢٦) وسقطت أثينا فى يد رشيد باشا قائد الاتراك

---

(١) كانت كريت إحدى جزائر بحر الأرخبيل التى ثارت فعهد السلطان إلى محمد على باخمادها ، فأرسل هذا اسطولا أنزل جنودا فى الجزيرة فى يونية ١٨٢٢ فأخمدت الثورة .

(٢) كانت العمارة مؤلفة من ١٥ سفينة حربية و١٤٦ سفينة نقل ويقول المسيو دريو « اشترى محمد على من أوربة سفنا جمة حتى اجتمعت لديه عمارة تشبه الارمادا ولم ير الشرق حملة تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت ، فكأن الشرق أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوربة عليه ، وهكذا تتقلب الأطوار فى سير التاريخ »

تدخل الدول : كان من حسن طالع اليونانيين أن مات اسكندر الاول قيصر روسيا وخلفه أخوه نقولا الاول وكان رجعيا عنيفا كبير العناية بالجيش ، ولا يخلع عن منكبيه رداء الحرب ، وكان يقدس روسيا ويقدس ذكرى بطرس وكاترين الثانية ويترسم خطاهما فى سياسة القضاء على تركيا ، وتحفز للتدخل فى الحرب القائمة بين تركيا واليونان يدفعه إلى ذلك امران هما : (١) رأى فى هذه الحرب فرصة لتمزيق أوصال الدولة العثمانية متذرعا بمناصرة حرية اليونانيين (٢) هاله ما أحرزه المصريون من الانتصار وخشى أن يصبح شرقى البحر الابيض المتوسط بحيرة مصرية ، وأن تصير كريت قاعدة الاسطول المصرى

وخافت انجلترا أن ينفرد نقولا بحل المشكل بين تركيا واليونان فيقتطع لنفسه بعضا من أملاك تركيا ، أو يبسط نفوذه على جهات البلقان ، لهذا اعتزمت أن تشترك معه فى العمل ، وعرضت عليه وقف القتال بين المتحاربين على أساس استقلال اليونان الذاتى ، واتفقت الدولتان على ذلك فى ابريل ١٨٢٦ ، وعرضتا على الدول الاخرى أن تنضم اليهما فلم تقبل غير فرنسا [١] ، وتعاهدت الدول الثلاث فى معاهدة لندن (يوليه ١٨٢٧) على أن تمنح اليونان الاستقلال الذاتى ، وأن يعقد بين المتحاربين هدنة ، وإن أبى أحد المتحاربين قبول المعاهدة ، لجأت الدول المتعاقدة الى تنفيذها بالقوة

وكانت المعاهدة انقاذا لليونانيين بعد أن أدبر الحظ عنهم فلا يعقل أن يأبوها ، وإنما أباها السلطان وقد اعتز بانتصارات المصريين و باطراد وصول الامداد من مصر ، فقررت الدول الثلاث أن ترسل أسطولا مكونا من

---

(١) غريب أن يقبل شارل العاشر ملك فرنسا الرجعى العتيد أن يأخذ بناصر اليونان الثائرين ، ولكن مترنخ الذى رفض الانضمام إلى المتعاقدين تمسكا بمبدئه الرجعى يفسر لنا مسلك شارل العاشر بقوله « عز عليهم أن يساعدوا السلطان المسلم » فالأمر اذن كان مصبوغا بصبغة دينية .

سفن انجليزية وفرنسية وروسية ويقوده كودرنجتن (Codrington) أمير البحر الانجليزى وعمله الفصل بين المتحاربين ، ودخل الاسطول ميناء نوارين (نافارينو Navarino) ليراقب الاسطول العثمانى المصرى وكان فيها راسيا ، واقتربت سفن الحلفاء من سفن العثمانيين والمصريين ووقفا وجهها لوجه واختلفا بشأن موقع إحدى الحراقات المصرية ويزعم الحلفاء أن رصاصة أطلقت من الحراقة المصرية فأصابت أحد جنودهم ، فكان هذا الاعتداء سبب القتال بين الاسطولين (٢٠ اكتوبر ١٨٢٧) وكان الاسطول العثمانى المصرى محصوراً فى مكان ضيق لاتسهل الحركة فيه ، وكان للحلفاء من البوارج الكبرى عشرة ، فى حين انه لم يكن للعثمانيين والمصريين إلا ثلاث [1] ، وتحطم الاسطول العثمانى المصرى وما نجا منه أحرقه بحارته حتى لاينتفع به أعداؤهم . ومن المؤرخين من يرى أن انجلترا هى التى بيتت الشر للاسطول المصرى الناشىء حتى لايزاحمها فى البحر الابيض المتوسط ، وتاريخ انجلترا حيال مصر يغلّب هذا الرأى .

حنق السلطان لهذه الكارثة وأعلن الجهاد ضد الممالك المسيحية وبخاصة روسيا ، ففرح نقولا بحرب رقيبها طويلا ، واشتعلت الحرب

وأصبح أمام انجلترا وفرنسا مهمتان : الاولى اجلاء الجيوش التركية والمصرية عن المورة تنفيذا لمعاهدة لندن ، والثانية التوسط بين تركيا وروسيا فى الصلح حتى لاتمزق روسيا أوصال تركيا ، ولتنفيذ المهمة الاولى أرسلت فرنسا جيشا لطرد الجيوش المصرية والتركية من المورة وأرسلت انجلترا كودرنجتن للاسكندرية مهدداً ان لم يستدع محمد على ابنه ابراهيم من

---

(١) كان الأسطول العثمانى المصرى عند بدء الوقعة مكونا من ٦٢ سفينة ، وأساطيل الحلفاء مكونة من ٢٧ ، غير أن بوارج الحلفاء كانت أكثر، والبوارج أشبه بحصون هائلة تدمر السفن الأخرى

المورة، فآثر محمد على الحكمة وأذعن وعقد مع الحلفاء اتفاقا على الجلاء[1] لأنه رأى تصميم الحلفاء فى تحرير اليونان وأنه لن يستطيع امداد ابنه بعد تحطيم أسطوله فى نوارين ، وأقلع ابرهيم بجنوده الى مصر فى اكتوبر وهو يأسف على اسطول حُطم ، ومال بُذل وجنود أُريق دماؤهم سدى[2]

أما مهمة الحلفاء الثانية فقد حبط سعيهم فيها اذ جنح السلطان الى طريق العناد ، وواصل الحرب حتي توغل الروس فى بلاده وبلغوا أدرنة فاستحوذ عليه الذعر وعقد معهم معاهدة أدرنة (سبتمبر ١٨٢٩) وفيها اعترف باستقلال اليونان استقلالا ذاتيا[3]

أثر حرب اليونان فى مصر

(١) ارتفع شأن مصر بين الاوربيين لكفاية جيشها وانتصاراته الباهرة ، وصارت لها شخصية دولية وحسبنا دليلا على ذلك ان الحلفاء فاوضوا محمد على رأسا (بغير وساطة تركيا) فى سحب جيوشه من المورة وعقدت معه اتفاقا خاصا بهذا الأمر (كما ذكرنا)

(٢) ولّدت انتصارات ابراهيم مطامع كبرى فى صدر ابيه . لا سيما وقد أثبت المصريون فى هذه الحرب أنهم اسمى من الاتراك نظاما وأشد قوة

(٣) كان لجنود مصر من هذه الحرب دربة ومران وثقة بنفوسهم .

أثر قوة محمد على فى سياسة الدول :

أظهرت حرب اليونان قوة محمد على ومداها ، وكان لظهورها تأثير بيّن فى سياسة الدول . ولنستعرض الان هذا التأثير :—

(١) حسد السلطان محمدا عليا لقوته ، واستنشق منها ريح الخطر على

(١) وقع الأتفاق بوغوص بك وزير خارجية محمد على فى أغسطس ١٨٢٨

(٢) بلغ الجيش الذى ساقته مصر على اليونان ٤٢,٠٠٠ هلك منهم ٣٠,٠٠٠ ، وبلغ ما أنفقته مصر ٧٧٥,٠٠٠ من الجنيهات .

(٣) لمعاهدة أدرنة شروط أخرى لانرى داعيا لذكرها هنا

بلاده فتوترت العلاقة بينهما حتى قام النزاع والحرب بينهما مرتين

(٢) كانت لروسيا مطامع معروفة فى تركيا فلما رأت قوة محمد على خشيت أن يسبقها الى ابتلاع تركيا فتصدت له

(٣) كانت فرنسا تعاضد محمد عليا لأنها كانت تعجب بعبقريته ، وتعطف عليه لاستخدامه الفرنسيين فى إصلاحاته ومنشآته ولأنها كانت تأمل أن يساعدها بقوته على مد نفوذها فى الشرق[1] ، وكفى برهانا على هذه العاطفة أن الفرنسيين الذين أرسلوا لطرد المصريين من المورة كانوا يعانقونهم .

وكانت فرنسا كذلك تجاهر بصداقتها لتركيا وتعلن أنها تود تقويتها ، وتقول إن فى معاضدتها مصر معاضدةً لتركيا وانهاضا لها إذ مصر جزء من تركيا ، ولكن الحوادث أثبتت أن فرنسا لا تعاضد تركيا إلا بالقدر الذى يرد روسيا عن البحر الاسود والآستانة والبلقان ، ولو كانت ترغب فى تقويتها حقا لما كانت هى أول الدول الأوربية اختطافا لبعض ملكها[2] ، فهى التى انتزعت الجزائر منها عام ١٨٣٠

(٤) لما رأت انجلترا قوة محمد على أكبرته ، واعتذرت له رياء عما لحق باسطوله فى نوارين ولكنها من جهة أخرى كانت تحذر هذه القوة وتخافها لأسباب هي : — (ا) قد تصبح هذه القوة خطرا على نفوذها فى البحر الابيض وفي الهند (ب) وقد تصبح هذه القوة داء عضالا يودى بحياة الدولة العثمانية وبقاء هذه الدولة متماسكة حيوى لانجلترا ليحول بين روسيا والهند وللعالم حتى لا يكدر صفوه حروب تنشب لاقتسام أسلابها (ج) وان هذه القوة ستكون للفرنسيين عونا على مد نفوذهم فى الشرق

(١) أرادت فرنسا أن تفتح الجزائر سنة ١٨٣٠ (والجزائر من أملاك السلطان) ففاوضت محمداً عليا فى غزوها بأسطول فرنسى مصرى وكاد يتم الأمر لولا أن ذاع الخبر ، فهددت تركيا وانجترا محمدا عليا بالعزل ، فانفردت فرنسا بغزو الجزائر .

(٢) بدأت فرنسا فى فتح الجزائر سنة ١٨٣٠ فى حين أن انجلترا لم تقتطع من أملاك تركيا شيئا قبل عام ١٨٧٨ إذ انتزعت قبرس ، ثم احتلت مصر ١٨٨٢

حروب محمد علي في الشام والأناضول

(المشكل الأول ١٨٣١ — ١٨٣٣)

تكدر الصفاء بين محمد علي والسلطان حتى أدى الأمر إلى الحرب. ولنستعرض الآن مقدمات هذه الحرب : —

حقد السلطان على محمد على: نفس السلطان على محمد على قوته التي تجلت في المورة ، وحنق عليه إذ أبى أن يساعده إلا بالمال في حربه مع روسيا (١٨٢٨ — ١٨٢٩)، وقام خسرو عدو محمد على القديم يوغر صدر السلطان عليه

طمع محمد على في الشام: خسر محمد على في حرب اليونان اسطولا ومالا ورجالا ، وأملا في حكم المورة ، ولم يعوض عن كل ذلك إلا بكريت لهذا ذهبت نفسه إلى امتلاك الشآم للأغراض الآتية : —

(١) ليعوض مافقد في حرب اليونان

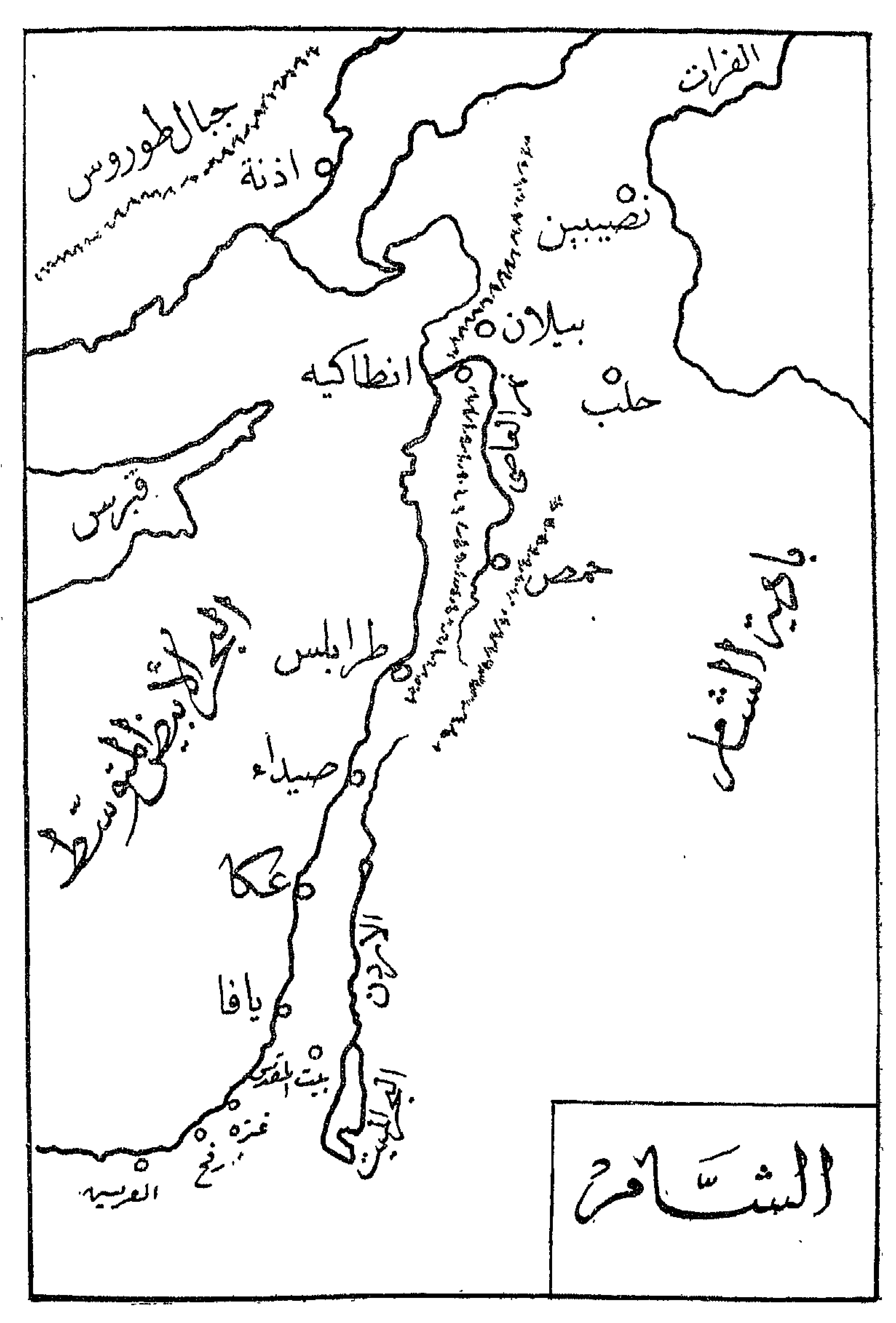
(٢) لينقل حدود مصر إلى جبال طوروس إذ هي أوقى وأحفظ لمصر من صحراء سينا

(٣) ليستغل موارد الشآم من خشب يستخدمه في الوقود وفي بناء السفن ، ومن فحم ونحاس وحديد ينتفع بها في مصانعه الكبرى.

(٤) ليتخذ من أهلها جنودا يقوى بهم صفوف جيوشه

الظروف المحيطة بالسلطان والوالى : كانت الدولة العثمانية ضعيفة (كما أسلفنا) ، وزادتها الحرب اليونانية ثم الروسية تضعضعا وارتباكا . وقضى السلطان محمود الثاني على الانكشارية (١٨٢٦) ولم يتسع الوقت بعد ليتم إعداد جيش نظامي جديد وكان حكم العثمانيين في الشام بغيضا الى الناس

أما محمد على فقد كان قويا بجيشه المظفر وباسطوله الذى أنشأه في ترسانة الاسكندرية وفضلا عن ذلك فلا خوف من أوربة فهي مشغولة بثوراتها التي قامت على أثر ثورة فرنسا عام ١٨٣٠



الحجة التى تذرع بها محمد على للحرب : هاجر كثير من فلاحى مصر فرارا من السخرة والضرائب والجندية ولجئوا الى عبد الله باشا والى عكا فطلب محمد على اليه أن يعيدهم الى ديارهم ولكن عبد الله رفض (بإيعاز من خسرو) محتجا أن المهاجرين من رعايا الدولة العثمانية ومن حقهم أن

أن يقطنوا بأية ناحية من نواحيها ، فأجاب محمد على أنه سيعيدهم جميعا بنفسه الى مصر يزيدون واحدا (يقصد بالواحد عبد الله)

الحرب : أرسل محمد على جيشا الى الشام بقيادة ابراهيم باشا في شتاء ١٨٣١ واشترك الاسطول[1] المصرى فى الحملة ، وأعلن محمد على أنه يحارب والى عكا لا السلطان، وسار الجيش موفقا فى فتوحه حتى بلغ أسوار عكا وألقى عليها الحصار من البر كما شدد الاسطول الحصار عليها من البحر ، ودام الحصار نحو ستة شهور ، وفى ختامها تمكن المصريون من فتح ثلاث ثغرات فى أسوارها ، وحدث أن تقاعس بعض الجند فى اقتحام إحدى هذه الثغرات فتقدمهم ابراهيم شاهرا سيفه فشدد عزائمهم ، وأكره عبد الله على التسليم[2] (٢٩ مايو ١٨٣٢) . وتسليم عكاء مفخرة للمصريين ، إذ امتنعت من قبل على نابليون ، غير اننا نرى من الانصاف أن نذكر أن نابليون كانت تعترضه عقبة هائلة وهى إمداد عكا بالمؤن والذخائر من جهة البحر ، وقد شجع سقوط عكاء أهل الشام الساخطين على الأتراك ، فاعلنوا انضمامهم إلى محمد على

وكان السلطان قبيل سقوط عكا قد أعلن عصيان محمد على ، وأعد جيشا لقتاله وأمّر عليه حسين باشا قاهر الانكشارية وأنعم عليه بلقب (سردار أكرم) ووعده حكم مصر وكريت إن هو قضى على جيش مصر . (وكان خسرو باشا عدو محمد على يمنى نفسه بهذا الفخار وهذا الغنم فلم ينل مناه) . واشتبك المصريون بطلائع الجيش العثمانى عند حمص — ولم يكن حسين باشا فى الوقعة — وانتصر المصريون[3] فى أربع ساعات (٩ يولية) ، ثم

---

(١) ١٦ سفينة حربية و١٧ سفينة نقل

(٢) أرسل عبد الله إلى مصر أسيرا فكان محمد على بذلك صادقا فى وعيده ، ومع ذلك فقد أكرم وفادته

(٣) خسر الأتراك ٢٠٠٠ من القتلى ٢٥٠٠ من الأسرى ، وخسر المصريون ١٠٣ من القتلى و ١٦٢ من الجرحى

تقابل الجمعان عند بيلان وهزم الاتراك هزيمة ساحقة بعد قتال دام ثلاث ساعات [1] (٣٠ يوليه) ؛ وهام حسين باشا على وجهه متنكرا خوف الفضيحة وفرارا من قصاص لابد نازل به ان هو عاد إلى الآستانة . ودخل ابراهيم اقليم أذنة (أطنة) فى الاناضول ففرح أهله به ، وأراد خسرو مرة أخرى أن يكون له فخر القيادة والنصر ولكن السلطان اختار رشيدا باشا (زميل ابراهيم في حرب اليونان سابقا) ، فقابل ابراهيم عند قونية ولم تمض سبع ساعات حتى انهزم [2] رشيد وأسر هو وكثير من جنوده (٢١ ديسمبر ١٨٣٢) ولقد كانت معركة قونية من المعارك الفاصلة فى التاريخ إذ انفتح أمام ابراهيم طريق الآستانة لا يصده عنها حصن ولا جيش . فجزع السلطان جزعا شديدا ، وبات محمد على صاحب الأمر فى مصر والسودان وبلاد العرب والشام والاناضول ،وتنزل السلطان الى طلب الصلح فاشترط محمد على أن يضم سورية وأذنة

موقف الدول : كانت دول أوربة فى أثناء الحرب مشغولة باخماد الثورات التى شبت فى أقاليمها إثر ثورة فرنسا (١٨٣٠) . وشغلت انجلترا كذلك باصلاحها النيابى ، أما روسيا فتملكها قلق شديد ، إذ رأت فى محمد على جارا قويا ظافرا بدلا من جار ضعيف مغلوب [3] وخافت أن يحول «الجار القوى» دون تحقيق اطماعها فى ملك بنى عثمان المتداعى ، لذلك سارعت إلى ارسال الجنرال موراڤيف (Muravieff) الى السلطان محمود الثانى ليعرض عليه المساعدة. ثم أرسلته إلى مصر ليهدد محمد على إن لم يجنح إلى مصالحة السلطان فلم يأبه لتهديده . فارسلت روسيا مددا الى الآستانة (٢٠ فبراير ١٨٣٣) فانفتح باب المسألة الشرقية [4] ، وقلقت انجلترا وفرنسا لأن سياسة انجلترا كانت تعمل

(١) خسر الأتراك ٢٥٠٠ قتيل وجريح و ٢٠٠٠ أسير
(٢) أسر من الأتراك نحو ٥٠٠٠ وقتل منهم نحو ٣٠٠٠
(٣) من خطاب لنسرود وزير الروسيا إلى سفيره فى الآستانة
(٤) فتح باب المسألة الشرقية مرة من قبل (وقت ثورة اليونان وتدخل روسيا فى الأمر)

(كما أوضحنا) على المحافظة على سلامة الدولة العثمانية لاحبا فيها بل لتكون سدا يحول بين روسيا والهند ، اما فرنسا فكانت سياستها مزدوجة أى أنها كانت تريد تقوية السلطان فى أوربة رداً لروسيا وتريد تقوية محمد على لتستند على قوته فى مد نفوذها فى الشرق ، غير أنها لما رأت تدخل روسيا قلقت على تركيا والبحر الأسود . وأحلّت هذا الأمر المحل الأول من اهتمامها وعنايتها وجعلت مطالب محمد فى المحل الثانى أى انها أقدمت على أن تضحى بمطالب محمد على من أجل إبعاد روسيا عن تركيا والبحر الأسود . لذلك أرسلت إلى الآستانة سفيرا جديدا هو أمير البحر البارون روسان Roussin وكان سياسيا مندفعا ، فتقدم إلى السلطان والح عليه أن يرفض مساعدة الروسيا ، وتعهد له فى نظير ذلك أن يكتفى محمدعلى بالاقاليم [1] الجنوبية فى الشام . والغريب أنه لم يستوثق من نوايا محمد على قبل أن يكفله لدى السلطان .

وكتب روسان إلى محمد على فى شدة يعرض [2] عليه نصف الشام الجنوبى وكلف ياوره أن يهدد محمد على شفويا بأنه إن لم يذعن ضربت انجلترا وفرنسا الاسكندرية

أصر محمد على على الاحتفاظ بالشام جميعا ، واستمسك كذلك باقليم اذنه (إذ هو غنى بمناجمه وأخشابه ، وفى شماليه جبال طوروس التي يريدها لمصر حدا) وأجاب روسان برسالة حازمة جمعت بين التهديد والاستعطاف [3]

---

(١) أى ولايات صيداء (عكا) وطرابلس والقدس ونابلس

(٢) جاء فى الخطاب « إن اصرارك على طلباتك ، وإدعاءاتك التى أعلنتها ستجر على رأسك عواقب وخيمة أرجو أن يردعك الخوف عنها وان فرنسا ستتمسك بتعهداتها التى أبرمتها ، وإن لها القوة ، وأنا ضمين ارادتها ، وإنى أرجو أن لا تضطرنا إلى أن نلجأ إلى الضرورة القاسية باستعمال القوة ضد مملكة نحن من مشيديها ، وضد عظمة وانتصار نحن من أخلص المعجبين بهما»

(٣) جاء فى هذه الرسالة « إنى ياجناب السفير أتساءل : بأى حق تطلبون منى هذه التضحية؟ إن شعبى يؤيد مطالبى . وإن فى مقدورى بكلمة واحدة أن أثير شعوب

وتمسك فيها بمطالبه جميعا (٨ مارس ١٨٣٣) ، ولما استيقن السلطان فشل روسان فى اقناع محمد على ورأى أن ابراهيم باشا لايزال يزحف فى طريق الآستانة حتى احتل كوتاهية (فبراير ١٨٣٣) لم يجد بدا من طلب المساعدة رسميا من روسيا وهو يقول ان « الغريق يتعلق بالثعبان » فارسلت هذه عمارة بحرية وجيشا عسكر على الشاطىء الآسيوى عند « هُنكار اسكله سى » على البسفور ، أما روسان فأسقط فى يده وحار فى أمره ، إذ هو يعلم تمام العلم أن فرنسا لا تحارب محمدا عليا صديقها ، لهذا قام هو وسفراء الدول ينصحون للباب العالى أن يجيب مطالب محمد على كى تجلو القوات الروسية فاستمع إلى نصحهم وهو محنَق ، وعُقد صلح كوتاهية (مايو ١٨٣٣) وبه تخلى السلطان عن الشام لمحمد على وعهد إلى ابراهيم ادارة اقليم اذنة ، ففرح المصريون ، وضرب فى الاسكندرية مائه مدفع لعقد الصلح بين السلطان والباشا .

معاهدة هنكار اسكله سى : لاريب أن السلطان عقد اتفاقية كوتاهية وهو مكره حانق على فرنسا وانجلترا لخذلها اياه ، وصمم في الانتقام من محمد على ، وفطنت روسيا الى ماصمم فطفقت تُدخل فى روعه أن لا رجاء فى مساعدة تأتيه من فرنسا أو انجلترا وان سلامة بلاده رهن بما تقدمه له روسيا من المساعدة ، فعقد معها في يونيه ١٨٣٣ معاهدة هنكار اسكله سى سرا وهى معاهدة دفاعية كفلت فيها روسيا حماية الباب العالى ثمانية أعوام،

الروملي والاناضول . ويمكننى بمعاونة شعبى أن أفعل أكثر من ذلك . . . إنكم تطلبون منى أن أتخلى عن البلاد التى فتحتها وأن تجلو عنها جنودى إلى منطقة صغيرة تسمونها ولاية . أليس هذا بمثابة الحكم على بالاعدام السياسى على إنى واثق أن فرنسا وانجلترا لايبخلان على بالانصاف فان ذلك مرتبط بشرفها ، وإذا خاب رجائى فليس لدى إلا التسليم بما قضى الله به ، وحينئذ أوثر الموت الشريف على العار والضيم وسأضحى بنفسى راضيا فداء لقضية بلادى ، مغتبطا بخدمتها مادمت حيا . »

وأعفته من كل مساعدة مالية فى نظير تعهده باغلاق البواغيز فى وجه أعدائها ، ومغزى هذه المعاهدة أن الباب العالى أصبح فى حمى روسيا وحارسا للبواغيز محافظة على مصالحها ، وهذا على الحقيقة نصر هين أحرزته روسيا ولم يكن يحلم به بطرس ولا كاترين ، والمعاهدة كذلك دليل محسوس على ما بلغته تركيا من الضعف والخور ، وعلى ما تملّك السلطان من اليأس والقنوط [1].

نمى خبر المعاهدة وذاع ، وأكده مجيء مهندسي الروس لتحصين الدردنيل فتعاظم انجلترا وفرنسا الأمر ، واحتجتا لدى الباب العالى وبطرسبرج ومما ورد فى الاحتجاج الموجه الى بطرسبرج : « إن المعاهدة غيرت علاقة روسيا بتركيا ، وجعلتها ذات صبغة جديدة ولا ترى الدولتان بدا من أن تغفلاها وتعملا كما لو كانت هذه المعاهدة غير موجودة » [2]

الحكم المصرى فى الشام

لقد استقبل أهل الشام حكم مصر بالبشر بعد أن ذاقوا ألوان الظلم على عهد الأتراك . وبدأ ابراهيم باشا يدخل اصلاحات محمودة نذكر منها ما يلى : —

(١) ألّف فى كل مدينة كبيرة ديوانا للمشورة للنظر فى شؤنها ويُختار أعضاؤه من أهلها المسلمين والمسيحيين على السواء

(٢) سوّى بين الناس جميعا أمام القانون لا فرق بين مسلم ومسيحى ، وغنى وفقير

---

(١) ولقد قال مرة وقد أخذته سورة الغضب « ماذا يهمنى من أمر الدولة جميعها وأية أهمية للآستانة عندى ، إنى أضحى بالاثنتين لمن يأتينى برأس محمد على »

(٢) نجد النمسا كذلك تعمل على نسخ هذه المعاهدة ، فقد وفق مترنخ فى عقد معاهدة سرية مع قيصر روسيا عندما اجتمعا فى منشجراتز للبحث فى شئون المانيا وفحوى المعاهدة أن روسيا والنمسا تتحدان معا على صد نفوذ محمد على عن الولايات العثمانية

(٣) أحيي موات الزراعة والصناعة والتجارة فاستعادت أكثرُ مدن الشام عمرانها القديم(١)

غير أن أهل الشام تبرموا بحكم مصر لعوامل هى : —

(١) احتكرت الحكومة الحرير فى بلاد الشام جميعا فلحق الضرر بمنتجيه وتجاره

(٢) فرضت الحكومة ضريبة الرءوس(٢) على الرجال كافة لا تميز فيها بين الجنسية والديانة فكرهها المسلمون على الأخص اذ كانوا معفين منها قبلا

(٣) وأمرت الحكومة بتجنيد الاهالى بالاجبار وأن يأخذ الجيش كل ما يتطلبه من الحيوان ونُفذ التجنيد بطرق عنيفة .

(٤) وقضت الحكومة أن ينزع من الاهلين سلاحهم فغضب هؤلاء اذ لاغنى لهم عن اسلحتهم ليدفعوا بها شر البدو وقطاع الطرق

(٥) انتزعت الحكومة كل سلطة من الرؤساء الاقطاعيين ، وقلمت أظفار كبار قطاع الطرق فحقدوا عليها

(٦) قام الاتراك والانجليز يدسون للحكم المصرى ويعملون على إشعال نار الثورة .

لكل هذا شتعلت نار الثورة فى ابريل ١٨٣٤ ولاقى ابراهيم صعابا جمة فى اخمادها حتى اضطر محمد على الى الذهاب إلى الشام بنفسه هناك واستخدم الدهاء حينا والقوة أحيانا حتي سكن ثائر القوم ، غيرانهم عادوا إلى الثورة فى نوفمبر ١٨٣٧ ولكنها اخمدت بعد جهاد تسعة شهور

ولا ريب أن التجنيد ونزع السلاح كانا أهم عوامل الثورة ، ولو لم يتشدد محمد على فى تنفيذهما لما قامت تلك الثورة الجائحة

---

(١) عن محمد بك كرد على رئيس المجمع العالى بدمشق

(٢) تتراوح هذه الضريبة بين خمسة عشر قرشا وخمسمائة قرش

عودة النزاع بين الوالى والسلطان

عد السلطان معاهدة كوتاهية هدنة ليس غير وطفق يمنى نفسه بالانتقام ويعمل له ، والوالى يحس حقد السلطان عليه ويتحصن منه

سفير انجلترا يتقرب إلى السلطان : كانت تركيا تعد انجلترا وفرنسا صديقتين تعملان لنصرتها ولكنها ألفتهما تنصران اليونان عليها أولا ثم تكرهانها على قبول معاهدة كوتاهية ثانيا ، فاساءت الظن بهما وخصت فرنسا بأكبر قسط من ارتيابها لأنها احتلت الجزائر (١٨٣٠) وكانت الروسيا منذ معاهدة هنكاراسكله سى صاحبة النفوذ الأول فى الآستانة غير أن بنسنبى Ponsonby سفير انجلترا فى الآستانة اعتزم أن يحرم سفير روسيا نفوذه الكبير لدى السلطان لينعم هو به ، فشرع يوقع نغما يطرب السلطان له : وذلك النغم هو العداء الشديد لمحمد على والتحريض على قتاله ، والحث على الاستعداد له ، فوثق السلطان به ، واتخذ فون مولتك[1] Von Molke البروسى مصلحا للجيش ، ووكر Walker الانجليزى مصلحا للبحرية

ولم يجهل محمد على ماتكنه انجلترا من الحقد له ، ولم يجهل كذلك مبلغ نفوذها فى مجرى السياسة الدولية لذلك أراد أن يستميلها بعض الشيء فأرسل البعثات إلى معاملها ودور بحريتها وقبل مكرها احتلالها عدن وهى ذلك الميناء التجارى المنيع المهيمن على فم البحر الأحمر ، فكسر كل ذلك من شرة بالمرستون (وزير خارجية انجلترا) وخفف من غلوائه حتى ان تركيا لما طلبت إليه أن يعقد معها محالفة هجومية ضد محمد على رفض وأفهمها أنه لن يشد أزرها إن كانت هى المعتدية الباغية .

أما بنسنبى فظل على غلوه فى عدائه لمحمد على

(١) قاهر فرنسا فيما بعد فى حرب السبعين

محمد على يعلن رغبته فى الاستقلال (مايو ١٨٣٨) أراد السلطان احراج صدر محمد على وإربا كه، فقام يطلب منه مساعدات مالية فادحة واستخدم هذه الأموال فى تدعيم جيشه وتضخيم أسطوله، فاضطر محمد على أن يجاريه فى الاستعداد للحرب، ووقع الغبن كله على أهل مصر، إذ هم دافعو المال الذى يبذل للسلطان والذى ينفق منه على جيشهم وعلى أسطولهم، لذلك بدءوا يستثقلون حكم محمد على، فاراد أن يضع حداً لهذه الحال القلقة، فجمع قناصل الدول (مايو ١٨٣٨) وجاهرهم برغبته فى اعلان استقلال بلاده[1]. غير أن الدول أنكرت[2] عليه ما أراد فحزن وسافر إلى السودان وهو يقول لمعتمد إنجلترا فى القاهرة إنه لو وفق فى بحثه عن الذهب فى السودان لأغناه الذهب عن استخدام الجيوش والاصدقاء فى التفاهم مع السلطان.

بنسنبى يوعز بالحرب: كان السلطان يتحرق للانتقام، ولكن الدول كانت تحذره عاقبة المغامرة، وشارك بالمرستون الدول فى تخوفها، وأمر سفيره بنسنبى أن ينصح للسلطان بتجنب الحرب، ولكن بنسنبى لم يشأ أن يتقيد بأمر حكومته فأوعز إلى السلطان بالحرب من طرف خفى[3] فتشجع هذا، وأدرك أن الحرب لن تجر عليه خسرا، فانه إن انتصر قطف

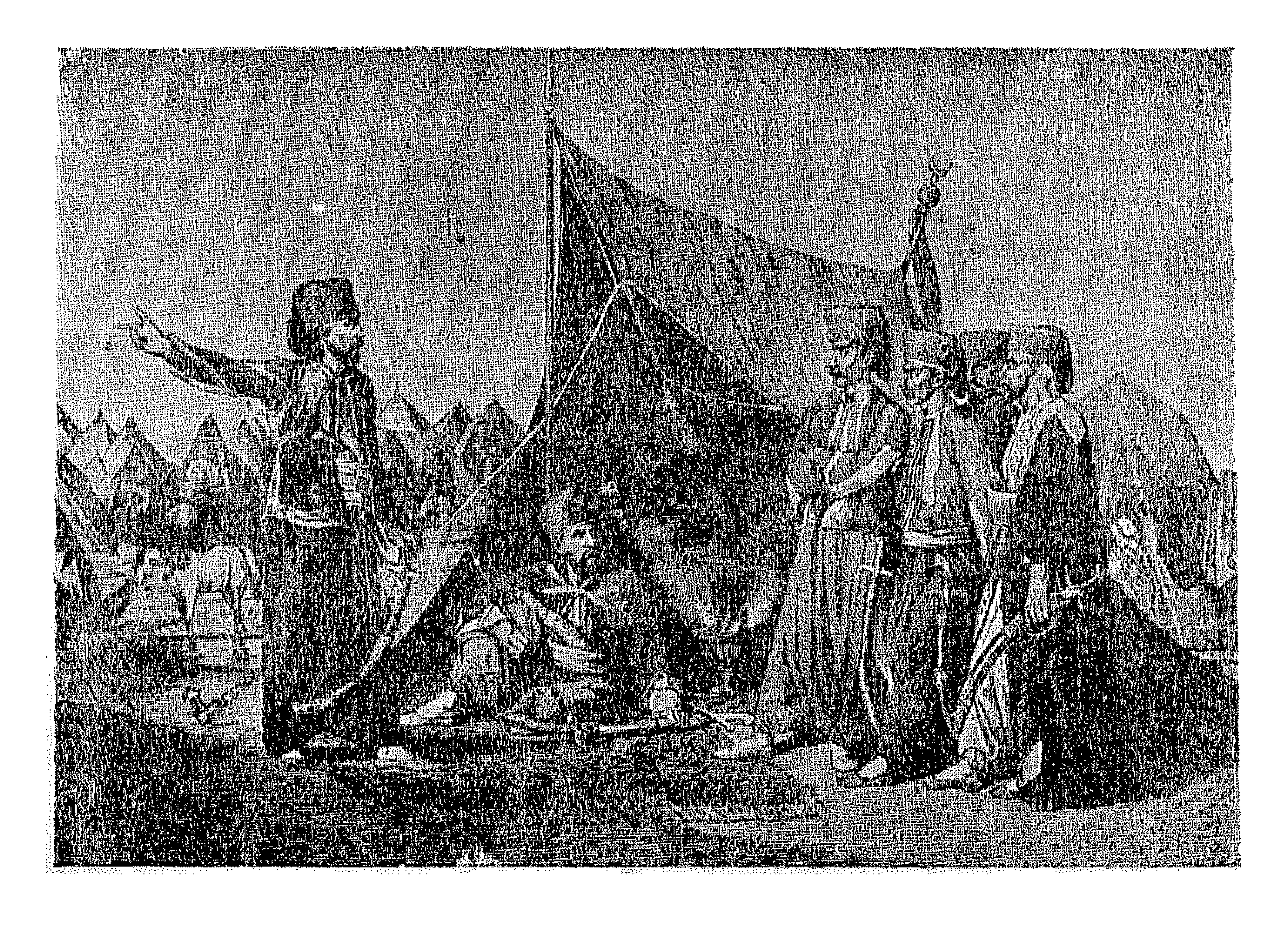
(١) ذكر لهم مجملا لاصلاحاته ومنشآته فى مصر والشام وختم الحديث بقوله « انى لا أستطيع أن أترك كل هذا ليفنى فى يد الباب العالى بعد موتى وإنى ليشملنى الاسى كلما ذكرت أن جهودى ضائعة وأن أولادى وأسرتى سأتركها بعد موتى تحت رحمة الباب العالى »

(٢) أجابت الحكومة الانجليزية بأنها ترى من المستحيل تحقيق هذا المشروع وهددت محمد على بالدمار. وأجابت فرنسا بأنها أبلغت تصميم محمد على فى إعلان استقلاله فدهشت وأسفت وانها ستعرقل ذلك المشروع بكل قواها وأجاب مترنخ عدو كل ثائر « ان صفو السلام فى أوربة لايحب أن يكدر »

(٣) كأن يقول له إن الاسطول الانجليزى لن يقطع على الاسطول العثمانى سبيله أو يقول له إنه يرجو أن يكون قد أعد (أى السلطان) للنجاح عدته.



ابن سعود يقدم طاعته لابراهيم باشا



ابراهيم باشا فى معسكره فى نصيبين

ثمار النصر وإن فشل ، فلن تسمح انجلترا ولا روسيا بأن يُقضَى على دولته ، وفوق ذلك فالشام كارهة حكم محمد على وستكون بلا ريب عونا له فى الحرب .

لكل هذا ازداد نشاط الترك قرب الحدود المصرية في الشام ، ولما كان إبراهيم قد حصّن مضايق جبال طوروس تحصينا منيعا ، رأى حافظ باشا [1] القائد التركى أن يدخل بلاد الشام من جهة الفرات من الشرق . وعبر الأتراك الفرات فعلا إلى شاطئه الأيمن ، وعسكروا عند قرية نصيبين ، وهى وإن كانت فى الأراضى العثمانية إلا أنها على مسيرة ساعات قليلة من حدود الشام المصرية : إزاء هذا لم ير محمد على بداً من أن ينشر على قناصل الدول بيانا يعلن فيه براءته من كل هذه المشاكل واضطراره إلى مقابلة القوة بالقوة ، ولما خُبّر السلطان بهذا المنشور كاد الغيظ يقتله وقال « إنى أوثر الموت على التراخى فى إخضاع هذا العاصى »

الحرب : كان إبراهيم باشا يقود جيش مصر وحافظ باشا يقود جيش الترك ، ووقفا وجها لوجه قرب نصيبين ، وكانا يتعادلان [2] عَددا وعُددا وذخائر ، ولكن الأتراك كانوا دون المصريين فى تنظيم القيادة [3] وكان جيشهم خليطا على عكس جيش مصر فهو من جنس واحد ، وكان المصريون فوق ذلك يعتزون بانفسهم لنصر أحرزوه فى حروبهم السابقة .

ودارت معركة نصيبين فى صبيحة ٢٤ يونيه ١٨٣٩ ، وانجلت بعد بضعة

---

(١) خلف حافظ باشا رشيدا باشا على القيادة لوفاة رشيد

(٢) كان الاتراك ٣٨٠٠٠ والمصريون ٤٠٠٠٠

(٣) كان الاتراك يعاونهم ضباط من الألمان على رأسهم فون مولتك ويقول سفير ألمانيا فى الآستانة إن حافظ باشا خالف نصائح الالمان وفضل حرب العراء على حرب الخنادق

ساعات عن هزيمة الجيش العثمانى هزيمة جائحة [1] ، وأصبحت تركيا بعدها لا تجد لها جيشا تستند عليه ، ومات السلطان محمود الثانى فى غاية يونية قبل أن يبلغ مسمعيه حديثُ نصيبين ، وتولى ابنه السلطان عبد المجيد ولم يبلغ السادسة عشرة بعد ، وتولى خسرو باشا الصدارة العظمى ، وكان عدوًّا لفوزى باشا أمير الأسطول التركى ، لهذا أقلع فوزى باشا باسطوله إلى الاسكندرية ليقدمه إلى محمد على نكاية فى خسرو ، وخوفا على نفسه من غدره [2] وكان الاسطول مكونا من عشرين قطعة (مابين بارجة وسفينة) وواحد وعشرين ألفا من جنود البحر ، فرحب محمد على بهم وضمهم إلى أسطوله فصار لمصر أكبر قوة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط . وصارت تركيا بغير جيش ولا أسطول ، وأصبح حظها رهنا بمساعدة الدول وحكمة محمد على ورحمته ، وغضبت الدول وبخاصة انجلترا لحادث الأسطول وطلبت إلى محمد على أن يعيد الاسطول إلى تركيا لخنق وقال إن الحرب تجيز لفريق أن يقبل الفارين

---

(١) قتل أو جرح من الاتراك نحو ٤٠٠٠ ، وأسر منهم ما بين ١٢٫٠٠٠ و ١٥٫٠٠٠ ، وغنم المصريون منهم نحو ٢٠٫٠٠٠ بندقة و ٤٤ مدفعا ، وفر الاتراك من الميدان تاركين وراءهم كل شيء حتى ان حافظ باشا ترك خيمته المزركشة وفيها أوراقه وأوسمته وتعقبهم المصريون واستولوا منهم فى اليوم التالى على ٣٠ مدفعا وخزانة جيشهم وكان بها نحو ستة ملايين من الفرنكات

(٢) خرج فوزى باشا من الدردنيل بأسطوله ميمما مصر ولم يسر بنيته إلا للقليل من رجاله المقربين وقابله فى عرض البحر الاسطول الفرنسى فسأله ربانه عن وجهته فقال له ان الحزب الروسى (يقصد حزب خسرو) سم السلطان وانه يخشى على حياته هو الآخر وان لا اصلاح للدولة إلا بعزل خسرو . وقارب الاسكندرية وكان رجاله يعتقدون انهم جاءوا للحرب ، فاستعدوا لها ، ولكنهم سمعوا طلقات الترحيب بهم تتجاوب من الطوابى والاسطول المصرى — وكان هذا الاسطول يدرب خارج الميناء — فغضب جنود الترك وفر بعضهم على الزوارق وتهيأ الباقون للمقاومة ولكن محمد على باشا يعرف الوسيلة التى تجتذب قلوبهم ودخل الاسطولان الميناء

من صفوف الفريق الآخر ، وارسل خسرو الى فوزى يستدعيه ويمده عفو السلطان ، فاجاب فوزى بأنه ليس خارجا على السلطان ولكنه يخشى على نفسه من غدره هو

موقف الحكومة العثمانية الجديدة وموقف روسيا : لقد اظهر خسرو حكمة وحزما اذ تجاهل الضغن الذى يحمله لمحمد على ، ونسى كل شيء الا صالح دولته والعمل على استعادة هيبتها ورأى السلم هو السبيل الموصلة الى ما يريد اذ تنصرف الدولة الى اصلاح شأنها حتى تغسل عارا كساها وتعيد هيبة نُزعت عنها . وشاركه فى رأيه السلطان وأكابر قومه ، لذلك أُرسل عاكف باشا الى محمد على ، ومهمته الظاهرة اعلان تولية السلطان الجديد رسميا ، ولكنه أُرسل فى الواقع يعرض الصلح على أساس جعل مصر وراثية فى بيت محمد على ، غير أن محمدا عليا أصر فى أدب على ضم الشام أيضا ورجع عاكف باشا يحمل الهدايا .

وعادت حكومة الباب العالى تراجع نفسها وتفكر فى اجابة مطالب محمد على ورأت روسيا رأيها حتى لا تجد دول أوربة باعثا على التدخل ، اذ لو تدخلت لفقدت روسيا نفوذها الذى صار لها بمعاهدة هنكار اسكله سى ولكن الدول تدخلت رغم السلطان وواليه وحاميه (قيصر روسيا) .

جنبا لجنبا وعدد سفائنهما نحو خمسين ورجالها نحو الثلاثين ألفا أما ووكر الانجليزى مساعد فوزى باشا فأبى أن ينضم الى محمد على بدعوى أن حكومته لم تأذن له فى ذلك ، وجدير بنا أن نذكر خاتمة فوزى باشا الذى عرف باسم فرارى فوزى باشا فقد ظل فى مصر حتى اصطلح السلطان ومحمد على ، وطلب السلطان من محمد على أن أن يخلصه من فوزى الخائن فأرسل محمد على إلى فوزى من قال له إن العالم فان وإن المؤمن لا يخشى لقاء ربه وان الموت قد يصيب الانسان من جرعة ماء أو فنجانة من القهوة ففطن فوزى إلى ما يراد منه فقام لساعته وتوضأ وصلى صلاة العصر وشرب قهوة يخالطها سم وهو يقول « قسمت »

موقف انجلترا وفرنسا : نذكر موقفهما إجمالا ثم نفصله :—

غرضا انجلترا (١) تريد إضعاف محمد على
(٢) تريد القضاء على مركز روسيا الممتاز لدى السلطان

غرضا فرنسا (١) تريد القضاء على مركز روسيا الممتاز لدى السلطان
(٢) تريد تقوية محمد على

واتحدت انجلترا مع فرنسا حتى قضى على مركز روسيا الممتاز
ثم اتحدت مع روسيا حتى قلمت أظافر محمد على

وقد أساءت فرنسا إلى محمد على ، إذ جعلت موضوع روسيا غرضها الأول وجعلت موضوع محمد على غرضها الثانى . والآن نفصل هذه الأمور :

انجلترا : جزع بالمرستون لانتصار محمد على لأسباب هى : —

(١) إن هذا الانتصار يثبت أقدام محمد على فى الشام فتصبح مصر وبلاد العرب والشام فى يده وكلها طرق تهدد الهند، وفوق ذلك فقد أصبح أسطوله بعد انضمام الأسطول التركى اليه أقوى أسطول فى البحر الأبيض

(٢) إن هـذا الانتصار قد يؤدى إلى انحلال تركيا وتطلع الدول إلى اقتسامها وهذا من شأنه أن يزعزع أركان السلم فى أوربة

(٣) ان هذا الانتصار يؤدى إلى تدخل روسيا ، إذ لهـا حق حماية السلطان ثمان سنوات بمقتضى هنكار اسكله سى .

وأطلق بالمرستون العنان لحنقة فصرح فى البرلمان بانه لا يفهم كيف يكون السلطان البادىء بالعداء ونصيبين داخل حدوده لا حدود مصر ، وكتب لسفيره فى ڤينا يقول له إن انتصار محمد على لا يخوله أى حق بل قد يؤدى إلى عكس ما يتصور وصرح كذلك بانه يجب طرد محمد على من الشام ومن « قوقعته » — مصر — إن أمكن .

هذه آراء بالمرستون الخاصة بمحمد على أما آراؤه الخاصة بروسيا فتتلخص

فى حرمانها حق الانفراد بحل مشاكل تركيا ، ولقد وفق بالمرستون توفيقا عجيبا في تحقيق غرضيه ، ويرجع توفيقه إلى تخبط فرنسا فى سياستها (كما سنذكر) .

فرنسا : كانت سياسة فرنسا كما علمنا مزدوجة ، فهى تريد تقوية كل من السلطان ومحمد على، ولما انتصر الاخير فى نصيبين أعجب به الفرنسيون وعدوه بطلا قل أن ينجب الزمان مثله وشبهوه بنابليون فى نصره وفى نشره مدنيتهم ، وانحازت قلوبهم اليه ، وأرادوا مساعدته بما يتسع لهم الذرع

هذه أراؤهم الخاصة بمحمد على ، أما من جهة الروسيا فكانت الحكومة الفرنسية تناوئها لسببين : (أولهما) أن نيقولا قيصر روسيا الرجعى حاقد على لويس فيليب الذى رقى الى عرش فرنسا على سلم الثورة [1] فبادله لويس فيليب كرها بكره ، (وثانيهما) أن فرنسا نقمت من روسيا مركزها الممتاز فى تركيا ، و جعلت فرنسا ازالة نفوذ روسيا عن تركيا غرضها الأول ، وجعلت الدفاع عن مصالح مصر غرضها الثانى

فرنسا تنفذ غرضها وتناصرها انجلترا فيه : اقترح سولت (Soult) رئيس الوزارة الفرنسية على الدول أن يُبلغ الباب العالى « ألا يتم شيء وألا يوافق على صلح مع محمد على مالم يوافق عليه الحلفاء إذ يستطيعون بتدخلهم أن يحصلوا له على شروط مضمونة وأكثر موافقة » .

وغرض فرنسا من هذا الاقتراح واضح جلى : فهى لا تريد أن تنفرد روسيا بحل النزاع بين السلطان ومحمد على ، وصادف الاقتراح هوى فى نفس انجلترا ، والنمسا أيضا ، فرحبتا به ، وفطنت روسيا إلى المقصود من ذلك المقترَح ، فحنقت على فرنسا لتآمرها عليها ، ولكنها رأت

---

(١) ثار الفرنسيون عام ١٨٣٠ وطردوا شارل العاشر وولوا لويس فيليب

أن اكتساب[1] ثقة الدول وبخاصة انجلترا خير لها من مركز وهمى في الآستانة ، لذلك أعلنت على غير توقع وانتظار أنها لا تتمسك بمعاهدة هنكار اسكله سى واشتركت مع الدول فى تقديم مذكرة للسلطان فى ٢٨ يولية جاء فيها «ان الدول الخمسة رأى واحد فى المسالة الشرقية ويطلبون إلى حكومة السلطان ألا تعقد مع محمد على اتفاقا مالم تقره الدول»

وكان مندوب سلطانى سيسافر إلى مصر يوم ٢٩ يوليـة (أى فى اليوم التالى لتقديم المذكرة) ليتفق مع محمد على على مطالبه فأبطل سفر المندوب ، وشكر الباب العالى للدول عطفها[2] (وإذ كان يفضل ألا تتدخل بينه وبين تابعه) ولو نظرنا إلى سياسة فرنسا نجدها ولّدت النتيجتين الآتيتين : —

(١) المسألة الشرقية : — قُضى على مركز روسيا الممتاز فى تركيا وهذا ما كانت ترغب فيه الدول وبخاصة انجلترا ، وأصبح الباب العالى فى حماية خمس دول بعد أن كان فى حماية دولة واحدة هى روسيا

(٢) المسألة المصرية تأجل حلها وتعقد .

فرنسا تريد تحقيق غرضها الثانى فتعترضها انجلترا وروسا : عند ماأرادت فرنسا القضاء على مركز روسيا فى تركيا أعانتها انجلترا على ذلك الأمر لرغبتها فيه ، ولما شرعت بعد ذلك فى معاضدة محمد على عارضتها انجلترا فى ذلك الأمر لرغبتها عنه ، واستغلت انجلترا حنق روسيا على فرنسا فاتخذتها عونا لها فى مناوأة فرنسا فى حل المسألة المصرية ، (ومن قبل استغلت

---

(١) ولقد صح مارأته ، إذ أنها بعد اشتراكها فى تقديم المذكرة كتب السفير الفرنسى بلندن إلى حكومته يقول « ان الوقت قد حان لتغيير سياسة الشك والتهديد إزاء روسيا »

(٢) غضب محمد على لتدخل الدول وألقى عبء اللوم على عاتق خسرو ولكن لا لوم على خسرو فهو لا قبل له بمناهضة دول أوربة المتضافرة

انجلترا حسد فرنسا لروسيا حتى قضت على نفوذ روسيا فى تركيا (فما أدهى الانجليز فى السياسة وما أشد تخبط الفرنسيين!) .

وأول خلاف شجر بين انجلترا وفرنسا كان من أجل الأسطول التركى فان انجلترا أرادت أن تنتزعه من محمد على ولو عن طريق القوة لترده الى تركيا ، لأن تضخم أسطول مصر فى البحر الأبيض لا يروقها غير أن فرنسا اعترضتها فيما أرادت . ثم اختلفت الدولتان بعد ذلك فى أمر الاقاليم التى يمنح محمد على حكمها : ففرنسا رغبت فى أن يمنح حق الوراثة فى البلاد التى يحكمها ما عدا بلاد العرب وأذنه وكريت . أما انجلترا فرأت ألا يمنح الا حكم مصر مهده الأول ، وأن تكون صحراء سينا السياج بينه وبين السلطان . فأصرت فرنسا على رغبتها ، فتكدر الصفاء بين الدولتين ، وقام بالمرستون يتهمها بأنها لا تحترم تعهداتها [1] للسلطان وأنها تعمل فى الخفاء لمطامع شخصية تخشى أن تُبِينْ عنها .

ووجدت روسيا فى الخلاف بين الدولتين فرصة تقربها من الانتقام من فرنسا ، فاعتنقت آراء انجلترا ، وكره مترنيخ من فرنسا معاضدتها لثائر (محمد على) فانضم إلى انجلترا وروسيا ، وتبعته بروسيا التى تترسم دائما خطاه ، والتى يفزعها ويقلقها اتساع نفوذ فرنسا عدوة الالمان . وهكذا تناصرت الدول الأربع على فرنسا .

أما فرنسا فقام فيها تيير (Thiers) فى مجلس النواب يقول « إن واجب فرنسا يقضى عليها أن تساعد مصر جهد الطاقة محافظة على مصالحها وشرفها » . وتلا ذلك تولّى تيير رآسة الوزارة . وأراد بالمرستون أن يتساهل بعض الشيء مع محمد على ، فعرض على فرنسا أن يمنح محمد على نصف الشام الجنوبى ، وانا نعلل هذا التساهل باحد أمرين أو هما معا

---

(١) التعهدات التى جاءت فى المذكرة التى قدمت للسلطان فى ٢٨ يولية

(أولها) أن بالمرستون ظن أن هذا العرض قد يرضى فرنسا فلا تخرج على اجماع الدول ولا تستهدف أوربة لحروب تمزقها (وثانيهما) ان محمدا عليا قد يلجأ للقوة (وانجلترا ترغب دائما فى بلوغ أغراضها عن طريق السياسة لا القوة) وأن مثل هذا التساهل قد يسكن من ثائرته

ولكن تيير رفض ماعرضته انجلترا قائلا «فى يقينى ان محمدا عليا سيرفض هذه الشروط ولن يقبل أبدا تقسيم سورية ، وماذا تكون النتيجة لو طلب محمد على أذنة وهدد الدول باجتياز جبال طوروس وشبت نار الحرب؟» ولعل الذى بعث تيير على الرفض ظنه أن ليس من المحتمل اتفاق الدول الأربع على العمل الجدّى والحرب ، وأن محمدا عليا يستطيع المقاومة ، ولو عُرضت هذه الشروط على محمد على رأسا بغير وساطة فرنسا لقبلها ما فى ذلك ريب ، اذ هو أحكم من أن يتحدى بمفرده أربع دول كبرى متضافرة

وأخذ بعد ذلك تيير يفاوض السلطان ومحمدا عليا سرا ويستحثهما على أن يتفقا رأسا بغير وساطة الدول (وليذكر القارىء أن السلطان والوالى كانا أول الأمر يريدان الاتفاق رأسا حتى اقترحت فرنسا تدخل الدول!!) وعلم بنسنبي أمر المفاوضة وأبلغه بالمرستونَ فاعتزم بالمرستون الاسراع فى التدخل قبل أن تفلت الفرصة من يده واستحثه على ذلك الاسراع أن ثورة جديدة شبت نارها فى الشام (بمجهودات الانجليز والاتراك طبعا) ، وان تركيا قامت تلح فى الاسراع حتى تنكشف عنها سحابة القلق وعدم الاستقرار ، لكل ذلك جمع بالمرستون فى لندن مؤتمرا سريا مؤلفا من انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا (وبغير علم السفير الفرنسى) وتمخّض المؤتمر عن معاهدة لندن (١٥ يوليه ١٨٤٠) وتتلخص فيما يلى : —

(١) أن يخول محمد على وخلفاؤه حكم مصر الوراثى ويكون له حكم ولاية عكا (أى فلسطين الحالية) طول حياته وأن يكون لمصر حق الاستقلال

الداخلى بقيود متينة تربطها بتركيا (مثل دفع الجزية وعدم تمثيل مصر فى الخارج وتحديد الجيش والاسطول واعتبارهما جزءاً من قوات تركيا الخ) وأن يرد للسلطان بلاد العرب وكريت واذنه والاسطول

(٢) اذا لم يقبل هذه الشروط فى مدة عشرة أيام يحرم ولاية عكاء ويمهل عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثى لمصر فاذا انقضت هذه المهلة أيضا ولم يقبل تلك الشروط فللسلطان الحق فى اتخاذ أى طريق يراه متفقا ومصالحه .

(٣) ان تتكاتف الدول الأربع على اخضاع محمد على ان فكر فى الخروج على هذه المعاهدة

وبعد يومين من عقد المعاهدة دُعى جيزو سفير فرنسا الى وزارة الخارجية ، وأخبره بالمرستون حديث المعاهدة ووضح له أثرها في تهدئة الشرق ، وأبدى أسفه لانفصال الدول عن فرنسا مؤقتا ورجا جيزو أن تنصح فرنسا لمحمد على أن يقبل المعاهدة ، فاستمع جيزو إلى تيير وهو صامت مشدُوه ، ثم أبلغ حكومته الخبر ، فحنق الفرنسيون حنقا عظيما واعتبروه تحديا لهم وغضا منهم ، وخيل اليهم أن حلفاء ١٨١٤ الأربعة قد تحالفوا عليهم من جديد وقام الناس فى باريس يصيحون ويصخبون ويهددون بالثورة على الحكومة إن تراخت وينذرون الدول بحرب تكتسح الرين ومعاهدات ١٨١٥ بأسرها ويخصون « انجلترا الخادعة » بشديد مقتهم وشاركهم ملكهم لويس فيليب [1] فى شعورهم وهو الحفيظ على السلم والاستقرار

(١) قام لويس فيليب يهدد بقيادة الشعب الثائر ويطلق غول الثورة من عقاله وقال عن ملوك أوربة « لقد غبرت عشرة أعوام اقيم السدود فى وجه الثورة

ورد تيير على بالمرستون رداً قويا يقول فيه « إن فرنسا ترى أن ليس من مصلحة السلطان فى شىء أن تترك له أقاليم يعجز عن صيانتها وحكمها كذلك لا ترى أى فائدة للسلطان من إضعاف الباشا لذى قد يكون قوة منيعة للدولة وأن فرنسا تعتقد أنه ليس من الحكمة ولا من الاحتراس فى شىء أن تقر الدول وسائل تعجز عن تنفيذها أو اذا نفذتها فبطرق ناقصة عظيمة الضرر » وصمم تيير فى الحرب وأخذ يقيم الاستحكامات والحصون حول باريس ، غير أن بالمرستون لم يحفل بهذه الحماسة وقال « إن فرنسا فى عهد لويس فيليب غيرها فى عهد نابليون »ويقصد بهذا القول ان لويس فيليب لايستطيع أن يدخل مع دول أربعة فى حروب قد تؤدى إلى ثورة فى فرنسا تفقده عرشه ورسم بالمرستون خطته وهى : —

السرعة فى إخضاع محمد على حتى إذا هزم رأى الفرنسيون أن محمدا عليا ليس بالذى لايقهر ، فتخبو حماستهم وتنتهى الأزمة ، لذلك كلف قائد البحر نابيير Napier أن يقطع باسطوله سبيل الاتصال بين الشام ومصر حتى لاتجد مصر وسيلة لارسال الامداد الى الشام عن طريق الصحراء المضنية ، وأرسل إلى ممثلى الدول فى الشام أن ينشروا نصوص المعاهدة على الناس لينصرفوا تماما عن محمد على ، وكان سفير انجلترا فى الآستانة قد ناط بموظف انجليزى يدعى وود إيقاظ الفتنة فى الشام فأيقظها وكانت قد نامت .

مخاطرا بعطف شعبي على مجازفا براحتى وحياتى ، وإنهم لمدينون لى بسلام أوربة وثبات عروشهم ، وهاهو اعترافهم بجميلى ؟ أتراهم لن يرضوا عنى حتى يروا قلنسوة الحرية على رأسى »

وكتب جيزو إلى أحد أصدقائه يصف له الحالة فى فرنسا « إن الشعور الحربى بالغ أشده ، وكل يريد الحرب حتى الرءوس المعتدلة قد جرى فيها التيار وأصبحت تتوق للحرب . وما من نائب كلمته إلا وصرح بضرورة إظهار قوة فرنسا »

ولما بُلغ [1] محمد على المعاهدة رفضها رفضا باتا ، واستعد لمقاومة خمس دول كبرى وان المرء ليدهش إذ يرى هذا الحاكم الحكيم يركب الشطط ويرتدف العناد على هذا النحو ، ولكنا نلتمس له العذر ، ففرنسا هى التى رفضت عنه حل المشكلة مرتين ، ومنته بالمساعدة إذا حزب الأمر ، فعوّل على وعودها ووقف ذلك الموقف الطائش

الحرب بين محمد على والحلفاء : كان الانجليز هم الذين قاموا بالقسط الأوفى من أعباء هذه الحرب ، فأسطولهم حاصر شواطىء الشام يعاونه قليل من سفن الحلفاء ، ورجالهم هم الذين أشعلوا ثورة الشام [2] ووزعوا على الثائرين ٣٠٠٠٠ بندقة وذخائر جمة ، وبنسنبى هو الذى أغرى السلطان بعزل محمد على ليسهل على وود إثارة الشام .

(١) وصل رفعت بك مندوب الباب العالى إلى الاسكندرية (١١ أغسطس) وقابل معتمدى الدول واتفق معهم على خطة العمل ، ثم قابل رفعت بك محمدا عليا فى سراى راس التين (١٦ أغسطس) وأبلغه المعاهدة وطلب اليه أن يعمل على تنفيذها ، فغضب محمد على وأغلظ له فى القول فتركه رفعت بك ثم عاوده هو وقناصل الدول (١٧ أغسطس) فقال لهم محمد على « أنتم أعلم بأخلاق محمد على فهو لا يقضى على نفسه بالموت وهو على قيد الحياة ، وانى لا أقبل شروطا مذلة » فدون القناصل له مذكرة (محضرا) عليها توقيعاتهم ، ذكروا فيها ما قالوه له وأمهلوه عشرة أيام . وقامت الجاليات الاجنبيه (والجالية الانجليزية أيضا) تحتج لدى حكوماتهم على تحالفها عليه فشدد هذا الشعور من عزيمته ، ولما انقضى أمد المهلة وذهب القناصل اليه أخبرهم أن لا فائدة من الحضور ثانية بعد عشرة أيام أخرى فهو لا يزال على رأيه الأول ، واذ علم بعزم رفعت بك على للسفر التفت إلى وكلاء الدول وقال لهم « آمل أن ترحلوا معه » فأجابوه بأنهم لم يتلقوا أوامر بمغادرة مصر ، فقال لهم بأنه إذا نشبت الحرب لا يمكنه أن يثق فيهم ، فالرحيل أشرف لهم وآمن له .

(٢) كتب وود إلى بنسنبى يقول انه لم يدخر وسعا فى تدبير حركة الثورة ، وأنه لاقى مشقات هائلة وعرض نفسه لاخطار جسيمة قياما بالواجب

وقامت الحرب فى منتصف سبتمبر ، وكان للمصريين فى الشام قوة كبيرة تقارب السبعين الفا ولكن هذه القوة كانت هدفا لنارين : نار الحلفاء من الشواطىء ، ونار الثورة فى الداخل ، والثانية أشد من الأولى هولا . وسقطت حيفا وصيداء فى يد الحلفاء ثم سقطت عكاء ذاتها فى ١٣ نوفمبر عقب انفجار مروّع داخل أسوارها لم يعرف سببه ، ولولا هذا الانفجار لامتنع الحصن على الحلفاء ولو إلى حين ، ولمّا سقط بهذه السرعة المدهشة. وكان لسقوط عكا اثران (أولها) بدأت قوة محمد على المعنوية تضعف (وثانيهما) بدأ لويس فيليب يشعر أن محمدا عليا ليس بالمناعة التى رسم صورتها فى ذهنه وأن أوربة المتجمعة القوية قد تفقده [1] عرش فرنسا لو تعرض للدفاع عن محمد على ، لذلك لما عرض عليه تيير خطبة للعرش أعدها بمناسبة افتتاح البرلمان وكانت خطبة حربية عنيفة رفضها لويس فاستقال تيير وتولت وزارة

(١) أوعز بالمرستون إلى ليوبولد ملك البلجيك (خال فكتوريا ملكة الانجليز وزوج ابنة لويس فيليب) أن يفهم ملك فرنسا الأخطار التى يتعرض لها إن هو تصدى للدفاع عن محمد على ، وكتب بالمرستون لسفيره فى باريس يقول « قل للملك ان فرنسا إذا تحدتنا فان انجلترا لا تتردد فى منازلتها وإنها إذا أقدمت على الحرب لابد أن تفقد أسطولها ومستعمراتها وتجارتها ما فى ذلك ريب أما محمد على فانا لا نرى غير قذفه فى النيل » لكل هذا بدأت الحماسة تخبو فى نفس لويس فيليب وتذكر أن هذه الدول بعينها هى التى اسقطت من قبل نابليون نابغة الحروب ، فلما جاء وقت افتتاح البرلمان أعد تيير خطبة العرش ، وكانت مفعمة بعبارات التهديد وعرضها على لويس فيليب فاستنكرها قائلا « لا أبغى مع أوربة حربا لأنها نضال واحد لأربعة ، وفوق ذلك فالحرب قد تطلق الثورة من عقالها وفى اعتقادى أن الشرف لا يلزم فرنسا حربا تصلاها وحدها فى وجه العالم لمجرد إبقاء ابراهيم فى سورية » فاستقال تيير ، وحلت محله وزارة جيزو وسولت المعتدلة واستمرت رغم ذلك الحصون تبنى حول باريس . ولكن لويس فسر ذلك بقوله بان الاستعداد خير ما يخمد فورة الثائرين » وقال لسفير انجلترا « الكلام عن الحرب شى والدخول فيها شىء آخر »

سولت وجيزو المعتدلة الراغبة عن الحرب (٢٩ اكتوبر ١٨٤٠) ونفضت فرنسا يدها من أمر محمد على بعد أن غررت به ، وأفقدته حقوقا ومزايا ، وطوحت به فى نضال سقيم عقيم ، فما أشبه موقفها حيالنا ١٨٤٠ بموقفها الذى سنراه عام ١٨٨٢ ولما تخاذلت فرنسا عن نصرة محمد على قسا عليه الباب العالى وبنسنبى تشفيا وحقدا

ولما تم للحلفاء احتلال ثغور الشام وقطع مواصلات الجيش المصرى بحرا أرسل القائد العام [1] لقوات الحلفاء بعض السفن بقيادة نابيير الى الاسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية ترهب محمدا عليا وترغمه على إجابة مطالب الحلفاء .

غير أن نابيير تقدم الى محمد على يفاوضه فى الصلح بغير أن تفوض حكومته اليه هذا الأمر وقد حداه على ذلك أمران هما :

(١) أنه فطن الى أن التظاهر وحده لا يكفى لارغام محمد على صاحب الحصون المنيعة والجيوش المعدة ، بل الأمر يحتاج إلى جنود تنزل البر وتحارب وتظهر على جيوش محمد على ، وليس لدى انجلترا وحلفائها من جنود البر ما يكفى لتحقيق هذا الغرض .

(٢) وأنه كان من الاحرار [2] الانجليز . ورأى فساد الحكم التركى الذى يريد الحلفاء احلاله فى مصر محل حكومة محمد على الناشئة الناشطة

وعقد بين نابيير [3] ومحمد على اتفاق فى ٢٨ نوفمبر ١٨٤٠ على ما يأتى :—

---

(١) أمير البحر ستوبفورد (Stopford)

(٢) كان احرار الانجليز Liberals حتى ذلك الوقت لا يرغبون فى الاستعمار ، ثم انقلبوا فيما بعد فصار شأنهم شأن المحافظين حتى ان احتلال مصر عام ١٨٨٢ حدث فى عهد وزاوة غلادستون الحرة

(٣) وكتب إلى حكومته يقول « إنه أخذ على عاتقه هذا العمل متحملا وحده تبعته وانه عمل ما رآه صوابا راجيا موافقة الحكومة ، نعم أن التبعة خطيرة ، ولكن يجب ألا يحجم الضابط من غير امر متى كان ذلك فى صالح العمل »

(١) يسلم محمد على الاسطول العثمانى (٢) يخلى ابراهيم سورية

(٣) يتعهد نابيير أن تضمن الدول لمحمد على حكومة مصر وراثية فى أسرته وألا تمس سواحل مصر بسوء .

واستنكر السلطان وبنسنبي هذا الاتفاق ، ولكن بالمرستون قبله لسببين

(١) أن الملكة فكتوريا كتبت له خطابا تطلب اليه بشدة أن يخفف من غلوائه (٢) أن التساهل مع محمد على يسهل على جيزو (صديق انجلترا) مهمة الحكم فى فرنسا

وأخلى المصريون الشام في ديسمبر ١٨٤٠ [1]

فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ : نصح الحلفاء الى محمد على أن يستعطف السلطان ففعل غير أن بنسنبى لم يتورع عن الحاق الضرر بمحمد على حتى في ذلك الوقت الذى تنزل فيه إلى التوسل والاستعطاف فلقد أغرى بنسنبى السلطان حتي أصدر الفرمان في ١٣ فبراير ١٨٤١ مشتملا على قيود جاوزت حد القيود التى نصت عليها معاهدة لندن ١٨٤٠ فمن هذه القيود :—

حق السلطان فى اختيار والى مصر [2] من أسرة محمد على ، وأخذ ربع دخل مصر [3] ، وانقاص عدد الجيش الى ١٨٫٠٠٠ وتعيين رؤسائه ، ومنها

---

(١) بدأ رجوع الجيش المصرى من الشام فى أواسط ديسمبر ، وقد تجمع قرب دمشق قبل الانسحاب ، وكان عدده نحو ٧٠٫٠٠٠ ، وتبعهم آلاف من أفراد الاسرات والموظفين المرافقين للجيش . وقد أصابهم فى الانسحاب الجوع والعطش والاعياء وتعرضوا لهجمات البدو ، فهلك من الجيش نحو ٣٠٫٠٠٠ . أما الخسائر من غير الجند فلا تعرف بالجزم

(٢) هذا يؤدى إلى تحكم السلطان فى الاختيار ، وفضلا عن ذلك فالسلطان لابد أن يختار من يأنس فيه الضعف

(٣) هذا يتطلب تدخل السلطان فى الشئون المالية والداخلية بحجة التحقق من الدخل

حرمان الوالى حق إنشاء السفن الحربية إلا بعد أن يرخص له السلطان فى إنشائها ، وصدر فى الوقت نفسه فرمان يولى محمد على على السودان .

فرمان أول يونية ١٨٤١ : احتج محمد على لدى الدول على القيود التى حواها الفرمان ، وأرسل للسلطان يقول « إن الله سبحانه وتعالى لم يثقل كاهل العبد بشروط ليست فى وسعه ، فكيف يطالب السلطان خليفة الله في أرضه أن يضيف إلى منته شروطا لا يمكن تنفيذها » ، وكتبت حكومة النمسا للسلطان ولانجلترا تتشدد فى تعديل الفرمان وتهدد بالخروج من المحالفة إن لم يعدل فعُدل فصارت الوراثة بمقتضاه لأكبر أفراد الاسرة على حسب القانون العثمانى (أى نظام السن الكبرى) وحددت الجزية بثمانين ألف كيس (٤٠٠،٠٠٠ جنيه) وصار للباشا حق منح الرتب العسكرية حتى رتبة أميرالاى وأقرت الدول هذا التعديل[1] ، وصدر الفرمان فى أول يونية ١٨٤١ وقرىء رسميا فى قصر محمد على فى ١٠ يونية وسط حفل حافل

واهتمت الدول بعد ذلك بمصالحة فرنسا ، ولم ير جيزو مانعا من الصلح ولكنه اشترط أن تحل المحالفة فحلت وعقدت الدول « معاهدة المضايق » التى تنص على المبدأ القديم القاضى باقفال البوغازات فى وجه السفن الحربية وفتحها للسفن التجارية .

مركز مصر بعد ١٨٤١

(١) كانت مصر قبل ١٨٤١ وبعدها [2] ولاية عثمانية ولكنها بعد ١٨٤١ صارت ذات مركز ممتاز إذ الولاية صارت وراثية

(١) ان الفرمان المعدل لا يزال يحوى قيودا لم يرد ذكرها فى معاهدة لندن ، لذلك لم تتقيد مصر بهذه القيود . مثال ذلك الجيش ، فقد حدده الفرمان بثمانية عشر ألفا ولكننا نراه فى آخر عهد محمد على ٩٤،٠٠٠ وفى عهد عباس الاول ١٠١،٠٠٠ وسعيد ٨٥،٠٠٠ واسماعيل ٩٢،٠٠٠ . وعند تولية توفيق ٨٩،٠٠٠

(٢) لغاية عام ١٩١٤ حيث ضربت انجلترا حمايتها على مصر

(٢) إن فرمان يونية ١٨٤١ بني على أساس معاهدة لندن ١٨٤٠ التي عقدت بين دول أوربة والسلطان . وصدر بموافقتهم ، وهـذا الفرمان في جوهره يمنح مصر استقلالا داخليا مقيداً بالسيادة التركية ، فليس لتركيا ولا لغيرها من الدول أن تعبث بهـذا الاستقلال ولا تنقص من الحقوق التي اشتمل عليها الفرمان . إذ لذلك الاستقلال وتلك الحقوق صفة دولية

خلاصة الحوادث من نصيبين الى فرمان ١٨٤١

في يونية ١٨٣٩ انتصار ابراهيم في نصيبين ، ثم انضمام الاسطول التركي إلى محمد علي ـ تركيا ومحمد علي يستعدان للتفاهم بغير وساطة الدول ـ روسيا تؤيدهما حتى لا تتدخل الدول فتفقدها نفوذها في الآستانة ـ فرنسا تقترح مذكرة ترسل للسلطان تطلب اليه ألا يعقد الصلح مع محمد علي إلا بوساطة الدول وغرضها من ذلك القضاء على هنكار اسكله سي — روسيا تنضم إلى الدول وترسل المذكرة في ٢٨ يوليه ١٨٣٩ فيزول نفوذ روسيا ، (وهـذا ما تريده فرنسا وانجلترا وبقية الدول) . وتصبح تركيا تحت حماية خمس دول ، ويتعطل حل المسألة المصرية

ثم تختلف انجلترا مع فرنسا بشأن الاسطول ، ثم بشأن الممتلكات التي تعطى لمحمد علي ، فانجلترا تريد اعطاءه مصر فقط وفرنسا تتمسك بضم الشام ؛ وتنضم روسيا لانجلترا حقداً على فرنسا ، والنمسا وبروسيا تنضمان كذلك لأنهما المان أعداء الفرنسيين ويخشون ازدياد نفوذهم ـ ثم تتساهل انجلترا فتعرض نصف الشام فترفض فرنسا ويطالب تيير إلى السلطان ومحمد علي أن يتفاوضا رأسا

ولكن بالمرستون يسرع في عقد مؤتمر في لندن يتمخض عن معاهدة لندن ١٥ يوليه ١٨٤٠ وتغضب فرنسا ، ويغضب محمد علي ويرفض فيتقدم الحلفاء لمحاربته (سبتمبر ١٨٤٠) ويحركون الثورة في الشام ، وتسقط عكا في يدهم

(٢٣ نوفبر) ، ويتخلى لويس فيليب عن محمد على ، ويفاوض شارل نابيير محمداً عليا ويوافق بالمرستون والدول على نتيجة المفاوضة ، ويصدر الفرمان الأول ١٣ مايو ١٨٤١ ثم يعدل بفرمان يونيه ١٨٤١ الذى يثبت عرش أسرة محمد على فى أرض مصر بموافقة الدول ·

ختام عهد محمد على : لما فرغ محمد على من الحروب انصرف إلى الاصلاح ولـكن لم يكن له إذ ذاك فى هذا الباب من النشاط ما كان له فى أوائل عهده وذلك للاسباب الآتية : —

(١) كبر سنه واعتلال جسمه وانحطاط قوة تفكيره (٢) هبوط قوى مصر دفعة واحدة لما ضحت به من مال ودم فى الحروب (٣) نقص عدد الجيش إذ كان الجيش هو الباعث الأكبر على نشاطه فى الاصلاح . وسافر محمد على إلى الآستانة (١٨٤٦) فأكرمه السلطان وعانقه خسرو عدوه القديم ، ثم عاد إلى مصر وقد نال منه السقم ، فأصدر السلطان فرمانا بتولية ابراهيم باشا على مصر (يوليه ١٨٤٨) فأقلع ابراهيم إلى الآستانة ليقدم ولاءه للسلطان (طبقا للفرمان) وعاد إلى مصر وقدعاوده مرض كان ينتابه قبل التولية ، ونضى رحمه الله فى نوفبر من عام توليته ، وولى الأمر بعده عباس بن طوسون بن محمد على ، ومات محمد على فى ٢ أغسطس ١٨٤٩ بالاسكندرية ونقل رفاته إلى مسجده الذى أقامه فى القلعة بالقاهرة

تقدير التاريخ لمحمد على : كان محمد على بطلا من أبطال السلم ، واصلاحاته خير شاهد على هذه البطولة : فقد أصلح كثيرا بغير أن يسقط فى الدين ، وانتفع بالاجانب عمالا خاضعين لا سادة حاكمين ، كذلك كان محمد على من أبطال الحروب المظفرين ، وكان فوق ذلك من دهاة السياسة وحسبنا دليلا على ذلك استخلاصه مصر لنفسه من براثن الأتراك والمماليك فى أول

عهده ، واستخلاصه مصر لنفسه وذريته من أنياب أوربة المتجمعة في أواخر حكمه ، ولئن كان قد ضحى بمال شعبه ودمه في حروبه الكثيرة إلا أنها حققت لذلك الشعب وحدته بضم السودان اليه ، وانالته استقلالا داخليا ومركزا دوليا ، وأكسبته اعتزازا بنفسه ومجدا ذاع ذكره في الخافقين

ولا جدال في ان صحيفة محمد على الناصعة يشوبها بعض نقط سوداء أبرزها الاحتكار ونظام التجنيد ، وكان هذان الامران أمرّ ماذاقه شعب مصر في عهد منقذه ، ولكن له العذر فقد كان لابد من التضحية بالمال وبالنفس حتى لا تقع البلاد مرة أخرى تحت براثن الاتراك

ذلك رأينا في هذا الرجل العظيم وإليك مايقول عنه السير مرى[1] « لئن كان اسم هذا البطل مخلدا في صدر سجل الفاتحين إنه كذلك مخلد فيما هو خير وأبقى : في سجل المحسنين إلى الأمم والعاملين على اسعاد الشعوب وإن وصفه التاريخ قائدا في صف طارق وصلاح الدين فلا شك أن ينيله بصفته مصلحا قسطا من ذلك الاحترام الذى يشعر به الانجليز لقائدهم كروموبل والذى يخالج الفرنسيين نحو واضع القانون الجليل » ا هـ

الموازنة بين محمد على ونابليون : ليس المصرى وحده الذى يشبه محمد على بنابليون بل إن الفرنسى نفسه يرى هذا الشبه ويصر عليه ، ومن وجوه الشبه انهما ولدا في عام واحد وأن كليهما تمخضت الثورة الفرنسية عنه ، إذ لولاها ماظهر نابليون ولولا حملة نابليون على مصر ماوطئت قدم محمد على مصر ، والرجلان بطلا اصلاح وحروب ، وللرجلين آمال كبرى في الشرق ، وكلاهما غريب عن البلد الذى هبط وبنى مجده فيه ، وكلاهما تسنّم عرشه برغبة الشعب لا بالرهبة ، ومن وجوه الخلاف بينهما أن محمدا عليا انتصر حيث أخفق نابليون فاقد وفق الأول في فتح الشام والاناضول وصارت جنوده

(١) كان قنصل انجلترا منذ أواخر عهد محمد على

على بعد خمسين فرسخا من الآستانة ، أما الثانى فطاش سهمه عند أسوار عكا ، ومن وجوه الخلاف أيضا أن نابليون فقد فى أواخر عهده حكمته السياسية فخسر عرشه بعد وقعة ليبزج ، أما محمد على فكان أبعد نظرا وأوسع حكمة اذ ظفر رغم تألب الدول عليه بمصر طعمة له ولذريته من بعده، لكل هذا لا يسرف فى القول من يشبه الالبانى بالقرشقى ، وكان الالبانى نفسه يحاول طول حياته الاقتداء بالقرشقى ، وينتفع بمواهب رجاله وخدماتهم حتى صار مثله تضرب به الامثال فى بطولة السلم والاصلاح مما



ابراهيم باشا

تقدير التاريخ لابراهيم : كان ابراهيم مثلا ساميا من أمثلة الصراحة والبساطة فى العيش وحب النظام ، وكان أقرب من أبيه إلى المبادىء الحرة لذلك لم يرقه نظام الاحتكار، وكان واسع الاطلاع فى تاريخ الشرق ويعرف من لغاته الفارسية والتركية والعربية ، وكان من أكبر آماله أن ينشىء دولة عربية مصرية تجمع شمل الناطقين بالضاد وتحي عهد الفاطميين والايوبيين والسلاطين المماليك .ولولا وقفة انجلترا فى وجه أبيه وتأليبها أوربة عليه لحقق ذلك المشروع العظيم، وكان يعتز بمصريته وهو التركى الأصل . فسئل [١] فى ذلك فقال « لست تركيا فقد جئت مصر صبيا ومنذ ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وصيرت دمى دما عربيا [٢] »

وكان إلى كل ذلك يعمل على تنشيط الزراعة وفلاحة البساتين

ولسنا فى حاجة الى الاشارة ببطولته فبلاد العرب والمورة والشام والاناضول تنطق بما أحرزه فيها من نصر ومجد . وإذا كان محمد على يشبه بنابليون ، فابراهيم بلا ريب يشبه بتحتمس الثالث أكبر فراعنة مصر قاطبة

عباس حلمى باشا الاول

١٨٤٩ — ١٨٥٩

عباس بن طوسون بن محمد على ، وكان يجيد ركوب الخيل ، وأبلى بلاء حسنا فى حروب الشام مع عمه ابراهيم باشا . وكان جاف الطباع . وولى حكم مصر بعد عمه ابراهيم ، إذ كان أكبر أفراد الاسرة سنا .

مميزات عهده : فى الحق أن عباسا كان تركيا فى الصميم ، إذ اتصف بصفتين لازمتا الاتراك قرونا وهما : الاستبداد والجمود وما يقترن بهما من دسائس وحبائل .

---

(١) سأله البارون لبو الكونت عند طرسوس عام ١٨٣٣
(٢) كان ابراهيم يفضل أباه من هذه الناحية



عباس باشا الأول

بعض مظاهر الاستبداد : ادعى لنفسه كل أملاك أسرته ، وجفاهم ، فاتحدوا كتلة واحدة لمناوأته ، واختص سعيداً باشا بن محمد على بالشطر الأوفى من بغضائه إذ رأى سعيداً وارث العرش بعده [1] ، وهو يريده لابنه الهامى ، متحديا نظام الوراثة الذى حتمه الفرمان السلطانى ، وطفق يدس له ويعمل على النيل من سمعته وكرامته ، وبلغ من بغيه مرة أن حاول أن يقتل عمته (نازلى هانم) أرملة محمد بك الدفتردار ، ولكن أنجاها رجال قصرها ، ومازال باسرته وبكبار رجال الدولة يرهقهم ويكيد لهم حتى هاجر كثير منهم إلى الآستانة ، واختل نظام الأعمال وظل الناس يعدون حكمه كابوسا ثقيلا حتى أصدر السلطان عبد المجيد قانون « التنظيمات الخيرية » (١٨٥٢) للعمل به في كافة أنحاء الدولة

(١) لأن سعيداً كان أكبر أفراد الأسرة

العثمانية وكان الغرض منها تحديد سلطة الولاة فغلّت يد عباس خففت وطأة الاستبداد ، وعاد المهاجرون إلا اسماعيل باشا[1] فانه لم يرجع إلا بعد قتل عباس

بعض مظاهر الجمود : يخيل الينا أن عباسا أراد الرجوع ببلادنا إلى عصورها الوسطى ، فقد قضى على كثير من المدارس التى أورثها إياه جده المعظم ولم يبق منها غير أربع عشرة ثم اعتزم الغاء بعض هذه المدارس أيضا ، فعقد امتحانا اشترك فيه الطلبة والاساتذة معا ومن تفوق منهم أدخله مدرسة حربية جديدة أنشأها فى العباسية[2] وأسماها « المفروزة » ونقص عدد المدارس الى أربع ! وأبعد رفاعة بك رافع الى السودان ليدير مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ويعلم الحساب فيها وهو ذلك العالم الكبير بل زعيم النهضة العلمية فى عهد محمد على ، وكفى دليلا على جهل رجال عباس وقصور مداركهم انهم لم يفهموا خرائط ديوان الأشغال وتصميماته فكدسوها فى زكيبة

وأبطل عباس المعامل والمصانع واستغنى عن كثير من الموظفين الاوربيين الذين ساعدوا جده فى اصلاحاته وانتزع الرخص من رجال الأعمال الاوربيين وعمل على تخليص البلاد منهم

وأراد أن يحل الأتراك محل المصريين فى الجيش واستهل هذا المشروع بانشاء حرس مؤلف من ٩٠٠٠ من الألبانيين وسلحهم بالمسدسات الامريكية ولولا قيام حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) واضطراره إلى تجنيد المصريين[3] لمساعدة الدولة العثمانية لأتم مشروعه

أما البحرية فاهملت ، « وربطت السفن الحربية بعضها بجانب بعض »

---

(١) كان عباس اتهم اسماعيل باشا بقتل خادم ليسيء إلى سمعته ، فأدلى اسماعيل ببراهين تبرئه ، ثم غادر مصر إلى الآستانة ، وأحبه السلطان عبدالمجيد وعينه عضواً فى مجلس أحكام الدولة ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد قتل عباس

(٢) كانت العباسية تسمى الريدانية ثم سميت بهذا الاسم نسبة إلى عباس الأول

(٣) كان الجيش فى ذلك الوقت ١٠١٫٠٠٠ وفى رواية سرهنك باشا ٩٨٫٤١٤

وعُرف عباس بكرهه البحرية وكرهه لسعيد باشا (سر عسكر الأساطيل المصرية)، واشتط حتى امر بتحطيم البارجة (الغليون) المعروفة بالمنصورة بعد اصلاحها [1]

ومضات من النشاط والخير . نرى وسط هذا الظلام والجمود ومضات من النشاط والخير، فقد ألغى عباس احتكار الحكومة للتجارة ، وعني بالزراعه واستتمام القناطر الخيرية وأنشىء فى عهده أول خط حديدى فى مصر (بل وفى الشرق) بين القاهرة والاسكندرية (١٨٥٢ — ١٨٥٦) وقد كان الباعث على إنشائه رغبة انجلترا فى تسهيل نقل البريد والسُّفَّار بين الهند وأوربة [2] وقام روبرت ستيفنسن مخترع القاطرة البخارية بالاشراف على هذا المشروع وسُخر فيه جنود الأسطول المصرى

ومن مظاهر النشاط كذلك استكشاف أوجست مريت (Mariette) مدفن العجول بسقاره ، واشتراك مصر مع تركيا فى قتال روسيا فى حرب القرم

الاعتذار له : قد يكون لعباس باشا عذره في جموده ، فلعله اعتقد أن مصر فى حاجة إلى السكينة والاستقرار بعد ماقاسته فى حروب جده

ولا يفوتنا أن ننوه بحسنتين لعباس باشا (أولاهما) أنه لم يثقل مصر بدين ، كما فعل سعيد باشا واسماعيل باشا (وثانيتهما) أنه لم يعرضها لنهب الاجانب الموظفين منهم وغير الموظفين (وإن كان يستطيع ان ينتفع بخدماتهم على شريطة أن يتخذهم — كما اتخذهم جده — عمالا طائعين لاسادة حاكمين)

---

(١) ولعباس فى تنظيم الملاحة والتجارة رأى غريب ، فقد قرر أن السفن لا تخرج من ميناء السويس إلا بترتيب أرقامها ، فاذا أرادت السفينة رقم ٢ مثلا أن تغادر الميناء لا تستطيع ذلك حتى تخرج قبلها السفينة رقم ١ ، وقد تكون هذه لم تتم شحنها بعد ! وأبطل سعيد هذا النظام

(٢) حاولت انجلترا إنشاءه فى عهد محمد على وقبل محمد على أول الأمر ، وأعدت بعض المعدات ، ولكنه عاد فقلق على بلاده من مطامع انجلترا ، فرفض المشروع .

قتله : قُتل عباس باشا فجأة فى قصره فى بنها وكان ابنه الهامى باشا [١] فى أوربة ، فولى العرش محمد سعيد باشا بغير معارضة تذكر (١٣ يوليه ١٨٥٤) ، ويقال إن خصيين ساعدا على قتل عباس وهو فى فراشه ، ويقال كذلك إن لبعض أقاربه ضلعا فى قتله . [٢]

محمد سعيد باشا (١٨٥٤ – ١٨٦٣)

كان سعيد باشا محببا إلى أبيه محمد على ودرس في فرنسا ، وأجاد اللغة الفرنسية وبعض اللغات الشرقية والعلوم الرياضية والرسم ، وكان أول عهده نشيطا محبا للعمل ولكن فرط سمنه [٣] وانكبابه على الترف فى أواخر

---

(١) أحب السلطان عبد المجيد الهامياً وزوجه من ابنته منيرة سلطان ومات الهامى بعد قتل أبيه بسبعة أعوام

(٢) كان لعباس باشا حاشية خاصة تقوم بخدمته يقال لها « ايج اغاسيه » وكان أغلب أفرادها فى رتبة القائمقام وغضب عليهم رئيسهم خليل درويش بك إذ رموه بتهم شائنة فشكاهم إلى عباس باشا . فجمعهم هذا وأمر رئيسهم بجلدهم . ثم جردهم من ثيابهم الرسمية وألبسهم لبدأ و (زعابيط) وناط بهم خدمة الخيول فى المرابط ، ثم شفع لهم بعض الناس فعفا عنهم . ولكنهم ظلوا يضمرون الشر له وكان من عادة عباس أن يقوم على حراسته غلامان وهو نائم ، فاتفق الايج اغاسيه معهما على أن يفتحا لهم الباب وهو نائم ففتحاه وانقضوا عليه ومنعوه الفرار وذبحوه ويقال إن أنصاره نقلوا جثته إلى القاهرة مرتدية ملابس الجسم الحى وموضوعة فى صدر عربة حتى يظن الراءون أنه حى وغرض أنصاره إخفاء خبر موته حتى يصل الهامى من أوربة فيعتلى العرش قبل سعيد باشا صاحب الحق الشرعى ، غير أن الخبر ذاع وكان سعيد باشا فى الاسكندرية فأعلن اعتلاءه العرش وجاء إلى القاهرة ومعه كبار الأسرة فوجدوا (برنجى الاى بيادة) معتصما بالقلعة وعازما الدفاع حتى يحضر الهامى ، ولكن الأمير أحمد باشا ابراهيم ذهب بنفسه إلى القلعة وأقنع الجنود بالخضوع لسعيد باشا فخضعوا

(٣) كان أبوه يحثه على الرياضة البدنية والأعمال الجسمية وكان يزنه من وقت لآخر ، ويكافئه إن خف وزنه ويعاقبه إن ثقل

عهده قللا من نشاطه . وكان خفيف الروح وفيه دعابة تقارب السذاجة أحيانا[١]

ورُكِّبتْ فى سعيد صفة من صفات الخير وهى حبه[٢] العميق الدافق لشعبه ، ومن هذه الصفة نبت كل ماغَرس لاصلاح حال شعبه واسعاده ، وحُرم صفة لازمة لكل من ساس الشعوب وهى الحزم ، فكان حرمانه منها الثُغرة التى برز منها أكبر خطبين أصابا البلاد وهما : الدَّين والقناة ، ولنبدأ الآن بالاصلاح

الاصلاحات الأدارية والقضائية : —

(١) حدد سلطة المدبرين ومشايخ البلاد حتى لا يستبدوا بالشعب وكان المديرون من قبل أترا كا شيمتهم الصلف والاستبداد ، ثم رأى أن يلغى مناصب المديرين ذاتها ، إذ ألفى الظلم باقيا مابقوا ، وجعل المأمورين ومشايخ البلاد تحت اشراف نظارة الداخلية مباشرة

(١) طلب إلى حاشيته مرة أن يشعلوا (شبكاتهم) وهو معهم ، وأمرهم أن يسيروا وراءه على مهل فوق طريق غطى بالبارود ، وذلك ليرى أيهم أشجع ! وأراد الله رحمة بهم ألا تتصل شرارة من شبكاتهم بالبارود

ويروون عنه نادرة أخرى : كان سعيد قد اشترى عصا من انجلترا ، وكانت انجلترا تعارض فى فتح قناة السويس فأهدى دلسبس إليه عصا أجمل منها فسر سعيد وقال لدلسبس : إن دخلت على فوجدتنى ممسكا بالعصا الفرنسية فتكلم فى مشروع القناة كما تريد وإن وجدتنى ممسكا بالعصا الانجليزية فلا تخاطبنى فى شأنها لوجود (عواذل) .

(٢) كان محمد على يحب مصر ولكنه لم ينس قط أنه تركى ، فقد حدث مرة أن هناه أحد الغربيين على انتصاراته فى الشام وامتدح الجنود المصرية فقاطعه محمد على قائلا « لا تنس أيها الصديق أن فخر النصر فى المعارك للضباط لا للجنود وأن ضباط الجيش المصرى كلهم من الأتراك » أما ابراهيم فكان مصريا صميما ، وأما عباس فتركى ، وأما سعيد فيقول « بودى أن أعرف موضع العروق التركية والشركسية فى جسمى لأفتحها حتى أتطهر من آخر نقطة من هذا الدم الممقوت » .

(٢) قيد سلطته الشخصية التي كانت مصدر السلطات جميعاً فانشأ «مجلس الحكومة» وخصه بسن اللوائح الادارية والنظر فى القرارات والمراسيم قبل عرضها على الوالى

(٣) حول فى ٢٦ فبراير ١٨٥٧ بعض الدواوين التى أنشأها أبوه إلى نظارات وهى: الداخلية والخارجية والحربية وجعل على كل منها أميراً من الامراء

(٤) استخلص من السلطان حق تعيين القضاة وكان ذلك من قبل لقاضى القضاة المعين من الآستانة، فصار القضاء خاضعاً للحكومة وشددت الرقابة على رجاله حتى كادت الرشوة أن يمّحى أثرها وشمل الناس العدل

(٥) أوجد لائحة خاصة بإجراء الأرزاق على الموظفين إذا تقاعدوا (لائحة معاشات سعيد) فاطمأن هؤلاء على مستقبلهم، فأخلصوا فى أعمالهم لكل أولئك عاد النظام إلى الادارة بعد أن اختلت فى عهد عباس الاول

(٦) وزار سعيد باشا السودان (متشبها بابيه فى ذلك) وألغى وظيفة الحاكم[1] لاستبداد هؤلاء الحكام، وقسم السودان خمس[2] مديريات وجعل على رأس كل منها مديراً يتصل رأسا بنظارة الداخلية وديوان الايرادات (المالية). وألغى المتأخر من الضرائب، ثم خففها، كما أمر بالاقلال من السخرة وبمحاربة النخاسة وأنذر موظفى السودان بالنكال إن خالفوا ما أمر به. وكان من أثر جهوده فى إصلاح السودان أن استتب الأمن فنشطت الرحلات

---

(١) وكان يرافقه فى هذه الزيارة بعض أتباعه ومنهم فردنند دلسبس وعلم سعيد أن أحد عماله الأتراك يساهم فى اقتناص الرقيق . ويقذف بهم فى السجن ومن هؤلاء الارقاء رجل قذف به مسلسلا فجاء سعيد بالتركى وصب على بطنه مائة سوط، ثم سلكه فى سلسلة الرقيق عينها

وبكى سعيد لما رأى من سوء حال السودانيين . ونال اليأس منه حتى فكر فى اخلاء السودان، ولكن دلسبس قوى من عزمه وأفهمه أن واجبه الاصلاح لا الاخلاء

(٢) والمديريات الخمس هى: سنار وكردفان والتاكه وبربر ودنقلة

الجغرافية فى وسط افريقية — وكانت قد خملت فى عهد عباس — وقام سعيد يشجع الرحالين أمثال صمويل بيكر وسبيك وجرانت حتى بلغوا بحيرة فكتوريانيانزا والبرت نيانزا (نسبة إلى فكتوريا ملكة الانجليز وزوجها البرت) .

الاصلاحات الزراعية : وجد سعيد الترع قد أهملت فى عهد عباس الأول حتى كادت تطمر فطهر ترعة المحمودية [1] وبعض الترع الأخرى ولم يمهله الموت حتى يتم ماشرع فيه

ولما رأى تمسك شعبه أصدر قانون الأراضى الشهير (١٨٥٨) الذى ألغى احتكار الحكومه للارض ، فأصبح الفلاحون ملاكا بعد أن كانوا مستأجرين وارثين فقط وصار لهم حق التصرف الكامل فى أرضهم

ونزل سعيد للناس عما فى أعناقهم من الضرائب المتأخرة وألغى نظام الضمان فى أداء الضرائب ، وسجل المطلوب من كل فرد فى دفاتر خاصة ، فنشط الناس وسعدوا وسهل دفع الضرائب عليهم ورخصت أثمان الحاجات حتى صار القرش الواحد يقوم بحاجة عامل وأسرته . وامتلأت جيوب الناس بالذهب ويقول تاجرأوربى أنه دفع ٤٠٠ جنيه فى تجارة إلى إحدى النسوة القرويات الحافيات ذوات الجلاليب الزرقاء

ولا ريب أن عصر سعيد كان عصر الفلاح الذهبى ، والفارق بين محمد على وسعيد أن محمداً عليا كان يُعنى بعظمة البلاد أكثر مما يُعنى بسعادة الفلاح .

---

(١) ظهرت تحت إشراف موجل بك ، وجمع الألوف من الفلاحين لتطهيرها ووعدوا بأن يسرحوا حالما ينتهى الواحد منهم من القدر المفروض عليه فنشطوا وأتموا تطهيرها فى اثنين وعشرين يوما رغما عن أن كل خمسة منهم أعطوا فأسا واحدة ولم يمت منهم أحد ، ومرض ٥ ٪ فقط وذلك بفضل العناية بغذائهم وصحتهم

الاصلاحات التجارية : كانت الدولة العثمانية قد عقدت مع الدول الاوربية معاهدة تنطوى على الغاء الاحتكار فى ولاياتها (١٨٣٨) ولكن محمد على رغم ذلك ظل يتبع نظام الاحتكار ، فلما جاء عباس ألغى احتكار التجارة (ولعل ذلك بتأثير الانجليز) ولكنه مع ذلك بقى يناوىء الأجانب فى تجارتهم فى مصر ، ولما جاء سعيد وكان يثق بهم ويقربهم ، انتشروا فى الأقاليم يتجرون . وألغى سعيد العوائد والرسوم الجمركية الداخلية التى كانت تعطل رواج التجارة وحول جمارك الحدود والموانى مصلحة من مصالح الحكومة بعد أن كانت تعهد إلى ملتزمين . وطهر الترع ، وشجع الملاحة في النيل وأصلح[1] مرفأ السويس وأنشأ فيه رصيفا وحوضا وفى عهده ظهرت شركتان للملاحة : إحداها أجنبية وهى الشركة الانجرارية المصرية « لجر » البضائع على مراكب بخارية فى النيل ، والأخرى وهى مؤلفة من مصريين وأجانب وتسمى الشركة المجيدية (نسبة إلى السلطان عبد المجيد) ، وعملها نقل المتاجر فى البحرين الأبيض والأحمر بين مصر والثغور التابعة للدولة العثمانية .

الأعمال الحربية والبحرية : كان سعيد باشا مشغوفا جد الشغف بالشئون البحرية والحربية فلقد أنشأه أبوه نشأة بحرية على ظهر السفن ليكون « سر عسكر » الأسطول (أى أمير البحر) وكان يعد نفسه أثبت الناس جنانا وأقواهم قلبا .

ولقد جعل جيشه برمته من العنصر المصرى ، وكان التجنيد قبل عهده يكاد يكون مقصوراً على الفقراء ومن لا ناصر لهم ، وكانت كلما احتاجت الحكومة إلى جند فرضت على كل مديرية قدراً معينا ، فكان العمد والمشايخ يعفون أقرباءهم وأتباعهم (ومحاسيبهم) ويقتنصون أعداءهم والفقراء « والمارة

---

(١) قامت بهذا الاصلاح شركة ديسو Dussaud الفرنسية

والزوار [1] » ، فلما ولى سعيد رأى الايفلت أولاد الموسرين من الجندية فجمع أولاد العمد وأقاربهم ، وعرف هذا الجمع بـ « لمة أولاد العمد » [2] وجعل الخدمة العسكرية إجبارية وجعلها سنة واحدة وقرر ترقية الجندى من (تحت السلاح) إلى رتبة الضابط ، وبهذه الوسيلة إرتقى عرابى وغيره من المصريين إلى المراتب الكبرى فى الجيش ، وكان لا يبلغها من قبل إلا الأتراك والشراكسة ، فتنافس العنصران فى المناصب ومن هذا التنافس نبتت جرثومة الثورة العرابية

وكان سعيد يعنى بالجيش العناية كلها ، فكان يلازمه فى أى مكان حل ، حتى كانت شئون حكومته تقدم اليه فى المعسكر ليقضى فيها وكان لا يدخر مالا ولا جهداً فى الانفاق على طعام جنوده ولباسهم [3] ، حتى قيل أن ماوقع فيه من الدين كان مبعثه الأكبر الانفاق على الجيش ، وجعل معسكر الجيش الرئيسى عند القناطر الخيرية ، إذ اعتبرها مركزاً حربيا هاما يصد من يغير على البلاد .

وكان يود سعيد أن يقوى أسطوله باصلاح سفنه وانشاء سفن جديدة ، ولكن الدول حرضت السلطان أن يقف هذا الأمر حتى لا يشتد بأس سعيد كما اشتد بأس أبيه من قبل ولما كانت السفن في حاجة إلى اصلاح ،

---

(١) يقول هذا سرهنك باشا ، ويقول كذلك أن العمد والمشايخ كانوا يؤجرون بعض النساء والرجال ليشيعوا المجندين بالبكاء ليوهموا الحكام أنهم من أقربائهم

(٢) وكلما أمر بجمع طائفة من الجنود سميت باسم المكان الذى صدر منه الأمر مثال ذلك : « لمة الجيزة » و « لمة القبارى » الخ

(٣) كان دائما يغير أزياءهم تبعا لهواه ، وكان يكسوهم من الملابس القطنية والصوفية والخيش بالقصب والحلى بالفضة والذهب وعلى طرابيشهم الفرجيات

وقد ألغى سعيد معظم الجيش لما اعتزم زيارة السودان لأنه خشى أن يثور فى غيبته ، ثم أعاده بعد عودته .

وكان تركها بغير اصلاح يعرضها للتلف والتفكك رأى سعيد تكسيرها وبيع أخشابها وتسريح ضباطها واتخذهم ضباطا فى الشركة الانجرارية ، أو استخدمهم فى « مطابخه الواسعة » أو فى وظائف ملكية أخرى .

وهكذا لا تزال أوربة تعترض سبيل مصر الناشئة

أغلاط سعيد : كان نوبار يقول « إنما نشأ التدهور فى عهد سعيد » وقول نوبار الحق ، إذ ركب سعيد أغلاطا هى : —

(١) ورث عن عباس أربع مدارس ، فلم يزدها بل ألغى ديوان المدارس وعلة هذا لديه ، أنه ظن أن استنارة الشعب تجعل قيادته أمراً عسيراً

(٢) تدخل القناصل على التدريج فى أمور مصر الداخلية ، ولم يكن ذلك لهم فى عهد محمد على وعباس

(٣) وثق بالأجانب وثوقا كبيراً ، فاستخلصوا منه امتيازات ورخص فيها غنمهم وغُرم مصر

(٤) كان أول حاكم من بيت محمد على طرق باب الاستدانة من المصارف الأجنبية فقد اقترض ثلاثة ملايين من الجنيهات ، واشتدبه الضيق فى آخر عهده حتى عجز عن دفع رواتب الموظفين ، وأعطاهم عوضا عنها أوراقا مالية (أى تحاويل على ديوان الايرادات) ، فأعطاها الموظفون إلى مُموّنيهم ومن بينهم خبازون وقصابون وغيرهم ، فجاء هؤلاء إلى الديوان يلحون فلا يفلحون ، ولا تفلح الحكومة فى إبعادهم ، إذ من بينهم أجانب لا تجرؤ الشرطة على زجرهم ، وانتهز المُربون هذه الفرصة وقاموا يشترون هذه التحاويل من حامليها بأثمان بخسة

ويرجع دين سعيد إلى سرفه فى الانفاق على الجيش ، والانكباب على الترف والملاذ (١) ، وعدم تقديره النقود (٢)

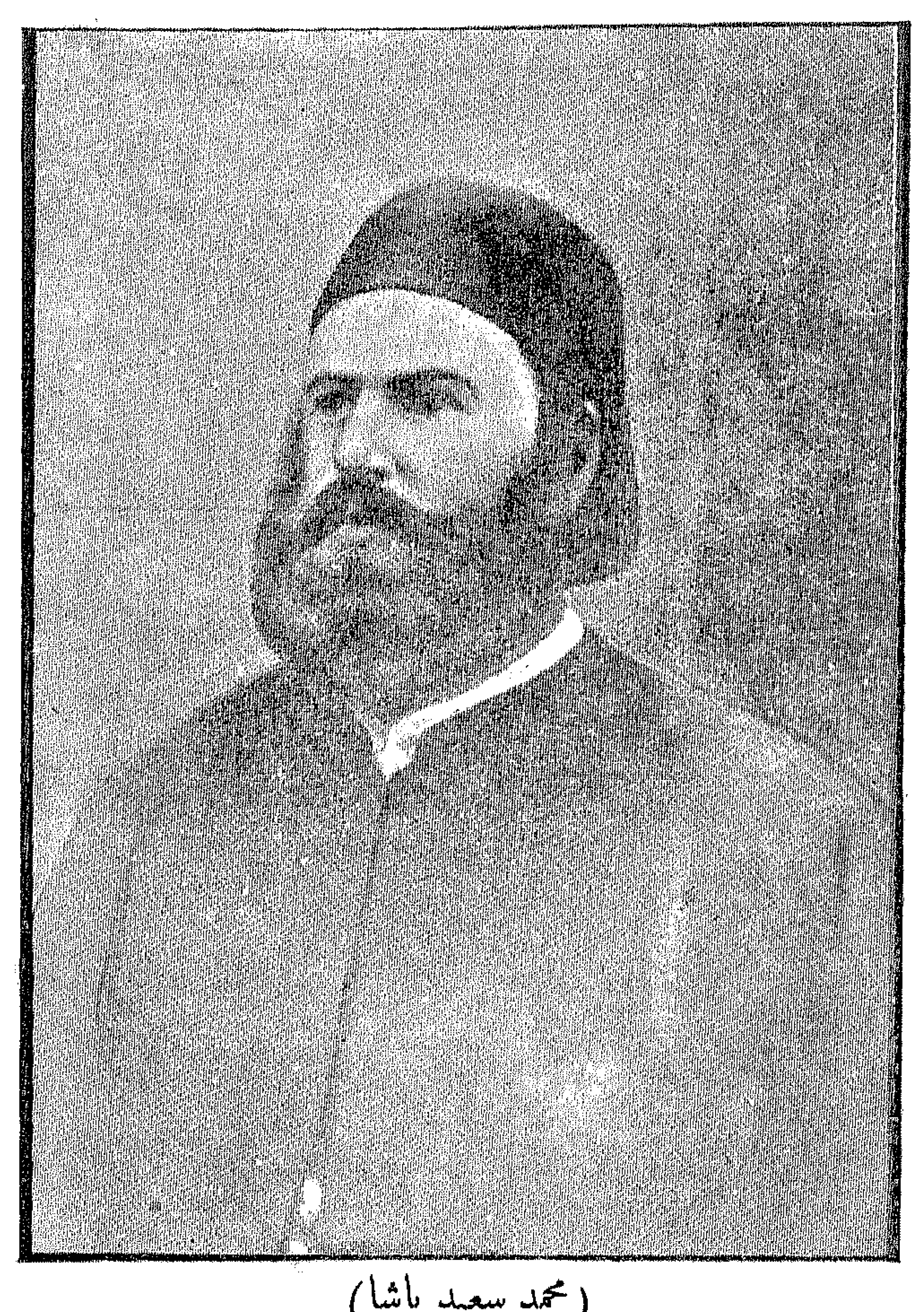
---

(١) أنفق سبعة ملايين من الفرنكات على زخرفة حجرة

(٢) قام أحد المقاولين الأجانب بعمل للحكومة ، وأعطى جزاء عمله مبلغاً قدر

(٥) رخص سعيد لفردنند دلسبس فى حفرة قناة السويس .

وكأننا بسعيد وشعبه كالراعى الشفيق يرعى غنمه فوق هضبة تنبت العز والخير ، ثم يدفع بها عن غير قصد فى منحدر زاق فلا تماسك حتى تتردى فى هاوية بعيدة القرار .



(محمد سعيد باشا)

بالليرة الايطالية ، فتململ المقاول وشكا أمره إلى سعيد فقال هذا « إذن نجعل لك الليرات انجليزية » ! والليرة الانجليزية قدر الايطالية خمسا وعشرين مرة !

(٣) بدأ نخاو الثانى يكرى الخليج فرأى كما يرى النائم أن الآلهة لا ترتضى هذا المشروع ، فوقف العمل فيه ، فما أبعد نظر الآلهة ! !

قناة السويس

الفكرة القديمة : فكر المصريون القدماء فى توصيل البحرين الأبيض والأحمر بخليج (أى ترعة) يستمد ماءه من فرع النيل الشرقى ويصب فى البحر الأحمر وأخرج هذا المشروع اسرتسن الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ولما كان هذا الخليج يجرى وسط رمال ، كان كثيرا ما يُطمر من جراء الاهمال . حتى إذا ولى أمر مصر حاكم ساهر كراه من جديد ، وأمثال هؤلاء الحكام سيتى الأول ونخاو الثانى [٢] وبطليموس الثانى ، ودارا الأول ، ولما فتح عمرو بن العاص مصر كراه وسماه «خليج أمير المؤمنين» ولكن لما ولى ابو جعفر المنصور الخلافة أمر بالخليج فرُدم حتى لا تجرى الميرة فيه إلى محمد بن عبد الله بن الحسن المتمرد عليه فى الحجاز

الفكرة الحديثة : فكر نابليون وهو فى مصر فى توصيل البحرين بقناة ماؤها من ماء البحرين ولكن مهندسيه وعلى رأسهم لابير أبْهَمَ الأمر عليهم فقدروا أن سطح البحر الأحمر يعلو سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار أو عشرة ، لهذا أهمل المشروع حينا ، حتى جاءت مصر لجنة فرنسية زمن محمد على ، وبينت خطأ لابير . ولكن محمد على أعرض عن المشروع حتى لا ينشىء — كما يقول — فى بلاده بسفورا آخر تتطلع دولة من الدول إلى الاستيلاء عليه فتستولى على مصر من أجله .

وظل المشروع مهملا حتى حكم سعيد . وكان صديقا لفردنند دلسبس كما كان أبواهما صديقين[١] وقام دلسبس يُدخل فى روعه أنه لو ساعد على

---

(١) كان ماتييه دلسبس قنصلا فى مصر وقت تولية محمد على وكان صديقا له ونصيرا ثم عين فردنند دلسبس بن ماتييه نائب قنصل بعد مرور سبع وعشرين سنة من

إنشاء القناة لأحرز مجدا دونه مجد الفراعنة[1] « الذين شيدوا الاهرام والمعابد الضخمة التي لا خير فيها لبني الانسان »، وأن مصر بل والعالم أجمع سيصيب من وراء هذا العمل خيرا كثيرا، وان مصر لن يمسها من جرائه ضر، فقبل سعيد المشروع وأصدر دكريتو في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ ثم ألحق به آخر، وألحق بهما لائحة[2] نلخص أهم ماورد فيها جميعا : —

(١) أن تمنح الشركة (التي ستؤلف لحفر القناة) حق التمتع بفوائد القناة ٩٩ سنة من وقت افتتاحها وبعد انتهاء هذه المدة تعتبر القناة وكل مشتملاتها ملكا خالصا للحكومة المصرية.

(٢) أن تحفر الشركة ترعة عذبة تخرج من النيل عند القاهرة وتتفرع إلى فرعين (عند مدينة الاسماعيلية الحالية) : فرع يذهب إلى الشمال (بور سعيد الحالية) وفرع آخر يصل إلى السويس، وأن تكون تلك الترعة ملكا للشركة وألا يروى منها أحد إلا إذا دفع للشركة جعلا تقدره هي.

(٣) أن تمنح الشركة بدون مقابل الأراضي البور (التي تمتلكها الحكومة) والتي تحتاج اليها الشركة لتحفر فيها الترعتين (قناة السويس الملحة والقناة العذبة أي الترعة الاسماعيلية الحالية) ولتقيم عليها ماتريده من المباني أما أراضي الأهالي التي قد تحتاج إليها الشركة، فلا بد أن تدفع عنها ثمنا

(٤) أن يكون أربعة أخماس عمال الحفر من المصريين وتعطيهم الشركة

تولية محمد على فاختصه هذا برعايته، وعهد اليه الاشراف على ابنه سعيد ومن ثم نشأت الصداقة بين فردنند وسعيد وكان فردنند شجاعا يجيد الرياضة وركوب الجياد وسعيد يهوى تلك الصفات فأعجب به ودرس دلسبس مشروع القناة وهو في مصر ووعده سعيد بتحقيقه إن اعتلى العرش يوما فلما اعتلاه أسرع فردنند بالسفر إلى مصر (وكان قد نقل منها) وذكره بوعده، وألح في الوفاء به.

(٢) من مذكرة لدلسبس إلى سعيد باشا في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٥٤

(٣) الدكريتو الثاني بتاريخ ٥ يناير ١٨٥٦ واللائحة في ٢٠ يوليه ١٨٥٦

أجرا [٣] ، وتلزم الحكومة تقديم هذا القدر من العمال وهو عشرون ألفا وإلا حق عليها التعويض

(٥) أن تكون الشركة مصرية بحيث يسرى عليها قانون البلاد وأن تقسم الأرباح على الوجه الآتى : [٢] ١٥ ٪ للحكومة المصرية و ١٠ ٪ لمؤسسى الشركة و ٧٥ ٪ للمساهمين والمديرين والعمال .

(٦) أن تكون القناة طريقا حرا لكل سفينة تجارية بدون تمييز أو استثناء مادامت تدفع الرسوم المقررة

وجمع دلسبس بعضا من [٣] المال من بعض أصدقائه واستقدم به لجنة دولية من مهندسين . وانضم اليهم لينان باشا وتفحصت اللجنة المشروع وأقرت إمكان تحقيقه وأخذ دلسبس على عاتقه الحصول على موافقة الباب العالى على المشروع قبل بدء الحفر ، لذلك سافر إلى الآستانة فوجد إنجلترا تحض السلطان على رفض المشروع كأن تقول له إن المشروع وهمى وإنْ تحقق بنفقات هائلة . وإنّ هذه القناة ستفصل مصر عن تركيا وتساعدها على الاستقلال . وانها تهدد الهند وان شقها سيكره الانجليز على الاستيلاء على مصر من أجلها : والانجليز يكرهون مشروع القناة لأمرين :

(١) لأن القناة تجعل فرنسا أقرب منهم إلى الهند والشرق ، وهذا يهدد مركزهم التجارى والحربى فى تلك الأنحاء

(٢) وإن حفرها مما يزيد فى نفوذ فرنسا فى مصر

وكانت إنجلترا وقت ذهاب دلسبس إلى الآستانة صاحبة النفوذ الأكبر لدى الباب العالى وكان نابليون الثالث في ذلك الوقت لا يريد

---

(١) الأجر قرشان لمن دون الثانية عشرة وقرشان ونصف أو ثلاثة لمن فوقها

(٢) هذا بعد خصم فوائد أموال المساهمين بنسبة ٥ ٪ ومثلها للمال الاحتياطى

(٣) ساهم فى هذا المال ١٠٠ صديق دفع الواحد منهم ٥٠٠٠ فرنك

إغضاب إنجلترا فلم يتقدم لمساعدة دلسبس [١]، لهذا لم يظفر دلسبس بفرمان التصديق، ولكنه اعتزم العمل حتى يوفق فى فرصة أخرى

وافتتح دلسبس فى ٥ نوفمبر ١٨٥٨ باب الاشتراك فى شراء أسهم «شركة القنال» وقدرها ٤٠٠ ألف سهم ثمن الواحد خمسمائة فرنك فيكون ثمنها جميعا ٢٠٠ مليون فرنك فاشترت فرنسا الجانب الأكبر، واشترت الدول الأخرى جانبا صغيراً (لأن انجلترا ناوأت المشروع وحطت من قيمته) وتقدم سعيد انقاذاً لصديقه دلسبس واشترى الباقى كله وهو قدر كبير

وفي ٢٥ ابريل ١٨٥٩ أمسك دلسبس الفأس عند مدينة بورسعيد الحالية وضرب بها الارض يفتتح «باسم شركة قناة السويس البحرية الكونية» حفر القناة فى عهد «النبيل محمد سعيد منشئها والمحسن اليها صنعا»، والحق أن سعيداً أحسن اليها صنعا، فقد اشترى مابقي من أسهمها [٢]، ولما رأى بطء العمل وقلة مال الشركة بالنسبة إلى ذلك المشروع الهائل قدم لها من العمال جيوشا أكبر مما نص الاتفاق عليه وساقهم مسخرين لا مأجورين كما ينص الاتفاق وجعل على رءوسهم جنوداً بايديهم السياط فكان يعمل خمسة [٣] وثلاثون الفا يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة أشهر وهلك من هؤلاء التاعسين نحو مائتى الف من الجوع والظمأ والعرى والحر والبرد، وشهرت انجلترا بهذا التسخير حتى جعلته من فضائح القرن التاسع عشر

---

(١) كان رشيد باشا ثم خلفه عالى باشا يقولان للسفير الفرنسى فى الآستانة «ساعدونا وكونا لنا عونا على انجلترا، واعلموا أن كلمة واحدة من فرنسا تحل هذا المشكل فيوافق السلطان على المشروع»

(٢) اشترت فرنسا ٢٠٧١٦٠ ومصر ١٧٧٦٤٢ واشترت الامم الأخرى الباقى ولم تشتر الأمة الانجليزية إلا ٨٥

(٤) تقول مدام جوليت آدم ذلك فى كتابها انجلترا فى مصر وتقول إن الذين هلكوا نحو مائتى ألف

ولما ولى الامر اسماعيل فحص بامعان عن الاتفاقات التى عقدها سعيد مع الشركة ، فوجدها مجحفة بحقوق مصر ، فقال « انى أريد أن تكون القناة لمصر لا مصر للقناة » وكان بوده أن يسترد الامتياز — لو استطاع — من الشركة ويحفر هو القناة ، واستغل مقاومة انجلترا للمشروع وعدم صدور الفرمان السلطاني بعدُ فطلب الأمور الآتية : —

(١) أن ينقص عدد العمال من ٢٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ لأن استخدام عشرين ألفا يستلزم تعطيل أربعين ألفا آخرين ما بين راحل فى الطريق أو مقيم يتأهب ، وفى ذلك ضرر جسيم يلحق بالزراعة ، وفوق ذلك فالسخرة أمر تتأبَّاهُ الانسانية عنه

(٢) أن يلغى تملك الشركة للترعة العذبة لان الترع من المنافع العامة التى هى من اختصاص الحكومات

(٣) أن ترد الشركة للحكومة المصرية تلك الاراضى التى استغلتها الشركة وصارت على الحقيقة مستعمرة فرنسية .

وأقر السلطانُ اسماعيل على ما طلب وهدد بوقف العمل ان لم تجب تلك المطالب . فاضطربت الشركة اضطرابا شديداً إذ انقاص عدد العمال يكاد يكون فيه القضاء التام على المشروع لان الشركة كان جل اعتمادها على جلب العمال من مصر بغير أجر أو بأجر يكاد لا يسمى أجراً ، فاستصرخ دلسبس الامبراطورة أوجيني زوجة نابليون الثالث ، وكانت قريبة له فتقدم نابليون إلى صديقه اسماعيل يرجوه أن يحل المشكل بالحسنى ، فقبل اسماعيل أن يكون جلالته حكما في الامر . فقضى نابليون با كثر مما كانت تطمع فيه الشركة ، اذ حكم لها بغرامة قدرها ٣٣٦٠٠٠٠ جنيه وذلك فى نظير الامور الآتية :

(١) نزول الشركة للحكومة المصرية عن الاراضى التى استغلتها على جانبي الترعتين إلا جزءاً صغيراً (٢) نزول الشركة عن حق حفر الترعة العذبة والزام الحكومة اتمام حفرها (٣) نزول الشركة عن حق الزام الحكومة

تقديم العمال : وهكذا تُباع لمصر حقوق كانت لها من قبل !!

ولم يهتم اسماعيل بما قضى به نابليون إذ رأى ذلك هيناً بازاء تحطيمه تلك القيود المروعة التي كادت تودي باستقلال بلاده . ووافق في فبراير ١٨٦٦ على الشروط النهائية للامتياز وصدر الفرمان السلطاني الخاص باقرار المشروع في مارس ١٨٦٦ (أي بعد سبع سنوات من بدء العمل !) والفضل في صدوره يرجع إلى نابليون [1] أيضا

ومن ذلك الحين أقبل اسماعيل على القناة بعد الإعراض عنها وأخذ بيدها حتى صارت لا يذكرها الذاكرون إلا مقترنة باسم ناصرها العظيم « اسماعيل باشا خديوى مصر »

وافتتح اسماعيل القناة في ١٧ من نوفمبر ١٨٦٩ باحتفال [1] عظيم أقامه

---

(١) يروى الراوون عن ذلك نادرة وهي أن الامبراطور نابليون الثالث كان مسافرا إلى بلاد الجزائر ومر بمرسيليا وكان فيها الصدر الأعظم مريضا ، وأراد هذا أن يتشرف بمقابلة الامبراطور ـ وكان من أكبر شخصيات أوربة إذ ذاك ـ فأعرض هذا عنه فسأل عن ذنبه اليه فرد عليه بكلمة واحدة (فرمان) فلم يمض إلا قليل حتى صدر الفرمان

(١) إنى أجمل هنا وصف هذا الاحتفال لضيق المجال : ـ سافر اسماعيل باشا على يخته المحروسة إلى أوربة تتقدمه ثلاث سفن حربية وتتبعه مثلها . ليدعو ملوك أوربة إلى مصر للاشتراك في حفلة الاحتفال واحتج السلطان إذ رأى أن يكون هو صاحب الدعوة وجاءت الامبراطورة أوجيني قبل الجميع لتشاهد مصر وآثارها وأرادت أن تزور الاهرام فأمر اسماعيل فرصفت الطريق اليها وزرعت على جانبيها الأشجار في ستة أسابيع ثم رافق اسماعيل الأمبراطورة في زيارتها لآثار الصعيد وجاء بعد ذلك فرنسوا جوزيف أمبراطور النمسا ، وولي عهد بروسيا ، وملك وملكة هولندة ، وسمو الأمير عبد القادر الجزائرى ، واصطفت الجنود على ضفتي القناة من بور سعيد إلى الاسماعيلية واجتمع عند بور سعيد ٦٨ سفينة من سفن الدول المختلفة ، وفي ١٧ نوفمبر سنة ١٧٦٩ دخلت السفن القناة يتقدمها يخت (النسر) المقل لأوجيني وعبرت السفن القناة بين طبول وزمور ومراقص ومآدب وبخاصة

على نفقة حكومته وبلغت نفقاته ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وقد قُدر مجموع ماتكلفته مصر فى سبيل القناة نحو ١٦ مليونا من الجنيهات[1] (بما فى ذلك نفقات الاحتفال)

ما كسبه العالم من القناة :

قصرت المسافة بين الشرق والغرب ، فراجت تجارة العالم لا سيما تجارة انجلترا فقد صارت عشرة أضعاف ما كانت عليه وعظمت موانى البحر الأبيض كمرسيليا وبرنديزى

ما اكتسبته مصر من القناة : (١) لقد خسرت مصر فى سبيل شقها الألوف من رجالها والملايين من أموالها (٢) وخسرت مصر كثيرا بعد شقها ، إذ تحولت تجارة من أوربة والهند من داخل مصر إلى طريق القناة مما أدى الى نقص كبير فى دخل السكك الحديدية المصرية (٣) نظر دلسبس الى القناة من وجهة المدنية ولم ينظر إليها من وجهة مصر السياسية فقد صارت ويلا على البلاد واستقلالها لأنها كانت من أكبر البواعث التى الحث على انجلترا حتى احتلت مصر (١٨٨٢)

وفوق ذلك فقد باعت الحكومة المصرية (١٨٧٥) اسهمها لانجلترا

فى مدينة الاسماعيلية ووصلت السفن البحر الأحمر فى يوم ٢٠ من نوفمبر ١٨٦٩ وأنشأ اسماعيل بمناسبة هذا الاحتفال قصرا فى الاسماعيلية ودار الاوبرا ومثلت فيها رواية عايدة وهى من تلحين فردي الموسيقى الايطالى العظيم وكفى أن نذكر أن المدعوين وعددهم ٦٠٠٠ كان لهم أن يقضوا عشرة أيام فى القطر المصرى ولا ينفق الواحد منهم مليما واحدا فى هذا القطر السعيد

(٢) هذا تقدير المستر كيف الانجليزى الذى سيرد ذكره وتقول مدام جوليت آدم ان هذا المبلغ يفوق تسعة أعشار نققات المشروع

بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات[1] ونزلت الحكومة كذلك (١٨٨٠) عن عن نصيبها من أرباح الشركة (١٥ ./.) لشركة فرنسية كانت قد اقترضت منها مبلغا ضئيلا قدره ٧٠٠٫٠٠٠ ولم تستطع سداده . ونختم هذا الموضوع بكلمة وردت في جريدة التيمس الانجليزية يوم افتتاح القناة :

« على مصر أن تتحمل كافة نفقات القناة أو الجزء الأكبر منها ، ولفرنسا أن تحفظ لنفسها فخار هذا العمل أما انجلترا فيجب أن تجنى جميع فوائده »

(عصر اسماعيل باشا)

١٨٦٣ — ١٨٧٩

نسبه وتربيته : اسماعيل باشا هو ابن بطل مصر العظيم ابراهيم باشا وقد درس في مصر وفي المدرسة المصرية في باريس ولم يكن مقدّرا لاسماعيل الحكم إذ كان الحكم لأخيه الأكبر الأمير أحمد ولكن شاء القدر أن يسقط قطار في النيل عند كفر الزيات ، وكان فيه الأمير أحمد فقضى[2]

(١) قرأت عام ١٩٢٩ ان الاسهم التى باعتها مصر لانجلترا أصبح ثمنها ٧٢ مليون جنيه وإن مادرته على انجلترا من الأرباح ٣٨٫١١٨٫٩١٨ جنيه !! وانجلترا الآن أكبر مساهمة في الشركة ، ومع ذلك فلا يزال مجلس الادارة مقره باريس وأعضاؤه ٢١ فرنسيا و ١١ انجليزيا وهولندى واحد

(٢) سافر الأمير احمد والأمير عبد الحليم بن محمد على وغيرهما إلى الاسكندرية لتهنئه سعيد باشا بحلول عيد الفطر ، ولم يصحبهم اسماعيل باشا لوعكة أحسها . ثم رجع الأميران احمد وعبد الحليم إلى القاهرة يقلهما القطار ، وبلغ القطار كفر الزيات ولم يكن جسر (كوبرى) كفر الزيات قد أنشئ بعد ، وكان القطار ينقل مركبتين مركبتين على سفينة قوية فوق ظهرها شريطان من القضبان فتلصق السفينة بالشاطىء حتى يصبح الشريطان موازيين وفي مستوى الشريطين اللذين على الشاطىء ، وبينما السفينة تجتاز النيل ارتطمت مركبة باختها ، فسقطت في الماء وكان فيها الأميران ،



اسماعيل باشا

فغرق الأمير احمد لفرط سمنه أما الأمير عبد الحليم فقفز من النافذة ونجا ، والظاهر أن العمال لم يحكموا تثبيت المركبتين فحصل الارتطام . ويزعم بعض المرجفين أن الأمر ثمرة مؤامرة دبرها سعيد واسماعيل ، ولكن لا يعقل أن يتآمر أميران كريمان للقضاء على أخوين لهما

وشاء الله ألا يتولى عرش مصر ، غير اسماعيل ، فقد كان له أخ غير شقيق هو مصطفى فاضل باشا ولكنه كان أصغر من اسماعيل بشهر واحد .

إحياء عهد محمد علي : ولى اسماعيل أمر مصر والمدارس مغلقة ومشروعات جده محمد على مهملة فاعتزم أن يحي عهد ذلك الجد العظيم ، وأن يجعل بلاده « قطعة من أوربة » فانشأ كثيراً وأصلح كثيراً ، فكسا مصر عظمة بهرت العالم ، ولكنه لم يتريث فيما أنشأ وأصلح ، ولم تسعفه موارد بلاده فولج باب الدين الذى طرقه من قبله سعيد ، واتخذ الأجانب الدين ذريعة وتدخلوا فى شأن مصر عن طريق السلم (١٨٧٦) ثم عن طريق الحرب (١٨٨٢)

وإننا لنجد شبها بين عهد إسماعيل وعهد جده ، فكلا العهدين يبدأ باصلاح وعظمة ، حتى إذا ماشارف الانتهاء ولغ الأجانب فى شئون مصر طمعا فيها وحقدا عليها ، ففتر الاصلاح ونزلت بالبلاد المحن

وإننا نستطيع أن نقسم عهد اسماعيل عصرين : عصر العظمة (١٨٦٣- ١٨٦٩ أي الى فتح قناة السويس) وعصر المحنة (١٨٦٩ — ١٨٧٩)

اصلاحات اسماعيل وأعماله

١ — **علاقة مصر بالدولة العلية** : أراد اسماعيل أن يوسع دائرة استقلاله بأن يفك القيود التى فرضها فرمان ١٨٤١ ، ولكنه وجد العظة والعبرة فى وقفة أوربة فى وجه جده ، فتنكب عن طريق العنف والحرب ، وركب طريق المال والسياسة

(ا) الوراثة لأكبر أولاد الباشا : كان فرمان ١٨٤١ يجعل وراثة العرش لأكبر فرد فى الأسرة بشرط موافقة السلطان ، ولكن رأى اسماعيل أن ذلك يحدث فتنا بين أفراد الأسرة من أجل العرش بالسعى لدى السلطان أو بقتل بعضهم بعضا ، وأن الوالى الذى يعرف أنه تارك عرشه لغير ابنه لا بد جامع لابنه ما يستطيع جمعه من المال سواء أسعدت بلاده أم شقيت .

وكان السلطان عبدالعزيز قد زار مصر ، ولقى فيها من الحفاوة والاكرام

ما أرضاه على اسماعيل [١] ، فاقتنص اسماعيل تلك الفرصة وسعى حتى حصل في مايو ١٨٦٦ على فرمان يجعل الوراثة في أكبر أولاد الباشا . وذلك في مقابل زيادة الجزية التي تدفعها مصر إلى ٦٠٠٫٠٠٠ جنيه .

(ب) لقب الخديوى : كان الوالى على مصر يعتبر كأحد وزراء الدولة لا يميزه شيء عنهم ، ولكن اسماعيل صبت نفسه إلى لقب أسمى من لقب الباشا يتميز به عن باقى وزراء الدولة ويبهر به أوربة عندما يسافر إلى باريس لحضور معرضها العام ١٨٦٧ ، وسعى اسماعيل حتى منحه السلطان لقب « خديوى »[٢] وهو لفظ فارسى ومعناه الأمير العظيم (يونيه ١٨٦٧)

(حـ) فرمان ١٨٧٣ : كان اسماعيل شديد النزوع إلى الاستقلال ومظاهره وقد وضحت هذه النزعة عندما أبحر إلى أوربة (مايو ١٨٦٩) ليقابل ملوكها وأمراءها يدعوهم باسمه (لا باسم السلطان) إلى الاشتراك في حفلة قناة السويس ، كذلك كان اسماعيل يكثر من الافتراض ، فغضب السلطان للامرين — الدعوة والافتراض — فأصدر فرمانا (٩ نوفمبر ١٨٦٩)

---

(١) زار السلطان عبدالعزيز مصر (ابريل١٨٦٣) ، فكان أول سلطان زارها بعد سليم فاتحها (إذ كانت العادة ألا يفارق السلاطين عاصمة ملكهم) وأكثر اسماعيل باشا من الحفلات الشائقة تتخللها ألعاب (السواريخ) والزغاريد . حتى قال له السلطان « لاأدرى كيف أشكرك » فقال: « لقد قدمت إلى مولاى ما هو له » وسافر السلطان بعد عشرة أيام تتبعه سفينه مكتظة بمختلف التحف والهدايا ، وأهدى اسماعيل إلى الصدر الأعظم ٦٠٫٠٠٠ ألف جنيه ، وشارع عبد العزيز سمى كذلك تذكاراً لتلك الزيارة السلطانية .

(٢) كان اسماعيل يود أن يتخذ لقب العزيز ولكن الباب العالى رأى ثلاثة أمور تحول دون هذا اللقب : (ا) هو اسم من أسماء الله الحسنى فلا يصح أن أن يطلق على فرد (ب) هو اسم خص به نبى (حـ) ان عبد العزيز اسم السلطان فان منح اسماعيل لقب العزيز أصبح السلطان كأنه عبد له

يحدد فيه قوات مصر تحديداً ضيقا ويحرم على اسماعيل التدخل فى سياسه مصر الخارجية ، وينهاه عن الاقتراض .

غير أن إسماعيل لم يقنط بل سافر إلى الأستانة ، وبذل المال الهائل حتى مُنحَ فى يونيه ۱۸۷۳ فرمانا « متمما ومكملا ومعدلا » للفرمانات الهمايونية «الصادرة لحد هذا التاريخ[1] » وفي هذا الفرمان اعترف السلطان بحق الخديوى فى وضع كافة الانظمة والقوانين اللازمة « لأجل تسهيل تمشية وتسوية كافة المعاملات » ومنحه كذلك حق عقد المحالفات التجارية بدون استشارة السلطان بشرط ألاّ تتعارض هذه المحالفات مع مصالح السلطان السياسية . وخوله « التصرفات الكاملة فى الأمور المالية » و « المأذونية التامة فى عقد استقراض من الخارج بلا استئذان من الدولة العلية فى أى وقت يرى فيه لزوما للاستقراض بشرط أن يكون باسم الحكومة المصرية » وخوله كذلك حق « تكثير أو تقليل مقدار العساكر المصرية الشاهانية بلا تحديد على حسب الايجاب واللزوم » . وجاء فى الفرمان أن أحكامه « نافذة وباقية ومرعية الإجراء على ممر الزمان » وأن يدفع الخديوى « ١٥٠٫٠٠٠[2] كيسة التى هى ويركو مصر »

ومن هذا يتضح أن فرمان ۱۸۷۳ منح مصر الاستقلال الداخلى التام الدائم على ممر الزمان .

(د) وقبل صدور الفرمان السابق بسبعة أعوام (أى فى سنة ١٨٦٦) نزل السلطان عن مصوع وسواكن للخديو ، وكانتا من قبل ملحقتين بالحجاز

---

(۱) هذه العبارة وأمثالها مأخوذة من الفرمان

(۲) أى ٧٥٠٫٠٠٠ جنيه وهو الويركو أى الجزية

(۳) إن الجزية المقررة على مصوع وسواكن مدمجة ضمن الجزية التى وردت فى فرمان ۱۸۷۳ أما جزية زيلع وملحقاتها فهى ١٣٣٦٥ جنيه مصرى

والیمن العثمانیتین » وبعد صدور الفرماز بعامین (أی ١٨٧٥) نزل السلطان کذلك للخدیو عن زیلع وملحقاتها وكانت تابعة للواء الحديدة .

٢ — الاصلاحات الادارية

(ا) حول اسماعيل باقى الدواوين الكبرى — التى لم يحولها سعيد — الى نظارات وأنشأ نظارة للزراعة وضمها للأشغال ؛ وجعل عليهما نوبار باشا

(ب) قسم القطر أربع عشرة مديرية ، وثمانى محافظات وأعاد وظائف المديرين والعمد ، وأنشأ مع المدير هيئة منتخبة يستشيرها ومع المأمور هيئة أخرى ، وخول أهل القرية حق انتخاب عمدتها ومشايخها ، وغرضه من هذا كله تدريب الناس على حكم أنفسهم كما تفعل الفرنجة .

(ح) ألغى طائفة (القواسة) من الخفار (القره قولات) والاقاليم ، وكانت جنودا غير نظاميه من الترك ، وأنشأ فى مكانهم قوة من الشرطة نظمها ودربها ضابطان من الطليان

(د) أنشأ وظائف مفتشين على الأقاليم وخولهم سلطة كبرى فاشتهر منهم البرنس حسين (السلطان حسين فيما بعد) وسلطان باشا ، واسماعيل باشا صديق الذى عرف « بالمفتش » و « الخديوى الصغير »

(ه) ألغى وظيفة الخولى إذ زالت الحاجة اليها بعد أن صار الفلاح مالك الأرض منذ عهد سعيد

٣ — الاصلاحات القضائية : الامتيازات الاجنبية : ان فكرة الامتيازات قديمة ، وأصلها أن الانسان اذا انتقل من موطنه الى موطن آخر ، انتقل معه قانون موطنه الأصلى ، فلا يعامل وفق موطنه الجديد ، ولما كان حكام مصر من مماليك ثم ترك يريدون تشجيع الأجانب على استيطانها تنشيطا للتجارة منحوهم امتيازات تؤمنهم على أنفسهم ومتاجرهم .

وكان لويس التاسع ملك فرنسا لمعروف بالقديس أول من استخلص

معاهدة « امتيازات » عام ١٢٥١ من سلطان[1] مصر فأصبح لفرنسا الحق في تعيين قنصل ثابت بالاسكندرية ليطبق القوانين الفرنسية على رعايا فرنسا وتلا هذه المعاهدة معاهدات أخرى عقدت في أوقات مختلفة بين فرنسا وبين أصحاب السيادة على مصر سواء أكانوا مماليك أم أتراكا ، والمعاهدات التي عقدت بين فرنسا والأتراك في جملتها تنطوي على مبدأين (أولهما) ألا تسري القوانين العثمانية على جميع التجار والسياح الاوربيين في أقاليم العثمانيين كافة (وثانيهما) أن يكون لممثل فرنسا حق حماية الرعايا المسيحيين جميعهم .

وكانت الامتيازات أول الأمر « دفاعية » أي أنها كانت «تدفع» الضرر عن الاجانب إن وجد ولكن لما ضعفت تركيا استطاعت أربع عشرة[2] دولة أخرى أن تنال امتيازات كامتيازات فرنسا وأصبح لهن قناصل كقناصلها لهم حق تطبيق قوانينهم في محاكمهم القنصلية ، وصارت الامتيازات « هجومية » أي أنها أصبحت في يد الاجانب سلاحا يصيبون به من مصر مغنما

وللامتيازات والمحاكم القنصلية مضار أظهرها ما يأتي : —

(١) أوجدت الامتيازات في مصر ١٥ سلطة أجنبية (أي ١٥ محكمة قنصلية) تشل سلطة الحكومة المصرية

---

(١) هو عز الدين ايبك التركماني زوج شجرة الدر وهما أول من حكم مصر من المماليك

(٢) كانت الدول المتمتعة بالامتيازات حتى قيام الحرب العظمى هي :ـ فرنسا وألمانيا وبريطانيا العظمى والنمسا والمجر وبلجيكا والدانيمرقة واليونان وهولندة وايطاليا والنرويج والبرتغال والروسيا واسبانيا والسويد والولايات المتحدة ، وبعد الحرب فقدت المانيا والنمسا والمجر والروسيا امتيازاتها لأن هذه الدول كانت عدوات لانجلترا وحليفاتها

(٢) كانت المحاكم القنصلية تحاكم الحكومة ذاتها [١]

(٣) كان مجرى العدالة يضطرب ويتعطل كلما حدث نزاع قضائى يشمل اثنين أو أكثر من الاجانب . إذ كان ينشأ بين القناصل نزاع قضائى على الاختصاص .

(٤) كان المصرى إذا أراد أن يقاضى أجنبيا ألزم أن يقاضيه أمام محكمة قنصليته . وهذه غالبا ما تنحاز الى رجلها ، والحكومة المصرية تلزم تنفيذ ذلك الحكم الجائر . هذا الى أن المحاكم القنصلية كانت ابتدائية ، أما استئنافها ففى بلد الاجنبى ، وفى هذا نفقات وإرهاق للمصرى لو أراد أن يتابع قضيته

(٥) عرقلت الامتيازات تقدم البلاد ، فقد اكتظت البلاد لاسيما فى عهدى سعيد واسماعيل — بعدد هائل من الأجانب تجارتهم الرابحة عقد اتفاقات مع الحكومة بخصوص أعمال ومقاولات ، ثم « اختراع مظلمة تدعو الى فسخ العقد والرجوع على الحكومة للحصول على تعويض [٢] » وكان القناصل يساعدونهم طمعا فى اقتسام الغنيمة ، إذ بلغوا حداً لا يتصوره العقل فى الاستهتار « بنواميس الذمة والشرف [٣] »

وتتضح تلك الحال الشائنة من أن التعويضات التى طالب بها الاجانب أمام المحكمة المختلطة عام انشائها بلغت ٤٠ مليونا من الجنيهات

ولا ننسى كذلك أن تجار الأفرنج كانوا يحملون الرقيق على سفن تُرفع

---

(١) أعد مهندس انجليزى رسما (تصميما) لمشروع سكة الحديد بين الأسكندرية والقاهرة ، وأعطى فى نظير ذلك ٥٦٫٠٠٠ جنيه ، ثم أريد تعديل هذا الرسم فعدله المهندس وطالب بأجر جديد قدره ستة عشر ألف جنيه ، وحكم القنصل الانجليزى بستة آلاف ! !

(٢) و (٣) هاتان العبارتان عن لورد ملنز فى كتابة انجلترا فى مصر ، ويقول تدليلا على قوله إن اسماعيل باشا كان يحادث أوربيا فأمر الخادم باغلاق النافذة قائلا « أخشى أن يصيبه برد فيكلفنى ١٠٫٠٠٠ جنيه » ويروى أن سعيدا قال مرة أخشى أن ينظر جوادى شزرا فى شوارع الاسكندرية إلى أفرنجى فيطالبنى بتعويض

فوقها أعلامهم ولا تستطيع الحكومة تفتيشها

كذلك كانت الامتيازات سلاحا فى يد المهربين[1] من الاجانب

انشاء المحاكم المختلطة : رأى اسماعيل استحالة ايجاد حكومة منظمة مع قيام المحاكم القنصلية وعيوبها الشائنة لذلك فكر هو ووزيره نوبار باشا في انشاء محكمة مختلطة تذهب من اضرار المحاكم القنصلية أو تخفف منها على الأقل ، فقدم نوبار باشا (١٨٦٧) الى الباب العالى والى سفراء الدول فى الآستانة تقريرا ورد فيه « ان الحكومة المصرية دفعت للاوربيين فى أربعة أعوام تعويضات قدرها ثمانية عشر مليونا من الفرنكات وان هـذا المبلغ الجسيم لم يدفع الا تحت ضغط القناصل الاوربيين »

واجتمعت لجنة دولية فى مصر (١٨٦٩) ، وأقرت مصر على انشاء المحاكم المختلطة ورغم ذلك فان بعض الدول (لاسيما فرنسا) قامت تحارب مشروع المحاكم المختلطة ، وعارض السلطان حتى وعلماء مصر معلنين ان هذه المحاكم لاتتفق والشرع الاسلامى غير ان نوبار لم يقنط وواصل جهاده تسعة أعوام حتى حصل على موافقة الدول (١٨٧٦) ، فأنشىء من هذه المحاكم ثلاث من الدرجة الأولى فى القاهرة والاسكندرية والمنصورة ، ثم محكمة استئناف عليا فى الاسكندرية

نظام هذه المحاكم واختصاصاتها : هذه المحاكم مستقلة عن الحكومة

---

(١) ضبط خفر السواحل بعضا من الاغريق يهربون (حشيشا) ، وكان القنصل شريكهم فجمع ٥٠٠ من الاغريق ودارت بينهم وبين خفر السواحل معركة فى دار الجمارك لاستخلاص (الحشيش) المضبوط وفى المعركة عض القنصل عسكريا ، وعرفت عضة القنصل ، إذ كانت سنه الامامية مفقودة فظهر أثرها فى الذراع ؛ وحوكم المهربون ومع ذلك لم ينالوا قصاصا وعوقب خفر السواحل

المصرية حتى كأنها مملكة صغيرة داخل مصر ويعين قضاتها [1] (بالاتفاق مع مصر) اثنتا عشرة دولة من دول أوربة (صاحبات الامتياز) والولايات المتحدة ، عدا القضاة المصريين الذين تعينهم الحكومة المصرية ، ولهؤلاء القضاة الحق فى شرح القانون وتقرير ما لهم من السلطة واختصاص هذه المحاكم الفصل فى القضايا المدنية والتجارية ، وفى بعض المخالفات والجنح بين الأجانب أو بينهم وبين الوطنيين

نقد هذه المحاكم : نرى فى اختصاص هذه المحاكم نقصا من جهة وغلوًّا من جهة أخرى ، أما النقص فلأنها قُصِرت على نظر القضايا المدنية والتجارية ، وبقيت القضايا الجنائية من اختصاص المحاكم القنصلية . أما الغلو فلأن القانون قد خول الأجنبي مقاضاة الخديوي [2] أو حكومته أمام هذه المحكمة وحتم على الحكومة تنفيذ حكمها وفى ذلك انتقاص لسيادة الدولة ، وحط من قدر الحكومة .

ومع ما فى هذه المحاكم من عيوب ، فانها خففت من ويلات المحاكم القنصلية والتعويضات ، وكانت فوق ذلك خيرا من محاكم الأقسام (المجالس المحلية) التى كان المدير أو المأمور يتخذ فيها السوط أداة للتحقيق، لهذا رأينا الكثير من المصريين يلجئون إلى المحاكم المختلطة مختارين لتقضى بينهم .

٤ ـــ التعليم : كان محمد على ينشط المدارس ليتخرج فيها ضباط لجيشه وموظفون لحكومته ، ثم فتر نشاطه لما أن نُقص جيشه فى أواخر عهده ، وجاء عباس ثم سعيد ، وفى عهدها أغلقت المدارس ، وورث اسماعيل عن سعيد ثلاث مدارس ليس غير ، فشمر عن ساعد الجد . وأخذ بيد التعليم

---

(١) تؤلف المحكمة الابتدائية المختلطة من قضاة ثلاثة . أجنبيين ومصرى ، أما الاستئنافية فتتألف من خمسة قضاة ثلاثة أجانب ومصريين .

وكتب التربية الوطنية تفصل اختصاصات المحاكم المختلطة فليراجعها من يشاء

(٢)

من جديد حبا في العلم ذاته ومجاراة لأوربة المتمدينة ، حتى حق علينا أن نسمى عهده « عهد إحياء العلوم والمعارف بمصر »

قانون ١٨٦٧ : أصدر اسماعيل على يد على باشا مبارك ناظر المدارس والأشغال قانونا (١٨٦٧) يوضح السياسة التعليمية في مصر . وقد برزت ثمار هذا القانون عظيمة القدر جليلة الذكر فقد زيدت ميزانية التعليم من ٦٠٠٠ جنيه الى ٨٠٫٠٠٠ وأرصدت الأراضى التى استردتها الحكومة من شركة قناة السويس لنشر المجانية والانفاق على فقراء الطلبة وبلغ عدد المدارس والمكاتب ٤٨١٧ والطلبة ١٤٠٫٠٠٠ ، وكان في القاهرة وحدها ٢٩٥ مدرسة خلا الأزهر ومعاهد الأوقاف ومدارس الأجانب ، ومدارس الجيش (اذ كان لكل فرقة مدرسة خاصة فلم يبق في الجيش إلا ٤٢ أميا[1])

المدارس الابتدائية والتجهيزية : كانت المدارس الابتدائية مقصورة على تعليم القراءة والكتابة ، أما المدارس التجهيزية ، فكانت خاصة « بتجهيز » من أراد المضى في التعليم ومن المدارس التى أنشأها اسماعيل القربية والجمالية وباب الشعرية والعقادين والنحاسين وعابدين وغيرها .

المدارس العالية والخصوصية : أنشأ مدارس : الهندسة ، والطب ، والولادة ، والطب البيطرى ، والحقوق ، والفنون والصنائع ، والفنون الحربية ، والآثار المصرية ، والألسن والمعلمين ، ودار العلوم ، والمحاسبة ، وثلاث مدارس[2] للبنات (فكان بذلك أول من أنشأ مدارس البنات في بلاد الدولة العثمانية بأجمعها) وكذلك أنشأ مدرسة للخادمات (حتى يستطعن أن يقمن بعمل الرقيقات في المنازل إذ كان مصمما في إبطال الرقيق جملة)

---

(١) قد ذكر بعض الكتاب أن نسبة المتعلمين في مصر بلغت ٢٣ ٪ وفي تركيا ١٠ ٪ وفي روسيا وفي ايطاليا ١٣ ٪ (أما نسبة المتعلمين في مصر الآن هي ١٣ ٪ بحسب ما دل عليه من احصاء ١٩٢٧)

(٢) أنشأت مدرسة للبنات على يد احدى زوجاته ولما أقبل الناس عليها بعد لأى فتحت مدرستان أخريان

وأنشأ مدرستين للعميان يتعلم فيهما الأكِفّاء على الطريقة الحديثة ولم ينس اسماعيل السودان فقد أنشأ فيه بعض المدارس

ولقد ألغى كثيرمن المدارس عند مااضطربت مالية البلاد فى أواخر عهده

البعوث الى الخارج : أرسل اسماعيل البعوث على نحو ما كان يفعل جده ، ومن تلك البعوث خمسة عشر ضابطا صاروا بعد عودتهم أركان حرب الجيش المصرى تحت إمرة ستون باشا الأمريكى .

المدارس الأفرنجية والقبطية : عاضدها اسماعيل ومنحها المال والعقار

الجمعية الجغرافية والمرصد : أنشأ اسماعيل الجمعية الجغرافية وسارع علماء العالم الى الانتساب اليها ، وأسس المرصد أيضا .

دار الكتب : أنشأ اسماعيل دار الكتب وجمع لها من كافة بقاع الارض أسفارا منسوخة ومصاحف مزخرفة ، وجلب لها مجموعة فارسية مقطوعة النظير فى العالم قاطبة .

دار الآثار : مصر مزدانة بالكثير من آثار أسلافنا ، وكان القناصل وتجار الفرنجة ينهبون كثيرا منها حتى أشار شمبليون على محمد على بالمحافظة عليها ، فأنشأ هذا مصلحة للآثار تابعة لديوان المدارس وجعل مقرها دارا تواجه بركة الأزبكية ، ثم عاد فنقل الآثار إلى القلعة

وجاء مسيو مريت الفرنسى الى مصر فى عهد عباس ، وساعد الحكومة فى البحث عن الآثار وهو لاتربطه بالحكومة صلة رسمية ، وكشف السرابيوم (معبد العجول) بسقارة وآثارا أخرى جليلة ، ولكن حدث أن زار مصر الارشدوق مكسمليان النمسوى ، واستوهب عباسا بعض الآثار فأطلق عباس يده فى الذى أراد ، فاغترف مكسميليان منها كثيرا ، فاغتم مريت ولكنه واصل جهوده .

ولما ولى سعيد نصح له دلسبس فاتخذ مريت مأمورا لأعمال العاديات وأنشأ للعاديات مخازن فى بولاق .

ولما حكم اسماعيل ناصر مريت مناصرة الحاكم المستنير للعالم الجليل حتى اجتمع لمصر طائفة كبيرة من العاديات نقل أجمل مافيها إلى معرض باريس ١٨٦٧ يرافقها مريت ليحرسها وليشرح للعالم عظمة أجدادنا ، وأعجب الناس بها اعجابا شديدا . وسألت أوجيني اسماعيل أن يهبها لفرنسا ، وكان اسماعيل وهّابا فكاد يجيب سؤلها لولا وقفة مريت الأمين

ومات ماريت (١٨٨١) وبعد عشر سنوات نقلت دار الآثار إلى الجيزة ثم نقلت إلى دارها الحالية (١٩٠٢) . ودُفن بها مريت فى ناوس لايزال حتى اليوم . يذكّر الزائرين بفضل ذلك العالم الجليل .

ولا شك ان دار الآثار وما حوت لتذكر المصريين بسالف مجدهم فتمتلىء قلوبهم عزة واعجابا

أثر سياسة اسماعيل التعليمية : أحب الناس العلم وأقبلوا عليه فمن ذلك أن فقيرين رغبا في العلم فاشتغل أحدهما فى قطع الأحجار ودأب الثانى فى العلم ، وفى الليل يجتمعان فهذا يطعم صاحبه العلم ، وذاك يطعمه القوت

وصُنفت الكتب الجمة حتى خيل للناس انهم على أبواب عصر يكاد يضاهى عصر الرشيد والمأمون ، والحق ان النهضة الأدبية والعلميه الحالية لثمرة من ثمار عهد اسماعيل

منح النظار السلطة وانشاء مجلس شورى النواب : أسس نابليون ومحمد على مجالس شورية فى مصر فكانت بذرة الحياة النيابية (ورغم هذه المجالس حكم الرجلان حكما لانغالى إن أسميناه مطلقا) ، واختفى بعد محمد على مجلس المشاورة الملكى وقضى سعيد على المجلس الخصوصى

ولما حكم اسماعيل أحيى المجلس الخصوصى (وهو بمثابة مجلس للنظار) ووضع ذلك المجلس بأمره لائحة لمجلس نيابى يسمى « مجلس شورى النواب » وجاء فى هذه اللائحة :

(مادة ٧) : حيث أن كل بلد عليه مشايخ معينون برغبة الاهالى فبالطبع هم المنتخبون من طرف أهالى ذلك البلد والنائبون عنهم لانتخاب العضو المطلوب انتخابه من القسم وهؤلاء المشايخ يحضرون إلى المديرية ويكتب كل واحد منهم اسم من ينتخبه من القسم فى ورقة مخصوصة ويضعها مقفلة بالصندوق المعد لقسمه فى المديرية .

(مادة ٩) يصير تجديد الاعضاء كل ثلاث سنين

(مادة ١٠) أعضاء المجلس لايزيدون عن ٧٥ شخصاً

(مادة ١٦) تنص على انعقاد المجلس شهرين كل عام (من ١٥ كيهك الى ١٥ امشير) وافتتح المجلس فى ١٩ نوفمبر ١٨٦٦ ، ولا شك أن هذا المجلس كان أول خطوة صادقة فى سبيل الحكم النيابى فى جميع ممالك الشرق وحسب اسماعيل فخراً أنه أنشأ ذلك المجلس مريدا مختاراً لا مكرها كما الشأن فى غالب ممالك الأرض ، ولا جُناح على هذا المجلس إن لم تقو[1] ساقاه على حمله أول عهده إذ كان شأنه شأن الطفل يتعثر حتى يقوى وقد رأى الناس من هذا المجلس عجبا فى آخر عهد اسماعيل واستمساكا مدهشا بحقوق البلاد فى عهد توفيق .

انشاء النظارة المؤاخذة : كان الخديوى يرأس غالب جلسات المجلس الخصوصى ، وكان أعضاؤه (أى النظار) لا يعملون إلا ما يرى ، ولكن لما اضطربت مالية مصر حمل الاجانب اسماعيل على منح أعضاء المجلس سلطة حقيقية بحيث يصبحون مسئولين حقا عن قراراتهم فألف نظارة مؤاخذة

---

(١) كان كثير من المصريين إذ ذاك يخشون أن يكونوا نوابا حتى لا يغضبوا المدير أو الحكومة فى أمر من الامور حتى أن الحكومة كانت ترغم الناس إرغاما على قبول النيابة ، ويقول بعض الرواه إن شريفا باشا ناظر الداخلية أراد أن يفهم المجلس أن العادة جرت بأن يجلس المعارضون للحكومة على اليسار فهرع إلى اليمين من كان فى اليسار وقالوا « اننا كلنا عبيد أفندينا فكيف نكون معارضين لحكومته ؟»

(مسئولة) برآسة نوبار باشا ۱۸۷۸ فكانت تلك النظارة أول مجلس للنظار انشيء في مصر (وسيرد علينا تفصيل هذا الشأن)

التقدم المادى والأعمال العامة

الرى والزراعة : وجه اسماعيل اهتماما كبيرا إلى شئون الرى ، فطهر الترع القديمة وشق ١١٢ ترعة جديدة أهمها الاسماعيلية والابراهيمية ، وقد احيت الاسماعلية اصقاعا شاسعة فى الصحراء جهة السويس وبخاصة « تفتيش الوادى » . واحيت الابراهيمية أصقاعا أخرى فى الصعيد . وتعد الابراهيمية من أعظم ترع العالم ، وأصلح اسماعيل القناطر الخيرية وكانت متداعية وأنشأ نحوا من ٥٠٠ قنطرة أهمها قنطرة الجزيرة (كوبرى قصر النيل) وقوى جسور النيل . واستجاب من أمريكا آلات بخارية رافعة لرى الأرض ، وقفا أثره فى ذلك كبار الملاك ، وعبد آلاف الأميال من الطرق الزراعية ، وبكل ذلك زادت الأرض المنزرعة مليونا ونصف مليون تقريبا

وفى عهده قامت الحرب الأهلية بين شمال الولايات المتحدة الامريكية وبين جنوبيها . وحاصر الشمال الجنوب واحتبس قطنة فلم يصل إلى مصانع أوربة ، فأقبلت على القطن المصرى تبتاعه فغلا ثمنه ، فاستكثر اسماعيل وقومه من زراعته وزادت قيمة الصادرات منه من أربعة ملايين من الجنيهات إلى أربعة عشر مليونا ، ولكن لم تلبث الحرب أن وضعت أوزارها ، وعاد القطن إلى ثمنه الأول ، فخف اهتمام اسماعيل به وأفرغ جهدا كبيراً فى زراعة قصب السكر ومد من أجله خطا حديديا من القاهرة إلى أسيوط واحتفر ترعة الابراهيمية لهذا الغرض عينه

الصناعة : أنشأ الخديوى معامل للسكر ، والزيت ، والنسيج ، والبنادق

والمدافع والخرطوش ، والجلود ، والورق ، والزجاج وغيرها .

التجارة : عاضد اسماعيل التجارة . فأنشأ آلاف الأميال من الطرق ، وطهر وحفر الترع ، ومد نحو خمسة آلاف ميل من أسلاك البرق ، ونحو ألف ميل من السكك الحديدية ، وحدد لسفر القطر مواعيد ثابتة [1] وشرع في مد خط حديدى يخترق السودان وأواسط أفريقية ، مبتدئا من دنقلة ، ولكن أعوزه المال فوقف المشروع بعد أن أنفق عليه ٤٠٠ر٠٠٠ ولو تم لدر الخير على مصر ، وكان البريد فى مصر فى يد إيطالى [2] فاشتراه منه اسماعيل بمبلغ ٤٦٠٠٠٠ جنيه ، وأسس ما يزيد على مائتين من مكاتب البريد فى إنحاء البلاد ونظم اسماعيل من جديد شركة الملاحة النيلية المعروفة بالانجرارية فاصبحت مؤلفة من ٥٨ سفينة ، خصص منها ٢٨ لخدمة الخديوى ذاته ، كذلك حل اسماعيل الشركه المجيدية وأنشأ مكانها الشركه العزيزية (نسبة إلى السلطان عبد العزيز) وساهم هو وكبار المصريين فيها ، ولما رأى وفرة أرباحها . اشترى ما بيد كبار المصريين من السهام ، فاصبحت الشركة كلها ملكا للحكومة واطلق عليها اسم « شركة البوسته الخديوية » [3] وجعل لادارتها مصلحة اميرية

واقام اسماعيل لهداية السفن ١٥ منارة على السواحل المصرية فى البحرين الأبيض والأحمر ومنها واحدة في بربره كأنها تشع مدنية مصر

---

(١) كثيرا ما كان يؤخر القطار عن موعده ساعة أو بعض ساعة حتى يصل قنصل أو عظيم ، واستخدم اسماعيل لقطاره الخاص سائقا كان لنابليون الثالث وعرف بالدقة

(٢) اشترى اسماعيل البريد من شينى (Chini) وعهد بادارته إلى ايطالى آخر هو موتسى بك (Muzzi)

(٣) وقد باعت الحكومة فى يناير سنة ١٨٩٨ هذه الشركة وأصوافها ومخازنها وآلاتها المخزونة فى الاسكندرية إلى شركة الدرسن بمبلغ تافه قدره ١٥٠ر٠٠٠ جنيها

فى هذه الأنحاء . وأصلح ميناء الاسكندرية وميناء السويس حتى أصبحا جديرين باستقبال السفن التجارية الكبرى . وكان من أثر هذه المنشآت والاصلاحات أن علت الصادرات من ٠٠٠ ر ٨٠٠ ر ٩ جنيه عام ١٨٦٦ إلى ٠٠٠ ر ٨٠٠ ر ١٢ عام ١٨٧٥ وزادت الواردات من ٠٠٠ ر ٧٠٠ ر ٤ عام ١٨٦٦ إلى ٠٠٠ ر ٧٠٠ ر ٥ جنيه عام ١٨٧٥ . وهذه الأرقام دليل ملموس على نشاط التجارة وما درّته على البلاد من خير .

تجميل القاهرة والاسكندرية : كانت المدينتان قبل عهد اسماعيل ذواتى أزقة ضيقة وطرقات ملتوية ، ومبان ينبو النظر عنها (اللهم إلا المبانى الاثرية) ، وكانتا تستقيان من ماء الآبار أو النيل ، على مايعلق به من أقذار وأكدار ، ولما ولى اسماعيل صيّر المدينتين كأنهما المدن الأوربية إذ خلق فيهما أحياء جديدة كحى الاسماعيلية والتوفيقية وعابدين ، واختط فيهما شوارع جديدة وأقام تمثالا [1] لأبيه فى القاهرة وآخر لجده فى الاسكندرية وشيد القصور كقصر الجيزة والجزيرة وعابدين والاسماعيلية والقبة والزعفران وحلوان ، ونسق البساتين والمتنزهات (كحديقة الازبكية وحديقة الحيوان) ، وأنشأ المسارح وأهمها دار الأوبرا وأنار المدينتين بالغاز وأجرى فيهما أنابيب الماء .

ومما نذكره لاسماعيل باشا بالاعجاب محافظته على القاهرة التي أنشأها المعز لدين الله الفاطمى لتكون أثرا يبقى ورمزا لمجد سلف ، وأنشأ قاهرة جديدة لا نسرف فى القول اذا ما اسميناها القاهرة الاسماعيلية .

وعاش اسماعيل بين أعطاف النعيم وعلى أسلوب ملوك أوربة وأمرائها وحذا حذوه كبار قومه ، فبدأت المدنية الغربية — بفنها وزيها ورقصها ولهوها وعامة مظاهرها — تزحم المدنية الشرقية وتجعلها غريبة فى دارها

---

(١) أقامه فى العتبة الخضراء ثم قلبه العرابيون أثناء ثورتهم ثم نصب بعد الثورة فى مكانه الحالى

الفنون الجميلة : شجع اسماعيل الموسيقى والتمثيل وشيد مسرح الاوبرا وأول رواية مثلت فيه رواية عايدة (وهى من تلحين ڤردى الموسيقى الايطالى الكبير) وكان ذلك بمناسبة حفلة افتتاح قناة السويس

توسيع ممتلكات مصر فى السودان ومحاربة النخاسة

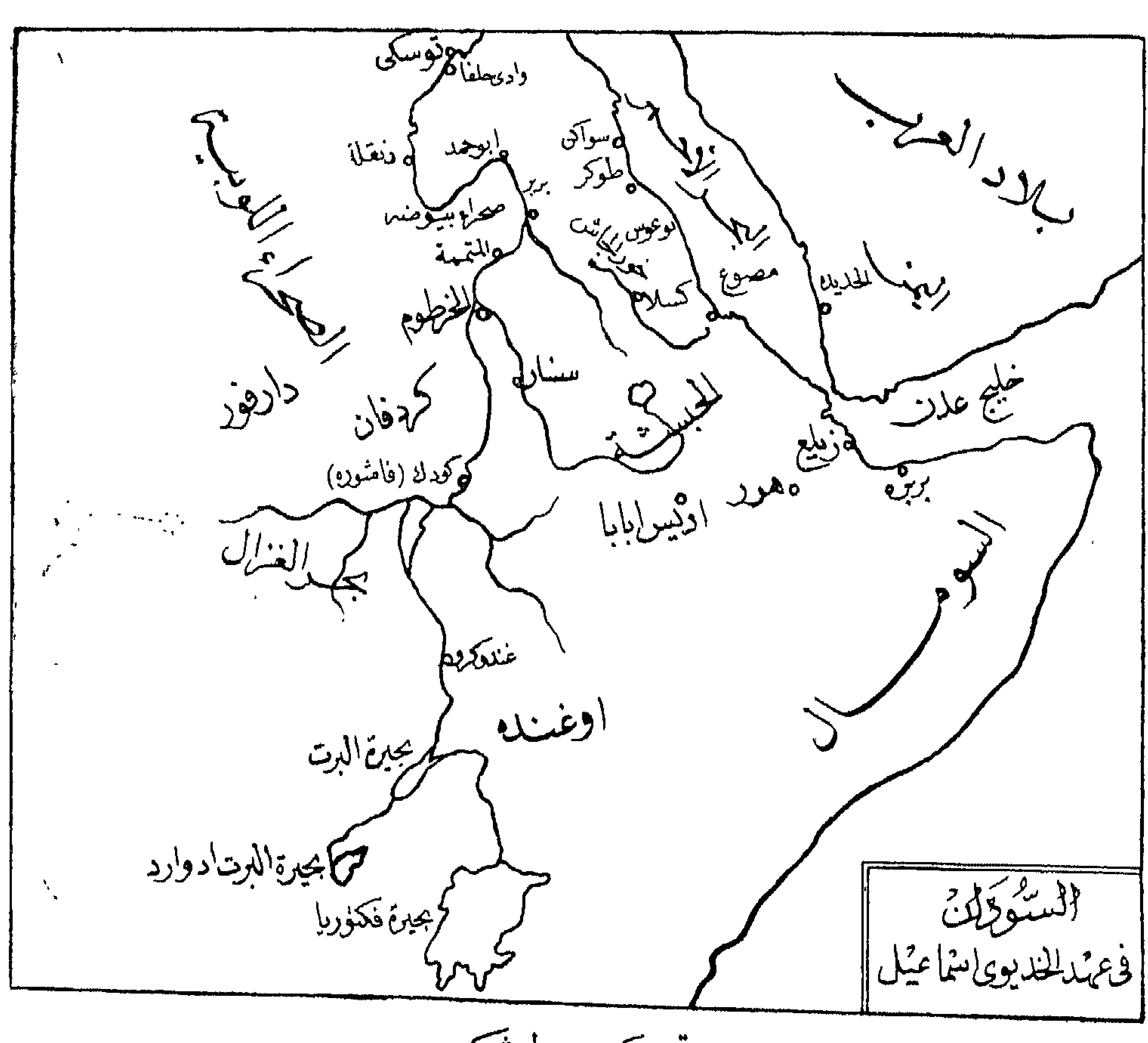
قُوى مصر الحربية والبحرية : أرسل اسماعيل باشا بعثة من ضباط وألف هيئة أركان حرب على رأسها الكولونل ستون[1] الامريكى وكان نظام الجيش المصرى فرنسيا حتى انتصر الالمان على فرنسا عام ١٨٧١ فادخل اسماعيل نظامهم فى جيشه وكان جيشه النظامى يُرْبى على التسعين ألفا عدا العساكر المستحفظة القائمة فى المدن والاقاليم وعدا الجنود غير النظاميين وعلّم اسماعيل الجيش ضباطا وجنودا وأمر بانشاء جريدتين عسكريتين لتثقيف عقول ضباطه . وبنى سبعة عشر حصنا بين بوقير والبرلس ، وأوصى على خمس مدرعات كبرى تصنع له فى طولون وتريستا ولكن الدول اعترضته بحجة خوفها على تركيا فكانت الدول بذلك قد تطلّبت على مصر العلل مرتين لتحول دون انشائها قوة لها فى البحر الأبيض المتوسط : المرة الأولى عهد سعيد والثانية عهد اسماعيل

التوسع فى السودان : اتجه اسماعيل الى مد حدوده فى السودان لغرضين (أولهما) أن يضم إلى ملكه ما يستطاع كشفه من جهات خط الاستواء (وثانيهما) أن يحارب النخاسة[2] والاتجار فى الرقيق

---

(١) سرح كثير من الضباط الأمريكان بعد أن انتهت الحرب الاهلية فاستقدم اسماعيل بعضهم

(٢) النخاسة صيد العبيد السود ، والرق اتخاذ شخص رقيقا وهو نتيجة الحروب لا الصيد وليس الرق من أصل الاسلام ولكن ورثه الناس عن القديم، والمسلمون يحسنون معاملة الارقاء ويتخذون منهم أزواجا وأوصياء بل ووزراء


السودان
فى عهد الخديوى اسماعيل
توسكى
وادى حلفا
ابوحمد
دنقلة
بربر
سواكن
طوكر
صحراء بيوضة
المتمة
الخرطوم
سنار
كسلا
مصوع
الحديدة
اليمن
بلاد العرب
كردفان
دارفور
كودك (فاشوده)
بحر الغزال
غندكرو
اوغنده
بحيرة البرت
بحيرة البرت ادوارد
بحيرة فكتوريا
الحبشة
زيلع
هرر
اديس ابابا
بربره
خليج عدن
السومال

توسكى = طوشكى

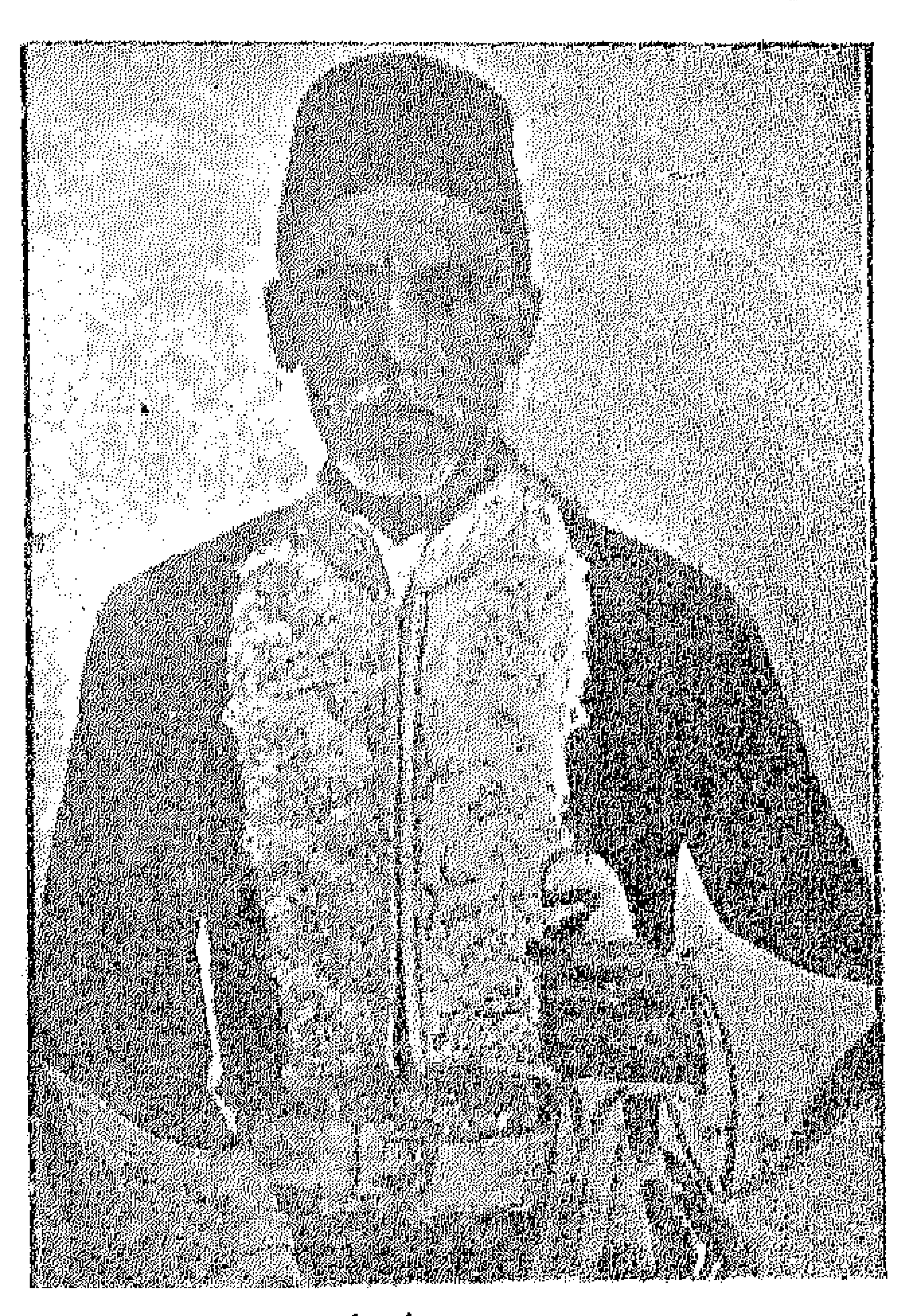
وكان كبار المستكشفين (أمثال لفنجستون وصمويل بيكر وستانلى) أول من وجّه أنظار العالم إلى القسوة والمخازى التى تقترن بالنخاسة ، وتقدمت انجلترا الدول — فى استنكارها والعمل على القضاء عليها وساهمها اسماعيل فى آرائها . وقام يعرض على النخاسين تعويضا فى نظير نزولهم عن معاقلهم وإقلاعهم عن مهنتهم ، فقبل بعضهم ورفض البعض الآخر وكان أهم من رفض الزبير رحمت وكان مسلما من الخرطوم ، وأثرى من النخاسة والعاج واستفحل أمره وكثر أتباعه حتى غلب على كل اقليم بحر الغزال ، وابتنى لنفسه قصرا مثل قصور الملوك تقف على أبوابه الاسود مسلسلة ، وبعد كفاح بينه وبين حكومة مصر طلب العفو من الخديوى فعفا عنه وجعله مديرا لبحر الغزال دفعا لشره (١٨٧٠) ، ولم تقف جهود اسماعيل عند هذا الحد ، بل استخدم سير صمويل بيكر ليكشف الجهات التى قرب منابع النيل الابيض ويضمها الى الحكومة المصرية ويقضى على النخاسة فيها ، ومنحه رتبتى الفريق

وكتب الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده إلى بلنت الانجليزى يقول إن الاسلام لا يعارض فى إلغاء الرقيق بل يحض على إلغائه وانه ينهى عن اتخاذ الرقيق إلا من الكفار الذين يقاتلون الاسلام .

وبدأت النخاسة بشكلها المروع بعد الغاء احتكار الحكومة المصرية للتجارة ، فقام فى السودان تجار أقوياء ظاهر عملهم الاتجار بالعاج وباطنه صيد العبيد ، وكان لكل تاجر من هؤلاء مشرع — أى منطقة — لتجارته يبنى فيها من فروع الاشجار ديوما — أى معاقل — ارتفاعها متر وسمكها متر ونصف يتحصن فيها أتباع التاجر وهم مئات وأحيانا آلاف مسلحون بالبنادق ثم ينزلون منها على الناس يصيدونهم صيد الأوابد ويبلغ مايقتنصونهامن هؤلاء التاعسين نحو خمسين ألفا كل عام ، ويهلك أثناء الصيد عدد كبير ، ثم ينقل المصطادون إلى أسيوط عن طريق الصحراء أو على سفن فى النيل تستظل بأعلام أجنبية وفى أسيوط يخصونهم فيهلك فى هذا العمل الشائن نحو ٩٠ ٪ ويتراوح ثمن الرقيق الأسود مابين ١٠ و ١٠٠ جنيه أما ثمن الجارية البيضاء فكان بين ٢٠٠ و ٨٠٠ جنيه

والباشا وأجرى عليه راتبا سنويا قدره ١٠٫٠٠٠ جنيه وزوده بسبعة عشر ألف جندى وبعض المدافع ، وأمر حكمدار السودان [1] (أى الحاكم العام) أن يساعد بيكر فى كل الذى يريد، وخرجت مع بيكر زوجته وبلغ غوندوكرو والبلاد التى على بعد درجتين شمالى خط الاستواء وأعلن رسميا ضم المقاطعات الاستوائية الى الحكومة المصرية (١٨٧١)، وكان أينما حل ينشىء نقطا عسكرية لمنع تجارة الرقيق ، ثم خرج فى حملة ثانية ووصل الى فكتوريا نيانزا ، ونصبه الخديوى حاكما عاما على المقاطعات الاستوائية (أى الواقعة جنوبى فاشوده) ولكنه اعتزل منصبه هذا بعد قليل (١٨٧٣)

وفى هذه الاثناء فتح الزبير سلطنة دارفور [2] فولاه اسماعيل حاكما على جنوبيها ومنحه لقب الباشا (١٨٧٤)



الزبير باشا

(١) أعيدت وظيفة الحاكم العام ، وكان يشغلها إذ ذاك جعفر مظهر باشا وكان من رأيه أن يقوم بالاستكشاف مصريون لا أجانب

(٢) كانت دارفور بلادا اسلامية يتكلم أهلها لهجة محرفة عن العربية وكان

وحدث أن مر ولي عهد انجلترا بمصر في طريقه الى الهند وقابل اسماعيل باشا، وامتدح لديه شجاعة الكولونيل غوردون ومناقبه وأشار عليه باحلاله محل بيكر، وكان اسماعيل باشا في ذلك الحين يخطب ود انجلترا حتى لا تعترض فتوحه في أفريقية ، لهذا عين غوردون حاكما للمقاطعات الاستوائية (١٨٧٤) وظل غوردون في هذا المنصب حتى اعتزله عام ١٨٧٦ .

حرب الحبشة : كان اسماعيل من البُداءة يعتزم وضع يده على النيل بأجمعه ، لذلك انتوى الاستيلاء على الحبشة ، فقام يمهد لذلك بتطويقها باملاكه فأتم فتح السودان على يد بيكر والزبير وغوردون (كما ذكرنا) وحصل من السلطان على مصوع وسواكن (١٨٦٦)وزيلع وبربره (١٨٧٥) وفتح امارة هرَر الاسلامية (١٨٧٥)ومد نفوذه على السومال (١٨٧٥)

أدرك نجاشي الحبشة (أى ملك ملوك الحبشة) ما يقصد إليه اسماعيل ، فارتقب فرصة تمكنه من الاشتباك معه ، فلما طلب اسماعيل أن يكون خور الجاش حدا فاصلا بين الحبشة وأملاكه على ساحل البحر الاحمر أبى النجاشي اذ اعتبر خور الجاش داخل ملكه

وقامت بين البلدين حرب (ا كتوبر سنة ١٨٧٥) هُزمت مصر فيها فغضب اسماعيل غضبا شديدا وأراد أن ينتصر من الاحباش محافظة على شرف جيشه فأرسل جيشا كثيفا على رأسه راتب باشا وأرسل معه ابنه الامير حسن تشجيعا للجند وتدريبا له، غير أن الاحباش شتتوا المصريين بعد أن أحدثوا فيهم مقتلة عظيمة ، ونجا راتب باشا والأمير حسن بعد أن كادا يهلكان ، واصطلحت الدولتان (ابريل ١٨٧٦)

يحكمها سلطان مطلق الحكم . وكانت له تقاليد مدهشة ، إذ كان لا يكلم أحدا من قومه إلا عن طريق وسيط (ترجمان) وإذا بصق جمع حاشيته بصاقه فى أيديهم وإذا عطس تعاطسوا ، وإذا سقط عن ظهر جواده تساقطوا وكان حرسه مؤلفا من عجائز النساء

وينسب عرابى فشل هذه الحملة إلى سوء القيادة التي كانت فى يد الاتراك والشراكسة ، وما يقوله الحق اذ أهملت نصائح الضباط الامريكيين الاكفاء . ولقد كان لخيبة المصريين اثار منها : —

(١) لحق بالجيش عار وتزعزعت ثقة الاوربيين بقوة مصر الحربية التى وضحت لهم فى عهد محمد على

(٢) اتضح للضباط المصريين افتقار الاتراك والشراكسة إلى القيادة البصيرة فرأوا أنفسهم جديرين بتولى المناصب الكبرى في الجيش ، وكانت تكاد تكون وقفا على الاتراك والشراكسة فبدأت بين العنصرين المنافسة التى نجمت عنها الثورة العرابية فيما بعد

تعيين غوردون حاكما عاما على السودان : عقد اسماعيل مع انجلترا ١٨٧٧ معاهدة تعهد فيها بمحاربة النخاسة وتحريم بيع الرقيق فى البلاد التابعة له وأشارت انجلترا عليه باعادة غوردون إلى السودان حتى يشرف على تنفيذ المعاهدة وقبل غوردون على شريطة أن يكون حاكما عاما على جميع أنحاء السودان فقبل منه ما اشترط والمعاهدة وان كانت فى ذاتها عملا انسانيا جليلا إلا أنها أضرت بمصر إذ حنق تجار الرقيق على مصر وكانوا على نفوذ كبير ، وساعد هذا الحنق على قيام ثورة المهدى كما سنرى

وحكم غوردون السودان حكما وصفه بعضهم بأنه «فوضى محزنه» وفوق ذلك فقد أغلق بعض المدارس بحجة الاقتصاد ، وتخلى عن بعض المناطق ويتهم بعض الكتاب [1] غوردون بأنه كان يعمل لافساد السودان على مصر بايعاز من حكومة بلاده

---

(١) ويقول الكولونيل شاى لونج رئيس أركان حرب غوردون « ان إدارة غوردون كانت فوضى محزنة وانه وجد السودان فى رخاء وتركه عام ١٨٧٩ مدينا يتأهب للثورة » ويذكر الكاتب عينه أن انجلترا كانت تتآمر من ذلك الوقت على فصل السودان عن مصر

وكان الزبير قبيل اعادة غوردون قد سافر الى مصر ليستأذن الحكومة في تخفيف الضرائب عن أهل دارفور ، فرفض الخديوى واحتجزه فى مصر حتى لا تقوم فتنة بعد رجوعه إلى السودان وأجرى عليه رزقا حسنا ولكن الثورة قامت نتيجة لحجز الزبير فى مصر ولبقاء الضرائب على حالها ، وللتضييق على تجار الرقيق ، وترأس الثائرين سليمانُ بن الزبير فأرسل غوردون عليهم جيشا يقوده جيسى (Gessi) الايطالى ، فأوقع بهم وقُتل سليمان ووجدت معه رسائل من والده الزبير تحضه على الثورة ، فحكم على الزبير من أجل ذلك بالاعدام ، ثم عاد الخديوى فعفا عنه ورد عليه ما كان قد قطعه من راتبه . وظل غوردون حاكما على السودان حتى عزل اسماعيل سنة (١٨٧٩)

كلمة ختامية عن الأعمال والاصلاحات : قد سقنا للقارىء شيئا من منشآت اسماعيل واصلاحاته حتى يتبين منها مبلغ تلك العظمة التى كست مصر والتى اعترف بها أعداؤه وأصدقاؤه على سواء فتقول صحيفة التيمس وهى التى كانت حربا عليه: « لقد بلغت مصر من الرقى مبلغا عجيبا » ويقول السير صمويل بيكر « قد تم على يد اسماعيل بين عامى ١٨٦٤و١٧٨٨ تغيير خارق ولم يعب ذلك التغيير إلا أنه كان أسرع مما احتملت إدارته »

عصر المحنة ١٨٦٩ — ١٨٧٩

لم تستمتع البلاد طويلا بالعظمة التى خلقها لها اسماعيل ، فقد سقطت فى دين خانق اتخذه الأجانب وسيلة للتدخل فى شؤون البلاد والتسلط عليها . وترجع هذه الديون إلى العوامل الاتية : —

(١) كانت اصلاحات اسماعيل ومنشآته تستلزم نظارة مالية رشيدة لها قسطها من الاستقلال حتى تدبر مال الحكومة تدبيرا صالحا ، ولكن الخديوى لم يفرق بين ماله الخاص ومال حكومته فاختلط الأمر

وكان الخديوى يسبغ نعمة ثقته على اسماعيل صديق باشا[1] ناظر المالية وهو المعروف بالمفتش ويطلق يده فى شئون مصر المالية فأساء هذا التدبير إذ قام يعقد القروض الاجنبية ذات الارباح الفاحشة ، ويعمل الحيلة فى الاقتراض من الأهلين وفوق ذلك يرهق الناس فى جمع الضرائب ، (ويفخر بأنه يجمع مليونين أكثر من الضرائب المقررة) ، فلا جُناح على من يشبهه بالوزير كالون الذى غرر بمولاه لويس السادس عشر ملك فرنسا حتى أورد بلاده موارد الافلاس ، ولشقاء مصر كان مجلس شورى النواب لا يزال ضعيفا واهنا لا يقوى على استجواب وزير

(٢) لم يتريث الخديوى فى إصلاحاته ومنشآته ولم تسعفه موارد مصر ، ويقول روذستين مؤلف كتاب المسألة المصرية « إن من الحمق أن ينفق زُهاء خمسين ألف ألف جنيه فى ثلاثة عشر عاما فى أعمال لا ينتفع بها إلا أجيال تأتى بعدها »

(٣) كان اسماعيل وهابا ندى الكفين كريما فأسنى للناس من العطايا ، وكان لنابليون الثالث صديقا فحاكاه فى قصوره وبلاطه وحفلاته وأسلوب معيشته ولا مراء فى أن اسماعيل قد أنفق فى كل ذلك مالا كثيراً [2]

---

(١) كان أخا الخديوى من الرضاع ويقال انه ابن فلاح من الصعيد وأثرى إثراء هائلا ، واقتنى القصور ، وكان له فيها نحو ٧٠٠ جارية ونستطيع أن ندرك مبلغ بذخه اذا عرفنا أن ثمن (مروحة) زوجته ٣٧٥٫٠٠٠ فرنك ومظلتها ٦٠٠٫٠٠٠ ؛ ولا غرو أن لقبه الناس « الخديوى الصغير » لثروته وسطوته

(٢) أنفق على حفلة قناة السويس ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ويقدر بعض الباحثين مقدار ما تكلفه فى استمالة السلطان ورجاله للحصول على الفرمانات ثلاثين مليونا من الجنيهات ، ومن وجوه انفاق اسماعيل المراقص وحفلات السباق . وكان له فى حريمه ألفا جارية ، وكان الطعام يقدم فى قصر عابدين لعشرة آلاف يوميا ، ولما سافر إلى باريس (١٨٦٧) نثر الذهب نثرا حتى لقبه الفرنسيون « أسد اليوم » ويروى أنه رأى وهو فى باريس أحد النبلاء الفرنسيين ينتابه العسر فتحركت

(٤) أسرف الخديوى فى الثقة بأصحاب المصارف من أوربة ، ومقاوليهم وقناصلها وحكوماتها ولا شك أنه ندم على هذه الثقة ندما شديدا فقد دخلت أوربة فى ذلك الوقت فى عصر الصناعة الكبرى ، وتجمعت رءوس الأموال الكبيرة ، وأنشئت المصارف الضخمة التى صار لها القول المسموع فى سياسة الحكومات ، وأخذت تلك المصارف تبحث عن مجال توظف فيه أموالها المكدسة ، فوجدت مصر مجالا رحبا ومكانا سهلا ، ولم تراع هذه المصارف نواميس الشرف ، فقد عقد سعيد واسماعيل مع هذه المصارف قروضا ثابتة مقدارها نحو ٦٨٫٥ مليون ، فلم ينقدا إلا نحو ٤٣٫٥ ، وأما الفرق — كما يقول مؤلف المسألة المصرية « فقد ذهب به الدائنون ووكلاؤهم على

نفسه لمساعدته فساومه فى شراء قصر له وكان النبيل يعتز بالقصر ويحرص عليه فأغلى الثمن إذ جعله خمسة ملايين من الفرنكات ووجهته فى ذلك إعجاز اسماعيل حتى لا يشتريه ، ولكن اسماعيل اشتراه ووهبه لابنة النبيل الصغيرة . وكان اسماعيل يقدم لكل قنصل جديد يفد إلى مصر سيفا مرصعا وجوادا كريما وكان إذا حل موسم أو عيد جاد على كل من فى قصوره من أكبر كبير إلى أحقر حقير فكان يجود على الكبراء بالقصور أو الجوارى أو الأطيان أو الجواهر الجياد ، ويقدم إلى من دون هؤلاء نقودا أو سيوفا مرصعة أو أوانى فاخرة ، ويمنح أصاغر أتباعه خواتيم أو ساعات أو ملابس أو بعضا من الحلوى ولا ننسى هنا الانفاق على أفراح الانجال (الأمراء توفيق وحسين كامل وحسن وفاطمة) فقد أقام لهم الافراح أربعين ليلة تضاء فيها القاهرة بالأنوار الساطعة وتقذف (السواريخ) ست ساعات كل ليلة ويحضر الناس التمثيل بالمجان ويطربون لغناء الموسيقى الكبير (عبده الحمولى) وضربت السرادقات يأكل فيها الناس على النمط الشرقى أو الغربى (البوفيه) ووقف لخدمة الناس فى إحدى هذه الولائم ١٤٠٠ ساق (جرسون) أما الشوار فيضيق بذكره هذا الكتيب وحسبك أن تعلم أن السرير الذى أهداه إلى توفيق - ومثله الذى أهداه إلى أوجينى وهى فى مصر - كان من الفضة الخالصة المموهة بماء الذهب والمكفتة بالماس والياقوت الاحمر النادر والزمرد والفيروز

هيئة سمسرة وتكاليف أخرى ما أنزل الله بها من سلطان [1] » ، وأنصار البيوت المالية يحاولون تبرير مسلكها بقولهم إنها كانت تجازف بأموالها

أما المقاولون فلم يكونوا أقل من أصحاب المصارف نهبا لمال مصر ، فكانوا إذا جلبوا له سلعة أو قاموا له باصلاح أو إنشاء أخذوا أحيانا أربعة أمثال ما يستحقون [2] ، وكثيرا ما ابتدعوا ظلامات وهمية يتعللون بها لفسخ عقودهم ومطالبة الحكومة بتعويض (وقد أسلفنا ذكر هذا الأمر)

أما القناصل فكانوا يساعدون المقاولين حتي يشاركوهم في مغانمهم ويكفى قول ملنر عنهم أنهم كانوا يستهزئون بنواميس الذمة والشرف

أما الحكومات فحسبنا موقف الامبراطور نابليون الثالث من اسماعيل عندما ارتضاه هذا حكما بينه وبين شركة قناة السويس ، فحكم للشركة بتعويض ظالم قدره ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيه . فكان اسماعيل إذ ذاك كالمستجير من الرمضاء بالنار

(٥) وشاء القدر ان يكون لامريكا ضلع فى ديون مصر فقد قامت فيها الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب فحُبس قطن الجنوب عن أوربة (كما ذكرنا) فتهافتت على قطن مصر ، فغلا ثمنه ، حتى زاد من ٤ ملايين من الجنيهات إلى ١٤ مليونا ، وخيل إلى اسماعيل وقومه أن الحرب ستبقى أمداً طويلا ، فاقترض إسماعيل ليقوم بمشروعاته . وقد رسخ فى نفسه أن أرباح

---

(١) أراد اسماعيل سداد ماترا كم عليه من ديون سائرة وقدرها ٢٨ مليون فعقد قرضا ثابتا عام ١٨٧٣ قيمته الاسمية ٣٢ مليونا من الجنيهات غير أن شركة اوبنهايم وشركائه لم تدفع لاسماعيل الا ١٧ مليونا . ولم ير الناس فى تاريخ الربا قرضا دل على الدناءة والشره مثل هذا القرض ويقول المستر كيف (الذى سيرد ذكره) إن الازمة المالية فى مصر ترجع الى الشروط الزائفة التي عقدت بها القروض

(٢) عن روذستين

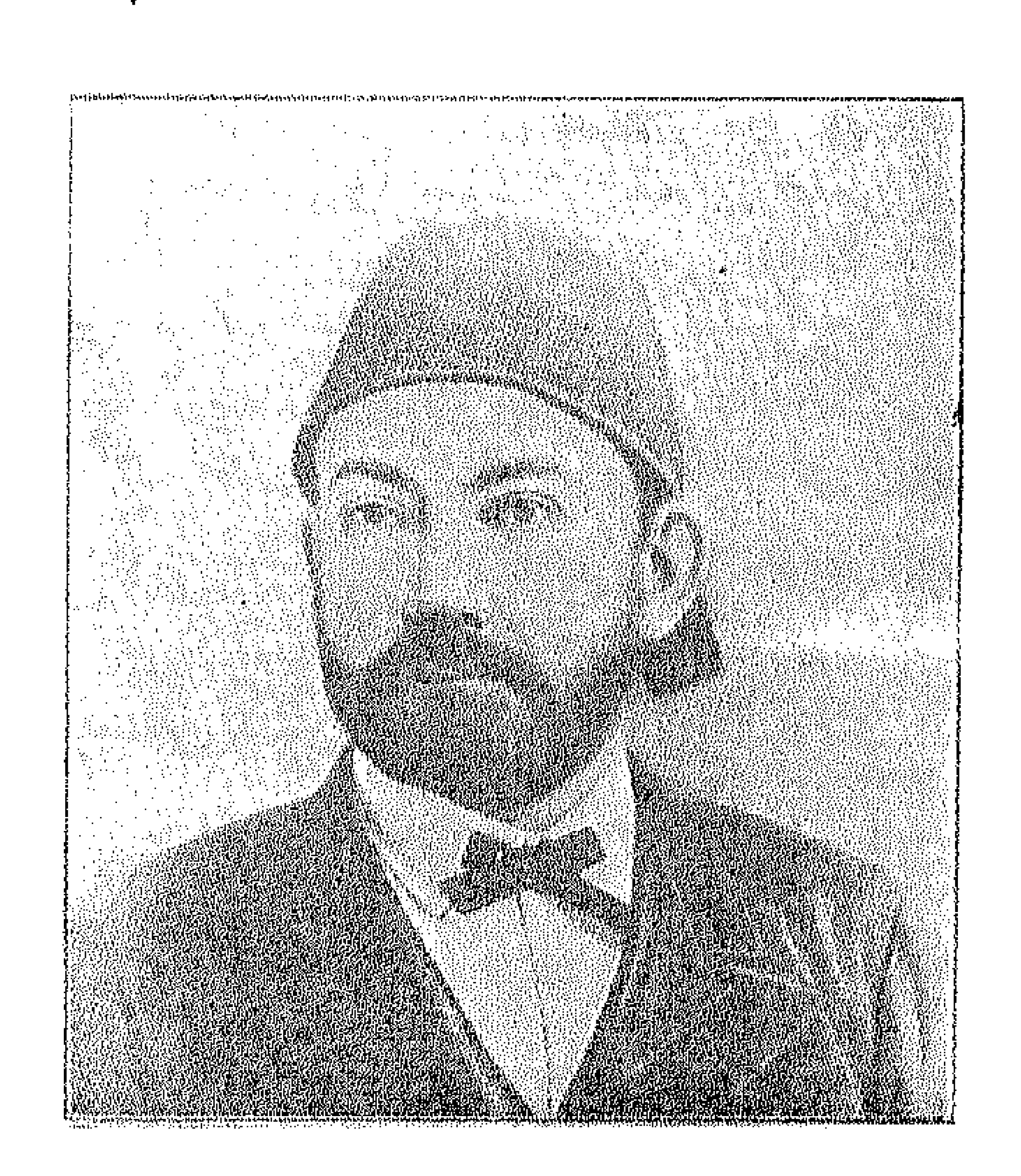
القطن ستسدد ما اقترض ، ولكن خاب الرجاء ووقفت الحرب فجأة عام **١٨٦٥** فلم يستطع السداد

على من تقع تبعة ديون مصر : —

(١) لا شك فى أن القسط الأكبر من هذه التبعة يقع على عاتق الخديو لمسلكه الذى وصفناه

(٢) وعلى تركيا قسط آخر من هذه التبعة ، لأن مصر احدى ولاياتها فكان حرياً بها أن تحول دون تورطها فى الدين، وحقيقة أن السلطان كان يحرم على إسماعيل الاقتراض إلا بأذنه ، وأنه أصدر عام **١٨٦٩** فرمانا لهذا الغرض ، ولكنه رغم ذلك كان يشجع اسماعيل على الاقتراض بقبوله منه الهبات والعطايا التى تنوء بها خزانة مصر، وفوق ذلك فقد قبل منه مقدارا كبيرا من المال عام ١٨٧٣ ومنحه كفاء ذلك فرمان ١٨٧٣ الذى أطلق يده فى شئون مصر ، (وسنرى لهذا الفرمان عواقب وخيمة)

وبعض المؤرخين يقدر ما قدمه اسماعيل باشا طوال حكمه من الهدايا للسلطان ورجاله بعشرين مليونا من الجنيهات وبعضهم يقدره بثلاثين مليونا



اسماعيل باشا صديق

(٣) وعلى الحكومة الانجليزية أيضا قسط من تبعة ديون مصر ، إذ كان من الواجب عليها — مادامت تجاهر بأن سياستها تقضى بالمحافظة على تركيا وممتلكاتها — أن تحذر المضاربين الانجليز عاقبة عملهم ، ولكنها لم تحذرهم بل على العكس سنراها تشد أزرهم ، وفوق ذلك فقد ساعد سفيرها فى الآستانة اسماعيل باشا حتى حصل على فرمان ١٨٧٣ الذى خوله حق الاقتراض

ونعلل موقف انجلترا الغريب بأنها قنطت من انهاض تركيا وتيقنت أن مآلها التفكك والفناء ، وعزمت أن تكون مصر نصيبها من تراثها وقوى ذلك العزم لديها فتح قناة السويس ، ورأت فى تورط مصر فى الدين ما يمهد لها سبيل التدخل فى شأنها ثم التسيطر عليها .

(٤) على الاوربيين عامة قسط من تبعة ديون مصر ، سواء أكانوا أصحاب مصارف أم مقاولين أم قناصل أم حكومات ، فقد منحهم اسماعيل ثقته فجازوه عنها خداعا وغدرا .

كيف تردت مصر فى الدين

كان اسماعيل باشا فى حاجة إلى المال الجم ليتعهد به إصلاحاته ومنشآته وليستميل السلطان ورجاله ، ولينفق عن سعة : فدبر اسماعيل صديق أول الأمر المال اللازم برفع ضريبة الفدان حتى أبلغها ١٦٠ قرشا بعد أن كانت أربعين ، وكثيرا ما جمع الضرائب سلفا ، وكان يتباهى بأنه كان يجمع مليونين أكثر من الضرائب المقررة ؛ لكن أولئك شعر الناس أن الأرض أصبحت حملا ثقيلا يبهظهم فاضطر كثير منهم إلى بيعها بثمن بخس فشراها اسماعيل ، وفر غيرهم منها فاستحوذ عليها حتى اجتمع من كل ذلك له نحو خمس أرض مصر المنزرعة (١)

(١) أى صار له نحو ٩١٦٫٠٠٠ فدانا وكان بعض هذه الأرض باسمه (الدائرة السنية) وبعضها باسماء بعض أفراد أسرته (وعرفت فيما بعد بالدومين)

وفُرضت كذلك مكوس وعوائد يذكر كرومر منها ٢٧ نوعا ، منها :—
مافرض على معاصر الزيت والزجاج والأغنام والمواشي والدخوليات (أى المكوس التي تجبى على مواد الغذاء عند دخولها المدن والبنادر) الخ .

ولم تك تلك الضرائب والمغارم لتفي بالحاجة ، فاستدانت الحكومة ديونا على ثلاثة أنواع : —

(١) ديون سائرة (Floating Debts) : وهي عبارة عن الأموال و (البواقى) المستحقة للمقاولين الذين قاموا بالمنشآت المختلفة والمتعهدين الذين (ورّدوا لوازم) للحكومة ،وكانت الحكومة كلما عجزت عن دفع هذه الديون في آجالها المضروبة جددت لها آجالا أخر فى نظير ضم فوائد كبيرة اليها ، حتى لقد بلغت بعض هـذه الديون ثلاثة أو أربعة أضعافها ويقول لورد كرومر ان الديون السائرة قد بلغت ٢٦ مليونا عام ١٨٧٦.

(٢) ديون ثابتة (Funded Debts) وهى القروض المحدودة التى عقدت مع مصارف أوربة

(٣) ديون داخلية أوأهلية (Internal Debtes) وهى ديون مصرية بحته اقترضتها الحكومة من الأهالى عند ماتعسر عليها عقد قروض ثابتة أوسائرة ، ودينا المقابلة والرزنامة ضربان من هذه الديون (وسنفصلهما بعد)

التدرج في الأزمة : (١) اقترضت الحكومة أربعة قروض فى أربعة أعوام متعاقبة (١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٦ و ١٨٦٧) وحاق الضيق بالناس فى ذلك العام الأخير ، وجمعت الضرائب مقدما ، وفى العام عينه زار الخديو باريس ورأى الخلقُ هناك من إنفاقه عجبا ، وخيل اليهم ان مصر مورد من المال لاينضب معينه ، لهذا أقرضوه قرضا خامسا (١٨٦٩) فأصبح مااستدانه اسماعيل مضافا إلى دين سعيد الثابت نحوا من ٢٩٫٥ مليون جنيه ، وقلق السلطان لما قد تجره الديون على مصر ، فأصدر عام ١٨٦٩ الفرمان (الذى

سبق ذكره) يحظر على اسماعيل الافتراض إلا باذنه ، ولما كان هذا الانزال فى حاجة الى المال ، وكان لايستطيع رهن ايرادات الحكومة بعد صدور الفرمان السابق ، اضطر إلى رهن أملاكه الخاصة المعروفة بالدائرة السنية وهى تقرب من ٤٥٥ر٠٠٠ فدان فى نظير قرض سادس [1] قدره سبعة ملايين وفائدته ١٣ ٪.

(٢) ولما كانت حرب السبعين قائمة والبيوت المالية مغلقة الأبواب بسببها ، ابتدع اسماعيل صديق ناظر المالية خطة تعرف بالمقابلة[2] وفحواها ان الحكومة تنزل لملاك الأراضى الزراعية عن نصف الضريبة المقررة عليهم نزولا أبديا إذا ما دفعوا لها ستة أمثال هذه الضريبة دفعة واحدة أو على ستة أقساط سنوية (وفى هذه الحالة الأخيرة تدفع الضريبة الأصلية حتى يتم تسديد الأقساط) . وأنشىء لهذه المقابلة مصلحة أميرية خاصة (١٨٧١) وجمعت الحكومة من هذه المقابلة فى هذا العام ٨ ملايين ، (واستمرت فى جمعها فى الأعوام التالية)

(٣) وحصل اسماعيل فى عام ١٨٧٣ على الفرمان المشهور الذى أطلق يده فى مالية مصر ، فاقترض فى العام عينه قرضا سابعا قيمته الاسمية ٣٢ مليونا من الجنيهات (ولكن لم يدفع له منه إلا ١٧ مليونا ! !) وتعهد الخديو فى هذا القرض ألاَّ يعقد قروضا أخرى قبل انقضاء عامين ، وقد بلغت ديون مصر الثابتة (عام ١٨٧٣) ٦٨ر٥ مليونا تقريبا لم يدخل الخزانة منها فعلا

---

(١) نورد هنا القيمة الاسمية لقرض سعيد الثابت ثم لقروض اسماعيل الستة على الترتيب :-

دين سعيد (٣ر٢٩٣ر٠٠٠) وقروض اسماعيل (٥ر٧٠٤ر٠٠٠، ٣ر٣٨٧ر٠٠٠، ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ ، ٢ر٠٨٠ر٠٠٠ ، ١١ر٨٩٠ر٠٠٠ ، ٧ر١٤٣ر٠٠٠)

(٢) أبدع اسماعيل صديق هذه الخطة بحجة أنه يرمى إلى تسديد ديون مصر الثابتة التى بلغت نحو ٣٦ر٥ مليون لأن الضرائب كانت نحو ستة ملايين . فلو جمع ستة أمثالها لاستطاع تسديد الديون الثابتة

إلا نحو ٥ر٤٣[1] وصارت فوائد الديون الثابتة وحدها نحو ستة ملايين .

وجدير بنا أن نذكر أن فرمان ١٨٧٣ انقلب على مصر ويلا وقد كان يُظن أنه سيكون فاتحة اليمن والبركة ، وذلك لأن الديون التى استدانها الخديو حتى عام ١٨٧٣ كانت شخصية بحتة أى أنها كانت مضمونة باملاكه المرهونة ثم بدخل حكومته فى عهده وحده بمقتضى ماله من حق التصرف فى الدخل في عهده ، ولكن فرمان ١٨٧٣ خوله حق التصرف التام فى شئون البلاد المالية فحول كل ديونه السابقة إلى ديون على الحكومة ورهن من أجلها جزءا كبيرا من الدخل ، فصارت الديون تنحدر على الحكومة من عهد إلى عهد مهما كان نوع هذه الحكومة

(٤) وقبل أن ينصرم العامان اللذان تعهد الخديو بعدم الاقتراض خلالهما احتاج إلى المال (لتسديد فوائد الديون على الاقل) ، فابتدع اسماعيل صديق دينا أهليا جديدا يعرف بالروزنامة وشروطه أن كل من يودع في الحكومة مالا يأخذ نظيره راتبا سنويا أبديا يقدر بتسعة فى المائة من أصل المبلغ الذى أودعه بشرط ألاّ يسترد هذا المبلغ فجمعت الحكومة بذلك نحو ٥ر٣ مليون (وستستمر فى الجمع فى المستقبل[2])

(٥) وافتقرت الحكومة كذلك إلى المال ، فعرضت أن تبيع مالها من أسهم فى قناة السويس وقدرها ٦٠٢ ر ١٧٧[3] ، وبدأت تفاوض فرنسا

---

(١) مقدار الديون الثابتة بالضبط ٦٨٫٤٩٧٫١١٠ وما تسلمته الحكومة فعلا ٤٣٫٧٨٧٫٠٠٠

(٢) لم تنتفع الحكومة من هذه الرواتب إلا القليل للمقربين ، ولم تكن الحكومة قد أعطت لمن أقرضوها سندات بل كتبت اسماء المشتركين فى كشوف فى كل قرية ، وسنرى أن لجنة التحقيق فيما بعد ستنكر هذا الدين بحجة عدم وجود سندات وبدعوى أن الكشوف ممكن التلاعب فيها

(٣) كان لمصر ١٧٧٦٤٢ سهم أول الأمر ثم باعت قبل هذه الصفقة ١١٤١ سهما

في هذا الشأن فبلغ الخبر دزرائيلى (لورد بيكنز فيلد) رئيس الوزارة الانجليزية وزعيم المحافظين، فاعتزم شراء الاسهم، واتفق مع الحكومة المصرية على أن تبيعها إياه باربعة ملايين من الجنيهات ولما كان البرلمان الانجليزى فى العطلة، ولا يستطيع أن يأخذ من خزانة الدولة هذا القدر إلا باذن البرلمان اقترض هذا المبلغ من بنك روتشيلد بضمانة « كلمة رئيس وزراء انجلترا » ولقد أخطأت الحكومة المصرية خطأ كبيرا فى هذا البيع من وجهين (أولهما) أن الصفقة خاسرة، إذ بلغ ثمن أسهم مصر ٧٢ مليونا عام ١٩٢٩ والارباح التي جنتها منها انجلترا أكثر من ٣٨ مليونا، وفضلا عن ذلك فقد تعهدت الحكومة المصرية بأن تدفع لانجلترا ٥ ٪ فائدة سنوية للأربعة الملايين لغاية ١٨٩٤ وذلك لأن تلك الحكومة كانت قد أخذت سلفا أرباح (كوبونات) هذه الأسهم حتى سنة ١٨٩٤، فكأن انجلترا ليست شارية للأسهم، بل دائنة تسترد مبلغها بالتقسيط (وثانيهما) أن هذا البيع خلق لانجلترا ذريعة جديدة (فضلا عن ذريعة الديون) تستطيع بها أن تتدخل فى شئون مصر، والحقيقة ان شراء الأسهم كان أول خطوة صريحة خطتها انجلترا فى مصر وشئونها.

(٦) بعثة كيف (Cave) أرادت الحكومة أن تقوّم ما اعوج من نظامها المالى، فسألت انجلترا [1] ان تبعث اليها بموظفين يشرفان على الدخل والخرج ويخضعان لارشاد ناظر المالية ويكون أحدهما على الأقل عالما باصول علم الاقتصاد السياسى [2].

لم تطلب الحكومة المصرية من الحكومة الانجليزية نصحا بل طلبت

---

(١) لم توجه الحكومة المصرية طلبها إلى فرنسا لأن هذه كانت لاتزال مرتبكة إثر حرب السبعين

(٢) يزعم بعض المؤرخين أن الحكومة المصرية كانت تقصد من استدعاء الموظفين أن يشهدوا بثبات مركزها المالى حتى يسهل عليها الاقتراض

موظفين ولكن الحكومة الانجليزية حولت هذا الطلب إلى طلب نصح وأرسلت بعثة مالية مؤلفة من خمسة من كبار موظفيها يرأسهم المستر كيف رئيس صيارفتها ، ولاشك أن انجلترا بتصرفها هذا أرادت أن تتعرف حقيقة المالية المصرية . وتقول التيمس « لا جدال فى أن الخديوى لم يعرف ماجاء من أجله مستر كيف ، وأنه امتلأ غضبا عند ما علم ما ادعاه ذلك الموظف الغريب لنفسه من حق البحث فى شئون مصر » وصرح الخديوى فى حديث له « ما كان يدور بخلدى قط أن انجلترا بابتياعها أسهم قناة السويس و إيفادها موظفا كبيرا ليتفحص حساباتى أنها تنوى وضع يدها على مصر » ومع ذلك قد رخص الخديوى إلى المستر كيف فى الفحص عن مالية مصر[١]

واقترح مستر كيف على الخديوى أن يستبدل بالموظفين الخاضعين لناظر المالية مستشارا ماليا هو ريفرز ولسن (Rivers Wilson) الذى كان المراقب العام لقسم الدين الاهلى فى انجلترا ، وأخبر كيف الخديوى أن ولسن هذا فى طريقه فعلا إلى مصر ، فتعجب إسماعيل لمسلك هؤلاء القوم الذين يفرضون « استشارتهم » على ماليته من غير أن يلتمسها منهم ، ولكنه مع ذلك قبل المستشار على كره .

ولما علم الفرنسيون بذهاب بعثة كيف الى مصر ، أرسلوا بدورهم بعثة تعمل لصالح دائنيهم . وطفق كل من الفريقين : الانجليزى والفرنسى ، يعمل على كسب الخديوى الى جانبه ، ولما وضح للخديو أن الانجليز لهم فى بلاده مطامع سياسية ومالية معا وأن الفرنسيين لا غرض لهم ظاهر غير الدفاع عن مصالحهم المالية صرف البعثة الانجليزية فسافرت فى فبراير ١٨٧٦ وفى الشهر التالى قال دزرائيلى (لورد بيكنزفيلد) فى مجلس العموم « ان الخديو طلب اليه ألاّ ينشر التقرير الذى كتبه مستر كيف وذلك لسوء حال المالية المصرية

---

(١) يزعم بعض الكتاب أن حاجة الاقتراض هى التى حدت به إلى الترخيص لكيف فى الفحص

ولأن المعلومات التي قدمها المستر كيف انما كانت من النوع الذى يُسَرُّ الى الصديق لا من النوع الذى يُرغب فى نشره على الناس »

واقد جرحت هذه الخطبة سمعة مصر المالية وحزّت فى نفس[1] اسماعيل حتى قال « لقد احتفروا لى قبرا » وأرسل الى دزرائيلى ألاّ يكتم الناس التقرير لانه يعتقد التقرير مهما حوى لا يمكن أن يسيء الى سمعه مصر أ كثر مما أساءت إليها الخطبة ، فنشر دزرائيلى التقرير فاذا به يذكر أن مالا قد أُنفق فى وجوه غير صالحة ، وأن مصر لو أخذت بيدها قوة خارجية لاستطاعت أن تنجو من ورطتها محتفظة بشرفها وسلامتها ، ويذكر التقرير مقترحات منها توحيد الديون وتقليل الفائدة وتأجيل الاستحقاقات، ومع أن هذا التقرير كان أقل وخزا من غمزة دزرائيلى إلا أنه لم يطمئن الدائنين اطمئنانا كافيا ، لذلك استحال على اسماعيل أن ينال من أوربة بعد ذلك قرضا

(٧) كان على الحكومة المصرية أن تدفع قسطا من أقساط ديونها فى أول ابريل ١٨٧٦ ، ولكن عزّ المال رغم حصولها فى نوفمبر من العام الفائت على ثمن أسهم قناة السويس، ولم تجد من المصارف مايقرضها فلجأت الى كل من فرنسا وانجلترا فلم تبالها انجلترا انتقاما منها لاستغنائها عن بعثة كيف ، أما فرنسا فسارعت الى انجادها تزلفا اليها وكسبا لثقتها وأرسلت اليها المبلغ المرتجى فى مساء ٣١ مارس فانقذتها من اعلان افلاسها ، غير أن أقساطا أخرى كانت لابد أن تدفع بعد أقل من أسبوع ، وعجزت الحكومة طبعا عن سدادها ، فعلقت فى صباح ٨ ابريل فى (بورصة) الاسكندرية بيانا تعلن فيه أنها ترجىء صرف قيمة سندات الخزانة المصرية[2] ثلاثة أشهر فكان هذا بمثابة افلاسها

(١) يقول قنصل أمريكا أن الخديوى كان كثير المشاغل فلم يدخل دار حريمه ٦ أشهر

(٢) أى الأقساط ، وتفسير ذلك أن الحكومة المصرية كانت اذا أرادت قرضا كبيرا اتفقت مع مصرف من المصارف الكبرى فيصدر هذا عدة (سندات) وتعرض هذه السندات فى بورصات العالم الكبرى فيشتريها الناس فيجتمع للمصرف القرض

ويعتبر هذا اليوم المبدأ الحقيقى للمشكلة المالية والتدخل أوربة فى شئون مصر

(٨) صندوق الدين وتوحيد الديون : كانت البعثة الفرنسية منذ سفر مستر كيف تلح على الحكومة فى إنشاء لجنة دولية تسمى صندوق الدين يكون أعضاؤه مندوبين عن الدول وعمله الإشراف على سداد الديون ، وكانت الحكومة تمانع فى هذا الأمر كرها منها فى أن يشرف عليها أجنبى ولكن لما ثار ثائر الدائنين بعد ٨ ابريل وتهددوا الحكومة رأى الخديوى تسكينا لهم وتأمينا لهم على أموالهم أن يقبل مشروع صندوق الدين وأصدر فى ٢ مايو أمراً عاليا بتأليف لجنة صندوق الدين تنتدب الدول أعضاءها ليكونوا موظفين لدى الحكومة المصرية ولهم رواتب منها ، وعملهم تدبير شئون الدين المصرى وتنظيم وسائل تسديده ، ولهم أن يقاضوا الحكومة باسم الدائنين أمام المحكمة المختلطة إذا لزم الأمر

وفى ٧ مايو أصدر أمر عال آخر بتوحيد جميع الديون المصرية من سائرة وغير سائرة وجعلها دينا واحدا قدره ٩١ مليون جنيه وفائدته ٧ ٪ وأرصدت لضمانه إيرادات خاصة ، فاعترض المستر ولسن على هذا المشروع اعتراضا شديدا ، ولكن لم تحفل الحكومة المصرية باعتراضه، فانكفأ راجعا إلى بلده ساخطا، وأرسلت كل من فرنسا والنمسا وايطاليا مندوبا عنها فى صندوق الدين أما انجلترا فشذّت ولم ترسل .

ولا ريب أن إنشاء صندوق الدين يعد نزولا واضحا من الخديو عن بعض سلطته بل يعد سماحا لقيام حكومة داخل حكومة الدولة (وسنرى صداما بين الحكومتين : الاصيلة والدخيلة ، وسنرى الدخيلة تعسف بالشعب لتحصل على ديونها حتى ولو سافته الى الشقاء) .

المطلوب فيقرضه الحكومة ، فكأن عمل المصرف عمل الوسيط ، وقد يساهم المصرف فى شراء عدد من السندات، اذن حملة السندات هم الدائنون الحقيقيون للحكومة المصرية

(٩) بعثة غوشن — جوبير (Goschen-Joubert) . كان معظم الدائنين الانجليز يحملون سندات على الحكومة المصرية مضمونة بموارد ثابتة ، أما غالب الفرنسيين فلهم على مصر ديون سائرة ، فلما وُحدت الديون من ثابتة وسائرة وجعل للنوعين ضمان واحد ، حنق حملة السندات من الانجليز إذ رأوا فى مساواة الفرنسيين بهم فى الضمان تجاوزًا عن حدود الانصاف وندبوا للدفاع عن مصالحهم مستر غوشن ، وكان على نفوذ كبير ، إذ كان من قبل وزيرا ، وهو إذ ذاك عضو فى البرلمان الانجليزى وشريك فى مصرف فرهلنج غوشن الذى أقرض سعيد ثم اقرض اسماعيل قرضين ، وسافر غوشن إلى باريس واجتمع بحملة السندات فيها ، وبعد أخذ ورد قبل هؤلاء أن يتخلوا عن نظام ٧ مايو ، ورسموا مع غوشن مشروعا جديدا يحفظ على الفريقين مصالحهم ، وندبوا عنهم جوبير وسافر غوشن وجوبير إلى مصر وهما على رأي واحد فى الحصول على أكثر ما يمكن حصوله من مصر[١] ، وكانت انجلترا تشد أزر رجالها[٢] وإن كانت تنكره أمام الملأ وتجهر بأنه يعمل على عهدته ، وليس لها دخل فى شأنه

واقترحت بعثة غوشن — جوبير التسوية الآتية : —

(ا) يحذف من الدين الموحد ما يأتى : — ٤٫٢٩٣٫٠٠٠ جنيه قيمة ما بقى

(١) أقام غوشن قبل سفره إلى مصر مأدبة لحملة السندات من الانجليز ، وأقسم لهم « أنه ليحصلن لحملة السندات على أساس متين قوى الدعائم بأكثر ما يستطاع تحصيله » .

(٢) يقول ماكون المؤرخ الانجليزى إن قنصل انجلترا فى مصر أكد للخديوى فى مصر أن مستر غوشن سيعدل فى حكمه بين الخديوى وحملة السندات ، وأنه إذا تعذر اتفاق الخديوى مع رجل منصف مثل غوشن « فانه يصبح من المستحيل دوام تلك الحال القاضية على مصر ودائنيها » إذن فالقنصل كان يتهدد الخديوى إن لم يقبل ما يراه غوشن

من الديون التى اقترضت فى ١٨٦٤و١٨٦٥و١٨٦٧ [١] واعتبر هذا الدين قائما بذاته ويسدد من أقساط المقابلة ، ويحذف كذلك ١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه قيمة سندات جديدة (يصرف ثمنها في تسديد الديون السائرة) ، وأطلق عليها « الدين الممتاز » وجعلت فائدتها ٥٪ ورُصد لضمانتها دخل السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت رقابة لجنة خاصة مؤلفة من مندوبى الدول ومصر ، وذلك حتى يُقبل الناس على شرائها ، كذلك يحذف ٨٫٨١٥٫٠٠٠ جنيه قيمة دين الدائرة السنية [٢] ويعتبر هذا الدين قائما بذاته ويسدد من دخل تلك الدائرة ، وهذا الحذف كله ينقص الدين الموحد إلى ٥٩ مليونا من الجنيهات سعره ٦٪ وقسط استهلاكه ١٪ (أى يسدد من أصله ١٪ سنويا)

(ب) يعين مراقبان عامّان يشرفان على مالية الحكومة (أحدهما) انجليزى لمراقبة الدخل ، وله الاشراف التام على الموظفين الذين يقومون بتحصيل هذا الدخل ، وله أن يعزلهم ، (وثانيهما) فرنسى لمراقبة الخرج ويكون مستشارا لناظر المالية ، ولا يكون أمر الصرف صحيحا إلا إذا وقع عليه المراقب حتى ولو صدر هذا الأمر من الناظر ذاته

(ج) يعتبر صندوق الدين قائما أبدا حتى يستهلك دين مصر جميعا، وتعين كل من إنجلترا وفرنسا والنمسا وايطاليا مندوبا عنها في صندوق الدين بعد عرض اسم كل مندوب على الحكومة المصرية ، وعمل الصندوق تسلم ايراد الجهات المرهونة المختلفة من يد المراقب العام للدخل وتسليمها المصرف فى انجلترا وفرنسا ، والقيام بما يلزم لعملية الاستهلاك .

---

(١) حذفت هذه الديون من الدين الموحد لأن مواعيد استحقاقها كانت قد قربت (ما بين ١٨٧٩ و ١٨٨١) ، أما قرض ١٨٦٦ فكان قد سدد فعلا عام ١٨٧٤

(٢) كان الدين الثابت على هذه الدائرة نحو ٧ مليون عام ١٨٧٠ ، وقد أضيف إليه الآن ما ترا كم على الدائرة من دين سائر

عرض غوشن وجوبير المقترحات السالفة على الحكومة فرفضها اسماعيل صديق قائلا ان ٥ ٪ هى أقصى ماتستطيع مصر إحتماله سعراً لديونها، وان إعلان إفلاس مصر مهما كانت العواقب أقل ضررا على البلاد من مقترحات البعثة ، إذ التسليم بها بمثابة تسليم البلاد إلى الأجانب

واستنكر الخديو المقترحات حانقا وهدد باعلان إفلاس حكومته اقتداء بتركيا فى اعلان افلاسها ، فهدده قنصل فرنسا بالسعى فى عزله ، فقال له « ولكن ما الحيلة ولا قدرة لنا على الدفع فمصر قد صارت جلدا على عظم » وأصر غوشن على المقترحات اصرارا شديدا ، وهدد الخديو فى غير احتشام. وهكذا تألف على الخديو الخصمان ، فبات بين شقى الرحى ، فنزل على حكمهما مكرها ، وأرغم اسماعيل صديق على الاستقالة ، وفى ١٦ نوفمبر ١٨٧٨ صدر بلاغ رسمى يذكر أن اسماعيل صديق حوكم أمام المجلس المخصوص (الخصوصى) ونفى إلى دنقلة لأنه كان يثير فى نفوس الناس تعصبا دينيا كى يقاوموا مقترحات غوشن ــ جوبير ، ولأنه كان يتهم الخديوى ببيع البلاد الى الأجانب ، ثم ظهر بلاغ آخر بعد حين يذكر أن اسماعيل صديق مات بدنقلة بسبب الاحتقان فى المخ والجنون ويزعم بعض الكتاب أنه قتل[1] ، وسواء قتل أم مات فقد استخف الأجانب الفرح لخلاصهم من « عدو الاصلاح » كما يزعمون [2]

وفى ١٨ نوفمبر ١٨٧٨ أعلن الخديو قبول مقترحات البعثة ، فعين الأجانب مندوبيهم فى صندوق الدين ، ففرنسا عينت مسيو دى بلنيير

---

(١) يذكر بعض الكتاب أن الخديوى مر ذات يوم على نظارة المالية ، واصطحب معه اسماعيل صديق إلى سراى الجزيرة . وهناك قبض الحراس على اسماعيل صديق ، ويزعم البعض أن رجال السراى قتلوه فى حجرة فيها ، وبعضهم يزعم أنهم حملوه إلى (ذهبية) راسية فى النيل أمام السراى وأقلعت به إلى دنقلة وقتل فى الطريق والقيت رمته فى النهر

(٢) كتبت جريدة التيمس عن هذا الحادث « انه يعد خاتمة نظام عتيق ».

(Bligniers) وكان معينا من قبل (أى من وقت إنشاء صندوق الدين أول مرة فى مايو) كذلك عينت كل من النمسا وايطاليا مندوبها الذى كان لها من قبل ، أما انجلترا فلم تشأ أن تعين مندوبها حتى لا تتحمل أية تبعة كما تقول ، فعين مستر غوشن الميجر بيرنج «Baring » (لورد كرومر فيما بعد) . واختارت انجلترا مراقب الدخل وفرنسا مراقب الخرج ، كذلك عين كبار الموظفين الاجانب في سكة الحديد وميناء الاسكندرية وغيرها

(١٠) المراقبة الثنائية الاولى (كوندومينيوم) من نوفمبر ١٨٧٦ الى أغسطس سنة ١٨٧٨

صارت مصر بمقتضى نظام غوشن — جوبير تحت مراقبة ثنائية (انجلترا وفرنسا) ، وقضت اثنين وعشرين شهرا تحت هذه المراقبة ألحق فى أثنائها بالحكومة المصرية عدد كبير من الموظفين الاجانب[1] ولم يكن غرض هؤلاء إلا جمع دخل الحكومة حتى يقدموا الى حملة السندات أقساطهم ، ولم يتورعوا عن اتخاذ كل صنوف الارهاق لتحقيق غرضهم ، فجمعت من الفلاحين الضرائب سلفا ، وكان (الكرباج) أداة الجمع المرعبة وحبست المرتبات عن الموظفين المصريين ، وسرح جانب من الجيش وشهد[2] الانجليز أنفسهم بالبؤس الذى حاق بالخلق .

---

(١) ألحق منهم نحو ١١٩ فى ١٨٧٦ و ١٣١ فى ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ، واستمرت الزيادة تضطرد حتى صاروا نحو ١٣٠٠ عام ١٨٨٢ يتناولون رواتب تقرب من ٣٥٠ر٠٠٠ جنيه

(٢) كان اللورد فيفيان قنصل انجلترا فى مصر فى ذلك الوقت وكتب فى ١٢ يوليه ١٨٧٧ عن قطعية (كوبون أو قسط) يوليه «إن الأموال المطلوبة هى ٢ر٠٧٤ر٩٧٥ جنيه وقد دفعت كلها أمس ولكن أخشى أن يكون بلوغ هذه النتيجة قد كلف الفلاحين ثمنا جاء بقاصمة الظهر فبيعت محصولاتهم المقبلة قهرا ، وطلبت منهم الأموال مقدما كل ذلك قد انتزع من بلاد أرهقتها الضرائب . . وإنى أرى أن الانجليز يأخذون بنصيب من هذه التبعة الخطرة » ويقول القنصل نفسه فى نوفمبر

وقد بلغ ايراد الحكومة عام ١٨٧٧ نحو ٩ر٥ مليون من الجنيهات أخذ الدائنون منه نحو ٧ر٥ مليونا ، فلم يبق للحكومة المصرية بعد أدائها الجزية للباب العالى وأرباح أسهم قناة السويس إلا نحو مليون وسبعمائة ألف جنيه ، وهو مبلغ كما نرى ضئيل لا يغنى ، فكأن الدائنين بانتزاعهم هذه الأموال من مصر « كمن يقتل الاوزة من أجل بيضها الذهبى »

وشاء القدر أن يقترن هذا العهد المضنى ببلاءين زاداه سوءا وبؤسا : (أولهما) قصور فى فيض النيل (١٨٧٧) أضر بمحصول الفلاح وغلو فى الفيض فى العام التالى حتى أغرق القرى والمزارع (وثانيهما) اضطرار مصر الى ارسال حملة والانفاق عليها مساعدة لتركيا في حربها مع روسيا .

وكثيرا ما تحامل الخديو وشكا إلى اللورد فيفيان قنصل انجلترا فى مصر ، فأرسل القنصل إلى حكومته يصف حال مصر التاعسة فأرسلت إليه أن يبلغ الخديو أن تغيير أى شيء فى تسوية غوشن — جوبير « قد يؤدى الى أخطار مخيفة جدا » . ومع ذلك كله يقول اللورد كرومر « لقد كنا جميعا أشراف النفوس ، همنا جميعا القيام بواجبنا جهد الطاقة »

تلك حال مؤلمة موجعة حققت ماتنبأ به اسماعيل صديق

سنة ١٨٧٧ « وقد اقفرت خزانة الحكومة ، وأصبح للجنود والموظفين مرتبات عدة شهور ، وقد نزل الموظفون إلى الدرك الأسفل من البؤس ، وقد وقف دولاب الحكومة وقوفا تاما » ويقول المستر بلنت السائح الانجليزى « كان قليل من مشايخ القرى من يملك عباءة . . وا كتظت مدن الريف فى أيام الاسواق بالنساء اللاتى جئن لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمربين لأن جامعى الضرائب كانوا فى قراهن والسوط (الكرباج) فى أيديهم ، فابتعنا منهن مصوغاتهن الزهيدة وسمعنا قصصهن وشاركناهن فى لعن الحكومة التى صيرتهن عرايا » ويقول اسكندر بيرد Baird وكان كثير الزيارات لمصر عام ١٨٧٧ فى تقرير له « وليس من المستطاع أن يحصر الانسان كثرة من هلكوا جوعا ، وكان الفقراء فى حالات كثيرة يبلغ بهم الجوع حدا لا يجدون معه مايسدون به رمقهم إلا قمامات الشوارع وامعاء الحيوان »

تعليل موقف انجلترا : كانت انجلترا بادىء الأمر تحافظ على قوة تركيا محافظة على السلم ومحافظة على طريق الشام ومصر إلى الهند ثم غيرت انجلترا سياستها نحو تركيا لعاملين : أولهما ان فتح قناة السويس أغراها بفتح مصر ليكون فى يدها ذلك الطريق المختصر إلى الهند ، وثانيهما انه وضح لها أن لاأمل فى اصلاح تركيا ، وانها لابد منحلة يوما ، وان أثمن غنيمة تغنمها انجلترا منها هى مصر .

وأسعد انجلترا الجد ، إذ تزعزع نفوذ منافستها فرنسا إثر حرب السبعين ، فانتهزت تلك الفرصة الذهبية واشترت أسهم قناة السويس ، ثم تغلغلت بموظفيها فى الحكومة المصرية زمن المراقبة الثنائية الاولى حتى أصبح لها النفوذ الأول فيها ، وأخذت قبرس من تركيا ، (١٨٧٨) فهيمنت منها على مدخل قناة السويس ونزع بعض الانجليز [١] قناع الدهاء وقالوا فى صراحة بوجوب فرض الحماية الانجليزية على مصر .

(١١) لجنة التحقيق : كانت بعثة غوشن — جوبير عند ماوضعت تسويتها قد اعتبرت دخل الحكومة المصرية نحو ١٠٫٥ مليونا من الجنيهات والواقع انه لم يزد عن ٩٫٥ مليونا . فخيل إلى رجال صندوق الدين ان بعض الدخل لا يصل إلى نظارة المالية بل يتسرب الى خزانة الخاصة الخديوية ، ولعلهم كذلك شعروا

---

(١) كتب ادوارد ديسى عدة مقالات ، منها مقالة وردت فى مجلة « القرن التاسع عشر » فى يونيه ١٨٧٧ تحت عنوان « طريق الهند » يطلب فيها الكاتب إلى حكومته أن تغنم فرصة اشتغال فرنسا بالمانيا وتستولى على مصر ، وكتبت التيمس « إن فكرة احتلال انجليزى فرنسى لا تلق استحسانا . كذلك يتساءل الناس ماذا لفرنسا من المصالح الحقة فى مصر . لاشك أن مصرفا من مصارف باريس الكبرى قد تورط فى اقراض مصر ، ولكن خمس سنين من سنى الحماية الانجليزية كفيلة بنجاته من ورطته »

ان الشعب مرهق وان الادارة ينقصها مايلزمها من المال ، لهذا اقترح بيرنج وبلنيير (عضوا صندوق الدين) على الخديو أن يؤلف لجنة عليا لتحقق أسباب العجز ، ولتحاول التوفيق بين صالح حملة السندات وصالح الشعب المصري وحكومته، وأن يكون لهذه اللجنة الحق فى أن تطالب إلى أى إدارة أو إلى أى شخص المعلومات التى قد تحتاج اليها .

أحفظ هذا الاقتراح اسماعيل إذ رأى فيه فيه مضيعة لكرامته ، وقضاء على مابقى لحكومته من استقلال وهيبة وأبى تنفيذ الاقتراح وقال للقنصل الانجليزى ان الأوفق أن يحمل الدائنون على انقاص فائدة الديون اذا أرادوا أن تستمر البلاد قادرة على الدفع وأن يتركوا الحكومة تتصرف بكامل حريتها فيما يتبقى لديها من المال ، ولكن لم يُأبه لقوله ، ولم يدع الأجانب[1] وجها ولا حيلة حتى أكرهوه على الاذعان فى ٤ أبريل ١٨٧٨

وتألفت اللجنة وكان رئيسها فردنند دلسبس ووكيلاها رفرز ولسن ومصطفى رياض باشا[2] (المعروف بميله إلى الانجليز) وأعضاؤها أعضاء

---

(١) عقد الأجانب فى الاسكندرية اجتماعا تمخض عن (عريضة) إلى قناصلهم طعنوا فيها على الحكومة المصرية ، وأرسلت الحكومة الانجليزية إلى الخديو بلاغا تقول فيه « إن حكومة جلالة الملكة امتنعت حتى ذلك الحين عن مضايقة سموه ولكنها الآن ترى نفسها مضطرة الى تعضيد طلبات حقه وكذا ترى من الضرورى جدا أن تتفحص المدوبية (أى اللجنة) عن مصروفات الحكومة » وأصدرت المحكمة المختلطة قرارا يقضى بحضور الأمير حسين كامل ناظر المالية امامها ومعه دفاتر حسابات الحكومة ، وهذا هو بعينه الذى كان يأباه الخديو على الاجانب ، فتعاظم اسماعيل الأمر ، كذلك حملت جريدة التيمس على الخديوى وهددت بأن مؤتمر برلين ١٨٧٨ قريب الانعقاد ، ولا بد باحث أمر مصر ، ولوحت صحيفة أخرى باسم الأمير حليم بن محمد على المطالب بعرش مصر بصفته أكبر أفراد الأسرة سنا

(٢) كان مصطفى رياض باشا أول الأمر يتقاضى مرتبا قدره ١٤٥ قرشا ثم انتظم فى سلك عساكر الموسيقى برتبة الملازم الأول ثم صار يرقى حتى حاز رتبة أميرالاى

صندوق الدين الأربعة ، ثم تخلى (١) دلسبس عن العمل فأصبح ولسن الرئيس الفعلى

وإذا أنعمنا النظر فى تكوين اللجنة وجدنا العنصر الانجليزى هو السائد

أعمال اللجنة (ا) كانت مهمة اللجنة فى الأصل درس موارد مصر المالية ووضع تسوية جديدة للديون ، ولكن اللجنة تعدت مهمتها الأولى إلى التنقيب فى أعمال الحكومة وإدارتها ، فتنقلت فى البلاد تسأل الناس عن ظلاماتهم وكتبت تقارير عن أبحاثها حوت بعض مساوىء الحكومة ، ومن هذه المساوىء : ان ضريبة النخيل كانت تؤخذ بحسب احصاء قديم فاذا لم يبق لرجل مثلا غير خمسين نخلة وجب عليه أن يدفع الضريبة عن مائة كانت له قديما ، وان من الناس من يدفع للحكومة (بدلا) عن التجنيد ثم يجند ، وان الحكومة قد امتدت يدها الى مال الأوقاف وهو مال الخير . وان الحكومة اشترت مرة دستجتين (دستتين) من مدفع جديد لتجربته وكان يكفى للتجربة مدفع واحد ، وان الحكومة دفعت مرة ١٥٠٠٠٠ جنيه لفرنسية خاطت لأميرة ثيابا (الخ) ...

واقترحت اللجنة لاصلاح هذه العيوب وغيرها تنظيم الضرائب وتحديد مواعيد جمعها ، وتنظيم حسابات الحكومة ، والفصل بين خزانة الخديو وخزانة الحكومة ، وربط ميزانية لا يُحاد عنها بحال ، واعداد مال احتياطى للطوارىء ، ودفع مرتبات الموظفين على اعتبار انهم « دائنون ممتازون » . وانشاء نظام قضائى عادل ، واصلاح نظام التجنيد .

(ب) وذكرت اللجنة « أن الحاكم الأعلى يتمتع بسلطة لا حد لها » واقترحت على الحاكم أن ينزل عن سلطته لهيئة من النظار تكون مسئولة

---

(١) يعلل بعض الفرنسيين تخلى دلسبس بأنه رأى فى التنقيب فى أعمال الخديوى وحكومته اساءة إلى الخديوى وهو صديقه ، ويقول غيرهم إنه تخلى لكثرة غيابه فى باريس

عن قراراتها ، ويرأس هذه الهيئة وزير مصرى ، وألا يتدخل الخديو فى أعمال الإدارة ، ولا يحضر اجتماع مجلس النظار حتى يكونوا فى مداولاتهم أحرارا ، ووافق الخديو على هذا الاقتراح وأصدر أمرا بتأليف أول نظارة مؤاخذة (٢٨ اغسطس ١٨٧٨) وعهد برآستها إلى نوبارباشا ، فجمع نوبار لنفسه فضلا عن الرآسة نظارتى الحقانية والخارجية ، واتخذ ولسن ناظرا للمالية (وهى دائما منبع الحياة والقوة فى النظارات) ، ورياضا باشا للداخلية ، فغضبت الدول الأخرى ، فعين دى بلنيير الفرنسى وزيرا للأشغال وعين عضو صندوق الدين النمسوى مساعدا لوزير المالية وعضو صندوق الدين الايطالى مراقبا عاما للحسابات

وهكذا نزل الخديو عن سلطته لوزاره مختلطة مسئولة لا أمام نواب الامة أو الخديو بل أمام حملة السندات (كما بينت الحوادث فيما بعد) وفى ذلك قضاء على استقلال البلاد والغيت المراقبة الثنائية الاولى وتعرف النظارة الجديدة بالنظارة الاوربية .

(ح) ونظرت اللجنة فى الاصلاح المالى فقررت : —

(أولا) أن ينزل الخديو للحكومة (فى مقابل مرتب يعين له) عن أملاكه الخاصة التى تعرف بالدائرة السنية والتى تبلغ نحو ٤٥٠٫٠٠٠ فدان والتى سبق رهنها للدائنين ، وأن ينزل الخديوى كذلك [1] عن أملاك أسرته وهى فى مثل هذا القدر تقريبا ، وان تدير هذه الأرض الأخيرة (التى تعرف بالدومين أو أملاك الميرى) لجنة مؤلفة من انجليزى وفرنسى

---

(١) يقول كرومر فى كتابه مصر الحديثة «إن من الخطأ أن تعتبر هذه الأملاك ملكا خاصا للخديو ، إذ اشتراها بأموال الحكومة واستغلها بأيدى السخرة ، ولما كان العجز قد أصاب الميزانية ، والدين السائر قد تراكم ، جاز انتزاع هذه الأرض لزرعها أو بيعها على ذمة الديون » . وقالت التيمس كلاما فى هذه المعنى

ومصرى، وقد نزلت الأسرة راضية عن أملاكها حبا فى توفير الراحة لرئيسها (اكتوبر ١٨٧٨) وانتاب اسماعيل الألم وقال « انهم يبغون القضاء على بتجريدى من ثروتى الشخصية وطردى بعد ذلك من مصر بفرمان من الباب العالى »

(ثانيا) قررت اللجنة عقد قرض جديد تضمنه أملاك الأسرة (الدومين) ويُسدد منه ماتراكم من الديون السائرة[1] ويُدفع منه ما ينتظر من العجز عن ١٨٧٨، وعقد القرض مع آل روتشيلد وقيمته الاسمية ٨,٥ مليونا من الجنيهات: وهكذا حذت اللجنة الأوربية (لجنة التحقيق) حذو اسماعيل فى الاقتراض وكانت من قبل تعيبه عليه

وقال الخديو لولسن بصفته نائبا عن اللجنة « ولتثقوا أنى سأعمل على تنفيذ القرارات، اذ لم تبق بلادى بعدُ جزءاً من افريقية بل صارت على الحقيقة بعضا من أوربة». ولا ريب ان الخديوى رغم ما قال حانق على نظام جرده من ملكه، وانتزع منه سلطة لا ليضعها فى يد نواب شعبه بل فى يد نظارة أظهر عناصرها أجانب عن البلاد

ظهور الرأى العام والروح الدستورية

لقد بدأ الرأى العام والروح الدستورية يظهران فى أواخر عهد اسماعيل لاسيما بين الطبقات المستنيره، ويرجع ظهورها الى عاملين أصليين:

(أولهما) ظلامات يشكو المصريون منها

(وثانيهما) عوامل لفتتهم الى ظلاماتهم وحرضتهم على ازالتها

ولقد المعنا فيما سبق الى هذه الظلامات، والآن نجملها: —

(١) فقدان العدالة: كان مشروع نوبار ينطوى على إيجاد محاكم

---

(١) تقدمت للجنة كشوف بدين سائر تراكم على الحكومة منذ ١٨٧٦ وهذا الدين قدره ٦,٢٦٧,٠٠٠، وتراكم هذا الدين طبعى لان تسوية غوشن-جوبير لم تترك للحكومة ما يكفيها

مختلطة تتسع دائرتها حتى تهيمن على الخديو والأوربيين والمصريين على السواء وتكون أغلبية القضاة فيها من المصريين وكان غرضه من ذلك القضاء على استبداد رجال الخديو من ناحية والقناصل من ناحية أخرى ، ولكن مشروع نوبار لم يتحقق الا جزء منه كما رأينا ، وظل القضاء المحلى فاسدا ، وظلت الادارة تقضى بين الناس فى أمور هى فى الواقع من اختصاص السلطة القضائية ، وكان رجال الادارة فى الأقاليم غالبهم أتراك مستبدون متغطرسون .

(٢) استبداد الحكام وغالبهم من الأتراك

(٣) الضرائب الفادحة : كانت تجبى لنفقات الخديو واصلاحاته ثم لديونه ويقول اللورد ملنر « كان الجابى يفتح الطريق للمرابى »

(٤) الجيش : كان للتجنيد قانون موضوع ، ولكنه أهمل وصار العمد والمشايخ يعفون محاسيبهم ومن يدفع لهم الرشوة (الخ)

وصارت المناصب الكبرى فى الجيش في يد الأتراك والشراكسة بعد ان أقصاهم سعيد باشا

(٥) استخدام الأجانب بدل المصريين في الاعمال والاصلاحات وفى الجيش أيضا (مثل صمويل بيكر وغوردون)

وتدخل الأجانب كذلك تدخلا فعليا فى شؤون البلاد عن طريق الدَّين وأصبح لهم نفوذ سياسى كبير ، هذا الى تمتع جالياتهم بامتيازاتهم التى تعفيهم من الضرائب وتحمى أسافلهم فى التهريب وغيره من الجرائم

(٦) اهمال مجلس شورى النواب واعتباره آلة فى يد الحكام (١)

---

(١) يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده « ومع أن اسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى فى مصر ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم وأن لهم رأيا يرجع اليه فيها . لم يشعر أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل تلك الهيئة الشورية . . . وهل يمكن

(٧) انشاء النظارة المختلطة

(٨) البؤس الذى حاق بالفلاحين فى أواخر عهد اسماعيل بعد ان ذاقوا حلاوة العصر الذهبي فى عهد سعيد

أما العوامل التى نبهت المصريين على ظلاماتهم وشجعتهم على ازالتها فهى : —

(١) تضعضع هيبة الخديو نتيجة لأمرين : (أولهما) تشهير الباب العالى به عند ما غضب عليه ١٨٦٩ لنزعته الاستقلالية ولافتراضه (وثانيهما) تشهير البعثات الأجنبية المختلفة (١٨٧٦ — ١٨٧٩) بمبادىء الحكم المطلق وسعيها فى إسقاط هيبة الخديوى فى أعين شعبه

(٢) اشتداد الحركة الدستورية نتيجة لعاملين (أولهما) قيام الحركات والنظم الدستورية فى أوربة فى القرن التاسع عشر ومن بينها حركة مدحت باشا فى تركيا (١٨٧٦) وانتقال أخبارها إلى مصر (وثانيهما) قدوم الأستاذ العظيم جمال الدين الأفغانى[1] إلى مصر سنة ١٨٧١ وتلقينه الناس ان الاستبداد ليس من الاسلام فى شىء وان خير دواء لأدواء الشرق هو انشاء الأنظمة الدستورية ، وطرح الجمود فى التفكير ، وقد كانت لآراء الأستاذ تأثير كبير فى تلاميذه ونخص بالذكر منهم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الذى يقول محدثا عن أثر أستاذه « وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد لاسيما القاهرة » ومن تلاميذ جمال الدين النابهين المغفور لهما سعد زغلول باشا والشيخ عبد الكريم سلمان

لشخص أن ينطق بما حدثه به فكره ، كلا فانه كان بجانب كل لفظ نفى عن الوطن وازهاق للروح أو تجريد من المال »

(١) ولد جمال الدين الأفغانى فى كابل فى بلاد الأفغانى ١٨٣٩ وتلقى دراسته العليا فى بخارى وساح فى الشرق وبث أهله مبادئه السامية ولا يتسع هذا الكتيب لشرح ترجمته الجليلة واثاره العظيمة

(٣) قلق المصريين على بلادهم من انجلترا ، خصوصاً عند ما استولت على قبرص وأصبحت تهيمن منها على مدخل قناة السويس .

(٤) ظهور الصحف الحرة واشتداد ساعدها ، نتيجة لتضعضع هيبة الحكومة ، ولتسرب الافكار الدستورية الى مصر ، وللقلق الشديد الذى خالط الكتاب من أجل بلادهم، ثم لمؤازرة الخديوى للصحافة لما افتات الاجانب على سلطته . وقد ساعدت تلك الصحف على تكوين رأى عام ، ومن بين هذه الصحف جريدة (ابو نظارة) وهى هزلية وكان يكتب فيها أحيانا الأستاذان جمال الدين ومحمد عبده ، وجريدة (مصر) وكان يكتب فيها جمال الدين أيضا وأصحابه ، وجريدة (الاهرام) وجريدة (الوطن) ، وقد بدأت هذه الصحف من أواخر ١٨٧٨ تكتب حاضَّة على تنظيم مجلس الشورى على قواعد أكثر حرية « لأنه » كما تقول الوطن « لا تصير الوزارة مسئولة الا به ، فانه ما معنى كون الوزراء مسئولين عن تصرفاتهم فى الحكومة بدون وجوده ، فهل المقصود ان انجلترا وفرنسا وأرباب ديون مصر تسائل الوزارة عن تصرفاتها »

ولقد كان لتجمع هذه العوامل ظهور روح دستورية قوية يقتاد زمامها فى المجلس عبد السلام المويلحى وفى خارجه شريف باشا بطل الحركة الوطنية التى جابهت الأجانب فى آخر أيام اسماعيل[1] ، وكان من أكبر الدستوريين محمود سامى البارودى وتوفيق باشا ولى العهد الذى كان على اتصال دائم بجمال الدين والدستوريين ووعدهم دستوراً اذا ما اعتلى العرش يوما ، ولقد يعجب الناس لاتفاق المصريين (كالبارودى) والأتراك المتمصرين (كشريف) رغم المنافسة القائمة أبداً بين العنصرين ، ولكن علة هذا الاتفاق ضجر العنصرين من العنصر الأجنبى

---

(١) كان شريف باشا من منشئ الحزب الوطنى فى هذا الوقت

اصطدام الحركة الدستورية والنظارة الاوربية

النظارة الأوربية والمراقبة الثنائية الأولى صنوان : كان من أثر لجنة التحقيق أن نُقل الحكم المطلق من يد الخديو الى يد النظارة الأوربية (وبالاحرى الى يد ولسن الانجليزى) وهذه النظارة كان أكبر همها العمل لصالح حملة السندات ، ومن أثر اللجنة أيضا انتزاع (الدومين) من أسرة الخديو لتكون ضمانا جديداً لحملة السندات علاوة على ما كان بين أيديهم من ضمان. أما من جهة فوائد الديون الفادحة فلم تبادر اللجنة الى انقاصها، لهذا بدأت النظارة الأوربية عملها على الأساس القديم المرهق الظالم ألا وهو تسوية غوشن — جوبير ، لذلك لا نعجب ان رأينا مسلك تلك النظارة صورة ثانية لمسلك المراقبة الثنائية . فالفلاحون لا يزالون ينوءون بثقل الضرائب حتى جاء مشايخ القرى زرافات الى القاهرة بعروضات يلتمسون فيها تخفيف الضرائب « ويعترضون النظار فى غدوهم ورواحهم » كما يقول مراسل التيمس ، والموظفون ما زالت تحبس عنهم رواتبهم رغم اشارة لجنة التحقيق، أضف اليه ان كثيراً منهم قد فصل عن عمله « لاجتثاث أعشاب الخميرة القديمة » كما يقول القنصل البريطانى ، وأُدخل الأجانب فى مناصب الحكومة زمرا ، والقرض الذى عقد مع آل روتشيلد بضمانة (الدومين) قد صرف فى وجوه منوعة فلم يبق منه لأرباب الديون السائره الا زُهاء ربعه ، ووقفت حركة الأشغال العامة وأغلقت مدارس كثيره ، وذوى ما كان قد أينع من مرافق الحياه . وقد شبّه قنصل السويد مصر اذ ذاك بضيعة كبيره يديرها الدائنون الذين لا يهمهم الا تسلم أموالهم غافلين عن اصلاحها وانماء مواردها حتى يصيبها الخراب فيصيبهم معها .

المعارضة في المجلس والصحف : اجتمع المجلس فى دور انعقاده العادى

فى ٢ يناير ١٨٧٩ بالقلعة ، وجاء فى رده على خطاب العرش فى ٦ يناير (انهم هم وكلاء الأمة والمدافعون عن حقوقها » واستمسك النواب بعد ذلك أن يكون النظار مؤاخذين أمامهم ، فلم يأبه هؤلاء بهم[1] وقامت جريدة الوطن فى ٢٥ يناير تشكو من « ان مجلس النواب الذى صار له الآن أكثر من عشرين يوما لم تعرض عليه مسألة هامة مالية ولا داخلية فكيف تكون الحكومة تقييدية بدون هذا المجلس »

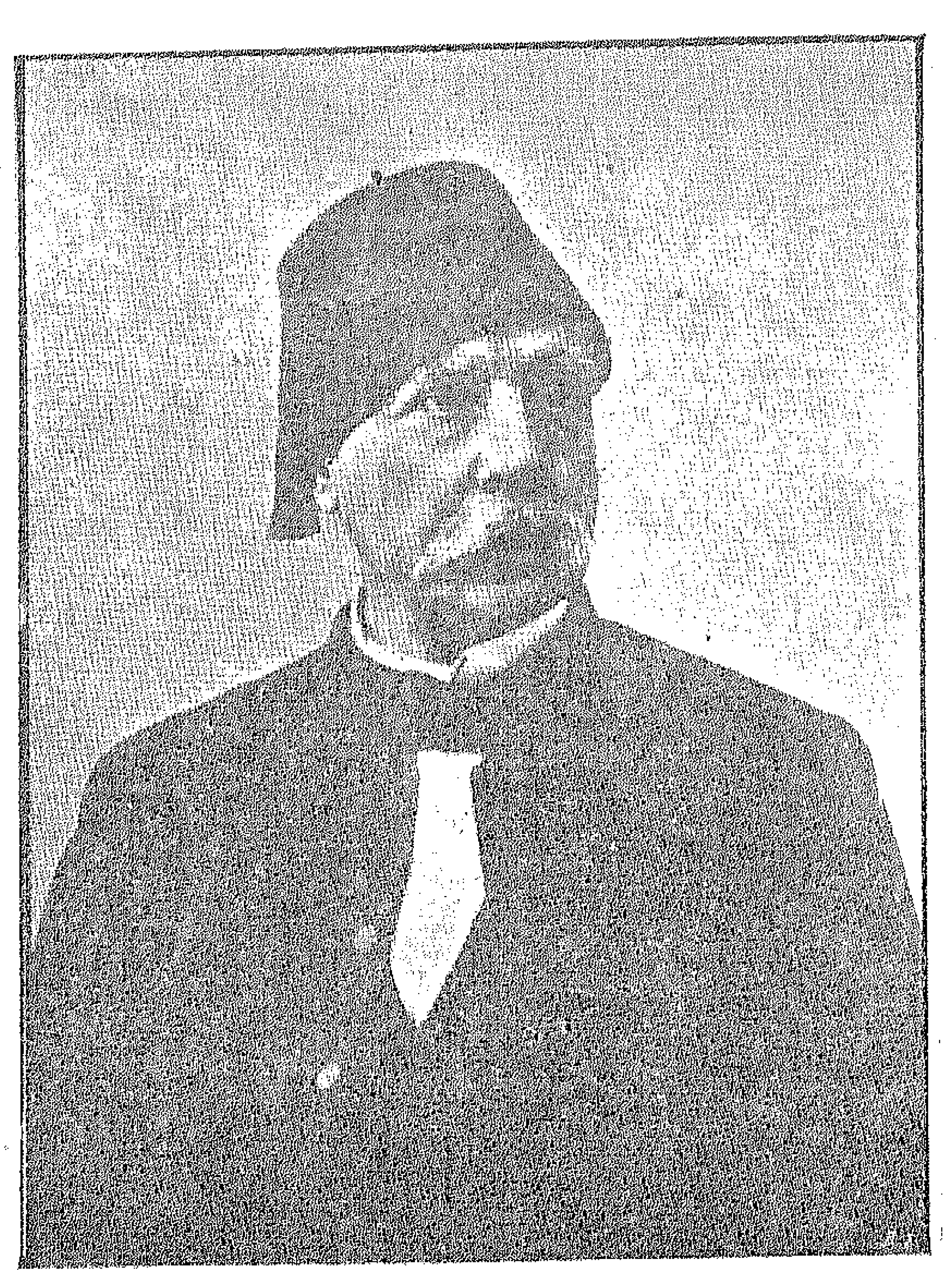
الضباط ينضمون للمعارضة (١٨ فبراير ١٨٧٩) : سارت النظارة على سنتها فى عزل الموظفين فسرحت ٢٥٠٠ ضابطا من ضباط الجيش بعد أن غبروا ثمانية عشر شهرا بغير أن يعطوا أرزاقهم[2] ودعى هؤلاء الضباط إلى القاهرة ليسلموا أسلحتهم ، فتجمعوا فيها ، وحدث أن كان نوبار باشا ذاهبا إلى الديوان فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ فاعترضوا سبيله وقطعوا رباط رقبته وضربوا بطربوشه الأرض وأوسعوه لكما وأقبل ولسن فى عربته « فنتفوا ذقنه وأشبعوه ضربا » وساقوا الرجلين إلى نظارة المالية وحجزوهما فى حجرة فلما نمى إلى الخديو الخبر ركب مع قنصل انجلترا إلى نظارة المالية ، وأطلق السجينين بعد مشادة بين حراسه[3] والضباط تعرض الخديو فيها للخطر وبعد أن وعد الضباط النظر فى ظلاماتهم .

---

(١) كان ولسن إذ أراد أن يباحث المجلس فى أمر أشخص إليه بعض النواب بدلا من أن يذهب هو إلى المجلس ، وكان إذا كتب إليه المجلس يستفسره أمرا من الأمور تلكأ . وإذا شكا النواب تلكأه لم يحفل بشكاتهم

(٢) تأخر أحد الضباط عن دفع ايجار مسكنه فشكاه صاحب المسكن فانزلته نظارة الحربية رتبه ، وخاف ضابط آخر أن يناله ما نال صاحبه فاكترى حمارا يركبه ، ثم تغفل المكارى وباع الحمار ودفع من ثمنه إيجار المنزل ثم أعطى المكارى ما بقى ولم يبال صياحه

(٣) ومع ذلك فان بعض الرواة يقولون بأن اسماعيل كان موعزا بهذه المظاهرة لرها فى النظارة



نوبار باشا

وكان نوبار [1] يرى أن ديون مصر ستوقعها حتما فى يد الأجانب وكان يفضل الانجليز على سواهم ، لهذا اتجهت جهوده منذ ١٨٧٦ إلى تقويض سلطة الخديوى وشد أزر الانجليز فمهد لبعثة كيف وعاضد العنصر الانجليزى فى لجنة التحقيق ، وهو الذى استمسك بألا يحضر الخديوى جلسات مجلس النظار : لكل هذا حق للخديوى أن يحمل الضغن له ، وينتهز فرصة مظاهرة الضباط ويعلن مندوبى الدول فى مصر بأنه لن يضمن السكينة العامة

(١) كان نوبار مسيحيا أرمنيا ولد فى أزمير وتعلم فى فرنسا وصار ناموسا لابراهيم باشا ثم لعباس باشا ثم صار مديرا للسكك الحديدية فى عهد سعيد ، واتهمه الناس بالتآمر على حياة الامير احمد فى حادث كفر الزيات ، وكان يعرف ١١ لغة ، وكان الاتراك لا يثقون به ولا بغيره من الارمن ويقولون « ارمنى فزير دفلت دوشار » وترجمتها « العفاء على دولة وزيرها ارمنى »

إلا إذا أعيد اليه نصيبه الشرعى من حكم البلاد بأن يُخول ترؤس مجلس النظار أو اختيار رئيس للمجلس يثق به ، وأصر على انسحاب نوبار من النظارة على الفور لما عرفه فيه من الكيد له ، فاستقال نوبار وجعل توفيق باشا ولى العهد رئيسا للنظاره (١٠ مارس) بشرط ألا يحضر الخديو بأى حال من الأحوال جلسات مجلس النظار وأن يكون للناظرين الأوربيين الحق المطلق فى وقف تنفيذ أى اجراء لا يوافقان عليه ، أى صار لهما حق الفيتو المطلق[١].

نتائج ثورة الضباط : (١) زادت سلطة الناظرين الأوربيين بمنحهما حق الفيتو (٢) لم يعاقب الضباط على فعلتهم بل اقترض ولسن بعض المال ودفع منه رواتبهم المتأخرة ، فاغتر الضباط بقوتهم ، وصاروا من ذلك الوقت قوة جديدة انضمت الى قوى المعارضة الأخرى (٣) وقعت مظاهرة الضباط فى جو مشحون بالتذمر والسخط فكأنها شعلة متقدة سقطت فى مستودع بارود[٢] ، فعقدت اجتماعات عدة نادى المشايخ والأعيان فيها بإلغاء الحكم الأجنبى ووجوب وضع دستور واسع الحرية ، وانضم الخديو إلى هذه الحركة لتعاونه على الأجانب الذين استلبوا سلطته خصوصا بعد أن حددت له لجنة التحقيق راتبا قدره ٣٠٠,٠٠٠ جنيه سنويا وهو راتب ضئيل إذا ما قيس بما كان له من قبل من ملك واسع وتصرف غير محدود فى مالية الدولة

نار السخط تزداد ضراما : حدثت فى أعقاب مظاهرة الضباط أمور أخرى زادت فى سخط المصريين منها : —

(١) كان على الحكومة أن تدفع قسطا فى أول ابريل ، ولم يكن لديها

(١) الفيتو Veto كلمة لاتينية معناها انا أرفض

(٢) ويقال إن اسماعيل باشا كان يحضر اجتماعات بيت البكرى ويقف فيها بين الناس فيدعو بالخير للأمة ويقرأ الفواتح لأولياء الله كأنه زعيم وطنى أو رئيس دينى (ص ٦٦ مقدمة بلنت ، ترجمة البلاغ)

المال المطلوب ، فقررت بالاتفاق مع لجنة التحقيق وصندوق الدين أن يؤجل هذا القسط الى أول مايو ، فغضب الخديو والعلماء والاعيان والمستنيرون لهذا التأجيل واعتبروه عاراً يلحق مصر ودليلا لايقبل جدلا على فشل الاوربيين رغم ما مكّنوا لأنفسهم فى البلاد ورغم ما استخلصوه من المال من يد الشعب المرهَق

(٢) كان قرار لجنة التحقيق قد شارف الانتهاء فى ذلك الحين ، وعرف الناس جل مافيه ، وكان هذا القرار يتضمن أشياء منها إلغاء دين المقابلة ، واعلان إفلاس البلاد منذ ٦ ابريل ١٨٧٦ ، ووجوب انقاص الفائدة الى ٥ ./. ، فكانت هذه الاشياء الثلاثة عناصر ملتهبة صُبت فوق نيران السخط المتأججة من قبل ، إذ الغاء المقابلة معناه ضياع عدة ملايين من الجنيهات هى دين للأهالى على الحكومة ، فى حين ان الأجانب لم ينزلوا عن شىء من ديونهم ولم يُهتضم لهم شىء منها ، واعلان الافلاس معرة ومسبة بعدما كان من سيطرة الأجانب على البلاد ثلاث سنين ، وانقاص الفائدة أمر نادى به اسماعيل صديق من قبل فلم يستمع لندائه أحد

لكل هذا هبت عاصفة من السخط داخل المجلس وخارجه فالمجلس قدم فى ٢٩ مارس ملتمسا الى الخديو يحتج فيه على النظارة التى تعتبر أعضاءه « كأنهم غير موجودين وتعاملهم بالامتهان » ويحتج مقدما على قرار لجنة التحقيق السابق ذكره ويبدى استعداده لوضع نظام مالى جديد اذا أخذ رأيه . وحدث أن ذهب رياض باشا الى المجلس ليفض دور الانعقاد فأبى الأعضاء أن ينصرفوا معلنين انهم لم يشتغلوا بعد إلا بامور جزئية ولقد شبههم مراسل التيمس بنواب الجمعية الوطنية الفرنسية في ٢٣ يونيه ١٧٨٩ يوم أمرهم لويس السادس عشر بالانصراف فأبوا ، كما شبه عبد السلام المويلحى زعيم المعارضة بميرابو

أما فى خارج المجلس فقد كتبت، فى ٥ ابريل مذكرة وطنية وقع عليها سبعون من العلماء فيهم شيخ الاسلام ووقع عليها بطريق الأقباط وحاخام اليهود كل عن طائفته ، وأمضاها عدد كبير من الباشوات والبكوات والاعيان والضباط ، وحوت هذه المذكرة مشروعا ماليا مخالفا لمشروع ولسن ولا يقتضى اعلان افلاس البلاد ، وجاء في المذكرة أيضا أمور منها المحافظة على حقوق الوطنيين والاجانب على السواء ، وتعديل قانون الانتخاب ليكون مماثلا لامثاله فى أوربة وأن يخول مجلس شورى النواب السلطة التى لامثاله فى أوربة ، وأن تعاد المراقبة الثنائية (وأعادة المراقبة الثنائية معناها حصر تدخل الاجانب فى دائرة مالية بحته ومعناها كذلك عزل النظار الاجانب لأن مرسوم أغسطس ١٨٧٨ يحتم اعادة المراقبة إن استُغنى عن الناظرين بغير موافقة دولتيهما)



شريف باشا

واشتد أزر الخديو بظهور المعارضـة القوية فى المجلس وخارجة وفى الصحافة، ودعا ممثلى الدول الأجنبية فى ٩ أبريل وذكر لهم (على مسمع من بعض وجوه المصريين أمثال المويلحى زعيم المعارضـة) آلام الأمة وأوضح لهم رغبتها فى نظارة وطنية بحتة مؤاخذة أمام مجلس جديد ينتخب وفق لائحة جديدة، وأخبرهم أن توفيق باشا قد استقال فعلا لأن الناظرين الأوربيين أهملاه، وأن شريفا باشا قد أسندت اليه النظارة وتكلم شريف باشا على النحو الذى تكلم به الخديو ومما قال « إن الأمة تعتقد أن سلوك الوزارة كان مهينا لنوابها وان اعلان افلاسها يلبسها عارا لن تمحوه الأيام وأنها مستعده لتضحية كل ما يلزم لاجتناب هذا العار» ثم قدم الخديوى للقناصل العريضتين اللتين قدمهما اليـه النواب (فى ٢٩ مارس) والعلماء والأعيان (٥ ابريل) كما قدم لهم صورة من المشروع المالى الذى ابتدعه الأعيان

نظاره شريف الأولى . ألف شريف النظارة من العناصر الوطنية البحتة وأقال الخديو الوزيرين الاوربيين وطلب اعادة المراقبين، ولكن انجلترا وفرنسا رفضتا الاعتراف بوزارة شريف واستمسكتا باعادة الوزيرين فارسل شريف باشا الى قنصليهما فى ٤ مايو مذكره جاء فيها « أن وجود العنصر الاجنبى فى وزارة مصرية لا يتفق والشعور الوطنى بحال من الأحوال ويُعتبر سابقة من أخطر السوابق لا يصح الرجوع اليها »

أما لجنة التحقيق فقدمت تقريرها فى ١٠ ابريل، وذكرت فيه أن الحكومة المصرية مفلسة منذ ٦ ابريل ١٨٧٦ وأنه يجب نقص فائدة الديون الى ٥٪ « واتخاذ طرق غير الطرق الوهمية التي اتخذت حتى ذلك الحين» وأنه يجب كذلك ألا تدفع الحكومة شيئا من الرزنامة والمقابلة، وقدمت اللجنة استقالتها فقبلها الخديو فى ١٢ ابريل، وبعد عشرة أيام أصدر أمرا عاليا بتنفيذ المشروع المالى الذى ابتدعه الأعيان، فغضب أعضاء صندوق الدين ورفعوا قضية على

الحكومة المصرية واستقال منهم بيرنج (كرومر)، كما استقال كثير من الموظفين الاجانب

وقامت نظارة شريف تجد فى الاصلاح، وأعدت دستورا جديدا وقدمته للمجلس (١٧ مايو) ليفحص عنه وكان كما تقول صحيفة مرآة الشرق «على أحسن قواعد الشورى وأحكم أساس الحرية» وينص هذا الدستور على أن أعضاء المجلس النيابى ١٢٠ بما فيهم نواب السودان، وأن النظار مسئولون أمام المجلس، وأن للنواب الحصانة البرلمانية، غير أن الاجانب لم تتسع صدورهم لمثل هذا الدستور الذى لا يمكن أن تقوم لهم مطامع بجواره

عزل الخديوى — لكل هذا فار فائر إنجلترا وفرنسا وعزمتا التخلص من اسماعيل، فارسلتا اليه بلاغا فى ١٨ يونية تنصحان له بالنزول عن عرش مصر ومغادرتها، وفى نظير ذلك تضمنان له راتبا لائقا وتولية توفيق باشا على حسب ما يقتضيه نظام الوراثة، وهددتاه بالحرمان من الأمرين إن هو أعرض عما نصحتا به، فلم يحفل اسماعيل بنصحهما وتهديدهما معتمدا على التأثير فى الباب العالى، فولت الدولتان وجههما شطر الباب العالى وسألتاه عزله، فاجاب سؤلهما لانه خشى إن هو عصاهما أن تتقدما بنفسيهما وتعزلاه فيفقد بذلك ما بقى له من سيادة اسمية على مصر، وأراد أن يغتنم هذه الفرصة ليستعيد الامتيازات التى مُنحت اسماعيل فى فرمان ١٨٧٣ فرشح لمصر حليما باشا بن محمد على أكبر أفراد الأسرة مُريدا بذلك ارجاع نظام السن الكبرى كى يهدم فرمان ١٨٧٣ الذى يقضى بتولية أكبر أولاد الخديوى

ولكن فرنسا وانجلترا[1] رفضتا هذا الترشيح وألزمتا السلطان تولية توفيق، وذلك حتى لا يستعيد سيادته الفعلية على مصر، وأرسل السلطان فى ٢٦ يونيه برقية الى اسماعيل يعلن فيها عزله بدعوى «ان سلطته الاستبدادية هى السبب الأكبر فى فساد النظام» والحق الذى لا مراء فيه ان الأجانب لم

(١) عارضت انجلترا بشدة فى تولية حليم باشا لانه صديق فرنسا

يطيقوه بعد ما وضح لهم من معاضدته الحركة الدستورية التى تهدد مطامعهم
وتقبل اسماعيل[1] العزل صابرا وسافر الى ايطاليا، واننا نودعه بما يقوله عنه صاحب المسألة المصرية « اذا كان نصيبه المؤاخذة فماذا عسى أن يكون نصيب الماليين والمربين الذين اوقعوه فى حبائلهم ؟ وماذا عسى أن يكون نصيب الحكومات التى ساعدت هؤلاء فى القبض عليه حيا اذا صح ذلك التعبير؟ »

أما مجلس شورى النواب فاجتمع فى ٥ يوليه ولكن نظارة المالية أبلغته انها لا تستطيع أن تقدم اليه لوائح ولا قوانين الا بعد زمن طويل فلم يجتمع الا بعد عامين ونصف

وقد كان من الميسور جدا أن تحل أوربة المعضلة المالية حلا شريفا عادلا منذ ١٨٧٦ بأن تجعل الرقابة على المالية دولية بحتة لا تنفرد بها دولة ولا تستأثر بها دولتان كانجلترا وفرنسا ، وأن تنقص فائدة الديون قبل أن يقطع الدائنون اللحم من جسم البلاد ، وأن تنمى موارد البلاد حتى تستمر البلاد قادرة على الدفع ، وان تعاضد الحركة الدستورية (بدلا من محاربتها) حتى تشرف على اصلاح البلاد ، وأن تتنزه الدول عن المطامع السياسية التى أخذت تنحدر بالبلاد إلى الحضيض حتى أوقعتها فى يد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢

---

(١) دعا اسماعيل ولده توفيقا باشا وقبل يده وجبينه قائلا « إننى أسلم على أفندينا » وأراد اسماعيل أن يقطن بالآستانة أو أزمير ولكن السلطان عبد الحميد أبى عليه ذلك خشية أن يدس له ومثل هذا الخوف والقلق طبعى فى نفوس المستبدين ، وودع اسماعيل أسرته وقال لتوفيق باشا وهو يودعه « اتبع ذوى شوراك وكن أسعد حالا من أبيك » وامتطى يخته المحروسة إلى نابلى حيث وضع الملك أمبرتو قصرا تحت تصرفه ، وأراد اسماعيل أن يحتفظ بيخته فهددته حكومة مصر بقطع ثمنه من راتبه ، ثم زار عواصم أوربة يسعى لاسترجاع عرشه فلم يوفق ، ثم قل ماله وطلب إلى السلطان أن يسمح له بسكن الآستانة فقبل السلطان هذه الفكرة ووضع حوله نطاقا من الرقابة وتوفى اسماعيل فى ٨ مارس ١٨٩٥ فى الاستانة ونقل رفاته إلى القاهرة فى ليلة مثلت فيها رواية عائدة بدار الاوبرا ، وتلك مصادفة مؤلمة كان من اللياقة ألا تكون

محمد توفيق باشا ١٨٧٩ - ١٨٩٢

كان محمد توفيق باشا طيب القلب وديعا وكان يحب الخير لبلاده ، ولكنه لم يرزق عزما قويا ولا حيلة واسعة ، وورث فوق ذلك عرشا قائما وسط سخط الشعب وتذمره ومحاطا بالأجانب أصحاب المطامع والنفوذ الكبير ، وحسبه دليلا على نفوذهم أنهم قلعوا أباه عند ما اعترض سبيلهم



توفيق باشا

تقرير العلاقة بين الخديوى والباب العالى : كان الباب العالى يريد أن يسترد سلطته الفعلية على مصر بأن يسترد بعض الامتيازات التى منحت اسماعيل فى فرمان ١٨٧٣ ، ولكن فرنسا وانجلترا انكرتا عليه ما أراد حتى لا يفقدا نفوذها ومطامعهما ، وأوجبتا اطلاعهما على الفرمان الجديد قبل

اصداره، وتم لهما ما أرادتا وأرسل الفرمان الجديد إلى توفيق باشا في ٣٠ يولية وحوى أمرين بارزين

(١) ألا يزيد الجيش على ١٨٫٠٠٠ وقت السلم

(٢) ألا تقترض مصر إلا بموافقة الدائنين الحاليين وبشرط أن يكون الغرض من هذا الاقتراض تسوية الحالة المالية الحاضرة (وهذا الامر معناه أن الباب العالى اعترف للأجانب بحق اشرافهم على مالية مصر)

نوع الحكومة وأصبع الاجانب فيها : كان توفيق باشا معروفا في عهد أبيه بمبادئه الدستورية ، ولما ولى العرش استقال شريف باشا كالعادة المتبعة، ثم دعى في ٢ يوليه لتأليف النظارة من جديد ، فألفها وأرسل إليه الخديوى في ٣ يوليه تصريحا يقول فيه « ولعلمى أن الحكومة الخديوية يجب أن تكون شورية ونظارها مسئولين، فانى اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا أتحول عنه فعلينا تأييد شورى النواب وتوسيع قوانينها ». فوضع شريف لائحة دستورية تكاد تكون هي اللائحة التى وضعت آخر عهد اسماعيل ، وعرضها على الخديوى فرفضها بحجة أن حال البلاد لا يلائمها إذ ذاك حكم دستورى وأن الدستور الذى وضعه شريف لن يكون إلا « زينة مسرحية » (١) فدهش شريف واستقال آسفا كاسف البال (١٨ أغسطس) . ولا شك أن الانقلاب العاجل الذى حدث في سياسة توفيق يرجع إلى إشارة انجلترا وفرنسا اللتين عزلتا أباه من قبل عند ما ناصر الحركة الدستورية . ولا عجب من أمرها فمطامعهما جراثيم تبيدها شمس الروح الدستورية .

وانفرد توفيق بالحكم ولم يفكر حتى في إعادة مجلس شورى النواب.

---

(١) يقول كرومر في كتابه مصر الحديثة في ص ١٥٢ جزءا كلاما بهذا المعنى



رياض باشا

ذى السلطان المحدود والنفوذ الضيق وألغى منصب رئيس النظارة وصار برأسه هو ، ولكن لم يمض أ كثر من شهر حتى أشار عليه القناصل باسناد رآسة النظارة لرياض باشا فاسندها إليه محتفظا لنفسه بحق رآسة المجلس كلما شاء . وكان رياض باشا خير من يُتخذ اداة للحكم المطلق لِمَا رُكّب فيه من الصلف والغرور والاستبداد والاستمساك بالقديم ، فأخذ من فوره يتجسس أنصار الدستور ويراقب صحفهم ويقيد ألسنتهم وأقلامهم ومع ذلك كله فله من الاصلاح مالا ينكره عليه أحد . فمن ذلك أنه الغى بعض الضرائب البغيضة (كالضريبة الشخصية ورسوم الجمارك الداخلية) وحرم استخدام (الكرباج) اداه فى جمع الضرائب .

واعيدت المراقبة الثنائية (٤ سبتمبر ١٨٧٩)وحضر المراقبان فى نوفمبر وهما بيرنج (كرومر) وبلنير،وكان الاول أعلى كعبا وأطول باعا من الثانى فى

فنون الدهاء . وفي ١٥ من نوفبر صدر مرسوم يحدد اختصاص المراقبين ومما جاء فيه « ان المراقبين يكون لهما من الوجهة المالية أوسع السلطات في التفتيش على جميع المصالح والادارات العامة » وجاء فيه أيضا « أن يكون لهما الحق فى حضور جلسات مجلس الوزراء ويكون لهما فيه رأى استشارى » وجاء فيه كذلك « انه لا يمكن اقالتهما من وظيفتهما الا بموافقة حكومتيهما » والفرق بين المراقبة الثنائية الأولى والمراقبة الثنائية الثانية ان الأولى كان الخديو يستطيع الغاءها أما الثانية فكانت أمنع من أن تنال منها يده ، وان الأولى كانت مالية بحتة ، أما الثانية فكانت بتفتيشها جميع المصالح وباشتراكها في مجلس النظار تملك ناصيتى المال والسياسة معا حتى لقد سماها بعضهم بالحماية الثنائية ، وقد ضاقت انجلترا ذرعا باشتراك فرنسا معها فى تلك الرقابة المالية السياسية ، فقامت تعمل على التخلص منها حتى وفقت باحتلالها مصر ١٨٨٢ .

وكان قد تألف فى آخر عهد اسماعيل حزب وطنى ضم كثيرا من رجالات مصر علماء وأعيانا وضباطا وموظفين ، وكان غرض هذا الحزب إنقاذ الوطن مما حاق به ، وكان رجال هذا الحزب يرجون الدستور والاصلاح على يد توفيق ، فخاب رجاؤهم فيه ، فاخذ السخط منهم وقاموا يتلمسون السبل لتحقيق ما يرجون .

كذلك تألف فى آخر عهد اسماعيل حزب عسكرى من أظهر زعمائه أحمد عرابى وعلى الروبى ، وكان هذا الحزب يشكو أمرين (أولهما) أن سعيدا كان صاحب اليد البيضاء على الضباط المصريين فلما جاء اسماعيل خص المتمصرين من الاتراك والشراكسة بعطفه ورعايته — لأنهم مماليكه ومماليك أسرته كما يقول عرابى — وحباهم بالرتب والنياشين والمال الكثير والاراضى الواسعة والجوارى الحسان ، وظل الاتراك والشراكسة على نعمائهم فى عهد توفيق وصار أحدهم عثمان رفقى باشا ناظراً للجهادية ، وظل الضباط المصريون

مغمورين محرومين كبرى المناصب، وكانوا أحيانا يسامون الخسف[1] ويجرعون كأس الهوان (وثانيهما) أن مرتبات الجنود كانت جد ضئيلة تتراوح ما بين ١٩ قرشا للجندى (النفر) و ٣٠ قرشا للصول ، وكان طعامهم الفول والعدس، وكانوا يسخرون في الأعمال العامة .

ولما وجد الحزب العسكرى أن حكومة توفيق باشا لم تُعن بازالة أسباب شكواه اعتزم الدفاع عن مصالحه وشجعه على ما اعتزم التوفيق الذى أصابه عند ماقام فى وجه نوبار وولسن (مظاهرة ١٨ فبراير) ويقول مؤلف كتاب المسألة المصرية « لما كان الجيش هو الهيئة الوحيدة التى لا تزال بعيدة عن المراقبة والتى أوتيت القدر الضرورى من النظام والقوة كان لابد أن يتجمع حوله استياء الأمة عاجلا أو آجلا ليعبر عن نفسه تعبيرا مفيدا »

قانون التصفية : كانت باكورة أعمال المراقبين استصدار أمر عال بانشاء لجنة لتصفية المسائل المالية رئيسها ريفرز ولسن ، وهذه اللجنة هى فى الواقع لجنة التحقيق التى استقالت فى عهد اسماعيل، وما من فارق بينهما إلا أن لجنة التصفية حوت مندوبا المانيا لم يكن في لجنة التحقيق ، وأصدر الخديو أمرا عاليا بتنفيذ ما قررته اللجنة ويعرف هذا الأمر بقانون التصفية (١٧ يونيه ١٨٨٠) واعتُبر جزءا من القانون الدولى ، واشتمل على ٩٩ (بندا) نلخص أهم ما جاء فيه فيما يلى : — (١) أن تنقص فائدة الدين الموحد من ٧٪ الى

---

(١) ضرب عثمان بك الامير الاى الشركسى ضابطا مصريا فى رتبة الملازم الأول فشكا الملازم فلم ينصف ، فنزل عن رتبته وصار (نفرا) حتى لا يكون ضابطا هزأة فاعتبر عمله تمردا وأعدم ، وتروى حادثة أخرى وهى أن قائمقام مصريا مرض فى حرب الحبشة فلم يشأ اسماعيل باشا الشركسى أن يأذن له فى ملازمة الفراش وقوض الخيمة فوق رأسه وأمره أن يرافق الجيش على قدميه فأطاع ولكنه تأخر عن الجيش إعياء فأنزله الشركسى (نفرا) ثم قضى باعدامه

٥ ٪ (من هذه الخمسة أربعة فائدة وواحد قسط استهلاك أى انه يسدد ١ ٪ سنويا من أصل الدين) (٢) أن يقدر ايراد مصر بمبلغ ٨٥٥٧٠٠٠ جنيه سنويا ، واذا زاد الايراد على هذا المبلغ يخصص كل المال الزائد لاستهلاك بعض سندات الدين الموحد (٣) أن يعقد قرض جديد بمبلغ ٥٦٠٠٠٠٠ جنيه تضاف للدين الممتاز لأداء ما تراكم من الدين السائر ، فيصبح الدين الممتاز بذلك ٢٢٥٣٠٠٠٠ جنيه

(٤) كانت المبالغ التى دفعها المصريون باسم المقابلة ١٧ مليونا من الجنيهات فلم تعترف اللجنة الا بتسعة وقررت أن أصحاب التسعة الملايين لا يعفون من نصف الضريبة كما كانوا ينتظرون ، بل تدفع الحكومة لهم ١٥٠٠٠٠٠[1] جنيه سنويا لمدة خمسين سنة وتوزع عليهم بنسبة مالهم فى هذا الدين (وهذا المبلغ لا يعادل أكثر من ١⅔ ٪ من تسعة الملايين فائدة واستهلاكا)

(٥) قدر مجموع ديون مصر بأكثر من ٩٨¼ مليونا ، وأرباح الدين الموحد والممتاز نحو ٣٩٤١٠٠٠٠ أما أرباح ديون الدائرة السنية والدومين فتقوم بها هذه الأراضى ، وتسدد الحكومة العجز إن وُجد

نقد هذه التسوية : (١) أحسنت اللجنة صنعا بنقص فائدة الدين الموحد إلى ٥ ٪ ولقد رفض الدائنون عام ١٨٧٦ أن يجعلوا الفائدة ٥ ٪ لأنهم أرادوا « رطل اللحم كاملا » أما الآن فقبلوا لأنهم تحققوا أن جشعهم سيخرب البلاد فلا ينالون الرطل ولا بعض الرطل ، ولو قبلوا من البداءة لوُفر على مصر ويل كثير (٢) أرصدت اللجنة كل ما زاد عن ايراد مصر المقدر لاستهلاك سندات الدين الموحد ، وكان يجب أن يرصد الزائد لاقامة المشروعات العامة (كالرى) التى تعود بالخير على الدائن والمدين وكان

(١) نصيب كل دائن من المائة والخمسين ألف الجنيه يخصم فى (ورد المال) مما على الدائن من الضرائب

من أثر ذلك أن الحكومة بعد أن تدفع من ايرادها المقدّر أرباح الديون وجزية الباب العالى وأرباح أسهم قناة السويس لا يتبقى لها غير أربعة ملايين وهو قدر لا يكفى لأعمال الادارة والاصلاحات، وتقول التيمس ان الادارة « قد قتلت جوعا »

(٣) اهتضمت اللجنة للمصريين ثمانية ملايين من دين المقابلة بحجة أن هذه الثمانية الملايين وهمية لا أساس لها من الصحة، فى حين أن اللجنة لم تهتضم لأجنبى شيئا وفوق ذلك فقد احتسبت للمصريين فائدة لا تذكر بالقياس إلى الفائده التى تحتسب للأجانب

الثورة العرابية

أسبابها البعيدة : نجدها فى عهد اسماعيل وتنحصر فى : — (١) الظلامات التى شكا المصريون منها (٢) العوامل التي لفتتهم إلى هذه الظلامات وحرضتهم على ازالتها (٣) وقوف الدول فى وجههم وعزلهم اسماعيل عند ما أرادوا ازالة هذه الظلامات

أسبابها القريبة : نجدها فى عهد توفيق وتنحصر في : — (١) استمرار تدخل الاجانب فى شئون البلاد حتى حولوا توفيقا عن مبادئه الدستورية وأشاروا عليه بأن يستوزر رياضا الرجعى (٢) تسيطر الاتراك والشراكسة فى الجيش على المصريين

أسبابها المباشرة : اصطدم المصريون فى الجيش بالاتراك والشراكسة فنصر الخديوى الاتراك والشراكسة بإيعاز من الأجانب الذين رأوا فى فى هذا الاصطدام فرصة للوقيعة بين الخديوى وشعبه حتى يغضب ذلك الشعب ويثور فيتدخلوا بحجة تسكين البلاد

ويمكننا أن نرجع أسباب الثورة البعيدة والقريبة والمباشرة الى عامل رئيسى واحد هو تدخل الاجانب



أحمد عرابى باشا

احمد عرابى : تنسب الثورة الى زعيمها احمد عرابى وهو ابن شيخ قرية « هرية رزنة » من الشرقية بالقرب من الزقازيق، وينتمى نسبه الى الامام الحسين ، وتعلم احمد فى مكتب القرية ثم درس فى الأزهر ، ولما ولى سعيد أمر بلم أولاد مشايخ البلاد ليلحقهم بالجندية ، فكان من بينهم احمد عرابى ، وحاز رتبة الملازم الثانى بعد أداء امتحان خاص ، وبلغ رتبة (القائمقام) فى عهد سعيد ، وظل فى هذه الرتبة طوال عهد اسماعيل

لهذا نراه مادحا لسعيد قادحا لاسماعيل، وتألف الحزب العسكرى فى آخر عهد اسماعيل (كما ذكرنا) وكان يجتمع سراً برآسة على الروبى ويتباحث فى الدفاع عن العنصر المصرى فى الجيش ولكن لم يلبث عرابى أن صار بجرأته وفصاحته أظهر رجال ذلك الحزب ، ولما ولى توفيق رقى عرابيا إلى رتبة أميرالاى وعينه أميرا للآلاى البيادة الرابع بالعباسية

عرابى ورفقاؤه يدافعون عن الجيش . لقد كان من استياء الجيش ما قدمنا

واختار الضباط عرابيا للدفاع عن مصالحهم ، فأعد (عريضة) فى ١٥ من يناير ١٨٨١ وقع عليها هو وعبد العال بك حلمى أمير الآلاى السودانى (المعسكر فى طره) وعلى بك فهمى أمير الاى الحرس الخديوى ، وقدمت العريضة إلى الخديوى وكانت مفرغة فى لهجة جافة وحوت مطالب ثلاثة هى : --
(١) عزل عثمان رفقى ناظر الجهادية لأنه يعامل المصريين « كما لو كانوا أعداءه » ولأنه « ليس كفؤا لمثل هذا المنصب الخطير » (٢) إصلاح الأنظمة العسكرية إصلاحا يجعل المصريين والاجناس الأخرى فى الترقى سواء (٣) تأليف مجلس للنواب للنظر فى مصالح الأمة [١]

وتقبل الخديو هذه العريضة بالعطف ، ولكن رجال السراى وهم أتراك وشراكسة نقموا على من وقعها ، ورأوا وقفهم ومحاكمتهم ، وأحيلت العريضة من ديوان المعية إلى مجلس النظار ، وكان من رأى رياض باشا وعلى باشا مبارك معاملة الضباط الثلاثة بحكمة ويكتفى بنقلهم من العاصمة حتى تهدأ الحال ، ولكن عثمان رفقى وبعض النظار الشراكسة تشبثوا بايداع الضباط الثلاثة السجن ومحاكمتهم وتغلبوا على رياض ومبارك لاسيما أن رجال السراى يشدون أزرهم ، واحتاط رياض فى القرار الذى صدر إذ جعل تبعة تنفيذه على ناظر الجهادية نفسه ، وتأخر التنفيذ أربعة أيام حتى يتم الاحتفال بزفاف شقيقة للخديو ، وفى خلال هذه الأيام الأربعة بلغ عرابيا ورفيقيه ما قرر بشأنهما وممن اتهم بتبليغ هذا الخبر دى رانج قنصل فرنسا إذ كان شديد العطف على عرابى وأعوانه ، لذلك أخذ الثلاثة حذرهم وأعدوا العدة سلفا لانقاذهم ثم قبض عليهم فى يوم

(١) يذكر عرابى فى مذكراته حديثا جرى بينه وبين رياض باشا بخصوص هذه العريضة قال فى خلاله رياض « ليس فى مصر من هو أهل لأن يكون عضوا فى مجلس النواب » فقال عرابى « انك مصرى وباقى النظار مصريون والخديوى أيضا مصرى أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقمت »

السبت (أول فبراير ١٨٨١) وسُجنوا فى ديوان الجهادية (بقصر النيل) ومر بهم وهم فى سجنهم أحد القواد الشراكسة ونهرهم قائلا عبارة بالتركية معناها « فلاحين شغالين بالمقاطف » ولكن لم تمض ساعة على سجنهم حتى جاءت بعض الجنود فى حماسة شديدة ففر رجال المجلس الذى أعد لمحاكمتهم وأخرج الجنود رؤساءهم المسجونين ثم ساروا إلى ثكناتهم يدقون الطبول، وأظهر عرابى وزميلاه رغبتهم فى التماس الصفح من الخديو، وعاضدهم فى ذلك محمود سامى البارودى ناظر الاوقاف، وأظهر الشراكسة فى المعية والنظارة خورا وجبنا، أما رياض فكان من رأيه عقاب هؤلاء المتمردين ولو أدى الامر إلى سفك بعض الدماء حتى لا تسقط هيبة الحكومة فتسود الفوضى، ولكن لم يؤبه لرأيه هذه المرة أيضا، وصفح الخديوى عن عرابى ورفيقيه وعزل عثمان رفقى وأرسل إلى الضباط أن يختاروا ناظرا للجهادية يثقون فيه، فاختاروا البارودى، وتقدموا إلى الخديو يقدمون واجب الطاعة والحمد على ما أولاهم من صفحه وعطفه، وكونت لجنة من أعظم الضباط مصريين وأتراك وشراكسة وأمريكان وطليان وألمان لوضع نظام عادل للجيش، وصار كما يقول عرابى « يُطبخ للعساكر فى أكثر الاحيان أرز بلبن وحلوى ولحم وأنواع الخضر بدلا من الفول والعدس الدائمين ويعطى للعساكر السودانية مشروب من البوظة المصنوعة من الشعير على حسب عادتهم »

وهكذا فاز الجيش للمرة الثانية (وفوزه الاول يوم أن اعتدى على نوبار وولسن)

نتائج فوز الجيش (١) حنق الاتراك والشراكسة على زعماء الحزب العسكرى وبدأوا ينصبون لهم المكايد ويرقبون فرصة تخلصهم من صفيهم البارودى (٢) بدأ أنصار الدستور يشعرون أن لهم في الجيش قوة وتكأة

فترامت إلى عرابى الآمال وأصبح «الرجل الوحيد» (٣) زاد اغترار الجيش بقوته

دسائس الشراكسة حتى ٩ سبتمبر: لعرابى مذكرات طبعت حديثا وتسمى «كشف الستار عن سر الاسرار» ويذكر فيها طائفة كبيرة من المكايد(١) التى كانت تنصبها حاشية الخديوى الشركسية لزعماء الحزب العسكرى فمنها بث العيون عليهم وارسال القتلة فى أعقابهم للقضاء عليهم، ومنها ارغام البارودى على تقديم استقالته إثر حادثة هى . —

حدث فى ٢٥ يوليه ١٨٨١ فى الاسكندرية ان عجلة (عربة) صدمت جنديا فقتلته، فحمله رفاقه متظاهرين الى قصر رأس التين رغم أنف رؤسائهم وطلبوا الى الخديو ذاته معاقبة صاحب العجلة، فغضب الخديو اذ اعتبر عملهم هذا تهجما قبيحا على مقامه، وكان الواجب عليهم أن يلجئوا فى ذلك الأمر الى رؤسائهم، لذلك ألف مجلسا عسكريا لمحاكمة زعماء المتظاهرين، وحكم على بعضهم أحكاما رآها عبد العال بك حلمى أمير الآلاى السودانى قاسية فقدم الى البارودى مظلمة بخصوص قساوة هذا الحكم وطلب اليه ان يرفعها الى الخديو ففعل، فغضب الخديو واتهم البارودى بمالأة زعماء الجيش (أى زعماء الحزب العسكرى) وانتهى الأمر بإرغام البارودى على تقديم استقالته، ونُصّب مكانه داود يكن باشا وهو من أقرباء الخديو، وكان رجعيا شديد الوطأة على زعماء الجيش، وراجت اشاعات أن الحكومة تعتزم تشتيتهم إضعافا لشأنهم وانها استفتت شيخ الاسلام فى قتلهم

مظاهرة ٩ سبتمبر ١٨٨١، عزم الحزب العسكرى على اقامة مظاهرة ليحقق بها أغراضا ثلاثة هى :

---

(١) يقول عرابى «نفيت الست عائشة الكوديا التى كانت تبخر الخديوى وملابسه وتتلو عليه العزائم والتمائم إلى جدة جزاء نصحها له بالكف عن الدسائس والتماسها موافقته على اجراء الاصلاحات الوطنية بصفاء نية وخلوص طوية»

(١) اسقاط وزارة رياض المستبدة (٢) ابلاغ الجيش إلى ١٨،٠٠٠ والموافقة على الاصلاحات العسكرية التي وضعتها اللجنة التي ألفت من قبل
(٣) تأليف مجلس النواب

وقد دفع العرابيين الى طلب هذه الأغراض وشجعهم عليها أمور هي :

(١) ان الخديو لم يكن راضيا[1] عن رياض الذي كان يحاول تحديد سلطته (أي سلطة الخديوى) وقصر عمله على امضاء الأوامر والمراسيم التي تصدرها النظارة (٢) كان زعماء الجيش يشعرون بالقلق على نفوسهم ومناصبهم ما دام نظام الحكم يحف به استبداد رياض من ناحية، وتسلط الشراكسة ودسائسهم من ناحية أخرى (٣) كان سلطان باشا وغيره من رجال الحزب الوطني وبعض المديرين أمثال سليمان أباظه مدير الشرقية وحسن الشريعي مدير المنيا ، يجتمعون بزعماء الحزب العسكري سرا ويتذاكرون معهم في شأن البلاد ، وأنابوا عنهم عرابيا في المطالبة باسقاط وزارة رياض وتأسيس حكومة شورية ، وكان سلطان باشا هو الذي استخلص من الأعيان والنواب والعلماء هذه الانابة كتابة : لكل هذا قرر زعماء الجيش اقامة مظاهرة عسكرية في الساعة العاشرة من ٩ سبتمبر أمام قصر عابدين ، وأبلغ عرابي الخديوى والقناصل خبر المظاهرة وأمنهم على الأجانب

وحاول الخديوى — أو على الأصح تظاهر بأنه يحاول - منع المظاهرة قبل حدوثها فلم يستطع ، واجتمع المتظاهرون أمام قصر عابدين وأشرف الخديوى على المتظاهرين من[2] (السلاملك) ودار بينه وبين عرابي حديث.

---

(١) عن عرابي وبلنت وابراهيم الهلباوى وكرومر ، ويقول بلنت إن الخديوى هو الموعز للضباط أن يقوموا بمثل هذه المظاهرة وإنه قال لعلى فهمي بك « أنتم الثلاثة — عرابي وعبد العال وأنت — جنودى ، وأنتم أربعة بانضمامى إليكم »

(٢) لقد استطاع الخديوى أن يؤثر في حرسه الخاص فلم يشترك في المظاهرة وذهب بعد ذلك إلى القلعة وطلب إلى آلايها ألا يشترك في المظاهرة وقال للبكباشي

عنيف ، ثم دخل القصر ، وأتم الحديث كوكسن (Cookson) قنصل انجلترا في الاسكندرية والقائم بأعمال مالت (Malet) قنصل انجلترا العام في مصر الذى كان غائبا عن مصر ، وأسفرت المفاوضة عن قبول المطلب الأول وهو اسقاط نظارة رياض ، أما زيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ وتأليف مجلس النواب فأرجىء البت فيهما حتى يستفتى السلطان فى شأنهما ، وفرح الناس لسقوط وزارة رياض حتى كان « يستوقف بعضهم بعضا في شوارع القاهرة يتعانقون على غير تعارف سابق »

نتائج ٩ سبتمبر : (١) قضت المظاهرة على نظارة رياض المستبدة ومهدت السبيل لإعادة الحياة النيابية (٢) أصبح عرابى ذا نفوذ هائل حتى صارت ترد المظالم إليه كأنه ولى الأمر واغتر بقوته واغتر الجيش معه

فوده أفندى حسن « أمثلك يعارض الحكومة » وأمسك بتلابيبه فغضب الجند ووضعوا (السونك) فى البنادق وصاحوا بالخديوى أن يترك البكباشى فتركه ثم يمم العباسية حيث يعسكر آلاى عرابى فوجده قد تحرك إلى عابدين فذهب إلى عابدين وأشرف على المتظاهرين من السلاملك ، وأمر باحضار عرابى فجاءه ممتطيا جواده شاهرا سيفه يحيط به ضباطه (السوارى) فأمره الخديوى أن يترجل ويغمد سيفه ، ففعل ، فسأله عن مطالبهم فأخبره ، فقال «كل هذه المطالب لاحق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا» فقال عرابى « لقد خلقنا الله أحرارا وإنا لانستعبد بعد اليوم » وكان من بين الحاضرين كلفن (Colvin) المراقب المالى الانجليزى وكوكسن قنصل انجلترا فى الأسكندرية والقائم بأعمال مالت القنصل الانجليزى العام الغائب عن مصر إذ ذاك ، فأشارا على الخديوى بالتراجع إلى داخل السراى وقام كوكسن بمفاوضة عرابى وأخبره أن لاحق (للجهادية) أن تطالب بما تطالب به فأفهمه عرابى أنه نائب عن الامة فقال له كوكسن « علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم » فقال عرابى « ، اعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا » فقال « وأين هى قوتكم التى ستدافع بها » فقال عرابى « عند الاقتضاء يمكن حشد مليون من العساكر يدافعون عن بلادهم ويلبون إشارتى»

حتى أورد البلاد موارد التلف كما سيجىء (٣) فلق الأجانب عامة لقرب إعادة الحياة النيابية التى لا بد محاربة أطماعهم ورخصهم وامتيازاتهم ؛ لذلك شوهوا سمعة المظاهرة وصوروها فى صورة تمرد عسكرى ، برغم أنها كانت سلمية لم ترق فيها قطرة واحدة من الدم

نظارة شريف الثالثة[1]: بعد سقوط رياض عرض الخديوى على عرابى ورفقائه ناظرا فرفضوه فعرض عليهم آخر فرفضوه أيضا فعرض عليهم شريفا باشا (بطل الحركة الوطنية فى آخر عهد اسماعيل وأول عهد توفيق) ففرح العرابيون وحمدوا للخديوى إرضاءهم ، غير أن شريفا كان قد بدأ يساوره القلق من ازدياد نفوذ الحزب العسكرى ، وخشى سوء العقبى ، (ولعله كذلك خاف أن تنتقل السلطة من يد الأتراك المتمصرين أمثاله إلى يد المصريين الصميميين أمثال عرابى) ، لهذا نراه يأبى نظارة تأتمر بأمر الجيش ، غير أن العلماء والأعيان والنواب السابقين الذين كانوا فى القاهرة فى ذلك الحين تعهدوا كتابة « بخلوص نية الجيش » و « تمام الانقياد لدولتلو شريف باشا » فقبل النظارة فى ١٤ سبتمبر واتخذ البارودى ناظراً للحربية والبحرية وقدم للخديوى برنامج نظارته وذكر فيه أن المراقبة عضد قوى للحكومة لذلك وجب بقاؤها على حالها ، ولم يذكر فى البرنامج الحياة النيابية بخير ولا بشر

كيف عادت الحياة النيابية (١) قدم النواب والعلماء والأعيان ملتمسا إلى شريف باشا امضاه نحو ١٦٠٠ يدعونه إلى السعى فى إعادة الحياة النيابية

(٢) شوهت أوربة سمعة الحركة التى قام بها الجيش فقرر السلطان أن يبعث وفدا برآسة المشير على نظامى باشا (من ياورانه) ليتفحص عن ذلك التمرد المزعوم وأسبابه ومداه ، فخاف الخديوى أن ينتهز السلطان هذه الفرصة فينتزع منه بعض الامتيازات ، لهذا رأى أن الأوفق أن ينتقل عرابى بفرقته إلى رأس الوادى (فى الشرقية) وينتقل عبد العال حلمى

---

(١) نظارته الأولى فى آخر عهد اسماعيل والثانية فى أول عهد توفيق

بفرقته إلى دمياط ، حتى لا يقابلا نظامى باشا وهما أظهر رجال الجيش وأشدهم مراسا ، هذا إلى أن شريفا كان يرى ابعادهما عن القاهرة ابعادا لنفوذهما، فقبل عرابى سفر الفرقتين[1] مشترطا أن يصدر الخديوى أمرا بانتخاب النواب قبل السفر

لكل هذا نرى شريفا يقدم فى ٤ من أكتوبر إلى الخديو تقريراً يطلب فيه جمع مجلس شورى النواب ويذكر فيه أن لائحة هذا المجلس « ليست مستوفاة ولا ملائمة لافكار الأهالى ومقاصدهم » ولكن هيئة المجلس ستتحد مع المجلس نفسه لتنقيح هـذه اللائحة ، وجاء فى التقرير أيضاً أن التعهدات والانظمة التى أبرمتها الحكومة مع الدول بخصوص الدّين لا يجوز نظر المجلس فيها . ووافق الخديو في اليوم عينه على التقرير وعين يوم ٢٣ ديسمبر لاجتماع المجلس الجديد ففرح الناس وأقاموا حفلات منها حفلة أقيمت فى الكنيسة البطريقية بأمر البطريق نفسه

أما الفرقتان فسافرتا الى مقرهما الجديد وكان سفرهما باعثا على تهافت الناس عليهما لتشييعهما فى القاهرة واستقبالهما فى طريقهما ومستقرهما ونثرت الورود عليهما وأُلقيت الخطب الوطنية المتوقدة ، وكان أظهر الخطباء عرابى نفسه وعبد الله نديم محرر جريدة الطائف وصديق العرابيين فالتهبت الأقاليم وطنية وحماسة ، فخافت الحكومة العاقبة فاستدعت عرابيا الى القاهرة بحجة تعيينه وكيلا للحربية

أما نظامى باشا فبلغ مصر فى ١٠ اكتوبر ولم يجد فيها غير استقبال طيب وهدوء شامل وجنود على طاعة السلطان والخديو ثم سافر بعد عشرة أيام « مجبور الخاطر » كما يقول سرهنك باشا ، ولم تطل إقامته فى مصر لأن إنجلترا وفرنسا لم يرقهما تدخل العثمانيين في شئون مصر السياسية فالحا

(١) يقول لنا عرابى ذلك فى مذكراته « كشف الستار عن سر الاسرار »

على السلطان أن يختصر نظامي زيارته فسافر هذا فى ٢٠ أكتوبر .

أما المجلس فقد جرى انتخاب أعضائه وفق نظام الانتخاب القديم ، ثم عين الخديوى سلطانا باشا رئيسا للمجلس (وكان سلطان باشا من أثرياء الصعيد حتى كان يلقب « بملك الصعيد » وكان رئيسا للحزب الوطنى) وافتتح الخديو المجلس رسميا فى ٢٦ ديسمبر واستهل خطبة الافتتاح بقوله « أبدى لحضرات النواب مسرورتى من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالى فى الأمور العائدة عليهم »

كيف حدث النفور بين شريف والحزب العسكرى :

(١) لم ينس عرابى ورفقاؤه تمنع شريف عن قبول النظارة خوفا من نفوذهم (٢) طلب رجال الحزب العسكرى أن يزاد الجيش إلى العدد المقرر وهو ١٨٠٠٠ خصوصا وقد استحوذ عليهم القلق على بلادهم لما رأوا فرنسا بدت سافرة المطامع فى تونس واحتلتها (١٨٨١) وهى كمصر من أملاك السلطان ، غير أن المراقبين لم يرخصا فى أكثر من ١٥٠٠٠ بحجة أن الميزانية لا تحتمل أكثر من هذا القدر ، ونزل شريف على رأيهما واصر عليه ولم يتحلحل ، وكان كما يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده « يقنع جلساءه أنه إذا ملك قيادة السلطة أوقف الاجانب عند حدهم » فلما لم يقف المراقبين عند حدهما واستسلم للأمر الواقع انصرفت عنه قلوب رجال العسكرية وغيرهم واعتبروه ضعيفا غير كفء للموقف وحرجه ، ولعل شريفا أرغم على الاعتدال حتى لا تصطدم بلاده بالأجانب اصطداما يوقعها نهائيا فى قبضتهم (فلئن كان هذا قصده فقد اهتدى إلى سبيل السداد)

كيف شجر الخلاف بين شريف والمجلس . قدم شريف باشا فى ٢ يناير ١٨٨٢ للمجلس اللائحة الجديدة (أى الدستور) التى وضعها مجلس النظار (بالاتفاق مع المراقبين) وجاء فيها أن يكون انتخاب الأعضاء لخمس

سنين ويُعتمد انتخاب الأعضاء الحاليين للمدة المذكورة ، وأن يعطى النائب مائة جنيه كل عام ، وأن يكون النائب ممثلا للأمة المصرية بأجمعها لا ممثلا لدائرته وحدها وأن تكون له الحصانة البرلمانية وأن يكون للمجلس حق مراقبة موظفى الحكومة

وجاء فى المادة ٣٣ لمجلس النواب أن ينظر فى الميزانية ويبحث فيها وتعتمد بعد اقرارها

وجاء فى المادة ٣٤ — لا يجوز للمجلس أن ينظر فى دفعيات الويركو المقرر للآستانة (أى الجزية) أو للدّين العمومى أو فى ما التزمت به الحكومة فى أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية

رأى النواب أن اللائحة تحتاج الى تعديل يُدخل عليها ، فمن ذلك انهم رأوا أن ينص صراحة على مبدأ مسئولية النظارة ، وأن تعدل المادة ٣٣ ، أما المادة ٣٤ فوافقوا عليها إذ رأوا ما جاء فيها هو من اختصاص النظار والمراقبين أما المادة ٣٣ فلم يقنعهم ما ورد فيها . اذ هي تخولهم فقط حق اعتماد جزء الميزانية الذى لا علاقة له بالجزية والدين ، وأصروا على أن يكون لهم حق المراقبة على مصروفات الحكومة وحق الاقتصاد فى النفقات حتى يتمكنوا عاجلا من استهلاك الدين العام أى أنهم أرادوا أن يكون لهم حق التعديل ، فصرح شريف باشا للمجلس أنه لا يستطيع أن يغير شيئا فى المادة ٣٣ إلا إذا أقره المراقبان ودولتاهما ، والحق إنّ فيما يطلبه النواب خطرا على نفوذ المراقبين والموظفين الاوربيين وتهديدا للرخص التى يتمتع بها الأجانب وللمقاولات التى يغنمون من ورائها غنما كبيرا . لهذا لا عجب أن رفض المراقبان التعديل ورفضت الدولتان

وقد جاء رفض الدولتين فى صورة مذكرة مشتركة عنيفة اقترحها غمبتا (Gambetta) رئيس الوزارة الفرنسية

وكان غمبتا هذا سائسا عنيفا واسع المطامع يتمنى أن يشمل حكم فرنسا شمالي أفريقية بأجمعه لا الجزائر وتونس فقط ، وكانت سياسته في المسألة المصرية تتلخص فى نقطتين : (أولهما) أن الحركة الدستورية إن نجحت فى مصر صلحت البلاد فأفلتت من يده فرصة احتلالها ، لهذا اعتزم أن يهيج المصريين ليدفعهم فى طريق العنف فيجد مبررا للاحتلال الذى ينشده (وثانيتهما) إنه واثق بان انجلترا لن تسمح له بالانفراد باحتلال مصر لذلك رأى مكرها أن يشركها معه

لهذا اقترح على انجلترا إرسال مذكرة مشتركة إلى الخديوى يؤيدانه فيها ، وحجته فى هذا التأييد أنهما هما اللتان اجلستاه على العرش ، فوافقت انجلترا لاقبولا باشتراك فرنسا معها فى حل مسألة مصر بل لتخيف المجلس الذى ينازع المراقبين النفوذ ، وأعد غمبتا المذكرة وأرسلت الى الخديوى فى صورة خطاب موجه من وزارة الخارجية الفرنسية إلى قنصلها العام بمصر بتاريخ ٧ يناير ١٨٨٢ ، ليقوم هو والسير مالت قنصل انجلترا العام فى مصر بتبليغ ماجاء فى هذا الخطاب الى الخديوى وحكومته ، ومما ورد في الخطاب « حضرة القنصل العام : كلفنا كم غير مرة أن تخبروا جناب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومتى فرنسا وانجلترا فى مساعدته ومساعدة حكومته فى التغلب على الصعاب المختلفة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى » وجاء فى ختام المذكرة « ولا ريب عندهما — أى الدولتين أن هذا التصريح العلنى يمنع حدوث ما عساه قد يطرأ من الاخطار على حكومة الجناب الخديوى ، وإن حدثت فالحكومتان لا تترددان فى دفعه ولا يخالجها أى شك فى أن الخديوى سيجد فى هذا التصريح الثقة والقوة التى يحتاج اليهما فى ادارة مصر وشعبها » فقبل الخديوى المذكرة

ولم يقنع غمبتا بارسال هذه المذكرة بل أعد ستة آلاف جندى [1]

---

(١) كان غمبتا يريد أن تقوم انجلترا بمظاهرة بحرية فقط أما فرنسا فتنزل جنودها إلى البر

ثيرمى بهم المصريين ، ولكن سقطت وزارته وخلفتها وزارة فريسنيه (Freycinet) فى ٢٦ يناير

والمذكرة كما نرى ايعاز للخديوى أن يعبث بالدستور وبحرية شعبه ، ولقد خطئت الدولتان الديمقراطيتان بمحاربة حرية الشعب المصرى فكأنما أرادتا أن تعيدا عهد مترنيخ ومحاربته حرية الشعوب ، وكانت المذكرة في الوقت نفسه اعتداء صارخا على السلطان صاحب الحق الشرعى في مصر اذ هو وحده الذي يحق له تأييد قوة الخديوى إن احتاج هذا اليها ، لهذا احتج السلطان على عمل الدولتين وأيدته في احتجاجه الروسيا والمانيا ، كذلك أخطأ الخديوى اذ قبل من الدولتين مؤازرة وكان عليه أن يطلبها لو احتاج اليها — من السلطان وحده ، وكانت لهذه المذكرة آثار هى : —

(١) رسخ فى نفوس المصريين أن المقصود منها ازدياد تدخل الدولتين فى شئون البلاد تمهيداً لبسط حمايتهما عليها . فضاعت من قلوبهم كل ثقة بالدولتين .

(٢) صار مجلس النواب والحزب الوطني والحزب العسكرى كتلة واحدة ضد فرنسا وانجلترا ، ولما كان خطر التدخل الأجنبى قد أصبح ماثلا ، ازداد نفوذ الحزب العسكرى ، اذ أصبحوا رجال الساعة

(٣) وقذفت المذكرة بالجميع فى أحضان السلطان ، وكانوا قبلا يكرهون تدخله .

(٤) اعتقد النواب أن المذكرة مرسلة لتأييد شريف باشا ، فانصرفت قلوبهم عنه إنصرافا تاما — رغم احتجاجه على المذكرة — وتخلى عنه من كان الى جانبه أمثال سلطان باشا ، وتمسك المجلس بتعديل اللائحة التى قدمها شريف ، وجاء فى التعديل المطلوب أن المجلس لا حق له فى نظر جزء الميزانية الخاص بجزية الآستانة والدّين ، أما باقى الميزانية فيبحثها المجلس بحثا تاما ثم

تصوّت عليها لجنة مؤلفة من النظار وعدد يماثلهم من النواب يختارهم المجلس ، وقد جاء في التعديل أيضا أن كل معاهدة أو تعاقد بين الحكومة المصرية وغيرها لا يكون قانونيا الا اذا وافق المجلس عليه

وسئل شريف باشا أن يقبل اللائحة المعدّلة فأبى وأصر على[1] موقفه الأول ، فانتخب المجلس لجنة مكونة من خمسة عشر نائبا وأوفدهم الى الخديوى يسألونه أن تقبل النظارة اللائحة أو تستقيل ، فلما مثلوا بين يديه وأبلغوه رسالتهم قال لهم « وبأى حق تطلبون هذا » فقالوا « تلك ارادة الامة » فأذعن[2] وقدم شريف استقالته (فى ٢ فبراير) ، وطلب الخديوى الى رجال اللجنة أن يختاروا رئيسا للنظارة فأبوا قائلين ان ذلك من شأن الحضرة الخديوية، فألح عليهم فقالوا انهم لا يبغون شخصا خاصا وانما يريدون من يقبل اللائحة المعدلة ، فعرض عليهم محمود سامى البارودى فقبلوه شاكرين ثم تداول البارودى مع النواب فى اختيار زملائه النظار . وكان عرابى ممن اختير ليتولى نظارة الجهادية والبحرية ، وتعتبر نظارة البارودى نظارة وطنية لأن أعضاءها اختيروا برغبة نواب الأمة

---

(١) يقول بلنت إن شريفا قال له « إن المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة الاطفال وقد أعددت لهم الدستور الخليق بهم ، فاذا لم يرقهم كان عليهم أن يعملوا بدونه ، انى أنا الذى أنشأت الحزب الوطنى وسيجدون انهم لا يستطيعون العمل بدونى ، ولا شك أن هؤلاء الفلاحين فى حاجة إلى إرشاد »

وقد فات صاحب هذا الكتيب أن يذكر من قبل كلمة عن بلنت هذا فقد كان صديقا حميما للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده واشترى لنفسه أرضا بعين شمس وعاش هناك مدة طويلة يستمتع بصحبة الاستاذ الامام وكان كثير التجوال فى الشرق وكان يدافع عن الوطنيين المصريين لدى حكومته وشعبه ، ومن الناس من يرى بلنت دسيسة رمى بها المصريون ليشجعهم على اعتزازهم بحقوقهم وقوتهم حتى يسلكوا سبيل الطيش فتجد بلاده فرصة الاستحواذ على مصر

(٢) قال الخديوى لمالت إنه أذعن لافتقاره إلى قوة يدافع بها (مصر الحديثة لكرومر جزء ١ ص ٢٤٣)



محمود سامى باشا البارودى

سياسة النظارة سياسة معتدلة : لمحمود سامى البارودى مقام فى الشعر والأدب يعرفه الناس له ، وكان رائد سياسته فى الحكم الاعتدال وتسيير الحركة الوطنية في حدودها المشروعة المتئدة ، وقد أوضح سياسته هذه فى أول خطبة له بالمجلس ، وكان الاستاذ الشيخ محمد عبده مستشار العرابيين يكتب للناس ويخطبهم حاثًا على الاعتدال [1] ، وكانت الصحف تحض على السياسة عينها ، ولم ينقض يومان على تأليف النظارة حتى ذهب وفد من الضباط يقدم ولاء الجنود الى الخديو وجميل ثنائهم عليه لما تفضل به على أمته [2] ويقول فريسينيه ان أوربة كانت تستطيع أن تصافح وتصافى هذه النظارة القائمة على الاعتدال ، ويقول صاحب المسألة المصرية إن عهد هذه النظارة الوطنية كان أسعد أيام مصر

---

(١) كتاب مصر للمصريين تأليف النقاش ص ٢٧٣

(٢) كتاب مصر للمصريين تأليف النقاش ص ٢٧٣

خطة النظارة والمجلس خطة الدأب والعمل : (١) فى ٨ فبراير خطب البارودى المجلس خطبته التى حض فيها على الاعتدال وأعلن قبوله اللائحة المعدلة ، ولما أعد المجلس قانون انتخاب جديد اعتمدته الحكومة فى ١٣ مارس

(٢) وأخذ المجلس فى إصلاح ما اعوج من نظم الادارة والشئون العامة ، فألف لجانا لتفحص عن أسباب العجز الذى انتاب ميزانية الجمارك والدومين والمساحة وغيرها على يد الموظفين الاوربيين

(٣) وعملت النظارة والمجلس معا على وقف المراقبين عند حدهما المالى وعدم السماح لهما بالتدخل فى الشئون السياسية

(٤) وكانت النظارة تعتزم مشروعات شتى منها نشر التعليم الاجبارى واصلاح المحاكم الاهلية[١] وانشاء بنك زراعى تشرف عليه الحكومة لولا أن اعترضت النظارةَ الكوارث،وانتهى دور انعقاد المجلس فى ٢٦ مارس وحالت الثورة العرابية والاحتلال الأنجليزى دون انعقاده مرة أخرى ولم يجتمع إلا بعد أن أعادته الامة عام ١٩٢٤

حنق الاجانب على النظارة والمجلس : حنق الأجانب على النظارة والمجلس الذى يؤيدها للأسباب الآتية :-

(١) وافق المجلس على اللائحة المعدلة التى تخول المجلس حق بحث الميزانية وتعديلها ، وتعليق كل معاهدة أو اتفاق تعقده الحكومة حتى يقره المجلس ، وهذه الأمور تهدد ما يستمتع به الأجانب من سلطان ومرتبات ورخص

(٢) قامت النظارة تفحص عن عيوب الموظفين ومنهم أجانب يشغل بعضهم وظيفتين أو أكثر ولكل وظيفة راتبها الخاص

---

(١) صدرت لائحة لاصلاح المحاكم فى عهد شريف (١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١)

(٣) وقفت النظارة المراقبين عند الحد المالى

ولقد بلغ من حنق المراقبين أن قدما احتجاجا للخديوى على انتقال السلطة من يده إلى المجلس فلم يعبأ بها المجلس ولا النظارة

وكان أشد الأجانب سخطا على النظارة الانجليز لانهم أوجسوا أن تنتهى الحركة الاصلاحية بضياع آمالهم فى الاستيلاء على مصر ، فبدأ رجالهم فى مصر يحملون على النظارة والمجلس ويصورون المجلس فى صورة نظام « هو بأسره فى سيطرة جيش متمرد[1] » . وغرضهم من حملاتهم إثارة الرأى العام الأوربى على مصر والوطنيين حتى يمهدوا لأنفسهم سبيل التدخل .

سياسة فريسينيه نحو مصر : كانت سياسة فريسينيه حيال مصر تغاير سياسة غمبتا ، اذا كان يرى أن الاوفق لحل المسألة المصرية أن تترك مصر وشأنها فلا تتدخل فيها تركيا كى لاتسترد سلطانها القديم ، ولاتتدخل فيها انجلترا وفرنسا معا لأن ذلك سيولد بينهما تنافسا فعداء ومثل هذا العداء يزعزع مركز فرنسا أمام ألمانيا ، ولا تتدخل انجلترا وحدها لأن تدخلها يؤدى الى ادماجها مصر فى امبراطوريتها . لهذا جاهر فريسينيه باستنكاره أى تدخل فى شئون مصر ، وأوصى رجاله فى مصر بالابتعاد عن مثل هذا التدخل

فتظاهرت انجلترا بانها ترى ما يرى ، وأنه اذا لزم الامر جمع مؤتمر دولى ليبحث مسألة مصر ، فتقبل فريسينه والدول هذا الرأى بالارتياح

تآمر الشراكسة على قتل عرابى ورفقائه : أبلغ عرابيا أحد الشراكسة

---

(١) قالت التيمس إن شريفا استقال نتيجة للتهديد العسكرى وإن سلطان باشا أرهه عرابى على أن يطلب من الخديوى اقالة شريف فكذب سلطان هذا الادعاء قائلا « إن عرابيا بمثابة ابنى وهو يعرف حقى وواجبى أما من حيث شهره السيف أمامى فهو لا يفعل ذلك الا إذا رأى أعداء يهاجموننى »

واسمه (راشد أنور) أن جماعة من الضباط الشراكسة يتآمرون على قتله

تل عرابي) وبعض القواد الوطنيين وأنه (أي راشد أنور) أبى الانضمام

اليهم ، فقُبض على المتآمرين وكانوا نحو الاربعين ومن بينهم عثمان رفقي ،

ووجدت في حوزتهم أوراق ومعروضات دلت على حنقهم على عرابي

ورفقائه وتظلمهم من حرمانهم الترقي ، وألف لمحاكمتهم مجلس عسكري

برآسة راشد باشا حسني وهو شركسي مثلهم (ضماناللعدل)وقضى المجلس

في ٢ مايو بتجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات « ونياشين الافتخار »

ونفيهم نفي الابد إلى النيـل الأبيض بحيث يكونون مشتّتين في المنفى

وعزم مالت أن يحدث « ارتباكات »[1] — كما يقول لجرانفيل وزير

خارجيته — ليخلق الفرصة التي تمكن بلاده من الوصول إلى أغراضها فأدخل

في روع الخديوى أن غيرته على الانسانية والعدالة تدعوه إلى الخوض في

موضوع الحكم العسكري اذ يراه غير عادل ولا مرتكز على أدلة ثابتة ، ومازال

بالخديوى يُغريه حتى امتنع عن التوقيع على الحكم العسكري وقضى أن يغادر

المتهمون مصر إلى أى مكان شاءوا وتبقى لهم رتبهم ونياشينهم (١١ مايو)[2].

غضب النظار ، اذ اعتبروا عمل الخديوي مخالفا للقانون الذى يوجب

عليه التوقيع على أحكام المجالس العسكرية ، وكان أكثرهم غضبا عرابي لانه

عد نفسه الناظر المختص ، وأعلن النظار « ان الخديو سلك مسلكا يمس

---

(١) جاء فى الاوراق التى عرضها جرانفيل على البرلمان — مصر رقم ٧ عام ١٨٨٢ ص ١٠٧ رسالة من مالت الى جرانفيل يقول فيها « وفى يقيني أنه لابد من احداث ارتباكات عنيفة قبل أن نجد حلا سديداً للمسألة المصرية . وأن من الحكمة الاسراع بهذا الارتباك لا تأجيله .. »

(٢) وسافر المتهمون الى الآستانة حيث عاشوا على نفقة الحكومة المصرية ، ثم عادوا الى مصر بعد ضرب الاسكندرية .

استقلال مصر وأتى كثيرا من الاعمال دون استشارة نُظاره » وقرروا جمع مجلس النواب ليعرضوا عليه أمر الخلاف بينهم وبين الخديو . وقرروا كذلك ألاّ يتصلوا بالخديوى فى شأن من الشئون حتى يصدر حكمُ المجلس ، وأن يضمنوا مع ذلك سلامة شخصه وسلامة الأوربيين

ولا ريب أن النظار أخطئوا ، إذ لم يكن لهم الحق قانونا فى جمع مجلس النواب ،وكان من الواجب عليهم أن يستقيلوا ماداموا قد اختلفوا مع الخديوى

وتوقع الأجانب فى مصر صداما يقع بين الخديو من ناحية والمجلس والنظارة من ناحية أخرى . وخيل اليهم أن حياتهم تهددها الأخطار وأذكى قلقهم مايكتبه مالت[1] مثل « إن ما أعطاه النظار من ضمان المحافظة على حياة الخديوى والأوربيين لايعتد به »

تحول فريسينيه عن رأيه فى مسألة مصر : كان من رأى فريسينيه عدم التدخل فى شأن مصر كما أسلفنا ولكنه تحول عن هذا الرأى لأمرين :

أولهما — أن الرأى العام فى فرنسا قد ثار ثائره على النظارة المصرية التى يهدد عهدُها نزلاء الفرنجة كما هوّل الانجليز ، وثار ثائره كذلك على فريسينيه الذى يقف إزاء ذلك مكتوف اليدين

ثانيهما — أن فريسينيه أدرك أن الانجليز لا يعملون فى مصر وفق ما جاهروا به من عدم التدخل ، لهذا انتوى ألاّ يترك الانجليز يتدخلون وحدهم بل يسير معهم جنبا لجنب حتى يصير هذا التدخل « قليل الضرر نسبيا بمصر »

---

(١) يقول مسيو نينه السويسرى إلى بلنت فى ١٩ مايو « إن قلبى وهو قلب وطنى سويسرى يتمزق الآن لهذا الظلم الكبير الذى تصبه الدول على مصر . . . ألا إن مصر لهادئة . . . أما سير مالت فقد كان ولا يزال يتلمس أسباب الصدام ، ولا يقبل صلحا أو اتفاقا ويبذر فى القاهرة بذور القلق . وكان أحرى به أن ينشر الثقة والطمأنينة بين الناس . . . »

أضف إلى هذين الأمرين أمرا ثالثا هو تردد فريسينيه . لكل أولئك أشار على قنصله بمصر أن يسير على حذر مع مالت وأن يكون الى جانب الخديوى « صاحب السلطة الشرعية الوحيدة » : وهكذا اعتنق فريسينيه سياسة غمبتا مكرها واقترح أن تبعث كل من انجلترا وفرنسا ثلاث سفن عملها الظاهر المحافظة على نزلاء الفرنجة وعملها المستتر إرهاب النظار وإكراههم على الاستقالة ، وكان فريسينيه يرى أن السفن إذا نجحت في وجهها هذا إنحلت الأزمة فى مصر ، فلا تاقى إنجلترا مبرراً لتوغلها فى شئون مصر

الأجانب يسقطون النظارة رغم صلحها مع الخديوى : جاء النواب إلى القاهرة ولم يقبل الخديو أن يأمر باجتماعهم ، وأظهر سخطه على النظار فمشى بعض النواب فى الصلح بينه وبينهم حتى وُفقوا فى ١٥ من مايو . وبعد ثلاثة أيام جاءت السفن الحربية ،وفى ٢٥ من مايو قدم القنصلان الانجليزى والفرنسى مذكرة مشتركة جديدة (أو اللائحة كما عرفت فى ذلك الحين) طلبا فيها إسقاط النظارة وإخراج عرابى من مصر محتفظا برتبه وأوسمته ، وإلزام عبد العال حلمى وعلى فهمى سكنى الريف محتفظين كذلك برتبهما وأوسمتهما ، فرفض النظار اللائحة وتقبلها الخديو ، فاستقال النظار فى ٢٦ مايو وقد رفعوا إلى الخديو احتجاجا ورد فيه « بما أن الخديو قد قبل مذكرة الدولتين فقد قبل التدخل الأجنبى فى شئون مصر ، وهذا ينافى منطوق الفرمانات الشاهانية » وأراد الخديو أن يستوزر شريفا فأبى[1]

(١) كتب مالت لحكومته يقول ان شريفا رفض النظارة مادام الزعماء الحربيون فى مصر (كرومر — مصر الحديثة ، جزء ١ ص ٢٧٥) . كذلك كان سلطان باشا من الذين ساءهم بقاء الزعماء الحربيين فى مصر ، وينسب عرابى اليه أنه هو الموعز الى القنصلين بعمل مذكرة ٢٥ مايو

وفى هذه الأثناء بعث ضباط آلاى الاسكندرية إلى الخديو برقية يطلبون فيها اعادة عرابى فى ظرف إثنتى عشرة ساعة، وتقدم ضباط القاهرة بمثل هذا الطلب، ومثل بين يدى الخديو وفد من الأعيان والرؤساء الدينيين، مسلمين وأقباط ويهود، يلتمس كذلك إرجاع عرابى إذ عدّوه «الرجل الوحيد» الذى تقف عليه آمالهم. فلم ير الخديو إزاء كل ذلك إلا أن يكتب إلى عرابى رسالة يقول فيها «ولو أنكم استعفيتم من هيئة النظار التى استعفت لكن مراعاة لحفظ الأمن والراحة استصوبنا بقاءكم فى نظارة الجهادية والبحرية..» وظلت البلاد حتى ١٧ يونيه وليس فيها من النظار الا عرابى الذى كفل للقنصلين أمن البلاد وسكينتها، وأرسل الخديوي إلى السلطان أن يبعث إليه بمندوب شاهانى [1] ليعيد الجند إلى الطاعة، وليقر السكينة فى البلاد

ولا جدال فى أن تشبث الضباط بإعادة عرابى طيش بالغ [2] فيه مالت واتخذه برهانا جديدا على وجود التمرد العسكرى وعلى قرب حدوث صدام بين المسلمين والمسيحيين [3]، ونصح للاوربيين أن يتقلدوا أسلحتهم تحرزاً

---

(١) لم يطلب الخديوى من السلطان أن يبعث اليه بجيش لأنه قدر أن ذلك لايرضى الدولتين

(٢) أرسل مالت فى ٢٨ مايو لجرانفيل يقول ان الذين تقدموا الى الخديوى ألحفوا فى إعادة عرابى لأن عرابيا هددهم بالقتل، وأن حراس الخديوى قد أمرهم رؤساؤهم أن يطلقوا النار على الخديو إن خرج للتنزه فى عربته، لكل ذلك وافق الخديوى على ارجاع عرابى لاخوفا على حياته بل حقنا لدماء شعبه، وأرسل مالت كذلك فى ٣٠ مايو يقول «ان القوم يعتبرونه (أى ارجاع عرابى) ايذانا باخراج المسيحيين من مصر واسترجاع الاراضى التى يمتلكها الاوربيون أو يرتهنونها كما يعتبرونه ايذانا بالغاء الدين العام»

(٣) كرومر جزء ١ ص ٢٨٣

من خطر يرتقب ، وكان من أثر أقواله أن اشتد نزوح الأجانب الى الاسكندرية وقد سكن الرعب جوانبهم من الأخطار التى تهددهم في القاهرة والأقاليم ، وعززت الدولتان سفنهما في الاسكندرية بسفن جديدة

المندوب الشاهانى : قرر السلطان ارسال درويش باشا مندوبا شاهانيا ليأمر عرابيا ورفقاءه بالانقياد إلى ماجاء بلائحة القنصلين

وكان درويش باشا رجلا حربيا شديد المراس جافيا . وكان برفقته مندوب آخر يسمى أسعد افندى[1] ، ولما علم المصريون بخروج درويش باشا من الآستانة وفطنوا إلى ما جاء من أجله فار فائرهم ، وأفتى الشيخ عليش بأن الخديوى بإسلام بلاده ونفسه للأجانب قد أصبح غير أهل للحكم ، وسافر عبد الله نديم إلى الاسكندرية وخطب الناسَ ساعتين وعلمهم كيف يحتجون لدى درويش باشا على اللائحة، فلما بلغ درويش الاسكندرية سمع الأولاد فى الشوارع يصيحون « اللايحه اللايحه » فتجيبهن النسوة صائحات « مرفوضة مرفوضة » ، ولما وصل إلى القاهرة تقاذفت إليه المعروضات من العلماء والأعيان فى القاهرة والأقاليم يطلبون فيها رفض اللائحة ، ورغم ذلك فقد هدد درويش باشا عرابيا وأمره بمغادرة البلاد فأبى قائلا « لو قبلت السفر لمنعنى عنه ۱۰٫۰۰۰ » ورأى درويش باشا أن أخبار التمرد قد بولغ فيها وقرر فى ۱۰ يونيه أن يعقد فى يوم الاثنين ۱۲ يونيه مجلسا يتألف من الخديوى والقناصل ليضع حدًّا لهذه القلاقل ، ولكن حدثت مذبحة الاسكندرية فى يوم الأحد ۱۱ يونيه

مذبحة الاسكندرية : كان الاجانب طوال شهرى مايو ويونيه يفدون إلى الاسكندرية أفواجا ، وكانوا يتقلدون أسلحتهم توقعا لخطر موهوم .

---

(۱) يقول بلنت إن درويشا باشا كانت مهمته تهديد عرابى ، أما أسعد أفندى فهمته التفاهم مع عرابى وكسبه الى جانب السلطان ، وكلا الرجلين لايعرف مهمة أخيه .

وحدث فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأحد ١١ يونيه أن اختلف مالطى ومُكارٍ[1] بشأن أجرة المكارى وأحدث به جراحا،فانقلب العراك فتنة اشترك فيها مالطيون (وغيرهم من الاجانب) ومصريون وذبح فيها ١٤٠ وطنيا ولم يقتل من الأجانب إلا ٥٧ لأنهم كانوا مقنعين بالسلاح،ولم تسكن ريح الفتنة إلا فى الساعة الخامسة عند ما تقدم لتسكينها جند الاسكندرية لا شرطتها

ويتهم بعض الناس عرابيا بتدبير المذبحة ، ولكن" أمراً واحداً كفيل يدرء هذه التهمة عنه وهو أنه كان قد كفل النظام وحماية الاجانب فليس من صالحه فى شيء أن يختل النظام ويُقضى على أرواح الأجانب .

ومن المؤرخين من يتهم الشراكسة ومن بينهم عمر باشا لطفى محافظ[2] الاسكندرية ، وحجتهم فى ذلك أن من صالح هؤلاء أن يفسد النظام ويسود القلق حتى يُحرج موقف عرابى

وجاء الخديوى ودرويشن باشا إلى الاسكندرية (١٣ يونيه) ثم لحق

---

(١) هذا المكارى (الحمار) هو أخو خادم المستر كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية

(٢) فى كتاب « الاحتلال السرى » لبلنت تفصيل لهذا الأمر ، وفحواه أن الشراكسة اتفقوا مع عمر باشا لطفى على احداث الفتنة ، وأنهم اختاروا الاسكندرية لا القاهرة لوجود عرابى فيها ومعه جانب كبير من الجيش فيستطيع وقف الفتنة بمجرد انفجارها،وأن عمر باشا لطفى جلب الى المدينة طائفة من البدو والمستأجرين وسلحهم بالهراوات (النبابيت) وأمر رجال الشرطة ألا يتقدموا لاطفاء الفتنة

وفى عام ١٨٨٣ بسط مستر روندلف تشرشل - وكان من قبل مترجما نزيها فى القنصلية الانجليزية بمصر — المؤامرة للبرلمان الانجليزى ، وتقول مدام جوليت آدم أن مستر كوكسن وزع الاسلحة على الاجانب قبيل الحادث وطلب الى القنصل الفرنسى فى ٧ يونيه أن يعاونه فى تدبير المؤامرة فابى الاشتراك فى هذه الجناية ! !

بهامالت . ورأت الجاليات الاوربية أن لا أمان لاحد إلا إذا ساد السلام بين الأتراك والشراكسة من جانب وعرابى والمصريين من جانب آخر ، وتقدم قنصلا ألمانيا والنمسا إلى الخديو بهذا الرأى وأشارا عليه أن يتخذ نظارة من الفريقين بشرط أن تحوى عرابيا لمحبة المصريين له ولامتلاكه ناصية الحال ، فألفت نظارة اسماعيل راغب باشافى ١٧ يونيه وفيها عرابى باشا للحربية ، وفرح الناس بهذا الحل ، وأقره السلطان وأنعم على عرابى بالوسام المجيدى الاول تقديراً لطاعته .

المؤتمر الدولى فى الآستانة : خيل إلى فريسينيه أن الأزمة قد حلت بتأليف نظارة راغب باشا ، ولكن انجلترا لم يرقها هذا الحل[1] الذى يباعد بينها وبين أطماعها ، ولذلك رأى فريسينيه أن لامناص من عقد مؤتمر دولى يرقب مسلك انجلترا حيال مصر ويرد عنها خطرها . وتقبلت الدول عقد المؤتمر ما عدا تركيا التى رأت أن لامبرر لعقده بعد « صيرورة جميع المسائل إلى حالة الانتظام بعد أن تكونت الوزارة المصرية »

واجتمع المؤتمر فى ٢٣ يونيه فى الآستانة بغير أن تشترك تركيا فيه ، ليحل مشكلا هو فى الواقع قد حل ! وبعد يومين قرر المؤتمر أن تتعهد الحكومات المشتركة ألا تسعى واحدة منها فى امتلاك شىء من أراضى مصر ولا فى الحصول على امتيازات خاصة

وبعد يومين آخرين اقترح المندوب الايطالى « أنه فى حالة انعقاد المؤتمر لايجوز لأية دولة أن تتدخل فى مصر بمفردها » ففطن دوفرين سفير

(١) أرسل جرانفيل الى بسمرك فى ٢٠ يونيه يقول « إن حكومة جلالة الملكة لم يكن لها يد فى النظام الذى وضع حديثا — أى نظارة راغب وعرابى — وانه اذا كانت الحكومة قد سلمت بضرورة هذا النظام لحياة الاوربيين وممتلكاتهم من الاعتداء فانها لاتعده حلا للمسألة السياسية بأية حال »

انجلترا فى الآستانة إلى إن انجلترا هى المقصودة بهذا المقترح ، فلم يأل جهداً[1] حتى أقنع المؤتمر أن يضيف إلى هذا الاقتراح «إلاّ فى الظروف القاهرة » ، وهذه الاضافة قضت على ما كان للاقتراح من فائدة

وفى ٦ يوليه قرر المؤتمر أن تطالب الدول رسمياً إلى تركيا أن ترسل تجريدة تركية إلى مصر لقمع الفتنة (!) ، وألاّ يطول بقاء التجريدة فى مصر أكثر من ثلاثة أشهر إلا باتفاق بين تركيا والدول،وان تتحمل مصر ماتتكافه التجريدة من نفقات ، وتقرر أن يرسل كل مندوب مذكرة بهذا القرار لدولته لإقراره قبل أن يقدَّم للباب العالى ، ولم تطق انجلترا فكرة احتلال جيش تركى لمصر ، فأرادت أن تتلمس « الظرف القاهر » الذي يجيز لها التدخل فى مصر قبل أن يرد على السلطان قرار الدول، واقتنصت « الظرف القاهر » وهو:أن الحكومة المصرية تحصن طوابى الاسكندرية وهذا يهدد الاسطول الانجليزى الراسى في الميناء ويهين شرف انجلترا (!)

ضرب الاسكندرية · سألت انجلترا فريسينيه إن كان يرغب فى أن يشترك الاسطول الفرنسى والاسطول الانجليزى فى ارسال انذار إلى الحكومة المصرية بشأن وقف تحصين الطوابى وإنزال ما بها من مدافع ، فأبى فريسينيه قائلا للسفير الانجليزى فى باريس «إن الحكومة الفرنسية تعد مثل هذا العمل عملا عدائيا هجوميا ضد مصر ، ولا تستطيع الحكومة أن تشترك فيه بغير أن تنتهك حرمة دستور بلادها الذى يحرم اعلان الحرب بغير اقرار المجلس » ، وأرسل فريسينيه إلى أمير أسطوله الراسى فى الاسكندرية أن يغادرها ففعل فى ٥ يوليه

---

(١) صار كل جلسة يقرأ تقرايرات تأتيه من القاهرة تصف الخطر المحدق والمسلك المخجل « لوزارة الهزل » كما كان يسمى نظارة راغب باشا وتصف تبجح الحزب العسكرى وغطرسته وعنفه وقتل المسيحيين كل يوم

أما سيمور أمير الاسطول الانجليزى الراسى فى الاسكندرية فارسل الانذار إلى الحكومة المصرية بوقف التحصين وانزال المدافع وإلاَّ صب نيرانه على القلاع ، فارسلت الحكومة اليه تقول إن ما يجرى فى الحصون ماهو إلا ترميم ضئيل يقيها الهدم، وأجازت له المعاينة وأخبرته أن إنزال المدافع عار لا يحتمله أحد، فجعل قولهم دَبْرَ أذنه وأصر على طلباته، فاجتمع مجلس النظار برآسة الخديو وحضره درويش باشا وبعض النظار السابقين ، وقرروا أن يبعثوا اليه [1] برد حازم يحمِّله هو وبلاده تبعة الاعتداء على حرية شعب هادىء

والذى شجع الحكومة المصرية على ارسال ردها الحازم القوى أمور منها (١) تأجيج نار الوطنية فى قلوب الوطنيين (٢) اعتقاد العرابيين أن انجلترا لا تقصد إلا التهديد ولا تنتوى الحرب مراعاة للتعهدات التى أبرمتها مع الدول فى مؤتمر الآستانة (ولهم العذر فى هذا الاعتقاد) .

(٣) توهمهم أن انجلترا (حتى ولو كانت تقصد الحرب حقيقة) لا يتسنى لها قهرهم لكثرة عديدهم والتفاف الأمة حولهم ورضا السلطان عليهم (ولا ريب أنهم أخطئوا فى هذا الوهم) .

وفي مساء ٩ يوليه أبلغ الخديوى رسميا عزم سيمور القتال صبيحة

---

(١) «إن مصر لم تفعل شيئا يبرر إرسال أساطيل الى مياهها. والهيئتان المصريتان العسكرية والمدنية لم تعمل واحدة منهما عملا يجيز مطالب الاميرال سيمور ، فان الحصون باقية على الحالة التى كانت عليها عند وصول الاساطيل ولم يصنع شيء سوى ترميمات ضرورية تقيها الهدم، وعلى ذلك فاننا الآن فى بلدنا ووطننا فمن حقنا ومن الواجب علينا أن نحتاط من كل عدو يقدم على قطع حبل السلام ، ومصر الحارسة القيمة على حقوقها وشرفها لا تستطيع أن تسلم حصنا واحدا من حصونها ولا مدفعا من مدافعها إلا إذا أرغمت عليه بقوة السلاح، وهى تحتج على تصريحاتك التى أعلنتها اليوم وتوقع التبعة المباشرة وغير المباشرة التى تنجم عن هجوم الاسطول أو الضرب على الأمة التى تكون قد وجهت إلى الاسكندرية الهادئة الساكنة أول قذيفة ، ساخرة من قوانين الدول وشرائع الحروب »

الثلاثاء ١١ يوليه ، وألح الانجليز عليه أن يغادر قصر رأس التين إلى قصر الرمل ليكون فيه فى مأمن من خطر القنابل، ففعل، ولما بلغ السلطان يوم ١٠ يولية عزم سيمور، رجا دوفرين إرجاء القتال واعداً أن تقدم حكومته يوم ١٢ يوليه حلا مرضيا للمسألة المصرية فلم يأبه لرجائه. وبدأت السفن الانجليزية تطلق نيرانها على المدينة[1] فى الساعة السابعة من صباح ١١ يولية، لا استرجاعا لحق غصبته مصر منها، ولا غسلا لعار الحقته بها، ولكن جريا وراء مطامع يندى منها جبين الانسانية خجلا ، واستمر الضرب حتى سكتت الطوابى ، وما وافى عصر ١٢ يولية حتى انسحبت الحامية من الاسكندرية ، وفى ١٣ يوليه عاد الخديو إلى قصر رأس التين يحرسه الانجليز ،[2] وفى ١٥ يوليه صارت الاسكندرية فى أيدى الغزاة الطامعين ، وفى أثناء القتال اندلعت النيران فى الاسكندرية واتُّهمت الحامية المصرية باحراقها (وبعد الاحتلال حوكم أحد كبار الضباط لاتهامه باحراقها وأُعدم)

الخديوى وعرابى بعد ضرب الاسكندرية : استقر عرابى وجيشه

---

(١) كان مجلس النظار قد قرر ألا تطلق الطوابى على الاسطول قنابلها إلا بعد أن يطلق الاسطول خمس طلقات حتى يشهد العالم على اعتداء انجلترا ، ولم تبدأ الطوابى فى الضرب إلا بعد أن أطلق الاسطول نحو ١٥ طلقة

(٢) أرسل الخديوى (وهو فى سراى الرمل) إلى الاميرال سيمور يسأله إن كان يستطيع أن يعود إلى سراى رأس التين حتى يتق خطر العرابيين على حياته فأجاب سيمور أنه أعد له جنودا انجليزية لحراسته فى رأس التين، وفى الساعة الرابعة بعد ظهر ١٣ يوليه بلغ الخديوى القصر فاستقبله على بابه كلفن المراقب الانجليزى وكارتريت (القائم بأعمال مالت) واستقبله فى ساحته سيمور وفرقة من جنوده ويقول كرومر (ص ٢٩٨ جزء ١ من كتابه مصر الحديثة) واعتقادى أن الخديوى ساءه سلطان عرابى فرحب بمن يخلصه منه ، ولم يكن يدرك كما ندرك نحن الآن أن الانجليز يطمعون فى أن ينشبوا أظافرهم فى مصر إلى الابد

فى كفر الدوار ، وبدءوا يحصنون هـذه المنطقة بإشراف المهندس الحربى الـكبير محمود باشا فهمى ، وأرسل عرابى إلى الخديو قطار الخديو الخاص ليقله الى كفرالدوار فأبى،وأرسل الى عرابى خطابا يقول فيه إن انجلترا ليست محاربة الحـكومة الخديوية وان قائدها مستعد أن يسلم الاسكندرية للحكومة اذا أطاع الجيش ، وانه (أى الخديو) يأمر عرابيا أن يبطل كل استعداد للحرب ، وان يحضر لمقابلته فى قصر رأس التين ليتلقى أوامره شفاها ، فبعث عرابى إليه بخطاب يقول فيه إنه لم يعد يثق فى وعود الانجليز[1] وانه لذلك لايحضر الى الاسكندرية مادام الاسطول الانجليزى باقيا فيها وان الخديوى يستطيع أن يرسل مجلس النظار أو رئيس المجلس فقط الى مقر الجيش للتفاهم ، فأبلغ مجلسُ النظار سيمورَ ان عرابيا يستعد للمقاومة وأن التبعة عليه وحده وأن الخديوى قد قررعزله ، وأرسل الخديو فعلا الى عرابى قرارا بعزله (٢٠ يوليه) ، وبعث بالمنشورات الى الاقاليم يحضها على التنكر على عرابى

أما عرابى فارسل الى يعقوب باشا سامى وكيل الجهادية فى القاهرة يخبره مادار بينه وبين الخديو ويشير عليه بجمع مجلس من الاعيان والعلماء يعرض عليه أمر انحياز الخديو الى حماية الانجليز وأنه أصل البلاء و « هل يجوز شرعا ماهو حاصل منه أو لا » فجمع يعقوب باشا سامى فى ١٧ يوليه مجلسا مكونا من سبعين عضوا قررالاستمرار فى الاستعداد واستدعاء مجلس النظار الى القاهرة للتداول معه

ولما عزل الخديو عرابيا فى ٢٠ يوليه قرر المجلس استبقاءه للدفاع عن البلاد وعدم الامتثال لأوامر الخديوى حيث « خرج عن قواعد الشرع

---

(١) ارسل كارتريت إلى جرانفيل فى ١٥ يوليه يقول « طلب الخديوى من عرابى أن يحضر إلى هنا ، فاذا حضر قبض عليه وإذا لم يحضر اعتبر عاصيا خارجا على القانون »

الشريف والقانون المنيف » وقرر المجلس كذلك عرض هذا القرار على الاعتاب العالية الشاهانية بوساطة وكلاء النظارات ، وانحاز الاهلون الى جانب عرابي وتعلقوا بأهدابه ليرد عنهم طمع انجلترا فى بلادهم (طمع فرنسا فى تونس من قبل) ، وقدموا له الاقوات طائعين حتي أنه لما انتهت الحرب وجد الانجليز فى مخازن الجيش فى القاهرة من الميرة مايسد حاجة الجيش أربعة أشهر ، كذلك تطوع كثير من الفلاحين ليقاتلوا أعداءهم الظالمين .

نظارة شريف الرابعة : رأى الخديو أن اسماعيل راغب باشا لاطاقة له [1] بتدبير الامر فى ذلك الوقت العصيب ، فعرض النظارة على شريف فقبلها مشترطا تنصيب رياض على نظارة الداخلية ، فتم له ما أراد ، وألفت النظارة فى ٢٧ اغسطس . ولعل شريفا قد قبل النظارة ليدرأ عن مصر بعض ما حاق بها من أخطار .

موقف أوربة بعد ضرب الاسكندرية: (١) **انجلترا** : لم يكن ضرب انجلترا الاسكندرية شرفا يبقى ولا فخارا يُروَى ، لامن الوجهة الحربية ولا من الوجهة الخلقية ، بل كان خرقا للقانون الدولى ، اذ هو اعتداء على بلاد لايجوز باية حال اعلان الحرب عليها لانها جزء من الدولة العثمانية ، فان كان هناك من داع للحرب وجب أن يكون اعلانها على الدولة العثمانية ذاتها ، وفوق ذلك فضرب الاسكندرية مناف لتعهدات الدول ومن بينها انجلترا في مؤتمر الآستانة الذى كان لا يزال قائما ، وقد احتج عليه بعض الانجليز كرام

(١) قال دوفرين « ذهبت إلى مصر فوجدت فيها رجلا — أى شريفا — ونصف رجل - أى راغبا »

النفوس[1] والظاهر أن انجلترا هالها ما أفدت عليه وخشيت اعتراض الدول عليها اعتراضا جدّيا فاعتزمت ألاّ تخطو خطوة جديدة[2] وحدها قبل أن تدعو الدول للاشتراك معها، فدعتهن مكرهة للاشتراك معها فى حماية قناة السويس وهى تدعو الله ألا تجيب دعوتها واحدة منهن

وقرر البرلمان الانجليزى في ٢٩ يوليه اعتماد المال اللازم للحرب[3] وسيقت الجنود على مصر من مالطة والهند وجهات أخرى

(٢) *فرنسا*: ذكرنا أن فريسينيه أبى أن يشترك فى ضرب الاسكندرية

---

(١) قال عضو فى البرلمان الانجليزى واسمه رتشرد منددا «أجد رجلا يحوم حول دارى، وأمارات الاجرام مرتسمة على وجهه فأسارع إلى أقفالى ومتاريسى واحكم اغلاق شبابيكى، فيرى فى ذلك ما يهينه ويهدده ويحطم على أبوابى، ويعلن أنه ما فعل ذلك إلا دفاعا عن نفسه» وكانت الوزارة القائمة فى انجلترا هى وزارة غلادستون، وكان هذا قد انتصر فى معركة الانتخابات على دزرائيلى عام ١٨٨٠ بحمله على سياسة دزرائيلى الاستعمارية والتشهير بها لمنافاتها الحرية. ومن الغريب أننا نرى غلادستون عام ١٨٨٢ يسير على السياسة التى شهر بها من قبل، وكان من بين أعضاء وزارة غلادستون رجل كريم النفس هو جون بريت فاحتج على ضرب الاسكندرية وذلك لأن جرانفيل كان قد أوهم الوزارء أنه لا يقصد بتوجيه الانذار إلى المصريين محاربتهم بل تهديدهم ليس غير، فلما ضربت الاسكندرية استقال

(٢) فى ٢٢ يوليه وقف غلادستون فى مجلس العموم وقال «اننا نحس أننا لو لم نحاول إخراج مصر من حالة الفوضى والاضطراب إلى حالة السلام والنظام لكنا مقصرين فى أداء واجبنا على الوجه الأكمل، وأملنا فى المستقبل أن تتضافر معنا الدول العظمى فى أوربة المتمدينة، واذا زال كل أمل فى الحصول على هذا التضافر قامت انجلترا وحدها بما يجب» فهتف الأعضاء له

(٣) طلب وزير الحربية اعتماد ١٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه فوافق المجلس، ثم عاد فقال انه أخطأ فى مليون إذ المبلغ اللازم هو ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ فوافق المجلس راضيا مرتاحا

ثم صرح فى ١٨ يوليه أن فرنسا لاتدخل بحال فى حرب ضد مصر ، وقام غمبتا يحمل على سياسة فريسينيه هذه التى تركت انجلترا تنفرد بالتدخل فى مصر وطلب أن تسير فرنسا فى هذا الأمر بجانب انجلترا محافظة على مصالحها [1] فى وادى النيل

وفى اليوم التالى قام الدكتور كلمنصو [2] يشد أزر فريسينيه ، ويثنى عليه لانه لم يشترك فى الاعتداء على الاسكندرية ؛ وقال أنه يخشى أن تكون سياسة ألمانيا ترمى إلى تشتيت قوى فرنسا فقد أغراها بسمرك بفتح تونس فى عام سلف والآن بزج بها فى مصر ، ولم يكن غمبتا حاضرا الجلسة لوفاة ... ، لذلك سادت سياسة الابتعاد عن التدخل (على غير ما يهوى غمبتا)

غير أن فريسينيه المتردد عاد فطلب الى المجلس فى ٢٩ يوليه اعتمادا ماليا لحملة فرنسية ترسل الى مصر لتشترك فى حماية قناة السويس فقط لاتمعن فى داخل مصر ، فخطب كلمنصو المجلس ساخرا [3] مما يريده فريسنيه ، وفعلت خطبته فعلها فى نفوس الاعضاء ورفضوا الاعتماد ، ومن غرائب المصادفة أن

(١) مما قاله غمبتا فى خطبته « لا تنقضوا تحالفنا مع انجلترا مهما قدمنا من التضحية فى سبيل ذلك ، وانى أصرح لكم بما يخالج فؤادى ولا أكتمكم منه شيئا : اننى استمسك بالتحالف مع انجلترا والتضافر معها فى حوض البحر الأبيض المتوسط وأشفق أن تسلموا للانجليز أراضى وأنهارا ومسالك لكم فيها من حق العيش والاتجار مثل مالهم » واختتم خطبته بقوله لرئيس الوزارة « لاتتكلم هكذا فليس بمثل هذا يتحدثون عن فرنسا »

(٢) الذى عرف إبان الحرب العظمى بالنمر ، وبعدها بهادم الوزارت

(٣) قال كلمنصو « لقد اعترف رئيس الوزارة أن قناة السويس لاخطر عليها فهو إذن يطلب منكم أن تبعثوا بجنودكم إلى أرض آمنة مطمئنة ، والمقرر أنكم لاتوجهون للسويس حملة بل شيئاً شبيهاً بحملة . فهل هناك سخرية أبعد من هذه السخرية ؟ انكم تفرقون بين موضوع السويس وموضوع مصر بغير وجه ولادليل ، وأنا اصارحكم انكم إذا بلغتم السويس فان تقفوا عند هذا الحد بل لابد أن تكرهوا إلى ابعد منه »

البرلمان الانجليزى أقر فى الليلة عينها الاعتماد الحربى : ومن آثار هذا الرفض

(ا) تخلص انجلترا من فرنسا منافستها فى مصر[1]

(ب) شقاء مصر ، إذ لو اشتركت فرنسا مع انجلترا لاصبح لاحتلالها صبغة دولية يسهل محوها ، ولادى تنافسهما فيها لى افلاتها من يد الاثنتين

(ح) سقوط وزارة فريسينيه

(٣) ايطاليا : أعلنت الحكومة الايطالية أنها لاترى مبررا لهذا التدخل لاسيما بعد أن قبل الباب العالى دعوة المؤتمر لارسال تجريده الى مصر على أن رفضها لايعد نهائيا (وسنذكر خبر هذه التجريدة)

(٤) المانيا : رفضت التدخل ، ويعلل فريسينيه رفضها فى مذكراته بان بسمرك أراد أن تنفرد انجلترا بامر مصر كى تحقد عليها فرنسا فيسود الشقاق بين الدولتين وهذا ما تصبوا اليه نفس بسمرك

(٥) تركيا : أسلفنا أن المؤتمر قرر (قبل ضرب الاسكندرية بخمسة أيام) أن تطلب الدول الى الباب العالى أن يرسل تجريدة عثمانية الى مصر لتقمع الفتنة ، وقُدمت المذكرة للسلطان فى ١٥ يوليه وأعلن السلطان قبولها فى ١٩ يوليه ، وأرسل من يمثله فى المؤتمر وقال الممثلون العثمانيون للمؤتمر إن التجريدة متأهبة للرحيل ، ولو خرجت فى الحال إلى مصر لَمَا استطاع الانجليز ان يمكّنوا لانفسهم فيها ، ولكن التجريدة لم تخرج من تركيا ، وينسب البعض عدم خروجها الى حاجة تركيا الى المال اللازم لها ، وغيرهم ينسبونه الى تردد الحكومة التركية واضطرابها ، وآخرون ينسبونه الى دهاء إنجلترا وخَلقها العقبات امام تركيا حتى لاتسارع هذه الى إرسال التجريدة لأن إرسالها يؤدى حتما الى جلاء جنود الانجليز عن مصر ، وكان لورد

(١) قام بعض الكتاب يندون باخلاء الجو لانجلترا ، ويعتبرونه كارثة لايفوقها فى شدتها الا كارثة حرب السبعين، وقالت جريدة الطان « إن فرنسا أتت ما يشبه الافلاس . . . وماهذا الموقف الا موقف ذلة يؤلم الذين يقدرون معنى الشرف الوطنى»

دوفرين هو الذى فاوض السلطان فى أمر التجريدة ، وأطال المفاوضة وماطل وتباطأ حتى أفلتت الفرصة من تركيا ، وأول شرط فرضه دوفرين أن يعلن السلطانُ عصيان عرابى ، وقد رأى السلطان فى ذلك الأمر غضاضة لأنه كان على اتصال دائم بعرابى وكان يعده رجله فى مصر ومنحه الوسام المجيدى الاول ، ولكنه لم ير مندوحة من اعلان عصيانه ، ثم تقدم دوفرين للباب العالى بمذكرة خاصة بالتجريدة وفحواها ان تكون التجريدة ستة آلاف جندى وألا تزاد إلا اذا وافقت انجلترا سلفا ، وألا يكون نزولها في مصر إلا فى رشيد أو دمياط أو بوقير ، وألا تخرج منها إلا الى المعارك التى تدعى اليها ، ومن العجب العاجب أن يفرض من لا حق له تلك الشروط القاسية المذلة [1] على صاحب الحق الشرعى ، وبدأت المفاوضة تدور حول هذه الشروط ، ودوفرين يتلكأ و عاطل حتى فات الوقت .

القتال بين العرابيين والانجليز : خرج العرابيون (أول أغسطس) من كفر الدوار ليجلوا الانجليز عن الاسكندرية فاخفقوا ، وفى ١٥ أغسطس وصل إلى الاسكندرية جارنت ولسلى Garnet Wolsely لقيادة الجيوش الانجليزية

وكان الانجليز يدركون أن التوغل فى مصر عن طريق كفر الدوار أمر عسير للاستحكامات المنشأة فى هذه المنطقة ولوجود شبكة من الترع يستطيع المدافعون الانتفاع بها فى رد المهاجمين ، لهذا اعتزم الانجليز اقتحام مصر من جهة القنال ، وأعدوا لذلك الأمرُ عدته واستعانوا على تنفيذ عزمهم هذا بالكتمان

---

(١) لقد أظهر الانجليز أثناء هذه المفاوضة صلفا وغطرسة : فمن ذلك أن الباب العالى طلب إلى دوفرين فى ٣١ أغسطس أن يسمح للجيش التركى بالنزول فى الاسكندرية لا ليبقى فيها طويلا بل لمجرد الظهور فى شوارعها ثم يغادرها فى الحال إلى بوقير ، فأرسل دوفرين إلى جرانفيل يقول إن السلطان يتوسل وهو راكع ، ويجدر بحكومة جلالة الملك أن تجيب توسله ، فأجاب جرانفيل بالرفض .

والخديعة، فاستخلصوا (فى ٣١ يوليه) من الخديو سراً أمراً يفوضهم النزول فى أى بقعة فى منطقة قناة السويس يرون النزول فيها لازما لاخماد الثورة، وبدأ ولسلى هجمة على المصريين فى كفر الدوار بجانب من جيشه فى ١٩ أغسطس ليوهمهم أنه يعتزم اقتحام البلاد من هذه الناحية، وبعد ظهر اليوم عينه سار ببقية جيشه على ظهر الاسطول إلى بورسعيد فبلغها فى فجر ٢٠ أغسطس واحتل الاسماعيلية فى ٢١ أغسطس ، وكان سلطان باشا يرافقه بصفته مندوبا عن الخديوى

وكان مجلس القاهرة قد قرر ردم قناة السويس من جهة الشمال وردم ترعة الاسماعيلية ، غير أن دلسبس[1] أرسل إلى عرابى يقول « لا تحاول أى محاولة فى سد قناتى، فانى هنا فلا تخش شيئا من هذه الناحية ، فانهم لن يستطيعوا إنزال جندى انجليزى حتى يكون الى جانبه جندى فرنسى آخر وأنا مسئول عن كل شيء » فصدق عرابى وآمن، وكأننا به قد أغمضت عينه فلم ير وصمت أذنه فلم يسمع أن الانجليز قد استولوا على السويس منذ أواخر يوليه وعطلوا بعض البوارج المصرية الراسية هناك ، ولم يصل محمود باشا فهمى رئيس أركان الحرب الى منطقة القناة لتحصينها الا فى ٢٠ أغسطس كما وصلت قطر تحمل آلاف العمال لردم القناة وانشاء الاستحكامات (ولكن كان الوقت قد فات) ووفدت الجنود[2] ثم جاء عرابى

واشتبك الانجليز بالمصريين بجهة المحسمة وتل المسخوطة (٢٣ —٢٥ أغسطس) ، وتقهقر المصريون تاركين محمود باشا فهمى واقفا بمظلته أو كما يقول هو « يارب كما خلقتنى » فأسره الانجليز

ووصلت الى أيدى الجنود والضباط المصريين صور من منشور عصيان

(١) يذكر بعض المؤرخين أن دلسبس كان يتقرب إلى عرابى ويلاطفه خوفا على القناة

(٢) وقامت الأسواق، وجاء مشايخ الطرق والذكرة يدعون إلى الله النصر وصار الناس يصيحون «العسكر فى الطوابى . الله ينصرك ياعرابى » و«يامولانا ياعزيز أهلك عسكر الانجليز » و« ياسيمور ياوش القملة مين قال لك تعمل دى العملة »

عرابي الذي أصدره السلطان والذي يقول فيه إنه يعد عرابيا عاصيا وإنه يؤيد الخديو ولما كان المصريون يشعرون حتى ذلك الوقت بإجلال كبير للسلطان خليفة رسول الله تقبلوا منشوره طائعين وتخاذلوا عن نصرة عرابي ، اضف الى ذلك ، ان الخديو والانجليز وبعض كبار الاعيان كسلطان باشا لم يتركوا وسيلة من وسائل الاغراء والتحذير حتى اتخذوها فأفسدوا دخيلة الضباط والجنود ، اضف اليه ان كثيرا من الضباط كانوا ينفسون على عرابي سلطانه ، وكان من اثر كل ذلك ان اتصل الأميرالاى على بك يوسف خنفس بالانجليز ، وكان قائدا لطلائع الجيش المصري المعسكر في التل الكبير ، وفي مساء ١٢ سبتمبر اخبر عرابيا انه لم ير أثراً لنشاط الانجليز فاطمأن عرابي وقضى شطرا من ليله (يذكر مع الذكيرة) ثم هجع وهجع الجند ، اما ولسلى فامر جيشه بالسير في سكون وسط الظلام يهديهم الى الطريق الصحيح مصابيحُ وضعها الخائن على يوسف على خنادق المصريين ، ولما اقترب الانجليز تنحى على يوسف بطلائعه عن مكانه فافسح لهم الطريق ، وأخذ الجيش المصري على غِرة وهو نائم عند الفجر (١٣ سبتمبر) فذعر وتشتت ، وكان ممن فر عرابي وصديقه عبد الله نديم ، وثبت الضابط الوطني الأبي الكريم محمد بك عبيد وقُتل في ساحة الشرف والذياد عن الوطن ، ولم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقة

ودخل الانجليز القاهرة في ١٥ سبتمبر وسجنوا العرابيين ، وأرسل ولسلى القائد افان وود Evelyn Wood فتسلم معاقل كفر الدوار ، ومنحت الحكومة الانجليزية ولسلي لقب « Lord of Cairo » (أي لورد القاهرة)

ويرجع فشل عرابي إلى الأسباب الآتية : —

(١) خلق عرابي : فقد كان خطيبا مؤثراً ، وكان مخلصا لبلاده الاخلاص كله ، وقد دافع عن « الفلاح » حتى جعله مساويا في المكانة للأتراك

والشراكسة ، بعد أن كانوا يحقرونه ويستعبدونه ، وكان منزها عن التعصب الدينى ، ولكنه لم يكن بالسياسى البعيد النظر الذى يحسن قيادة الحركة ، ولم يكن بالجندى البصير بفنون القتال حتى يجيد الدفاع [١]

(٢) الاسلحة السياسية والدسائس : حارب الانجليز المصريين بكافة صنوف الدسائس فكانت أسلحة ماضية : فقد استخدموا نفوذ السلطان اذ حصلوا منه على منشور عصيان عرابى، وانتفعوا بنفوذ الخديوى إذ استخلصوا منه أمراً باحتلال أى نقطة من قناة السويس، واستخدموا اسمه وسلطته فى إغراء الضباط والتأثير فى الشعب (لا سيما بدو الشرقية) ، ولم ينس الانجليز الذهب يستميلون به القلوب المريضة

(٣) حالة الجيش المصرى : كان الجيش المصرى ٢٧٫٠٠٠ من بينهم نحو ٧ آلاف من الجنود النظامية ، وبقيته من الفلاحين المتطوعين الذين لم يألفوا الحروب وحرها

(٤) همجية الانجليز : وكفى دليلا عليها انتهاكهم حرمة قناة السويس . وهكذا فشل العرابيون فى ايجاد حكومة وطنية دستورية ، واحتل الانجليز مصر احتلالا كانوا يرقبونه قرنا

الفصل الاخير من مأساة الثورة

(١) **فى مصر** : عاد الخديوى [٢] إلى القاهرة فى ٢٥ سبتمبر يحيط به

---

(١) يرى بعض الناس أن فى موقف عرابى جبنا و يقولون إنه كان يقوم بدور السياسى لا القائد طوال هذه الأزمة ، و يلتمسون له العذر بأنه لم يحضر من قبل وقعة حربية قط ، ولكن لعل فراره من المعركة فى التل الكبير كان للدفاع عن القاهرة ، والواقع أن الدفاع عنها كان بغيته ، لولا تخاذل بعض ضباطه ، كذلك يتهمه الفرنسيون بالخيانة ولكننا ننزهه عن هذه الوصمة

(٢) جاء الخديوى وركب معه فى عربته دوق كونوت نجل ملك انجلترا ، وركب أمامهما ولسلى ومالت وخلفهما فرسان الانجليز ، واصطفت على الطريق جنود

الانجليز ، وحوكم عرابى ورفقاؤه فحكم عليهم بالاعدام وفى الجلسة عينها قرىء أمر عال باستبدال نفى الابد بحكم الاعدام ، واختيرت سيلان مكانا للنفى[1] وغضب رياض باشا لاستبدال الحكم واستقال ، وقد بذل بلانت جهدا كبيرا فى مساعدة عرابى حتى أحضر للدفاع عنه محاميا من أكبر محامى الانجليز[2]

أما الجيش المصرى فقد أصدر الخديوى مرسوما قصيرا يلغيه به « لثورته » فى ١٧ سبتمبر ١٨٨٢

(٢) فى أوربا : فى صباح ١٣ سبتمبر نشبت وقعة التل الكبير التى قضت فى أمر العرابيين . ومن المدهش أن الحكومة الانجليزية أمرت دوفرين في عصر اليوم نفسه أن يوقع الاتفاق بين تركيا وانجلترا الخاص بارسال التجريدة إلى مصر ! وأراد السلطان أن يرسل التجريدة برغم فوات الفرصة فأبلغته انجلترا فى ١٨ سبتمبر شكرها وعدم حاجتها إلى التجريدة بعد إخماد

الانجليز ، ونزل الخديوى قصر الاسماعلية ، وأسكن ولسلى قصر عابدين ودوق كونوت قصر النزهة بشبرا ، واستعرض الخديوى الجنود الانجليزية فى ٣٠ سبتمبر والعلم البريطانى مرفوع وسط ساحة الاستعراض ، وأدب الخديوى لكبار الانجليز وضباطهم مأدبة فخمة ، وقدم سلطان باشا وبعض الاعيان إلى ولسلى سيفا مرصعا وخطاب شكر كتب على جلد غزال ، ومنح الخديوى سلطانا باشا عشرة آلاف من الجنيهات « لمعارضته العصاة فى جميع أمورهم » ومنحته الحكومة الانجليزية لقب سير ، ولا ننسى أن نذكر أن سلطانا باشا كان يعتقد كما اعتقد الخديوى ومن لف لفهما أن الانجليز لا غرض لهم الا تأييد عرش الخديوى ثم يجلون من بعد ذلك عن الديار ، فلما تشبث الانجليز بالبقاء بمصر ندم سلطان باشا ندما شديدا على معاونته لهم

(١) نفى عرابى وطلبه وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ويعقوب سامى ، أما غير هؤلاء فمنهم من ألزم الاقامة فى بلده ومنهم من نفى أمدا محدودا فى بلد أجنبى ، وظل المنفيون فى سيلان حتى ١٩٠١ إذ شفع لهم ولى عهد انجلترا إثر زيارته للجزيرة فعفا عنهم عباس الثانى وعادوا إلى وطنهم ومات عرابى عام ١٩١١

(٢) المستر برودلى

الثورة واستعدادها للانسحاب من مصر فسألت تركيا عن موعد الانسحاب ، فلم تظفر منها الا بوعود

أما المؤتمر الدولى فكان قد عقد ست عشرة جلسة ولم يصل فيها إلى حل يضع حدا للمسألة المصرية ، وفي ١٤ أغسطس رأى أن يقف أعماله حتى تنقضى الحرب فى مصر ! فاحتجت تركيا على المؤتمر لخذله إياها فى أحرج مواقفها ، ولكن ذهب احتجاجها صرخة فى واد ، ولم يجتمع المؤتمر [١] بعد ذلك قط

عهد الاحتلال الانجليزى ١٨٨٢ — ١٩١٤

ويشمل بقية عهد توفيق باشا أى من ١٨٨٢ الى ١٨٩٢

وعهد عباس حلمى الثانى من ١٨٩٢ الى ١٩١٤

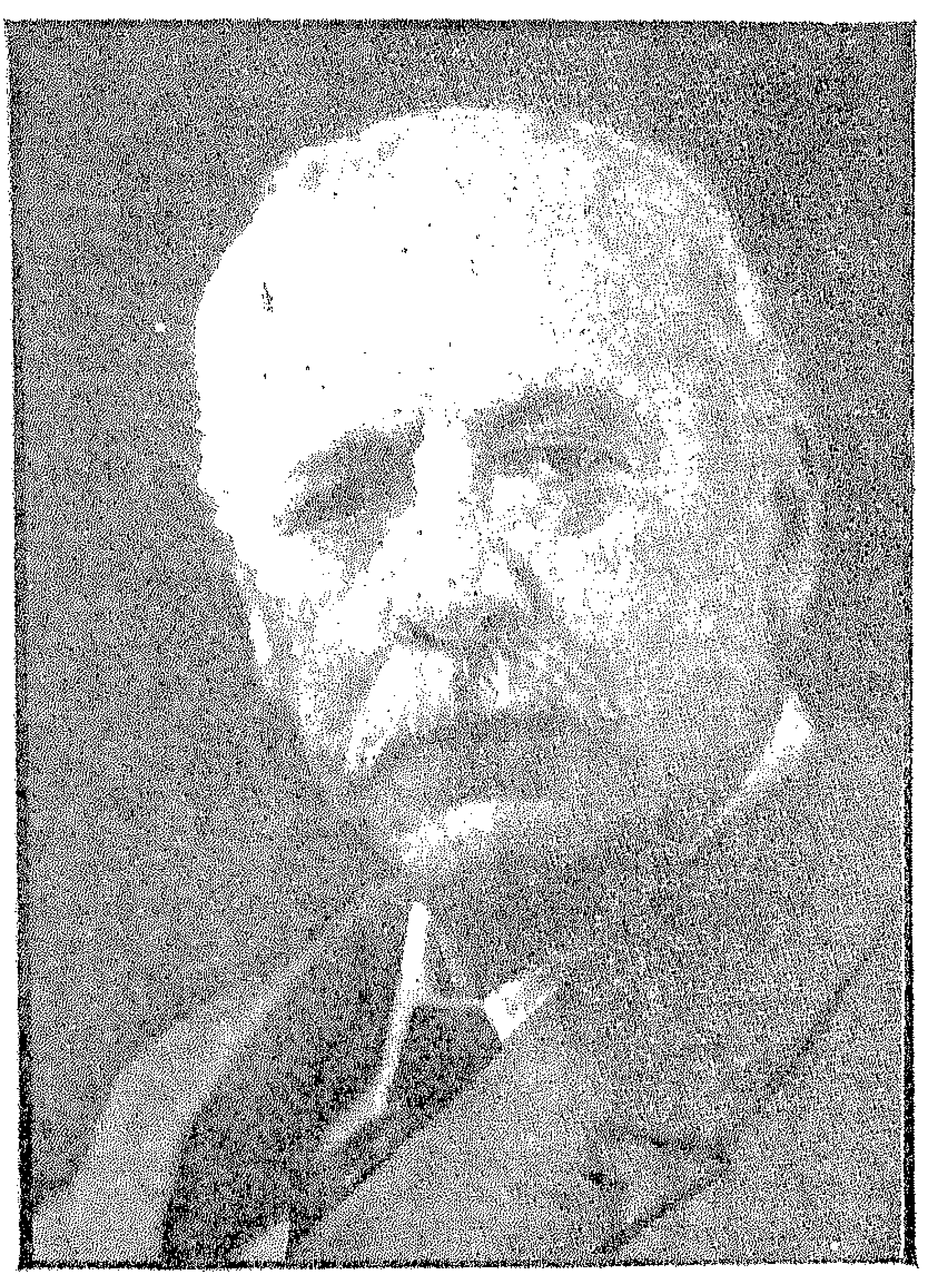
لورد دوفرين : أرسلت انجلترا رجلها دوفرين إلى مصر ليكتب تقريرا عنها وما تحتاج اليه من فنون الاصلاح، واحتجت تركيا على ارسال دوفرين ، وحادث دوفرين المصريين [٢] ودرس أحوالهم وكتب تقريرا عن مصر وطرق اصلاحها وأرسل صورة منه إلى جرانفيل وقدم أخرى إلى شريف باشا شاكرا له معاونته فى وضعه، وأهم ماجاء فى هذا التقرير ما كان خاصا بالجيش والشرطة ، والهيئات النيابية (مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية) ، والمحاكم الأهلية، والادارة ، وتخفيض الضرائب، وتحسين وسائل الرى (الخ) . ولم تجد انجلترا لديها رجلا أقدر على تنفيذ الخطة التى

---

(١) لانستطيع أن نصف المؤتمر بأبلغ مما وصفه به اللورد سالسبرى فى مجلس العموم إذ قال فى ٢٤ يولية «ليس المؤتمر الأوربى الاشبحا» ص ٢٩١ كرومر جزء ١

(٢) وصل دوفرين إلى الاسكندرية فى ٧ نوفمبر ١٨٨٢ فدوت المدافع إكراما له ووزع الأوسمة على كثير من الضباط الانجليز وأنزل قصر النزهة وزار الخديوى فى كوكبة من فرسان الانجليز ورد الخديوى له الزيارة وحضر محاكمة عرابى ومن معه وهو الذى توسط باستبدال النفى بالاعدام

اختطها دوفرين من بيرنج (منح لقب لورد كرومر ١٨٩٢) الذى خبر شئون مصر لما كان عضوا فى صندوق الدين ثم أحد مراقبى المالية ، فجاء إلى مصر قنصلا عاما فى سبتمبر ١٨٨٣



لورد كرومر .

نظام الحكم

السلطة التشريعية : رأى الانجليز أن المجلس النيابى القائم بدستوره ونشاطه لا يتفق وأغراضهم ، فاقترح دوفرين الغاءه وانشاء ثلاث هيئات نيابية هى : —

(١) مجالس المديريات : ويختار أعضاءها [1] أهل القرى والمدن ، وعملها تقرير الضرائب غير العادية التى قد تحتاج إليها الحكومة فى انفاقها على المنافع العامة الخاصة بالمديرية ، وعملها كذلك النظر فى أمور محلية كالاسواق

(١) ويختلف أعضاء المجلس من ٣ إلى ٨ تبعا لكبر المديرية أو صغرها

(ب) مجلس شورى القوانين : وأعضاؤه ثلاثون[1] (تعين الحكومة منهم ١٤ ، وتختار القاهرة عضوا وكل المحافظات عضوا ، ومجلس كل مديرية يختار من بين أعضائه عضوا) ويجتمع مجلس الشورى مرة كل شهر ويُستشار في كل قانون أو لائحة إدارية عمومية، وفي الميزانية، والحكومة حرة في مخالفة رأيه مع إخباره بأسباب المخالفة، ولا يجوز للمجلس مناقشة هذه الأسباب : اذن فعمله استشاري بحت

(ح) الجمعية العمومية : وتؤلف من ٨٢ عضواً (منهم ٤٦ عضواً تنتخبهم المدن والقرى[2] والباقون أعضاء مجلس الشورى والنظار) ، ومدة العضوية للجمعية — كعضوية مجلس الشورى — ست سنوات وجلساتها سرية كجلسات مجلس الشورى ، وتجتمع الجمعية مرة كل سنتين ، ومن اختصاصها عدم جواز ربط ضرائب أو عوائد أو عقد قروض إلا بعد عرضها على الجمعية وموافقتها عليها ، ورأيها قطعي

هذا هو النظام النيابي الذي ابتدعه دوفرين وقد وصفه بعضهم في مجلس العموم الانجليزي بأنه صورة كاذبة للحكم الدستوري ، ويعتذر كرومر عن ذلك بقوله إن مصر محتاجة للنظام قبل الحرية

وفي يوليه ١٩١٣ ألغى مجلس الشورى والجمعية التشريعية على أثر حملات المصريين عليهما لضآلة اختصاصهما وحقارة شأنهما وأحلت محلهما « الجمعية التشريعية » وكانت مؤلفة من ٦٦ عضوا ينتخبون على درجتين ومن ١٧ عضوا تعينهم الحكومة ومن النظار باعتبارهم أعضاء فيها بحكم مناصبهم ،

---

(١) يقول دوفرين ان المجلس اذا كان كله انتخابيا قد يتخطى الاكفاء أو المسيحيين

(٢) رأى دوفرين أن مجلس شورى القوانين الذي تنتخبه أعضاء مجالس المديريات لا يتصل اتصالا وثيقا بطبقة الفلاحين ، ففكر في انشاء الجمعية العمومية ليكون أعضاؤها أكثر اتصالا بالفلاحين وأعرف بحاجاتهم

وقد زيد اختصاصها زيادة يسيرة عن اختصاص الجمعية العمومية ومجلس الشورى إذ خولت حق اقتراح القوانين والتوسع فى مناقشة الحكومة

السلطة القضائية : انشاء المحاكم الاهلية : كانت المحاكم الشرعية قبل عهد اسماعيل باشا تقضى فى الأحوال الشخصية والمدنية ، أما الجنائية فكانت من إختصاص الادارة ، ولما جاء إسماعيل باشا أنشأ محاكم تعرف بالمجالس المحلية ، غير أن الادارة كانت تتدخل فى شئونها فتحرفها عن جادة العدل أحيانا ، وفي عام ١٨٨٠ تألفت لجنة لتنظيم المحاكم الأهلية ووضع قوانين لها ، وقد بدأت اللجنة عملها فعلا ووضعت قوانين اقتبستها من الشريعة الاسلامية الغراء والقانون الفرنسى ، غير أن الحركة العرابية حالت دون إنشاء المحاكم الأهلية المزمع إنشاؤها، فلما أخمدت الحركة افتتحت تلك المحاكم فى الوجه البحرى (١٨٨٣) ولما تجلى نفعها أنشئت محاكم مثلها فى الوجه القبلى (١٨٨٩) وهذه المحاكم ابتدائية واستئنافية .

ومما ذكر يتضح أن المحاكم شُرع فى إنشائها قبل أن يحتل الانجليز مصر، ولم يتدخل الانجليز فى القضاء المصرى إلا عام ١٨٩١ حين أصبح جون سكوت مستشاراً للحقانية وأوجد مراقبين يفحصون عن أعمال القضاء وأحكامهم ، كما أدخل بعض القضاة الانجليز فى محاكم الاستئناف الأهلية

السلطة التنفيذية : كان المفروض أن تكون هذه السلطة بيد الخديوى يعاونه وزراؤه ولكننا سنرى الانجليز يعملون بالتدريج حتى « احتلوا » التنفيذ والادارة ، كما احتلوا البلاد عسكريا من قبل

ويفتخر الانجليز بأنهم أدخلوا فى الادارة نظاما وحاربوا الرشوة ، وهذان أمران لاينكرهما عليهم أحد ، ويفتخرون كذلك بأنهم أبطلوا استخدام (الكرباج)، وألغوا السخرة [1] ،وهذان أمران قد انتحل الانجليز لانفسهم

---

(١) يقول كرومر إنه ألغى (The Three Cs) وهى Corruption (الرشوة) Courbache (الكرباج) و Corvée (السخرة)

في الغائهما فخراً مبالغا فيه ، إذ أن ذلك الالغاء جاء نتيجة لعوامل أهمها إنتشار الافكار الحرة التي لا يمكن أن يعيش الكرباج ولا السخرة في ظلالها[1]

وأنشئت هيئتان تستعين بهما السلطة التنفيذيه وهي الجيش والشرطة ، أما الجيش فقد أنشيء ليحل محل الجيش القديم الذى حل « لثورته » كما أسلفنا ، وكان بعض الناس قد أشار على دوفرين ان يؤلف جيش مصر من البانيين وشراكسة (الخ) فأبى إلا أن يكون لمصر جيش من أهلها ويرأسه طائفة من ضباط الانجليز فعين سير إفلن وود سرداراً للجيش المصرى الجديد واختار هذا من شاء من ضباط الانجليز ، كما اختار بعض ضباط الجيش المصرى القديم الذين لم يكن لهم يد فى حركة عرابى ، أما الجنود فاختيروا — كما يقول كرومر — من وراء المحراث رأسا ، وصار الجيش عبارة عن ثمان فرق عددها ٦٠٠٠ ولما اخلى المصريون السودان بعد ثورة المهدى وصار الدراويش (خلفاء المهدى) يهددون حدود مصر الجنوبية (كما سيجيء) أنشئت خمس فرق من عبيد[2] السودان ضاعفت عدد الجيش

---

(١) كان رياض باشا قد سبق الانجليز فى ١٨٧٩ إلى تحريم استعمال الكرباج ومع ذلك فقد ظل مستعملا حتى جاء دوفرين فأشار باصدار منشور جديد يحرم استعماله ورغم هذا المنشور أيضاً ظل الكرباج اداة قائمة للتعذيب فى «محاكم الاشقياء» ولئن بطل استعماله فى النهاية إن ذلك راجع إلى انتشار روح الحرية التى لا يمكن أن تحيا فى ظلالها تلك الاداة المرعبة الظالمة ، أما السخرة فقد ألغيت فى ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٩ ولم تبق إلا فى أمر واحد وهو المحافظة على جسور النيل (العونة) وهذا الامر قد ألغاه مجلس النواب المصرى ١٩٣٠ وقضى بأن يؤجر من يسخر فيه، وليس للانجليز أن يفخروا كثيرا بالغاء السخرة لأنه قد صار من المتعذر تسخير الناس لنمو الأفكار الحرة ولان (تفاتيش زراعية) قد أنشئت وكانت هذه تتمسك بعمالها وتعارض فى تسخيرهم ولان استخدام الكراءات جعل عمل الرجل المسخر غاليا ولان انشاء القناطر وخزان اسوان رفع منسوب الماء فى النهر فدخل ماؤه فى ترعه حتى ولو كان فيها غرين (طمى) كثير فقلت الحاجة إلى كثرة تطهير الترع

(٢) عبيد السودان يكرهون عربه (أى دراويشه)

أما الشرطة فقد جعلت ٧٠٠٠ [1] على رأسها ڤالنتين بيكر باشا

الاحتلال الادارى : لم يقنع الانجليز باحتلال مصر عسكريا بل عزموا منذ الساعة الأولى أن يحتلوا الوظائف الادارية الكبرى ، ولم يمض طويل وقت حتي أصبح الخديو ونظاره كمّا مهملا (والغريب أن حجتهم فى احتلال مصر كانت تأييد سلطة الخديو) وأصبح الأمر فى الواقع في يد كرومر وأعوانه الذين نصبهم فى النظارات وكلاء أو مستشارين ، وأصبح النظار يخضعون لوكلائهم أو مستشاريهم الانجليز ، ولقد عبر أحد الانجليز عن ذلك بقوله « نحن لا نحكم مصر بل نحكم حكام مصر »

غير أنه من الانصاف أن نذكر أن النظار المصريين حاولوا جهدهم أن يقفوا الانجليز عند حدهم ويمنعوهم التسلط على شئون مصر ، وحدث نزاع بين الفريقين حتي ظفر الانجليز ببغيتهم فأخضعوا رجال الحكم لمشيئتهم (١٨٩٥) ، ولنذكر الآن موجزاً لهذا النزاع :—

نظارة شريف الرابعة : كان توفيق باشا وديعا مسالما فلم يحرج صدور الانجليز فى شيء ، أما شريف باشا الذى تولى رآسة النظارة لرابع مرة أثناء القتال بين العرابيين والانجليز فقد اختلف والانجليز بخصوص إخلاء السودان على أثر ثورة المهدى (وسنذكر هذا الأمر بعد) فقد استمسك ببقاء السودان فى حوزة مصر ضمانا لمصالح مصر ، فأصرت انجلترا على اخلاء السودان وعلى وجوب انقياد النظار المصريين لنصائح انجلترا ، فغضب شريف غضبة أبيّة واستقال فى يناير ١٨٨٤ . ولم يتول النظارة بعد ذلك

نظارة نوبار الثانية : ألف نوبار النظارة بعد شريف وأخلى السودان وكان نوبار من أنصار الاحتلال وكان يقول « لو سُحب جيش الاحتلال لغادرت مصر مع آخر فرقة » وكان يمتدح ضباط الجيش الانجليزى وكان

---

(١) ٥٠٠٠ (جندرمة) و ٢٠٠٠ (بوليس)

يقول « إنى معاضد الاحتلال الحربى معارض للاحتلال الادارى » أى أنه لا يريد تدخلا من الانجليز فى ادارة البلاد .

وبدأ النزاع بينه وبين كلفورد لُوْيد الذى أرسلته انجلترا ولا تعرف له مهمة خاصة يؤديها فى مصر فلقبته بلقب « المدير العام للاصلاحات » وبقى مدة يتناول راتبا ولا يجد له عملا معينا حتى جُعل وكيل وزارة الداخلية ، واختلف ونوبار فطلب نوبار إلى الحكومة الانجليزية استدعاءه ، وكان الانجليز فى ذلك الوقت يرون فى نوبار الرجل الضرورى لهم لأنه موافق على اخلاء السودان فكان لابد من ارضائه فأوعز إلى كلفوردلويد بالاستقالة فاستقال فى سنة ١٨٨٤ ، ثم تنازع نوبار مع مستشارين آخرين ومع كرومر لأنه كان ينصر المستشارين ثم عاد فاختلف وكرومر نفسه بخصوص الشرطة عندما مات فالنتين بيكر فقد أراد نوبار أن ينصب مصريا مكانه على الشرطة وأراد كرومر انجليزيا ، وبعث نوبار برسول إلى لندن ليعمل على سحب كرومر بدعوى أن سياسته تغضب الناس على انجلترا ، فنصرت انجلترا رجلها ونبذت نوبار كما ينبذ الرداء الخلق ، فقد وجدت نفسها فى غنى عنه بعد أن أخلى السودان

ولما رأى توفيق باشا غضب الانجليز على نوبار أرسل اليه فى ٧ يونيه سنة ١٨٨٨ أمرا عاليا بالاقالة يقول فيه إنه يستحيل ابقاؤه فى منصبه لاختلافهما فى الآراء ويقول فى ذلك كرومر « كان الانجليز حلفاء نوبار بالطبيعة فلما فصم عرا تحالفه معهم كان سقوطه أمرا مقضيا » واستوزر توفيق رياضا

نظارة رياض الثانية : كان نوبار ورياض يتشابهان فى شىء هو كرههما تدخل الانجليز فى الادارة وإن كانا لايعارضان فى الاحتلال العسكرى وقد حدثت المشادة بين رياض وكرومر من أجل القضاء ، فقد كان نوبار قبل رياض يأبى أن يسمح للانجليز بالتدخل فى أمره إذ كان يرى نفسه

كفأً له وحجة فيه ، فلما أقيل نوبار اعتزم بيرنج ألاّ ينجو القضاء من بين أصابعه اللينة المرنة ، فاستدعى من محكمة بومباى العليا قاضيا يسمى سكوت وطلب اليه أن يكتب تقريراً لاصلاح المحاكم ، فعارض فيه رياض وألحت انجلترا فى تعيين سكوت مستشارا للحقانية فأذعن توفيق باشا وعينه فى ١٥ فبراير سنة ١٨٩١ رغم أنف رياض وفخرى وزير الحقانية ، فاستقال فخرى ، وأدى غضب الانجليز على رياض الى استقالته أيضا فى ١٤ مايو سنة ١٨٩١ واستوزر توفيق مصطفى باشا فهمى

نظارة مصطفى فهمى الاولى : يمتدح الانجليز مصطفى فهمى وينسبون اليه الاخلاص والامانة والصدق والأدب الجم والكمال والسياسة والكياسة [1] ويقولون عنه إنه الوزير المصرى الوحيد الذى يعطف على الانجليز بغير تحفظ ولا تستر [2]، إذن فاستوزار مصطفى فهمى بعد رياض انتصار لبيرنج ، وأصبح بيرنج ومعاونوه أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد ولكن لم يمض على ذلك الانتصار سبعة أشهر حتى مات توفيق وهو فى سن الاربعين فى حلوان (فى يناير ١٨٩٢) وخلفه ابنه عباس حلمى الثانى

الخديوى عباس حلمى الثانى يناوئ الانجليز :ـــ كان عباس حلمى وأخوه الأمير محمد على يتمان دراستهما فى المدرسة الملكية العليا بفينا حين وافاهما نبأ وفاة أبيهما ، فسارعا إلى مصر ، وأمرت الحكومة الفرنسية بعض سفنها بالاسكندرية أن تحيى الخديوى الجديد وأنعمت عليه بالوشاح الأكبر للجيون دونير (وسام الشرف) وكان عمر عباس إذ ذاك ثمانية عشر ربيعا ، واستبقى أول الأمر مصطفى فهمى رئيسا للنظار (وتعتبر هذه النظارة نظارة مصطفى فهمى الثانية)وكان عباس شابا جريئا اعتزم أن يحرم الانجليز نفوذهم فى مصر معتمدا على تشجيع فرنسا وروسيا وتركيا والمصريين ، ولما قابله كرومر

(١) مصر الحديثة لكرومر ص ٣٤٦ جزء ٢
(٢) انجلترا فى مصر لملنر ص ١٣٢

لأول مرة أرسل إلى حكومته يقول فى ٢١ فبراير « إنى أرى أن الخديوى الشاب سيكون مصريا بحتا » ويقول فى كتابه الذى أصدره سنة ١٩١٥ عن عباس الثانى « إن ظواهر نياته كانت تدل على رغبته أن يقف موقف المصرى الغيور على وطنه » ، وكان عباس يرى مصطفى فهمى انجليزيا أكثر من اللازم، فأرسل إليه سكرتيره يطلب إليه أن يستقيل فقال الوزير للسكرتير « يحسن بالخديو أولا أن يستشير اللورد كرومر » فلما عرف المصريون ماقاله مصطفى فهمى هاجوا ورموه بالخيانة لمولاه ولوطنه وقالوا إن عقاب العزل لأقل مايستحقه وزير اجترم مثل هذا الجرم الفظيع ، فعزله الخديوى فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ واتخذ فخرى باشا رئيس نظاره ، فغضب كرومر ويقول « ولو استشارنى الخديوى قبل إسناد المنصب إليه لما كنت أبديت أى اعتراض على تعيينه أو تعيين أى باشا آخر ، غير أن التغيير دُبر ونفذ بغير أن يؤخذ رأيى ، وقد كان من المستحيل أن أقر تغييرا كهذا فى هيئة الحكومة يبعد أنصار السياسة البريطانية من النظارة » وزار كرومر الخديوى بعد ظهر ١٥ يناير ليقنعه بالعدول عن سياسته فأبى وقال إنه فعل ما هو داخل فى دائرة سلطته الشرعية وانه لايقبل أى اعتراض على عمله ، فأرسل كرومر إلى حكومته يشكو مسلك الخديوى ويقول « أما إذا أعطينا الخديوى درسا هذه المرة فإنى أرجح أن لن تقوم مشاكل أخرى فى المستقبل » واجتمع مجلس وزراء انجلترا فى اليوم التالى وأرسل لكرومر البرقية الآتية « إن حكومة جلالة الملكة تنتظر أن يؤخذ رأيها فى المسائل الخطيرة مثل مسألة تغيير النظار، ويظهر أن لاموجب فى الوقت الحاضر للتغيير لذلك لا نستطيع أن نوافق على تعيين فخرى باشا » وذهب كرومر إلى الخديوى فى ١٨ يناير ليعرف قراره النهائى فقال له « إنى مضطر للتسليم أمام القوة ، وسأعدل عن تعيين فخرى باشا رئيسا للنظارة ولكنى أرفض رفضا باتا عودة مصطفى

فهمى ولا أقبل العمل مع ناظر ترغمنى عليه دولة أجنبية ، وإذا كانت انجلترا تنتحل لنفسها حق رفض ناظر لا تثق به فهل ينكر مثل هذا الحق على الخديوى؟» وقرّ الأمر على حل وسط وهو ألا يعود مصطفى فهمى ،وان يتعهد الخديوى أن يتبع راضيا نصيحة حكومة جلالة الملكة فى كل المسائل فى المستقبل . والسبب فى تقهقر عباس انه لم يجد معاضدة قوية من فرنسا وروسيا ولا من مختار باشا الغازى مندوب تركيا الذى كان إذ ذاك بمصر ، وقد أثر فى نفس الخديوى مسلك فرنسا لأن احتجاجها على تصرف انجلترا معه كان فاترا وقال لأحد رجال الصحافة «إننا لم نجد أحدا يتكلم عنا ويقول الحقيقة عن المسألة المصرية ، نعم لم نجد أحدا ، لم نجد أحداً »

نظارة رياض الثالثة : انضم رياض إلى الخديوى وشجعه على المضى فى مناوأة الانجليز وصرح للمستشار المالى « أن سلوك الخديوى قد أكسبه فى أعين الشعب احتراما عاما وأن جميع المصريين الآن فى جانبه » وجاءت الوفود الى القاهرة لتهنىء الخديوى بوطنيته ، وعقدت الاجتماعات الوطنية فى الاقاليم ، وظهرت المقالات الوطنية القوية فى الصحف وشبه كرومر تلك الحركة بالحركة الوطنية العرابية فى عهد توفيق مع فارق واحد هو أن الخديوى الآن هو قائد الحركة ، ووصف ملنر حال مصر إذ ذاك فقال: « إن الشعور الذى أظهرته المقامات العالية انتشر بين جميع طبقات الامة بسرعة احتراق البارود » وأرسل كرومر الى حكومته يلحف فى زيادة عدد جيش الاحتلال ويختم برقيته بقوله « وانى أرغب أن أعلن هذا الامر –أى زيادة جيش الاحتلال– قبل أن يجد الخديوى أو رياض باشا فرصة كافية للاقدام على ارتكاب عمل آخر من أعمال الطيش والحماقة » فأرسلت اليه الحكومة برقية فى ٢٣ يناير تكلفه فيها أن يُبلغ الخديوى ورئيس نظاره أن الحكومة الانجليزية قررت زيادة جيش الاحتلال فى مصر ، غير أن رياضا لم يتقهقر

بل أطلق الحرية للصحافة وظل يعمل على محاربة التدخل الاجنبي في إدارة مصر، واحتذى جميع الموظفين المصريين حذو عباس ورياض في مناهضة النفوذ الانجليزى، وأظهرت الأمة مظهر الكراهية الشديدة للحكم الاجنبي والتعلق العظيم بالحرية والاستقلال

وفى أوائل يناير ١٨٩٤ وقع حادث الحدود الشهير، وتفصيله أن الخديوى صعد فى النيل وبرفقته ماهر باشا وكيل نظارة الحربية (وكان من المناوئين للانجليز) وزار الخديوى الجنود المرابطة عند الحدود الجنوبية ووجه نقداً كثيرا للضباط الانجليز فى أسوان وكورسكو ووادى حلفا، وقال لكتشنر سردار الجيش المصرى فى ١٩ يناير إنه يرى من العار أن يكون الجيش المصرى مفتقراً الى الكفاية الى هذا الحد، فرفع كتشنر اليه استقالته، فطلب اليه الخديوى أن يستردها فلم يصر كتشنر عليها ولم يستردها نهائيا — كما قال كتشنر فى برقية أرسلها الى كرومر — فلما بلغ كرومر نبأ هذا الحادث عز عليه أن يوجه الى السردار وأعوانه الانجليز نقد بعد أن قضوا أكثر من عشر سنوات لا يتدخل فى شأنهم أحد ، وكان كرومر يتصيد فرصة يذل بها الخديوي الشاب ، والآن نجده يقول فى كتابه « إن الفرصة التي كنت أرقبها قد جاءت ، وحقا لمن الصعب اختيار ميدان للوقعه أنسب من هذا الميدان» . ويقول «قد يحدث فى بعض الأحيان عند سنوح الفرص للضرب أن يكون من الحمق تأجيل ذلك ، بل يجب انزال الضربه القاضية بغير تردد وقد كان خلع الخديوى اسماعيل وضرب الاسكندرية من هذا النوع » ، واستشار كرومر حكومته واتفق معها على أن يطالب من الخديوى على سبيل الترضية أن ينقل ماهرا باشا من نظارة الحربية وأن يصدر أمرا عسكريا يثنى فيه على الضباط البريطانيين والجيش ، وإذا مارفض الخديوى هذه الترضية استُخدمت الشدة كأن يوضع الجيش المصرى بأجمعه تحت إمرة جيش

الاحتلال ، ولم يجد الخديوى فى هذه المرة أيضا معاضدة قوية من فرنسا وروسيا وتركيا [1] فأذعن وأرسل فى ٢٦ يناير من الفيوم برقية إلى السردار ونشرت فى الجريدة الرسمية وجاء فيها « إنى قبل أن أبرح الوجه القبلى أرى أن أكرر اهتمامى ومزيد انعطافى نحو الجيش الذى زرته فى الحدود وأن أثبت لك رضائى الذى أثبته قبلا من ترتيبه ونظامه ، ثم انه يسرنى أن أهنىء الضباط الذين يقودونه من مصريين وانجليز ، وأن أذكر الخدمات التى قام بها الضباط الانجليز نحو جنودى ، وأرجوك ياحضرة السردار أن تبلغ هذا الأمر للضباط والعساكر » ، ونقل ماهر باشا محافظا ببورسعيد وحل محله زهراب باشا الذى رشحه كتشنر نفسه

نظارة نوبار باشا الثالثة : لم يشد رياض أزر الخديوى فى حادثة الحدود كما كان يُنتظر منه ويعلل الانجليز ذلك بأن رياضا رأى تهورا فى مسلك الخديوى فى هذا الحادث ، لذلك نرى الخديوى غاضبا على رياض ، ولم يحاول كرومر أن ينصر رياضا لعدائه السابق للانجليز ، فاستقال رياض فى ١٤ ابريل واستدعى الخديوى كرومر واستشاره فيمن يخلف رياضا — محافظا بذلك على وعده للحكومة البريطانية — فأشار على الخديوى بنوبار ويقول كرومر « إن نوبار تولى منصبه ليعمل على التوفيق بين الموظفين البريطانيين والمصريين وقد كللت مساعيه بالنجاح فى هذا الأمر » وبمعنى آخر ألانت النظارة جانبها حتى تسلط الموظفون الانجليز على الموظفين المصريين ، وأصيب نوبار بصدع فى رجله وساءت صحته فاستقال فى ١١ نوفمبر ١٨٩٥ ويشكره كرومر على التوفيق الذى أحدثه

نظارة مصطفى فهمى الثالثة : ١٨٩٥ — ١٩٠٨ : أشار كرومر على الخديو باتخاذ مصطفى فهمى رئيسا فقبل مكرها لأنه لم يجد إبان الحوادث

---

(١) كانت تركيا تخشى اذ ذاك صولة انجلترا

الماضية دولة تقف إلى جانبه وقفة صادقة ، وبذلك تم توطيد النفوذ الادارى للاحتلال وصار العميد البريطانى (كرومر) صاحب السلطة الفعلية في البلاد يحكم مع النظار وبوساطتهم ، أما الخديو الذى غلب على أمره فيقول عنه كرومر إنه تعلم أن لا فائدة من مقاومة الانجليز جهاراً

وتسلمت الأمة المصرية من هذا التاريخ (١٨٩٥) زمام حركة المعارضة وظهر من بين أفرادها أبطال الوطنية : —

مصطفى كامل ثم فريد ثم سعد (١)

المسائل المالية والاقتصادية

إلغاء المراقبة الثنائية الثانية : إن انجلترا التى احتلت مصر لا تسمح طبعا لدولة أخرى بالاشتراك معها فى الرقابة على مصر ، لذلك نرى شريفا باشا يقدم لانجلترا وفرنسا مذكرة فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٨٢ يطلب فيها موافقتهما على إلغاء المراقبة الثنائية ويعلل هذا الالغاء بان المراقبين كانت لهما سلطة سياسية أغضبت الشعب ، فوافقت انجلترا عن طيب خاطر ، أما فرنسا فارغت وأزبدت وأرسلت قنصلها فى مصر إلى قصر عابدين يحتج على إلغاء ليس من حق حكومة مصر ويلقى عليها تبعته ، وفى ٣ فبراير سنة ١٨٨٣ طلب شريف إلى الخديو أن يوافق على تعيين السير أو كلند كلفن (المراقب الانجليزى السابق) مستشاراً ماليا في نظارة المالية بحيث يكون موظفا مصريا خاضعا للخديوى وألا يكون ناظرا للمالية ، ويحضر جلسات مجلس النظار إذا استدعى لذلك ، فوافق الخديوى وعين كلفن ، ولما تخلص الانجليز من المراقبة الثنائية وانفردوا بتدبير شئون مصر المالية ، صمموا أن يظهروا أمام العالم بمظهر

(١) فى مصر اليوم زعماء غيورون لا نكتب عنهم حتى يصبحوا فى ذمة التاريخ

المنقذين لمصر ، ولم تكن مصر في حاجة إلى منقذ إلا من جهة واحدة وهي « المال » لذلك رسموا لأنفسهم خطة نفذوها بدقة وهي : تحسين حال الفلاح ، وتنظيم ميزانية الحكومة .

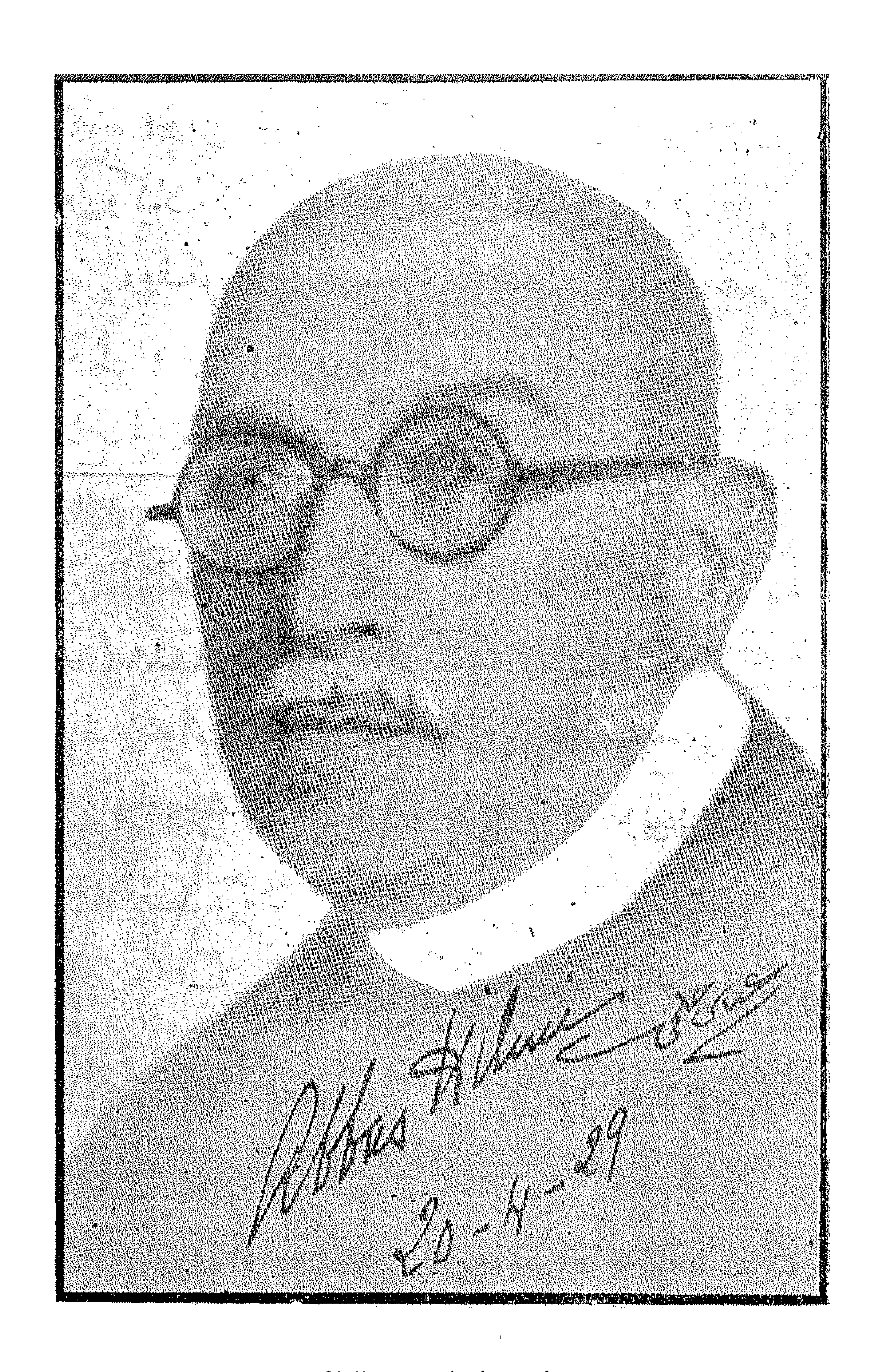
تحسين حال الفلاح : عمل الانجليز على تحسين حال الفلاح بتعديل الضرائب وتحسين وسائل الري : —

تعديل الضرائب : ألغيت في عهد المراقبة الثنائية الثانية ضريبة المصلح (الملح) وبعض المكوس والعوائد التي كانت قد فرضتها الحكومة في عهد اسماعيل باشا ، وألغي معظم ما بقي منها [1] في عهد الاحتلال ، وتجاوزت الحكومة عن بعض المتأخرات من الضرائب للذين لم يستطيعوا أداءها ، أما ضريبة الأرض فقد خففت في بعض المديريات الفقيرة وأعطي كل دافع ضريبة « وردا » يسجل فيه ما يدفعه للمحصل ، فبطل التلاعب في جمع الضرائب

تحسين وسائل الري : كان المماليك لا يهتمون بوسائل الري ، فجاء محمد علي فأنشأ الترع وأقام القناطر الخيرية ، وجاء سعيد وكانت له عناية بتطهير الترع ، وجاء اسماعيل فغشي رقعة مصر بنسيج من الترع والقناطر والجسور ، غير أن كل ذلك قد اصابه عطل كبير بسبب الاضطراب المالي والسياسي الذي أصاب البلاد في آخر عهد اسماعيل وأول عهد توفيق . ولم تدرك المراقبة الثنائية والنظارة الأوربية أن في إصلاح شئون الري مصلحة للمصريين ولحملة السندات معا ، لذلك بخلوا على الري (وعلى شئون الادارة جميعا) بما يأخذ

---

(١) من الضرائب السخرة فهي في الواقع ضريبة : اذ عمل الرجل عبارة عن مال ، ومن الضرائب الملغاة أيضا الضريبة الشخصية التي كان يدفعها الرجل بنسبة ثروته ، وضريبة الويركو أو الفردة أو الفرضة وكان يدفعها كل شخص يحترف مهنة أو صناعة



عباس باشا حلمى الثانى

بناصرها ، ولما احتل الانجليز مصر أدركوا مالم تدركه أوربة من قبلهم فعاودوا إصلاح نظام الرى وساعدهم على ذلك أن مؤتمر لندره سنة ١٨٨٥ قد قرر مليونا من الجنيهات للرى (وسنذكر أمر هذا المؤتمر بعد) وأن مليونا آخر قد خصص للرى أيضا سنة ١٨٩٠

المهندسون : استحضر الانجليز مهندسين غالبهم من الذين مارسوا أعمال الرى فى الهند ، ومن أشهر هؤلاء المهندسين الكولونيل سكوت مونكريف (الذى عين وكيلا لوزارة الأشغال فى يناير ١٨٨٤ ووضع خطة إصلاح الرى)، ومنهم روس وولكوكس وفوستر وجارستن وقسمت مصر خمس دوائر للرى ثلاثة فى الوجه البحري واثنتين فى الوجه القبلى

إصلاح الرى فى الوجه البحرى : (١) القناطر الخيرية : أنشأها محمد على كما أسلفنا، وعليها تعتمد أراضي الدلتا في الري صيفا، ثم تصدع بعض بنائها حتى جرى الماء تحت الاساس نفسه ولم تعد صالحة فأصلحها الانجليز ما بين عامى ١٨٨٤ و١٨٨٩ ، ويذكر هؤلاء القوم ان الاصلاح كان يجري فيها حتى في أيام الفيضان وأنهـا رغم ما يجرى فيها من الاصلاح كانت تستخدم فيما أنشئت من أجله ويشبهون ذلك « باصلاح ساعة دون إيقاف أتراسها »

(٢) طُهر رياح البحيرة واستعمل فى تطهيره الكراءات[1] وعمق الرياح المنوفى وحفر الرياح التوفيقى[2] الذى يروى الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط

(٣) انشئت قناطر زفتى لتساعد على تنظيم وتوزيع الرى فى الوجه البحرى

(٤) أنشئت بعض المصارف

إصلاح الرى في الوجه القبلي : كان معظم الوجه القبلى يروى بالحياض فأرادت الحكومة أن تحول هذا النظام على التدريج الى رى دورى فقامت بالاعمال الآتية : —

(١) وسعت ترعة الابراهيمية وانشأت قناطر أسيوط (١٨٩٨-١٩٠٢) لحجز المياه حتى ترتفع وتملأ الابراهيمية فتروى أسيوط والمنيا وبنى سويف والجيزة .

---

(١) كلف نزح المتر المكعب ٥ قروش بعد أن كان يكلف ١٠٠ قرش صاغ

(٢) نسبة إلى توفيق باشا

(٢) أنشئت قناطر إسنا سنة ١٩٠٩ فانتفعت بها مديريتا قنا وجرجا

(٣) إنشاء خزان أسوان: إن الغرض من إنشاء القناطر الخيرية وقناطر زفتى وأسيوط وإسنا إنما هو حجز الماء قبلها ليرتفع منسوبه فيملأ الترع ، وليس الغرض منها خزن الماء ، وكان محمد على قد فكر فى إنشاء خزان يخزن الماء ، وكاف لينان باشا أن يحيى بحيرة موريس التى أنشأها أمينمحت الثالث فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، ولكن لينان رأى أن ذلك الأمر ليس فى الامكان ، ودرس الانجليز من جديد فكرة إنشاء خزان حتى أدى بهم الدرس إلى فكرة إنشاء خزان فى أسوان ، واقترح ولكوكس أن يكون ارتفاع الخزان ٣٤ مترا حتى يستطيع أن يحجز ٤٠٠٠ مليون من الأمتار المكعبة . فلم يؤخذ باقتراحه وجعل ارتفاعه ٢١ متراً ويحجز وراءه ١٠٠٠ مليون متراً مكعبا، وتم انشاؤه مابين عامى ١٨٩٨ و ١٩٠٢ واضطرت الحكومة إلى تعليته (١٩١١ — ١٩١٢) إلى ٢٨ مترا فأمكن أن يخزن ٢٫٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مترا مكعبا ولقد انتفعت مصر بالخزان من وجهين :

(أولهما) خزن الماء حتى تنتفع به الأراضي عند انخفاض النيل فى الصيف

(ثانيهما) رفع منسوب المياه حتى تملأ الترع المختلفة بغير حاجة إلى كثرة تطهيرها فساعد هذا على الغاء السخرة

تفاخر الانجليز بأعمال الرى : يفخر الانجليز علينا باصلاح وسائل الرى فى بلادنا ونحن لم نبلغ من السخف ما يجعلنا ننكر عليهم ذلك أو نحرمهم لذة ذلك التفاخر، غير أننا نذكر للقارىء ملاحظتين : —

(١) أن الانجليز لم يبدءوا إصلاح الرى بل عاودوه والفضل دائما للمتقدم

(٢) نشط الانجليز لاصلاح الرى ليصلحوا حال مصر وفي صلاح حال مصر راحة لهم وغنم لأسباب منها : —

(ا) ان المؤتمر الدولى الذى عقد فى لندن سنة ١٨٨٥ أنذر الانجليز ان

لم يصلحوا حال مصر المالية تدخلت الدول فى الأمر، فكان حتما على الانجليز أن يصلحوها وإلا فقدوا فرصة الانفراد بالسيطرة على مصر

(ب) إن تقدم وسائل الرى ينشط الزراعة لا سيما زراعة القطن الذى تتلهف عليه لانكشير

تنظيم ميزانية الحكومة : اجتهد الانجليز أن يجعلوا دخل الحكومة كافيا لمصروفاتها . وقد بلغوا ما أرادوا بالوسائل الآتية :

(١) أبطلوا زراعة الدخان فى مصر وزادوا الضريبة الجمركية على الكيلوجرام من الوارد منه إلى مصر، ووضعوا نظام « البدلية العسكرية » المعروف فصار موردا جديدا للحكومة

(٢) عقد « القرض المضمون » : اعتزم الانجليز عام ١٨٨٤ أن يحصلوا لمصر على قرض جديد للأغراض الآتية : -

(ا) لسداد عجز الميزانية من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٤ وذلك العجز نتيجة لقانون التصفية الذى لم يترك للادارة ما يكفيها

(ب) لسداد التعويضات التى قدرتها لجنة دولية لمن لحقهم ضرر فى الاسكندرية وغيرها أثناء الثورة العرابية

(ج) لنفقات إخماد ثورة السودان

(د) لنفقات جيش الاحتلال

وأرسل جرانفيل إلى دول أوربة أن ترسل مندوبين[١] عنها إلى مؤتمر يعقد فى لندره ليبحث فى مسائل مصر المالية[٢]، غير أن فرنسا انتهزت

---

(١) كان موزوروس باشا يمثل تركيا ويقول عنه كرومر انه كان ينام فى غالب الجلسات

(٢) نلاحظ أن عقد هذا المؤتمر كان ضروريا لأن فرمانى السلطان اللذين قدما الى توفيق وعباس الثانى ينصان على عدم عقد قروض إلا لاصلاح المالية وبموافقة الدائنين الحاليين

هذه الفرصة وأرادت أن يتناول المؤتمر موضوعى الجلاء وتقرير حيدة قناة السويس ، وعقد المؤتمر برآسة جرانفيل، واستطاع جرانفيل أن يتهرب من فتح موضوع الجلاء وأن يحيل موضوع قناة السويس على لجنة دولية تجتمع فى باريس . ونجح جرانفيل فى قصر المؤتمر على المسائل المالية، وطلب الى المندوبين أن يخولوا الخديوى حق اقتراض ٩ ملايين بضمانة انجلترا، وقد لاقى الانجليز صعوبة كبرى فى حمل الدول على الموافقة على هذا القرض لحسد الدول لها على مركزها فى مصر ،ولكن تغلب الانجليز فى النهاية وساعدهم على ذلك أمران : — (١) للدول رعايا في مصر وسينالون من التعويضات نصيبا (٢) موافقة انجلترا على أن يكون لكل من ألمانيا وروسيا مندوب في صندوق الدين (ولم يكن لهم ذلك من قبل) ، وتمخض المؤتمر عن اتفاقية لندره (١٨ مارس ١٨٨٥) وأهم ما ورد فيها : —

ولا — عقد قرض يعرف بالقرض المضمون وقدره تسعة ملايين تقريبا مع روتشيلد بفائدة ٣ ٪ بضمانة الدول (لا انجلترا وحدها) واشترطت الدول (ا) دفع تعويضات ملاك الاسكندرية وغيرها وقدرها ٤٠٠٠ر٠٠٠ جنيه تقريبا (ب) تسديد العجز فى الميزانية من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٨٥ وهو أربعة ملايين تقريبا (ج) تخصيص مليون لأعمال الرى

ثانيا — أن يكون للحكومة الحق فى بيع الدائرة السنية ومصلحة الدومين لسداد ما عليهما من ديون

ثالثا — مساواة الأجانب بالمصريين فى دفع الضرائب على المبانى

رابعا — ان يخصص ٥٫٢٣٧٫٠٠٠ جنيه مصرى لمصروفات الحكومة ثم تدفع أقساط الديون وما يتبقى من الايراد بعد ذلك يقسم مناصفة بين الحكومة وصندوق الدين

خامسا — اشترطت الدول على انجلترا (باقتراح فرنسا) انه إن لم

تتمكن انجلترا من إصلاح مالية مصر فى ثلاث سنوات كان للدول حق تنظيمها والاشراف عليها

وتهافت الناس فى أوربة على شراء سندات القرض الجديد لثقتهم الكبرى بضمانة الدول الاوربية العظمى

مزايا التسوية الجديدة : —

(١) انخفاض فائدة القرض الجديد

(ب) وجود المال الكافى لدى الحكومة لنفقات الادارة والاصلاح

(٣) تحويل الدين الممتاز : سعى الانجليز حتى حولوا الدين الممتاز[١] ١٨٩٠ (ومعنى التحويل نقص الفائدة مع زيادة يسيرة فى رأس المال ويبقى رأس المال بعد تحويله فى الغالب بغير نقصان إذ لا يدفع منه شىء عادة) فصار الدين الممتاز ٢٩٫٤٠٠٫٠٠٠ [٢] ونقصت الارباح التى تدفعها الحكومة نحو ثلث مليون انتفعت به الحكومة في اصلاحاتها

(٤) اتفاقية ١٩٠٤ : كانت فرنسا تنفس على انجلترا مركزها فى مصر وتعمل على مناوأتها فيها ، ولكنّ قلق الدولتين من قوة ألمانيا جعلهما تقتربان

---

(١) حول كذلك دين الدائرة السنية لا بطريقة انقاص الفائدة بل بنقص رأس المال بقدر ١٥٪

(٢) يدخل فى هذا الدين (ا) مليونان قد استدانتهما الحكومة لتدفع للخديو اسماعيل وأسرته مايطالب به من تعويض ، لان اسماعيل باشا قام يطالب الحكومة بخمسة ملايين من الجنيهات هى عبارة عن أموال انفقها فى اصلاح الاراضى التى تخلى عنها للحكومة ، وعن أثمان القصور والأثاثات والدواب الخ التى أخذتها الحكومة منه فأعطته الحكومة وأسرته أراضى قيمتها ٢٫٢١٠٫٠٠٠ جنيه والباقى دفع لهم نقدا وأوراقا مالية (ب) سندات جديدة قيمتها ١٫٣٠٠٫٠٠٠ خصصت لأعمال الرى واستبدال المعاشات (ح) سندات جديدة قيمتها ١٫٧٠٠٫٠٠٠ تقريبا لادخال تحسينات على سكك الحديد .والديون المذكوره (ا ، ب ، ح) هى خمسة ملايين قد رخص السلطان سلفا للحكومة المصرية فى استدانتها ١٨٨٨

بعضهما إلى بعض حتى عقدا الاتفاق الودى فى ٨ ابريل ١٩٠٤ الذى أطلق يد انجلترا فى مصر ويد فرنسا فى مراكش ، وألحق بهذا الاتفاق ملحق خاص بتنظيم مالية مصر ، وملخص ما جاء فيه : —

(أولا) خصصت [١] ضرائب أطيان جميع المديريات (ما عدا قنا) [٢] لخدمة الدين ، وتدفع تلك الضرائب لخزانة صندوق الدين حتى يأخذ منها المبلغ اللازم لخدمة الدين وما زاد عن ذلك يدفع كله لخزانة الحكومة (لا نصيفه كما كان مقرراً فى مؤتمر لندره ١٨٨٥) وإذا عجزت الضرائب عن خدمة الدين كله تلزم الحكومة سد العجز من خزانتها

(ثانيا) أعيد للحكومة المصرية أموال الاحتياطى (والوفورات) الناشئة من عملية تحويل الدين . وكانت هذه المبالغ وقدرها ستة ملايين يديرها صندوق الدين ، ويتخذها سببا للتدخل فى شئون مصر المالية والادارية كلما احتاجت الحكومة إلى شىء من هذه الأموال

(ثالثا) كان قانون التصفية يحرم على الحكومة عقد قرض بدون موافقة صندوق الدين فقضى اتفاق ١٩٠٤ على هذا التحريم [٣]

ولقد كان من أثر هذا الاتفاق أن شلت سلطة صندوق الدين على مالية مصر أى شلت سلطة الدول، وأطلق يد الحكومة المصرية أو بالأحرى أطلق يد الانجليز المسيطرين على مصر

---

(١) وكان المرهون لخدمة الدين قبل ١٩٠٤ هو : ايرادات السكك الحديدية والبرق وميناء الاسكندرية والجمارك وأربع مديريات

(٢) مديرية قنا كانت قد خصصت من قبل ضمانا اضافيا لقرض الدومين

(٣) نص اتفاق ١٩٠٤ كذلك على أن يخصص مبلغ ١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه مصرى بصفة مال احتياطى بصندوق الدين يستخدم إذا عجزت الضرائب عما يحق لأصحاب الدين ، ووضع مال نقدى قدره نصف مليون (زيد فيما بعد إلى ١٫٦١٠٫٠٠٠ جنيه) تحت أمر صندوق الدين لادارة أعماله

نتائج مجهودات الانجليز المالية والاقتصادية :

(١) أربى دخل الحكومة على مصروفها

(٢) صار لمصر مال احتياطى بلغ ٣٣[١] مليونا من الجنيهات عام ١٩٢٧ وذلك بخلاف الاحتياطى بصندوق الدين

(٣) سُدد ما بقى من قرض الدائرة السنية فى ١٥ اكتوبر ١٩٠٥ ببيعها[٢]. وكذلك سدد ما بقى من قرض الدومين فى يونية ١٩١٣ وذلك ببيع بعض أراضيه وأصبح ما بقى من أرضه ملكا خالصا للحكومة

ومهما يكن من جهود الانجليز فى اصلاح حال مصر الاقتصادية والمالية فان ذلك لاينسى المصريين حقهم فى الاستقلال التام ورغبتهم فيه، كما أن هذه الجهود لايمكن أن تغسل جنايتهم على هذه البلاد بأغفالهم شئون التعليم إلا قليلا[٣] واتخاذهم التعليم — على ما به من قصور — اداة لتخريج موظفين «متجلنزين» يقنعون بصغرى المناصب ويتركون كبراها للانجليز ولولا همة الوطنيين أمثال بطل الوطنية الكبير المغفور له مصطفى كامل باشا لتمت الجناية ، فقد قام هؤلاء الوطنيون وأنشئوا المدارس الأهلية (مثل كلية مصطفى كامل) والجامعة المصرية (عام ١٨٠٨) وأوفدوا البعثات الى أوربة

---

(١) هناك رأيان فيما يستخدم فيه مال مصر الاحتياطى : أولهما شراء سندات الدين العمومى وثانيهما ابقاء هذا المال كله أو معظمه احتياطا لعجز قد ينشأ فى ايراد الجمارك أو فى المحصولات المصرية

(٢) بيعت الدائرة صفقة واحدة لشركة انجليزية فرنسية مصرية بمبلغ ٦٫٤٣١٫٥٠٠ جنيه فى سنة ١٨٩٨ وسلمت للشركة فى ١٩٠٥ ولا أرى المجال يتسع لذكر علة تأخير التسليم

(٣) كان إيراد الحكومة فى مدى الخمس والعشرين سنة الأولى من الاحتلال ٢٥٨٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه أنفق منها على التعليم ٢٫٨٠١٫٠٠٠ أى بنسبة ١٪ من مجموع الايراد . فما أضألها نسبة !

المسائل السياسية

ثورة السودان

حال السودان منذ عهد محمد علي: فتح محمد علي السودان حتى جبال الدنكا، وقام الحكام الأتراك وجباة الضرائب يبتزون أموال الناس، ولما جاء سعيد زار السودان وعمل على اصلاح شأنه، ولما ولي اسماعيل استخدم غوردون ليشرف على محاربة الرقيق وكانت ادارة غوردون «فوضى محزنة» ويتهم بعض الكتاب انجلترا بأنها اختارت غوردون لنشر الاختلال في السودان المصري لتستحوذ عليه حتى تكون أمبراطورية انجليزية في أفريقية، وبعد أن غادر غوردون السودان عاد الأتراك إلى تسلطهم وظلمهم، ويمكننا أن نلخص أسباب الاستياء في السودان فيما يلي:



محمد احمد المهدي

(١) استبداد الأتراك (لا المصريين) فى الحكم وجمع الضرائب ، والسودانيون لم يفرقوا بين الأتراك والمصريين

(٢) وقوف الحكومة فى وجه تجار الرقيق

(٣) دسائس الانجليز

ولم يبق لهذا الجو المشبع بالسخط والضجر إلا شرارة واحدة حتى يلتهب وهذه الشرارة هى ثورة المهدى

محمد أحمد (المهدى) ولد فى جزيرة فى اقليم دنقلة ، ثم درس فى أحد معاهد التعليم العربية حتى صار درويشا من دراويش السودان وتزهد وتصوف حتى جعله أستاذه فقيها (أى شيخا) وأعطاه راية وأذن له فى إعطاء العهود ، وادعى محمد احمد أنه المهدى المنتظر [١] (أغسطس ١٨٨١) ودعا تلاميذه إلى مبايعته فبايعوه ، وطفقوا يضربون فى البلاد يدعون الناس إلى المهدى وعليهم لباس الدراويش وهي الجبة المرقعة والسبحة والعكاز ويعلمون الناس الزهد ، ونبذ المحرمات والشعوذة والرقص والسباب ، وإبطال الحج إلى مكة وينذرون المخالفين بالقصاص الصارم كقطع اليد اليمنى أو الرجل اليسرى ، ويكفى لاثبات تلك المخالفة شهادة شاهدين أو نزول الوحى على المهدى

ورأى السودانيون فى دعوة المهدى فرصة تخلصهم من الحكومة المصرية

المهدى ينتصر على الحكومة : كان رءوف باشا حكمدار السودان فانتهى اليه نبأ محمد أحمد ومهديته ، فلم يكترث للأمر ، وأرسل اليه يدعوه إلى

---

(١) كان محمد أحمد يمهد (لمهديته) اذ تزوج من بنات رؤساء قبائل البقارة فاشتدت بذلك عصبيته ، وكان يمنى الناس بالخلاص من بؤسهم على يد المهدى المنتظر ، فصار الناس يتحدثون عن قرب ظهور المهدى ليهدى الناس الى الحق . وجاء الى محمد أحمد فقيه يسمى عبد الله التعايشى وكان يزاول التنجيم وكتابة التمائم وادخل فى روع محمد أحمد انه (أى محمد أحمد) هو المهدى المنتظر وأنه (أى التعايشى) عرف ذلك من علامات ذكرها له أبوه قبل وفاته منها خال على خده ، فتقبل محمد أحمد قوله فاصبح سابع متمهدى ظهر فى الاسلام

الخرطوم ليجلس إلى جمع من علماء المسلمين يحاجّهم حتى يثبت لهم ما ادعى، فأبى وقال للرسول انه هو ولى الأمر الذي يجب أن يطيعه مسلمو الأرض كافة، فأرسل رءوف باشا لقتاله جيشا ولكنه هزم فأكبر السودانيون شأن مهديهم وعدوا نصره من كراماته فتضاعف أنصاره، واستنجد رءوف باشا بحكومته، فلم تنجده بل اعتبرته عاجزا واستدعته ونصبت مكانه عبد القادر باشا حلمى، وكان من أقدر الحكام حتى كان المهدى يطلب إلى أنصاره أن يدعوا الله قائلين «اللهم ياقوي ياقادر، اكفنا عبد القادر» ومع ذلك فقد استطاع المهدى أن يستولى على الأبيض ١٨٨٣ وينشىء له حكومة فى كردفان، فاستدعت الحكومة المصرية عبد القادر باشا بدلا من امداده، وعذر الحكومة فى هذا التقصير أن جيش عرابى قد حل، وان الجيش الجديد لم يتم تكوينه بعد

وقد استفحلت كذلك دعوة المهدى فى السودان الشرقى (أى مايلى البحر الأحمر) وانضم اليه رجل تركى الأصل اسمه عثمان دقنه وكان تاجر رقيق في سواكن، فلما حاربت الحكومة بيع الرقيق انضم إلى المهدى فجعله هذا أحد أمرائه، فصار من أشد أنصاره بأسا

تصرف انجلترا الغريب : كان الواجب على انجلترا أن ترسل جيش الاحتلال أو أية قوة أخرى لاخماد ثورة السودان مادامت قد أشارت بحل جيش عرابى وما دامت تقول أنها ما احتلت مصر إلا لتقر النظام فى البلاد، وما السودان إلا جزء من البلاد ولكن لم تشأ أن تساهم فى إخماد الثورة بحجة أسمعها من فم كرومر نفسه «كانت الحكومة البريطانية قد ساقتها الظروف رغم إرادتها إلي احتلال مصر، وهى الآن تخشى أن تتدخل حربيا فى السودان رغم ارادتها، لذلك فان اللورد جرانفيل قد اعتزم أن يتقى هذا الخطر وأبى أن يقول كلمة واحدة بخصوص السودان» [1]

---

(١) مصر الحديثة لكرومر، جزء ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٥

شريف باشا يحاول إخماد الثورة : وكان شريف باشا رغم ضعف حكومته يحاول إخماد ثورة السودان ، فأخفقت محاولته فى السودان الشرقى وباتت الحاميات المصرية فى سواكن وطوكر وغيرهما فى خطر شديد من هجمات عثمان دقنة

وأرسل هكس باشا على المهدى فى الأبيض وبرفقته ضباط انجليز ومصريون وتحت أمرته جيش جمع جمعا وغالبه من جيش عرابى المنحل، وخرجت الحملة من الخرطوم فى سبتمبر ١٨٨٣ وضربت فى أقليم قليل ماؤه ، وقادها أدلاء ضلعهم مع المهدى فضللوها بين الأدغال ثلاثة أيام ولياليها تلتمس الماء فلا تجده ، وأخيرا برز لها أعداؤها فى ٥ نوفمبر من كمين عند شيكان على مسيرة يومين من الأبيض ، فنال الذعر من رجال الحملة وقضى عليهم قتلا وأسرا ولاذ بالفرار قليل منهم، وكان هكس ممن قتل، ويذكر بعض من نجا أن الجنود كان يطلق بعضهم الرصاص على بعض وهم لا يشعرون ولم يدر من قتل ومن نجا أن ماء كثيرا كان على بعد ميل واحد من مكان الوقعة ، وقد زادت حملة هكس من شوكة المهدى وأكثرت من المؤمنين بدعوته ، أفلم يقل لأنصاره قبل الوقعة أن النبى صلى الله عليه وسلم وعده فى الحلم وعد صدق أن عشرين ألفا من الملائكة سيشدون أزره ؟ فلما أصاب النصر اشتد إيمانهم بدعوته

أسباب نجاح الثورة المهدية

(١) استياء السودانيين من الحكومة المصرية حدا بهم إلى نصرة المهدى

(٢) استخفاف الحكومة المصريه أول الأمر بالثورة المهدية واعتمادها على الحامية المصرية التى بالسودان وعدم إنجادها لم السودان بالجنود المطلوبة .

(٣) استفحال الثورة المهدية أثناء قيام الحركة العرابية ولما فطنت الحكومة المصرية إلى خطر الثورة المهدية كان الجيش المصرى قد حل وامتنعت انجلترا عن ارسال جيش من لدنها

اخلاء السودان : بعد قيام هكس من الخرطوم بيومين اثنين (أى ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٣) حل افلين بيرنيج محل مالت الذى نقل سفيرا فى بروكسل، ورأى بيرنيج أن يخلى المصريون السودان ويعترف بذلك فى كتابه إذ يقول « انى أعد نفسى مسؤلا عن ابتكار سياسة إخلاء السودان وعلى غلادستون تقع تبعة الموافقة على هذه السياسة »[1] وللانجليز في طلب أخلاء السودان ذريعتان : —

(١) ضعف الحامية المصرية فى السودان وعجز الحكومة المصرية عن إمدادها بالمال والرجال

(٢) ان الانجليز لو أخضعوا السودان بجيش انجليزى لتحتم عليهم إبقاء جيش احتلال فيه وهذا مالا يريدونه، والذريعتان محاولة لاخفاء غرض قد أصبح اليوم جليا واضحا هو: اخراج المصريين من السودان ليضموا عليه يدهم فيما بعد.

ولما علم المصريون بما تريده انجلترا غضبوا وألموا واقترحوا أن يدعى السلطان إلى إرسال جيش لاخماد ثورة السودان إذ السودان جزء من أملاك الدولة العثمانية ويحكمه الخديويون بمقتضى فرمانات شاهانية، ولكن انجلترا استطاعت أن تهرب من هذا الاقتراح فى ديسمبر سنة ١٨٨٣ وذلك بأن وضعت لتدخّل الأتراك شروطا لا يمكن تركيا ولها كرامة أن تقبلها، فمن هذه الشروط : أن تركيا لامصر هي التى تدفع نفقات التجريدة، وأن تكون[2] قاعدة تلك التجريدة سوا كن لامصر، فرفضت تركيا أن تنزل على إرادة من لاشأن له فى مصر ولا فى السودان

أما شريف باشا فقدم مذكرة الى كرومر فى ٢٢ ديسمبر يقول فيها

---

(١) كرومر — مصر الحديثة ١ صفحة ٣٧٤

(٢) المصدر السابق صفحة ٣٨٠

إن الحكومة المصرية لا تستطيع أن توافق على إخلاء أرض تعتبرها لازمة كل اللزوم لصيانة مصر بل ولوجودها ، فارسل كرومر لجرانفيل بالمذكرة وأشار عليه بالتمسك بالاخلاء حتى ولو استقالت نظارة شريف ، حتى ولو رفض النظارة غيره من المصريين ، حتى ولو أدى الأمر الى اتخاذ نظار انجليز . فأرسل جرانفيل إلى كرومر رسالة يستخدمها عند اللزوم جاء فيها « من الضرورى أن تتبع ارشادات حكومة جلالة الملكة فى المسائل الهامة الخاصة بادارة مصر وسلامتها ، وعلى النظار والحكام أن يتبعوا هذه الارشادات وإلا خسروا وظائفهم ، وان اتخاذ نظار من الانجليز غير مرغوب فيه ، ولكن يمكن بلا شك العثور على مصريين ينفذون أوامر الخديوى تحت ارشاد انجلترا ، والحكومة الانجليزية تعاضدك كل المعاضدة » ولما رأى شريف باشا تصميم انجلترا فى اخلاء السودان استقال فى ٧ يناير سنة ١٨٨٤ بخطابه المشهور الذى قال فيه [1] « اقترحت علينا حكومة بريطانيا العظمى أن نخلى السودان ، على أننا لا نملك هذا الحق وقد طلبت إلينا أن نعمل بنصائحها دون مناقشة فيها ، ولا يخفى أن هذه الاقتراحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ التى نص فيها على أن الخديوى يحكم البلاد باشتراكه مع النظار ، فبناء على ذلك نضطر هنا إلى أن نطلب من مقامكم السامى أن تقبلوا استعفاءنا لأنه لا يمكننا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية » وعرضت النظارة على نوبار فقبلها فى ٨ يناير وأرسل كرومر لجرانفيل يقول عن نوبار « إنه — أى نوبار — يشاركنا فى الاعتقاد بحكمة التخلى عن السودان مع الاحتفاظ بسواكن » وما كان المصريون يأملون خيرا من نوبار الأرمنى

---

(١) لم يعد شريف بعد ذلك للنظارة ومات فى ابريل ١٨٨٧

الدخيل خصوصا وقد كان الانجليز يمنونه بأنهم سيعملون على فصل أرمينية من الدولة العثمانية ثم يعينونه أميرا عليها .

كيف يخلى السودان : — كان بمدن السودان ألوف من الافرنج والمصريين لا يرغبون فى البقاء فيه اذا سحبت الحامية المصرية منه ، وكان بعض الجنود المصرية يحاصرها الثائرون فى بعض المدن ، لذلك ارتأت حكومة مصر أن تساعد هؤلاء النزلاء والجنود على مغادرة السودان بغير أن يفتك بهم أو ببعضهم الثائرون ، فأرسلت إلى الحكومة الانجليزية تطلب منها « ضابطا بريطانيا كفئا يذهب الى الخرطوم ويُمنح كل السلطة المدنية والحربية ليقوم باخلاء السودان » ورشحت الحكومة الانجليزية الجنرال غوردون لخبرته بشئون السودان ولحب السودانيين له ، ورشحت قائداً آخر يسمى الكولونيل ستيوارت ليكون كاتم سره ورئيس أركان حربه ، وجاء غوردون الى القاهرة فى ٢٤ يناير ١٨٨٤ ، ونصب حاكما عاما على السودان ونيط به أمران جوهريان (أولهما) اخلاء السودان (وثانيهما) اعادة الاسرات الملكية التى كانت تحكم مديريات السودان قبل عهد محمد على « ليستمر فيها النظام ، ويؤمن من وقوع الكوارث الى تتأتى من أمة جاهلة تركت ونفسها بلا حاكم » وأوصى بيرنج غوردون ألا يحيد قطعا عما كلف به (إذ كان بيرنج يعرف فيه عدم الثبات على رأى [1])

---

(١) كان بيرنج يخشى أن يغير غوردون رأيه فلا يخلى السودان ، لهذا كره اختياره وأرسل لجرانفيل فى ٢ ديسمبر ١٨٨٣ يقول « ان الحكومة المصرية تعارض جدا فى استخدام غوردون ، وأكبر حجتها أن الحركة القائمة فى السودان دينية ، فتقليد القيادة العليا مسيحيا قد ينفر منه القبائل التى لا تزال على الاخلاص له ، وان الحكمة تقضى ألا نضغط على الحكومة فى هذا الامر » غير أن الرأى العام الانجليزى استمسك بغوردون فاختير نهائيا ويقول سرهنك باشا فى كتابه « حقائق الاخبار عن دول البحار » إن الانجليز احتفلوا بوداعه احتفالا عظيما حتى قيل إن لورد ولسلى حمل له حقيبته الى عربة القطار ولورد جرانفيل قطع له تذكرة السفر)

واعتزم غوردون أن ينتفع بالزبير باشا فى تنفيذ مهمته ، إذ كان الزبير من أكبر رجال السودان سطوة وأعظمهم نفوذا ، ولكن الزبير كان يحمل الضغن لغوردون ، لأن رجال غوردون قتلوا سليمان ابنه (أى ابن الزبير كما أسلفنا) ، غير أن بيرنج ونوبار جمعا بين الرجلين وأصلحا ما بينهما .

تطور أفكار غوردون :

(١) خرج غوردون من القاهرة فى ٢٧ يناير ومهمته إخلاء السودان واسلامه للأسرات الملكية التي حكمته قبل عهد محمد على

(٢) ولما وصل إلى أبى حمد فى ٨ فبراير فكر فى سياسة « الاخلاء لا التخلى » ،أى يخلى السودان ولكن يبقيه مع ذلك تابعا لمصر ، لأنه رأى أن التخلى عن السودان نهائيا يؤدى حتما إلى الفوضى فيه وهذه الفوضى تقضى على بذور المدنية التى بذرتها مصر فيه ، والتى تهدد مصر من وقت لآخر بالاغارة عليها، وأرسل غوردون إلى بيرنج أن يبعث اليه بالزبير ليكون حاكما عاما على السودان من قبل الحكومة المصرية ، إذ وثق غوردون ان أهل السودان لابد أن يرضوا حكم الزبير لأنه من أوسعهم نفوذا ولأن أمراء المهدى كانوا من قبل أتباعه هو .

غير أن الحكومة الانجليزية رفضت اقتراح غوردون بدعوى أن الزبير تاجر قديم من تجار الرقيق ، وأن اختياره يسىء إلى سمعة انجلترا، وفضلا عن ذلك فقد يعاود تجارة الرقيق ، ودعوى إنجلترا مردودة عليها إذ أن تجارة الرقيق لابد ناشطة من جديد بعد إخلاء السودان سواء أوُجد الزبير فيه أم لم يوجد، وفوق ذلك فان غوردون نفسه كان يعلن صراحة (وهو فى طريقه الى الخرطوم) اباحة تجارة الرقيق حتى يستميل القوم اليه [١] .

---

(١) من أعمال غوردون كذلك لاستمالة القوم احراقه دفاتر الحكومة التى تسجل

(٣) ولما وصل الى الخرطوم فى ١٨ فبراير ظل متمسكا بسياسة الاخلاء لا التخلى ويطلب الزبير ويلح فيه ولكننا نراه يطلب أن يعين من قبل انجلترا لا من قبل مصر ولكن انجلترا لم تتحلحل عن موقفها لأنها لا تريد إلا أن يصبح السودان طليقا من كل قيد فتضع عليه يدها فيما بعد .

(٤) ولما علم غوردون برفض انجلترا تعيين الزبير شق عليه ذلك الأمر واعتزم أن يحطم المهدى حتى لا يترك السودان مسرحا للقلاقل ، وطلب من انجلترا أن تمده بقليل من الجنود الانجليزية أو الهندية أو التركية وأصدر بلاغا الى أهل السودان فى ٢٧ فبراير ينهاهم عن الثورة وإلا حل بهم عذاب شديد ، فلم يزد هذا البلاغ الثورة الا اشتعالا ، وكرهوا غوردون لأنه يريد أن يمنعهم من اتباع مهديهم ، واتسع نطاق الثورة فى اتجاه الخرطوم حتى احدقت بها وصار الطريق من بربر الى الخرطوم فى قبضة الدراويش ، وكانت أسلاك البرق تحمل كل يوم الى بيرنج طلبات النجدة من غوردون ويقول له غوردون فى إحدى هذه الرسائل « لا يزعجنى الا تلكؤك حتى يفوت الوقت والفرصة فضع كبرياءك فى جيبك واستأجر ٣٠٠٠ من المشاة الاتراك و ١٠٠٠ من فرسانهم فيُقضى على الثورة والمهدى فى أربعة شهور » ويقول فى برقية أخرى « لقد انقضى الوقت الذى كان الزبير وحده يكفى لحل المشكل ولذلك وجب عليكم أن تسلموا البلاد الى الاتراك » ورفضت انجلترا اسلام البلاد الى الاتراك ، وانقطع عقد الاتصال بين الخرطوم والقاهرة فى منتصف ابريل فانقطعت أخبار غوردون وستيوارت ، فذعر الانجليز وخجلوا وأقروا في مايو ارسال حملة من الانجليز لانقاذ رجليهم لا لانقاذ الحامية[1] المصرية ويقول فى ذلك بيرنج

فيها متأخرات الضرائب ، واحراقه السياط واطلاقه المسجونين (عن كتاب حقائق الاخبار لدول البحار لسرهنك باشا جزء ٢ ص ٥٤٤)

(١) مصر الحديثة جزء ١ ص ٥٦٦

«لم تكن الحكومة البريطانية مسئولة عن موقف الحامية المصرية في السودان» وانضم الى الحملة جيش مصر وبعض الفرق من جيش الاحتلال ·

وكانت الحملة بقيادة ولسلي لورد القاهرة وبلغت حلفا في ٥ أكتوبر أي بعد خمسة شهور تقريبا من انقطاع أخبار غوردون ·

حصار الخرطوم وقتل غوردون : شكا بعض نزلاء الخرطوم من مصريين وإفرنج من تباطؤ إنجلترا فقال لهم غوردون «من أراد الذهاب فليذهب أما أنا فلا أستطيع الخروج إلا بعد إنقاذ الحامية والناس أو أموت معهم» وأشار على ستيوارت أن يمتطى سفينته ويصطحب من أراد مرافقته إلى مصر ويحمل إلى الحكومة بعض التقارير، فخرج ستيوارت في ٩ سبتمبر بسفينته وسارت في النهر حتى أبى حمد وهناك ارتطمت بصخر وفتكت بمن فيها احدى قبائل البدو غدرا بعد أن أنزلتهم في ضيافتها ، أما غوردون فبقي في الخرطوم يأبى أن يبرحها حتى ينقذ كل من أراد مغادرتها ، وجاء المهدى من الأبيض إلى الخرطوم وضيق عليها الحصار حتى افتتحها ، وقتل أنصاره غوردون (٢٦ يناير سنة ١٨٨٥)

أما الحملة الانجليزية فقد بلغت جوبات بقرب المتممة في ٢٠ يناير ١٨٨٥ وبلغت الخرطوم في ٢٨ يناير فوجدت دار الحكومة قد تهدمت ، والراية المصرية قد اختفت ، وغوردون من الهالكين .

وأخلى السودان ، وصار مملكة المهدى .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الحكومة المصرية كانت قد أرسلت فالنتين بيكر على رأس جانب من الشرطة لانقاذ حاميتي طوكر وسنكات (عند البحر الأحمر) ، فهزم (فبراير ١٨٨٥) ولم يبق لمصر في هذه الجهة إلا سواكن .

موت المهدى : — مات المهدى في ٢١ يونيه ١٨٨٥ ولم يفتح الحرمين

كما وعد وممن حضر موته احدى زوجاته وهى عائشة التى يسمونها « ستنا أم المؤمنين » وضج الناس بالبكاء فاسكتهم الصحابة وقالوا لهم أن الندب حرام لأن المهدى انما فارق أصحابه فى الأرض بمجرد ارادته ليلاقى ربه ! وبايع الناس الخليفة عبد الله التعايشى (الفقيه) وطلب الى أتباعه ألا يحجوا إلى الكعبة بل إلى قبر المهدى فى أم درمان .

الأملاك التي اغتصبتها الدول من مصر فى السودان : انتهزت الدول فرصة قيام الثورة المهدية وقامت تلتهم من السودان ماوصلت يدها اليه معتبرة أياه أرضا فضاء ، فضمت بلجيكا الى مستعمراتها الكنغو الحرة وبعض الاقاليم المجاورة ، وايطاليا الناشئة حديثا قامت تبحث عن مستعمرة ترفع عليها رايتها ولما لم تجد من انجلترا صديقتها معارضة احتلت مصوع وما جاورها فى فبراير سنة ١٨٨٥ رغم احتجاج السلطان ، والحبشة سمح لها بمديرية بوغوس مكافأة لها على مساعدتها فى تسهيل جلاء الجيوش المصرية من السودان الشرقى ، كذلك افتتحت الحبشة هرر .

أما انجلترا تلك الدولة التي فرضت على مصر إشرافها ووصايتها فقد استولت على بربرة وكانت تطمع فيها دائما لأنها مفتاح البحر الأحمر ولأنها مركز للتجارة فى شرقى افريقية واستولت على زيلع وعلى أجزاء من مديرية خط الاستواء وأوغندا

القتال بين الدراويش ومصر : كان التعايشي منذ أن ولى الخلافة يريد أن يغزو مصر ، وأرسل الى السلطان والخديوى وملكة الانجليز يطلب اليهم أن يذعنوا له ويطلب الى ملكة الانجليز فى كتابه إليها أن تدخل الاسلام وتتبع المهدى (عليه السلام !) أو تستعد للقتال ، فلم تلق كتبه الا الاحتقار ، وألهت التعايشى عن فتح مصر شواغل منها قتاله للحبشة فى الشرق وللسنوسيين في الغرب ، ومنها قيامه بإخماد ثورات أحدثها بعض أتباعه ، ولما تم له الانتصار

على الأحباش في ٩ مارس ١٨٨٩ وقتل يوحنا نجاشي الحبشة واستيلاؤه على غنائم شتي منها سيف النجاشي وتاجه اعتزم أن ينفذ مشروع غزو مصر وناط بهذه المهمة عبد الرحمن ولد النجومي ، وعبد الرحمن ولد النجومي كان أول أمره فقيها كالمهدى وصار من أخاص أتباعه وأشدهم استمسا كا بتعاليمه ،وكان مستقيما حسن السيرة ، وكان أشجع عرب السودان، إذا خرج على رأس حملة تهافتت العرب الى القتال في ظلال رايته ، وهو الذى قضى على هكس وهو الذى اقتحم الخرطوم،واختاره التعايشي فى صيف سنة ١٨٨٩ « ليقود المؤمنين » إلى مصر وليرفع على القلعة فى القاهرة الراية المهدية . وخرج ولد النجومي بجيشه يتبعهم أطفالهم ونساؤهم وقابله الجيش المصرى الجديد بقيادة السردار جرنفيل Grenfell عند طوشكي (مابين كورسكو وحلفا) فطلب اليه جرنفل أن يسلم فأبى وقال « نحن قوم لا نخاف إلا الله » ودار القتال في ١٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ ، وجرح ولد النجومى فجزع رجاله وحمله بعضهم على ظهر بعير ليرجعوا به الى مؤخرتهم ليعنوا به، فأبصرهم المصريون فصبوا عليهم رصاصهم فسقط البعير وقتل ولد النجومي ومن حوله، ووجد مع القتلى ابن للقائد لايتجاوز عمره خمس سنوات وحز رأس ولد النجومي وحملت إلى السردار، وقضت وقعة طوشكي على آمال المهديين فى مصر ،وأبعدت عن مصر خطر اغارة الدراويش، وأظهرت مقدرة المصريين فى القتال ضباطا وجنودا

وانتصر المصريون كذلك على عثمان دقنه قرب طوكر فى ١٩ فبراير سنة ١٨٩١ فصار لمصر فى السودان الشرقى سواكن وطوكر .

استرجاع السودان : أكرهت انجلترا المصريين على إخلاء السودان كما أسلفنا ولم يكن لها غرض من هذا الاخلاء إلا أن يعاد فتحه على يدها فتكتسب فيه حقا . ولقد ذكرنا كيف اشتركت مع غيرها من الدول فى

اغتصاب بعض جهات من السودان مثل بربرة وأوغندا الخ ، ثم بلغتها إشاعات فحواها أن فرنسا ترسم الخطط للاستيلاء على أعالى النيل من جهة الجنوب ، فاعتزمت انجلترا الاسراع فى فتح السودان من الشمال قبل أن تسبقها إلى ذلك فرنسا من الجنوب ولم تعوز انجلترا الذرائع تنشرها للعالم تبرر بها فتح السودان من جديد، فمن هذه الذرائع :ـــ

١ ـــ الانجليز يشعرون بالخجل لتقاص ممتلكات مصر على يدهم ولاسلامهم إلى الفوضى بلادا (السودان) كانت قد غُرست فيها بذور المدنية قبل إخلائه .

٢ ـــ مصر لايمكن أن تعيش مطمئنة مادام إلى جنوبيها حكومة كحكومة التعايشى تهددها من حين إلى حين .

٣ ـــ الانجليز يتوقون للانتقام من قتلة شهيدهم غوردون .

٤ ـــ الدراويش والأحباش شنوا الغارة على الطليان وهددوا مستعمرتهم الجديدة (مصوع والارتريا) وهزموهم فى مارس سنة ١٨٩٦ فاستنجد الطليان بأصدقائهم الانجليز فاعتزم الانجليز إرسال حملة إلى السودان تشغل الدراويش فيخف الضغط بذلك عن الطليان .

٥ ـــ تقدم مالية مصر وتنظيم جيشها يسمحان بتجريد حملة على السودان لاسترجاعه .

وفى يوم ١٣ مارس سنة ١٨٩٦ صدرت الأوامر بالزحف على السودان وعهدت القيادة إلى السير كتشنر سردار الجيش المصرى ، وكانت الحملة مكونة من جنود مصرية وقليل من ضباط جيش الاحتلال

المال اللازم للحملة :ـــ كان لدى صندوق الدين مال موفور ولكن لم يكن من حق مصر أن تغترف منه الا إذا أذن لها صندوق الدين ، فقدمت الحكومة إليه طلبا بأن يرخص لها فى نصف مليون من الجنيهات تنفقه فى

حملة السودان فوافق مندوبو انجلترا وايطاليا وألمانيا والنمسا وعارض مندوب فرنسا ومندوب روسيا صديقتها (٢٦ مارس سنة ١٨٩٦) ، ورغم العضوين المعارضين سلم المال إلى الحكومة ، فرفعا دعوى أمام المحكمة المختلطة ضد بقية الأعضاء يطلبان فيها رد المال وحكمت المحكمة ابتدائيا واستئنافيا لصالحهما فأعيد المبلغ إلى الصندوق ، فقدمت انجلترا لمصر مبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيها[1] بفائدة ٢,٥ ٪ لتنفق منها على الحملة نكاية فى فرنسا ، ولما كانت نفقات الحملة قد بلغت نحو ٢,٥ مليون جنيه فقد صار قسط انجلترا منها نحو الثلث وقسط مصر الثلثين .

تقدم الحملة : خرجت الجنود المصرية مستبسلة مرحة وأظهرت مقدرة عجيبة وصبرا جميلا على تحمل التعب والقيظ[2] وسقطت دنقلة فى يد المصريين فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦ ، وكانوا كلما تقدموا مرحلة أمر كتشنر بأن يمد خط حديدى مبدؤه وادى حلفا ، واستولى المصريون على أبى حمد فى ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧ وعلى بربر فى ٣١ منه ، ولم يظهر المصريون جبنا ولا ضعفا ولا خوراً فى العزيمة ولكن كتشنر أراد أن يشرك الجنود الانجليزية الآن فى بقية الفتح[3] وقد انقضى أعظمه وأقساه ، وذلك لكى يكسب انجلترا حقا فى الفتح .

وفى ٨ أبريل سنة ١٨٩٨ حدثت وقعة العطبرة بين الجيش المصرى والانجليزى وبين الدراويش ، ولم تدم أكثر من أربعين دقيقة ، وكسر

---

(١) فى شهر يونيه ١٨٩٨ نزلت الحكومة البريطانيا عن هذا المبلغ لمصر

(٢) انجلترا فى مصر ص ٣٩٦

(٣) أرسلت إلى كتشنر اربع فرق وقال كرومر فى تقرير له أنه وإن كان من الممكن إرسال نجدات أخرى إلا أنه لا يستحسن إرسال جنود انجليزية أكثر مما يحتاج اليه نظراً لرداءة الجو (حقائق الأخبار عن دول البحار جزء ٢ صفحة ٥٤٠)

الدراويش فيها ، وفى ٢ سبتمبر حدثت خارج أسوار أم درمان وقعتها الهائلة فقد تغلب العلم بمدافعه السريعة على الجهل ببنادقه الخشنة البطيئة ، وكان الدراويش أربعين ألفا فقاتلوا مستميتين حتى قتل منهم ١١٫٠٠٠ وجرح ١٦٫٠٠٠ ، وفر التعايشى ومن بقى من جيشه ، ولم يخسر الانجليز والمصريون غير ٤٠٠ مابين قتلى وجرحى، ودخل الظافرون أم درمان فى اليوم نفسه وبعد يومين دخلوا الخرطوم ورفعوا على انقاض قصر الحكومة فيها العلمين المصرى والانجليزى. وأراد كتشنر ألا يبقى فى السودان ذكرى للمهدى فأمر فهدمت قبته فى أم درمان ونبش قبره وبعثرت عظامه فى النيل وبعث بجمجته إلى لندن حيث أودعت متحفها، ومنحت الحكومة الانجليزية كتشنر لقب « لورد الخرطوم » فصار يعرف « بلورد كتشنر » ، كذلك منحته ٢٥٫٠٠٠ جنيه ، أما التعايشى فأراد بعد عام أن يُغير على أم درمان فخرج إليه ونجت Wingate خلف كتشنر (الذى أرسل إلى جنوبى أفريقيا) وهزمه فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ وقتل التعايشى وكثير من أمرائه منهم الخليفة على ولد الحلو، فزالت دولة الدراويش

حادث فاشودة . فكرت فرنسا منذ ١٨٩٣ فى تسيير حملة فرنسية لاحتلال فاشودة (عند ملتقى السوباط بالنيل) كى تحتج انجلترا فينفتح باب المسألة المصرية فتتمسك فرنسا بجلاء انجلترا عن مصر. وقد أخطأت فرنسا من وجهين :

(أولهما) أنها سوفت وترددت خمسة أعوام كاملة

(ثانيهما) أنها لم تكتم خبر المشروع حتى لاتستعد انجلترا لإحباطه فبلغ الخبر الانجليز فأرسلوا حملة كتشنر قبل أن تقوم الحملة الفرنسية بقيادة مَرْشان الذى طفق يجد فى قطع الفيافى المحرقة ، ويتغلب على المشاق المضنية ليصل إلى فاشودة وقضى فى ذلك نحو عامين وبلغها فى ١٠ يوليه سنة ١٨٩٨

ومعه مائتا جندى من السنغاليين ليس غير ورفع العلم الفرنسى عليها، وفى ٤ سبتمبر من العام عينه دخل كتشنر الخرطوم كما رأينا ثم أمر أن يصعد فى النيل بنفسه حتى إذا ما قابل الفرنسيين على وادى النيل احتج على وجودهم وأجلاهم، فخرج فى ١٩ سبتمبر ومعه ١٨٠٠ جندى مصرى و١٠٠ جندى بريطانى وعدة مدافع وقابل مرشان واحتج «على احتلال فاشودة ورفع العلم الفرنسى على أملاك سمو الخديوى» وهدد بالقتال، فأظهر مرشان استعداده للموت فى تنفيذ ما أمرته به حكومته وطلب أن يسمح له بمفاوضة حكومته، فسمح له كتشنر بذلك ورفع العلم المصرى فى ٢٠ سبتمبر وعاد إلى الشمال بعد أن ترك لحراسته بعض رجاله، واشتد النزاع بين انجلترا وفرنسا.

وقال وزير خارجية انجلترا لسفير فرنسا [1] فى ١٢ اكتوبر «إن تحت تصرف السردار قوات تفوق قوات القومندان مرشان وهو يستطيع أن يرغمه على الانسحاب أمامه إلى الجهة التى يرى من الملائم رده اليها» وكان معنى هذا التصريح أن انجلترا تهدد بقطع العلاقات السياسية وباعلان الحرب، فنكصت فرنسا لأن الانقسام كان سائدا بين أحزابها فى مثل هذه الشئون الخارجية على عكس انجلترا، ولانها لم تكن مستعدة للحرب، ولان انجلترا لم تكن لتمهلها حتى تستعد له، وفوق ذلك فان فرنسا كانت لا تستطيع الاقدام على مناوأة انجلترا فى وقت تشعر فيه بالقلق من جهة ألمانيا، لكل ذلك أمرت الحكومة الفرنسية مرشان بالانسحاب فانسحب ولكنه أبى أن يعود عن طريق النيل ومصر حتى لا يمر مغلوبا على أمره أمام الجيش الانجليزى بل عاد عن طريق الحبشة، ولم يكف الوزير الفرنسى دلكاسيه أن أصاب فرنسا هذا الخزى على يديه بل عقد مع انجلترا فى ٢١ مارس

---

(١) الوزير هو لورد سالسبورى والسفير هو ديكورسيل

سنة ١٨٩٩ اتفاقية تعترف فيها فرنسا بحقوق انجلترا على النيل الأعلى وهذه الاتفاقية باطلة من الوجهة الدولية ، واحتج عليها السلطان ويقول عنها المسيو كوشيرى « إن العمل الذى بدأه فرنسينيه سنة ١٨٨٢ أتمه دلكاسية سنة ١٨٩٩ وقد فقدنا كل شيء حتى الشرف » واتفاقية سنة ١٨٩٩ هي أساس اتفاقية سنة ١٩٠٤

اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ : زار كرومر أم درمان فى ٤ يناير سنة ١٨٩٩ ، وألقى خطبة سمعها كثير من شيوخ السودان وقال فيها « انكم ترون العلمين البريطانى والمصرى يخفقان فوق ذلك البناء ومعنى ذلك أن ملكة الانجليز وخديو مصر سيحكمانكم فى المستقبل » وتجاهل كرومر ماقاله هو وقومه بأن السودان ملك للخديوى فلما تخلصوا من بعثة مرشان وخلا الجو لهم نادوا بنظرية جديدة وهي أن السودان ملك لانجلترا ومصر لاشتراكهما فى فتحه ، وانهم لولا التفضل لما أشركوا مصر معهم فى حكمه لأن الفضل في استرجاع السودان يرجع اليهم وحدهم لأنهم هم الذين أنهضوا مصر من كبوتها فمكنوها من استرجاعه ، وبناء على هذه النظرية عقدوا اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ فى عهد نظارة مصطفى فهمى باشا ووقعها بطرس باشا غالى عن الحكومة المصرية ولورد كرومر عن الحكومة الانجليزية، واليك أهم ماجاء فى هذا الاتفاق :

(١) يحد السودان شمالا خط عرض ٢٢° شمالا أما جنوبيه فلم يحد لما عسى أن ينضم اليه فى الجهة الجنوبية

(٢) يستعمل العلمان المصرى والانجليزى معا فى جميع أنحاء السودان إلا سواكن

(٣) تفوض الرياسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب « حاكم السودان العام » ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء

على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل من وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية

(٤) لا تسرى على السودان القوانين أو القرارات الوزارية المصرية إلا إذا وافق عليها الحاكم وأصدرها

(٥) ليس لرعايا أية دولة من الدول امتيازات خصوصية فى السودان ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة إلى السودان ماعدا سواكن

(وذريعة الانجليز فى الغاء الامتيازات أن السودان لم يصبح بعد الفتح اقليما عثمانيا تسرى عليه الامتيازات ، أما سواكن فتسرى عليها الامتيازات لأنها مصرية تحت سيادة العثمانيين)

بطلان هذه الاتفاقية : — الأدلة على بطلانها كثيرة نقتصر على إيراد بعضها : —

(١) اخلاء مصر للسودان باطل لأن مصر أكرهت على اخلائه ، ولان الخديوى بمقتضى الفرمانات السلطانية لايملك حق التخلى عن قطعة ارض من الأراضى المصرية

لهذا كانت الاتفاقية باطلة لأنها بنيت على أساس الاخلاء وهو باطل

(٢) تحرم الفرمانات على الخديوى ابرام معاهدات سياسية كاتفاقية السودان ، ولقد صدقت انجلترا على هذه الفرمانات

(٣) الاتفاقية لم تعترف بملكية السلطان للسودان وهو ملك له ، لذلك كانت الاتفاقية اعتداء صريحا من انجلترا على حقوق السلطان وتناقضا بينا للعهود التى قطعتها على نفسها للمحافظة على دولته فى مواقف متعددة كمعاهدات لندرة سنة ١٨٤٠ وباريس سنة ١٨٥٦ وبرلين سنة ١٨٧٨ ومؤتمر الآستانة سنة ١٨٨٢ وقد احتج السلطان على هذه الاتفاقية احتجاجا شديدا ، ولكن لم تأبه له انجلترا

ماذا جنته مصر من هذه الشركة :

(١) خسرت مصر سلطانها فى السودان إذ أصبحت الكلمة العليا للحاكم العام الانجليزى وأعوانه الانجليز مما جعل السودان على الحقيقة مستعمرة من مستعمرات الانجليز

(٢) جعلت مصر هى المسئولة عن ميزانية السودان بمعنى أنها تدفع من خزانتها ما يسد عجز هذه الميزانية ، ولقد دفعت إثنى عشر مليونا من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٩١٢ ، وما كان أحوج مصر لهذا المبلغ لتصلح به وسائل الصرف الضرورى لتحسين الزراعة ، وقد قدر بعضهم خسارة مصر لاهمال وسائل الصرف من ٦٠ إلى ٧٠ مليونا من الجنيهات

(٣) عمل الانجليز على تحويل تجارة السودان من طريق وادى حلفا ومصر إلى طريق بور سودان فقلت على التدريج تجارة السودان مع مصر ، وهذا يفسر لنا كيف انهم لم يمدوا خطا حديديا بين وادى حلفا واسوان

(٤) ما برحت مصر منذ قيام هذه الشركة تشعر بالقلق لوجود الانجليز فى السودان إذ فى السودان منبع الماء الحيوى لمصر

المفاوضات حتى سنة ١٩٠٤

وعود انجلترا :— إن مركز الانجليز فى مصر باطل ومقامهم فى أرضنا غير شرعى ، وإن وعودهم [١] التى قطعوها على أنفسهم بالجلاء عن مصر

(١) وعودهم كثيرة لا يحصرها العد لهذا نقتصر على إيراد بعضها على قبيل المثال . قالت الملكة فكتوريا فى خطاب العرش في ١٥ فبراير سنة ١٨٨٣ «سنحترم كل التعهدات الدولية فى مصر » وقال غلادستون فى مجلس العموم فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨٢ « ليس فى نيتنا مطلقاً أن نحتل مصر وإذا كان هناك شىء لا نقدم عليه فهو ذلك الاحتلال لان فيه مناقضة تامه للمبادىء التى اعلنتها حكومة جلالة الملكة وللوعود التى قطعتها على نفسها لاوربة ولساسة أوربة . »

لا كبر برهان على بطلان مركزهم .

مفاوضات ١٨٨٤ — ١٨٨٥ : اقترح جرانفيل عقد مؤتمر فى لندن ليبحث في مالية مصر المرتبكة ، وأرادت فرنسا أن تنتهز هذه الفرصة وتثير المناقشة فى مسألتى حيدة قناة السويس والجلاء ، ولكن تمكنت انجلترا بدهائها والتردد فرنسا أن تتهرب من مسألة الجلاء ، وانتصرت فى المسألة المالية وعقدت اتفاقية ١٨ مارس سنة ١٨٨٥ التى سبق الكلام عنها

مفاوضات دردمندولف Drudmond Wolff : — يعلم الانجليز أن مركزهم في مصر غير شرعى لذلك نراهم من وقت لآخر يفتحون باباً لمفاوضات قد يحصلون بها من الدول أو من الباب العالى على صبغ مركزهم فى مصر بصبغة شرعية ، فلما ألح الباب العالى فى جلاء الجنود الانجليزية عن مصر عهد اللورد سالسبورى رئيس الوزارة الانجليزية إلى السير هنرى

وقال فى مجلس العموم فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٢ « ليس الاحتلال الا وقتيا وستضع الحكومة الانجليزية شروطه بالاتفاق مع الحكومه المصريه» وقال فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٣ فى المجلس أيضاً « إن الحكومه الانجليزيه لم تفكر فى ضم مصر لأن هذا العمل يمس شرف انجلترا » وقال فى خطاب لمصطفى كامل فى ١٤ يناير سنة ١٨٩٦ «إن زمن الجلاء على ما أعرف قد حل منذ بضعة سنوات » وصرح اللورد سالسبورى رئيس الوزارة للمسيو وادنجتن فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٦ « إذا ظننتم اننا نبغى البقاء فى مصر تكونون مخدوعين لاننا لا نبحث الا على خروج منها بشرف، ونحن مصممون فى الجلاء » وصرح اللورد جرانفيل لوادنجتن فى ١٦ يونيه سنة ١٨٨٤ « تتعهد حكومه جلالة الملكة أن تسحب جنودها فى بدء سنة ١٨٨٨ بشرط أن الدول ترى وقتئذ أن الجلاء يمكن أن يتم بدون تعكير السلام والامن فى مصر » وصرح سير شارلس ديلك وكيل الخارجية فى مجلس العموم فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٣ « ان حكومة جلالة الملكة تعارض فى ضم مصر وفى كل مايشبه الضم احتفاظاً بعهودها وصيانة لمصالح انجلترا » ورغماعن هذه العهود وأمثالها ورغم انوفنا لا يزال الانجليز بين اظهرنا

دردمندولف أن يفاوض الباب العالى فى موضوع الجلاء ، وما الجلاء أرادوا بل أرادوا عقد اتفاقية مع الباب العالى يُسَوِّغ مركزهم في مصر ، وبلغ ولف الآستانة وفاوض الباب العالى وعقدت اتفاقية مبدئية لتكون أساس التسوية المقبلة، وكان ذلك فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٨٥ ومما جاء فيه

(١) ترسل كل من الدولة العثمانية وانجلترا مندوبا عاليا إلى مصر

(٢) يتفاوض المندوب العثمانى مع الخديوى فى خير الطرق السلمية المؤدية إلى تسكين ثورة السودان

(٣) يباشر المندوبان العاليان مع الخديوى اصلاح وترتيب الجيش المصرى

(٤) يتذاكر المندوبان العاليان مع الخديوى فى إصلاح جميع فروع الادارة المصرية وفى استطاعتهم أن يدخلوا عليها التعديلات التى يرونها لازمة بحيث لاتتعدى حدود الفرمانات السلطانية

(٥) عندما يرى المندوبان العاليان أن الامن على الحدود قد استقر وأن الحكومة المصرية قد ثبتت دعائمها وانتظمت ، يقدم كل منهما تقريرا إلى دولته ، وبعد ذلك تتفاوض الدولتان فى عقد اتفاق يقرر جلاء العساكر الانجليزية فى وقت مناسب .

من هذا نرى كيف استدرج الانجليزُ الاتراكَ حتى اعترف هؤلاء لهم بحق الاشتراك معهم فى الاصلاح . واختارت انجلترا ولف مندوبا عنها وبلغ القاهرة فى نهاية اكتوبر سنة ١٨٨٥ واختار الباب العالى الغازى احمد مختار باشا وبلغ القاهرة فى ٢٧ديسمبر،ودارت المفاوضات بين الخديوى وولف ومختار باشا،وعارضه مختار باشا فى فكرة اخلاء السودان وقال ان في الاستطاعة استرداده بجنود مصرية وتركية وان السودان تابع لمصر وهو بهذه الصفة جزء لاصق بتركيا ، كما أن النيل حياة مصر ومن واجب هذه أن تقوم على مراقبته ومراقبة الأراضى التى يجتازها ، وتمسك مختار باشا

أن تكون قيادة الجيش المصرى فى يد ضباط مصريين ، ولم ترق هذه الآراء ولف لذلك حاول أن يزحزح مختار باشا فلم يستطع ، ولما قنط الانجليز من الاتفاق معه قطعوا المفاوضات معه بعد أن ظلت دائرة نحو عام، ثم عاودها ولف فى الآستانة مع رجال الباب العالى لامع مختار باشا الذى بقى فى مصر رمزاً قائما على سيادة تركيا على مصر، وتمخضت المفاوضة عن اتفاقية الآستانة أو كما تسمى أحيانا اتفاقية ولف وكامل وسعيد (لأن الثلاثة وقعوها بامضاءاتهم) وتاريخها ٢٢ مايو سنة ١٨٨٧ ومما ورد فيها :

(١) تخويل انجلترا حق تنظيم الجيش وابقاء ضباطها فيه

(٢) تجلو الجنود البريطانية عن مصر بعد مرور ثلاث سنوات من تاريخ هذه الاتفاقية، واذا ظهر قبل ذلك الميعاد خطر فى الداخل أو الخارج يوجب تأجيل الجلاء فان الجنود الانجليزية لابد أن تجلو من مصر مباشرة بعد زوال هذا الخطر، واذا كانت هناك أسباب تدعو للتخوف من اغارة من الخارج أو اضطراب فى الداخل جاز للحكومتين العثمانية والانجليزية أن تبعثا بجيوشهما لاحتلال مصر، واذا عاق الحكومة العثمانية ما يمنعها عن ارسال جنودها فعليها أن ترسل مندوبا يبقى فيها ما بقيت الجنود الانجليزية

(٣) يوقع على هذه الاتفاقية كل من السلطان وملكة الانجليز فى خلال شهر واحد اعتبارا من تاريخ توقيع المفاوضين .

(٤) تقدم الاتفاقية الى الدول لتقرها

نظرة فى هذه الاتفاقية : - لقد اكتسب الانجليز بهذه الاتفاقية نصرا هينا إذ اكتسبوا الاعتراف بقبول ضباطهم ، كما اكتسبوا حق احتلال مصر من جديد إذا ماغادروها وليس من الصعب عليهم أن «يخلقوا ارتباكات» تجيز لهم الاحتلال من جديد

معارضة فرنسا وروسيا : — كاد السلطان عبد الحميد يوقع على هذه

الاتفاقية لولا معارضة فرنسا وروسيا واحتجاجهما الشديد عليه وتهديدهما إياه بأنه إذ وقع على الاتفاقية احتلاَّ هُمَا أيضا أقاليم من الدولة العثمانية وظلا فيها حتى تعقد معهما اتفاقية تماثل اتفاقية ٢٢ مايو . ووعدت فرنسا السلطان المعاضدة إن هو أبى الاتفاق، وأبلغ السلطان ولف أنه حائر فى أمره وانه لا يستطيع إقرار الاتفاقية بغير أن يتعرض للخطر ، فغادر ولف الآستانة ولم يظفر بهذا الاقرار ، وفرنسا التى وعدت السلطان المساعدة تناست هذا الوعد على التدريج حتى عقدت مع انجلترا اتفاقية سنة ١٩٠٤ المشهورة

المفاوضات الخاصة بحيدة قناة السويس : — لقد أعلن سعيد باشا والى مصر رسميا فى يناير سنة ١٨٥٦ عن نفسه وعن خلفائه أن قناة السويس تبقى على الدوام طريقا حرا لكل سفينة تجارية تجتازه بدون تمييز أو استثناء أو تفضيل لشخص أو لجنسية، ولكن هذا الاعلان لم تكن له صبغة دولية وإنما هو مجرد عقد بين الحكومة والشركة أقره الباب العالى فى فرمان صدر فى مارس سنة ١٨٦٦

وقد رأينا انجلترا تضع العقبات فى سبيل نجاح المشروع . فلما نجح رغم مناوأتها اشترت أسهم مصر وسعت فى احتلال مصر، وكانت فى الوقت نفسه تلح فى عقد معاهدة دولية تضمن حياد القناة لتأمن طريقها إلى الهند؛ ثم جاءت الحوادث العرابية ، وانتهكت انجلترا حياد القناة الذى كانت تنادى به ، ولما جمع مؤتمر لندن للبحث فى شئون مصر المالية (١٨٨٤ — ١٨٨٥) قرر وضع نظام لحياد القناة ، ولكن لمّا كانت انجلترا قد أصبحت مسيطرة على مصر وقناتها ، وصارت آمنة على طريقها الى الهند قامت تتلكأ وتضع العقبات أمام المفاوضين ، وفى النهاية أمضى مندوبو الدول فى الآستانة فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٨٨ اتفاقا دوليا تلخص أهم بنوده فيما يلى : —

(١) تكون القناة حرة على الدوام وتفتح زمن الحرب والسلم لكل سفينة

تجارية أو حربيه بدون تفرقة بين الاعلام ، وألا تتعرض الدول المتعاقدة بأذى للقناة

(٢) يسمح لسفن المتحاربين وقت الحرب بعبور القناة بشرط الا تقع بينهم أعمال حربية إلا على بعد ثلاثة اميال من شواطىء القناة، حتى ولو كانت الدولة العلية إحدى الدول المتحاربة

(٣) لايجوز تحصين القناة ولا ايجاد قوى عسكرية عند مدخلها ولا على ضفتيها

(٤) تخول الحكومةُ المصرية الحق فى اتخاذ التدابير اللازمة للمحافظة على القناة ، وإن احتاجت إلى المعاونة لجأت إلى الدولة العلية

نطرة فى اتفاق الآستانة ١٨٨٨: ان هذا الاتفاق على الحقيقة لا يقرر حياد القناة اذ كان المنتظر أن يحرِّم على السفن المتحاربة عبور القناة لا أن يرخص لها فى عبورها . اضف إلى ذلك ان هذا الحياد المزعوم ليس الا حبرا على ورق مادامت انجلترا تسيطر على مصر، اذ فى مقدورها اغلاق القناة فى وجه سفن اعدائها أو اغراق تلك السفن .

مفاوضات فاشودة : لقد أسلفنا أن فرنسا أرادت أن تثير موضوع الجلاء فأرسلت مرشان الى فاشودة وانتهى الامر بتخاذل فرنسا وعقدها اتفاقية ٢١ مارس ١٨٩٩ التى اعترفت فيها بحقوق انجلترا على النيل الأبيض

مفاوضات واتفاق ١٩٠٤ : — زار ادوارد السابع ملك الانجليز رئيس الجمهورية الفرنسية ١٩٠٤ ورد الرئيس الزيارة ، وفى العام نفسه وفى أثناء زيارة الرئيس قام دلكاسيه وزير خارجيته يفاوض الحكومة الانجليزية فى عقد اتفاق فعقد الاتفاق الودى فى ١٨ ابريل سنة ١٩٠٤ ، والذى بعث الفرنسيين على عقد هذا الاتفاق قلقهم من سياسة المانيا العدائية وحاجتهم إلى من يقف بجانبهم ، وأهم ما جاء بهذا الاتفاق : —

(١) تصرح الحكومة البريطانية بأن ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية فى مصر، كما تصرح حكومة فرنسا من ناحيتها بأنها لا تعرقل عمل انجلترا فى ذلك البلد لا بطلب تعيين أجل الاحتلال البريطانى ولا بأية وسيلة أخرى

(٢) تبقى لفرنسا بمصر مدارسها وامتيازاتها وأن تبقى ادارة الآثار في يد عالم فرنسى

(٣) تطلق انجلترا يد فرنسا فى مراكش

(٤) تأييد حيدة قناة السويس

وفى نوفمبر سنة ١٩٠٤ نشر الأمر العالى المنظم لمالية مصر وألحق بالاتفاق الفرنسى الانجليزى (وقد مر ذكر هذا الملحق)

وهكذا تخلصت انجلترا من مزاحمة فرنسا ولكن بقيت أمامها تركيا وبقى أمامها أيضا الشعب المصرى يقدم الضحايا فى سبيل سعادة بلاده واستقلالها التام

الحركة القومية من ١٨٩٥ إلى ١٩١٤

رأينا أن الانجليز قد أفلحوا فى « كبح جماح » الخديوى عباس الثانى إثر حادثة الحدود، كما ضمنوا نزول النظارة على مشيئتهم لما تربع فى دستها مصطفى باشا فهمى، غير أن الله قد أراد بهذه الأمة خيراً، اذ قيض لها فى هذا الوقت محيي الوطنية بعد ذبولها المغفور له مصطفى كامل باشا ، الذى تسلم راية الجهاد ، وطفق يدعو قومه إلى مقاومة الاحتلال حتى أشربوا مبادئه ووقفوا للغاصبين بالمرصاد

نشأة مصطفى كامل : — ولد في القاهرة فى ١٤ أغسطس ١٨٧٤ وهو ابن المرحوم على افندى محمد باشمهندس الدقهلية ، وكان الوالد من أنزه الناس وأكثرهم استقامة وكان الابن قويم الخلق مجدا ، فاجتاز مراحل التعليم



مصطفى كامل باشا

سراعا حتى نال إجازة (ليسانس) الحقوق من تولوز ١٨٩٢

حياته السياسية : كانت نفس مصطفى كامل نزاعة إلى الوطنية ، راغبة في إحيائها في نفوس قومه ، ولا أدل على ذلك من إصداره — وهو لايزال طالبا — مجلة شهرية ، ولما نال اجازة الحقوق وقف حياته لا للدفاع عن الافراد في قضاياهم ، بل للدفاع عن القضية الكبرى : قضية الوطن الكريم ، وأضنى جسمه الجهاد ، فكثيرا ماخطب في مصر ، وكثيرا ماطوّف أوربة يخطب أهلها منددا بالاحتلال . مذكرا الانجليز بوعودهم ، وكاتب وزراء الانجليز يستحثهم على الجلاء ، وطفق يستصرخ فرنسا لتساعد مصر في تحرير

نفسها كما ساعدت من قبل الولايات المتحدة واليونان وبلجيكا وايطاليا ، وظل يضع فى فرنسا آمالا كبارا حتى عقدت مع انجلترا اتفاق ١٩٠٤ . فبات يعتمد على مؤازرة تركيا وجهود أمته ، وأنشأ جريدة اللواء ثم ألف شركة أنشأت جريدتين أخريين بهذا الاسم ، أحداهما تصدر بالانجليزية والأخرى بالفرنسية ، وكان يشرف على تحرير الألوية الثلاثة ، وأنشأ الحزب [١] الوطنى (وهو غير الحزب الوطنى الذى ألف فى آخر عهد الخديوى اسماعيل) وتتلخص أهم أغراض هذا الحزب فيما يلى : —

(١) العمل على استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ أى مع بقاء تبعية مصر لتركيا تبعية اسميه (ولم يتمسك مصطفى كامل ببقاء مصر تحت سيادة تركيا لتعصب دينى كما يزعم البعض ، بل لأنه رأى أن بقاء مصر تحت سيادة تركيا وقاية لها من أطماع الدول فيها)

(٢) إيجاد حكومة دستورية

(٣) تمكين عرى المحبة بين عنصرى الأمة المسلمين والمسيحيين .

(٤) احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى عقدتها الحكومات السابقة وإعادة مراقبة مالية بحتة

وكان مصطفى كامل مقترح الجامعة المصرية ، وذلك أن جماعة من قومه فكروا فى تقديم هدية إليه اعترافا بخدماته لوطنه ، فاقترح عليهم إنشاء جامعة تبدد بعض ما خيم على البلاد من ظلمات الجهل قائلا « هذه هى الهدية الوحيدة التى يليق بالوطنيين الصادقين اهداؤها لمصر والمصريين »

---

(١) فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطنى باسم المؤتمر الوطنى بدار اللواء ، والقى مصطفى كامل آخر خطابة له وحدد هذا المؤتمر برنامج الحزب الوطنى فى عشر بنود (ص ٦٧٢ من كتاب انجلترا فى مصر لمدام جوليت آدم الفرنسية الكاتبة الشهيرة التى كانت تعد مصطفى كامل باشا ابنا لها)

(سبتمبر ١٩٠٦) فأجابت الأمة باكتتاب كريم،وأنشئت الجامعة ١٩٠٨ وكان سمو الأمير احمد فؤاد (حضرة صاحب الجلالة مليكنا الحالى) أكبر من أخذ بيد المشروع ، ولا ننسى كلية « مصطفى كامل » فقد قامت بقسط كبير فى تعليم الأولاد وبخاصة أولاد الفقراء

وكان الخديو عباس الثانى كثير الاتصال سراً بمصطفى كامل وكان يشجعه على مقاومة من غصبوا الأمر منه

المحكمة المخصوصة وحادث دنشواى : حدث فى شتاء ١٨٩٤ – ١٨٩٥ أن تشاجر فى مدينة السويس بعض بحارة الأسطول الانجليزى وأهالى تلك المدينة ، وحكمت المحكمة الأهلية على الأهالى حكما لم يرق كرومر ، فابتدع للحكومة المصرية محكمة تعرف « بالمحكمة المخصوصة »[1] تحاكم كل من اعتدى على الجنود أو البحارة الانجليز ، وتكون المحاكمة فى مكان الاعتداء (زجراً للأهلين طبعا)

وفى يونية ١٩٠٦ حدثت حادثة دنشواى ونحواها : أن فرقة انجليزية كانت تنتقل من مصر إلى الأسكندرية وعسكرت فى طريقها فى بلدة كمشيش فى المنوفية ، وغادر المعسكر خمسة من الضباط لصيد الحمام من اجران القمح الخاصة بقرية دنشواى ، وأطلق أحد الضباط بندقته يصيد بها الحمام فأصاب امرأة فوق النورج ، فثار ثائر الفلاحين ، واستغاثوا ، فجاء فوج كبير من أهل القرية ، وضرب بعض الأهالى الضابط بول بعصا على رأسه ، فسار مع زميل له مسرعين إلى المعسكر ليستنجدا بمن فيه ، وكان الوقت صيفا ، فمات بول فى الطريق « من ضربة الشمس » كما قرر الطبيب

---

(١) رئيسها ناظر الحقانية ، وأعضاؤها : المستشار القضائى (الانجليزى) ، وقاض انجليزى من محكمة الأستئناف ، والقائم بأعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال ، وأحد رئيسى محكمة مصر أو الاسكندرية الابتدائيتين ، ويختار البوليس محاميا لاثبات التهمة (أى يختار مدعيا عموميا)

الشرعى ، وقبض الأهالى على الضباط الثلاث الآخرين ، ولكن جاء ضابط بوليس وخلصهم منهم، وعقدت المحكمة المخصوصة فى دنشواى (مكان الحادث) ونصب لها سرادق عظيم ، ورأسها بطرس باشا غالى ناظر الحقانية

وانتدب ابراهيم بك الهلباوى[1] ليكون مدعيا عموميا ، وطلب إلى المحكمة أن تتجرد من الرحمة فى معاقبة المتهمين الأشرار « أدنياء النفوس سافلى الأخلاق » وامتدح مسلك الضباط الانجليز وقال إنهم كانوا يستطيعون صيد الأهالى صيد الحمام ، ودافع عن المتهمين — وكانوا ٥٩ — بعض المحامين، وحكم بالاعدام على أربعة ، وعلى غيرهم بأحكام أخرى منها الاشغال الشاقة المؤبدة والأشغال الشاقة المؤقتة والجلد ، ونفذ الاعدام والجلد فى القرية ذاتها بين صراخ أهلها وأنينهم ، وكان أول من شنق حسن محفوظ وكان فى الخامسة والسبعين من العمر .

آثار حادث دنشواى (١) حرك الحادث نفوس الأدباء فنظموا القصائد وكتبوا المقالات منددين بالاحتلال وأنصاره كالهلباوى حاضين على خدمة الوطن الكريم ، ومما قاله المغفور له شاعر النيل حافظ ابراهيم بك

ليت شعرى أتلك محكمة التفـ ... تيش عادت أم عهد نيرون عادا

وقال عن الهلباوى

أنت جلادنا فلا تنس أنا ... قد لبسنا على يديك الحدادا

ونجم عن هـذه الحركة الأدبية اضطرام نار الوطنية التى أشعلها مصطفى كامل

(٢) سافر مصطفى كامل إلى أوربة وندد بالحادث تنديداً شديداً حتى أخزى الانجليز ما قاله عنهم وعن رجالهم فى مصر (كرومر) فاستبدلوا

---

(١) كان أحد تلاميذ الأستاذ جمال الدين الأفغانى ، وانضم إلى الحركة العرابية وأصاب من المحاماه شهرة ومالا ، ونفاه الاحتلال إلى النيل الأبيض ، ثم عفى عنه

به سير الدون جورست Sir Eldon Gorst (١٩٠٧) وعُفي عن مسجوني دنشواي (١٩٠٨)

جورست وسياسة الوفاق : كان جورست لينا ناعم الملمس فاعاد إلى الخديوى بعض سلطته فاكتسبه إلى جانبه ، وأصبح الخديوى حربا على الحزب الوطنى بعد أن كان له عونا وشغف بجمع المال بعد أن كان شغوفا بالوطنية ، وظهر حزبان فى النصف الثانى من عام ١٩٠٧ وهما حزب الأمة ومقره دار صحيفة « الجريدة » وحزب الاصلاح ومقره دار صحيفة «المؤيد» وأطلق على الحزبين لقب المعتدلين ، وكانا ينصران الخديوى والانجليز ، وتصدى لهما مصطفى كامل ، ولكن لم يمهله الموت إذ هصر غصنه الرطب فى فبراير ١٩٠٨ ، فهلعت الأمة بأسرها لموته ، وندبه الأدباء ندبا أذكى شعلة الوطنية، وخلفه فى رآسة الحزب الوطني محمد بك فريد «بطل التضحية» الذي ضحى بماله وراحته ومنصبه (وكيل نيابة) في الدفاع عن قضية بلاده مترسما خطى سلفه العظيم ، وقد أكره على مغادرة البلاد (١٩١٢) إلى أوربة ، وهناك بدأ ينشر الدعوة لبلاده ، واحتمل فى سبيل ذلك حرقة الاغتراب عن الوطن ، والفقر بعد الغنى ، والمرض بعد العافية ، وآلى ألا يعود إلى مصر حتى يجلو الانجليز عنها ، وقد بر بما وعد فقد ظل فى جهاده حتى مات فى ألمانيا عام ١٩١٩ ، ثم نقل رفاته عام ١٩٢٠ إلى مصر على نفقة أحد الوطنيين المخلصين وهو المرحوم الحاج خليل عفيفي من تجار الزقازيق ، والأمة المصرية تحمل إلى الأبد بين طيات قلوبها ذكرى خالدة لبطل التضحية العظيم .

ولنعد إلى جورست : فقد كان يظن أن المعارضة لابد أن تتبدد بمجرد انضمام الخديوى اليه ، ولكن خاب ظنه ، فقد ظلت المعارضة على شدتها وفضلا عن ذلك فقد ظهرت في مجلس شورى القوانين ، ولم تستطع الحكومة أن تنشيء لها حزبا فيه .

وخيل إلى جورست أنه يستطيع اخماد المعارضة بخنق الصحافة فاتفق



محمد بك فريد

والحكومة المصرية (١٩٠٩) على احياء قانون [1] الصحافة القديم ، ولكن ظل الوطنيون على جهادهم صابرين ، ثم انتفع جورست بحادث قتل بطرس باشا غالى وفرق بين عنصرى الأمة : المسلمين والمسيحيين .

قتل بطرس باشا غالى : استقالت نظارة مصطفى باشا فهمى فى نوفمبر ١٩٠٨

(١) هذا القانون صدر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ ثم أهمل ثم أحيي ١٩٠٩ ، وانا ندرك مبلغ التضييق على الصحافة بهذا القانون من أن جريدة اللواء قد أنذرت والمرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش قد حكم عليه بالسجن ٣ شهور وظهر الانذار والحكم فى يوم واحد

وتولى النظارة بطرس باشا غالى ، فكان أول مصرى مسيحى تولى النظارة، وفى ٢٠ فبراير ١٩١٠ بينما كان بطرس باشا غالى خارجا من وزارة الخارجية أطلق عليه ابراهيم ناصف الوردانى بضع رصاصات أودت بحياته بعد يومين، وحوكم القاتل [١] وأعدم شنقا ، وفى أثناء المحاكمة صرح بأنه قد قتل بطرس باشا إذ قامت لديه الأدلة الآتية على ولائه للانجليز : —

(١) بطرس باشا هو الذى وقع مع لورد كرومر على عقد اتفاقية السودان (١٨٩٩) بين المصريين والانجليز ،

(٢) ترؤسه المحكمة المخصوصة فى دنشواى (١٩٠٦)

(٣) احياؤه قانون الصحافة فى سنة ١٩٠٩ اذ كان رئيسا لمجلس النظار

(٤) دفاعه عن مشروع مد امتياز قناة السويس، وهذا المشروع يتلخص فى أن شركة القناة عرضت على الحكومة المصرية أن تمد الحكومة للشركة أمر الامتياز أربعين سنة أخرى أى الى عام ٢٠٠٨ — والامتياز الأصلى ينتهى عام ١٩٦٨ — وذلك فى نظير تقديم جزء من صافى أرباحها للحكومة المصرية ، وعُرض المشروع على الجمعية العمومية وتطوعت الحكومة للدفاع عن المشروع ، وفى أثناء بحث الجمعية المشروع قتل الوردانى بطرس باشا (فبراير) ورفضت الجمعية المشروع (ابريل) مقدرة ما تخسره مصر اذا قبلت المشروع بنحو ١٣٠ مليونا من الجنيهات .

كتشنر يحل محل جورست : مات الدون جورست (١٩١١) وخلفه لورد كتشنر معتمداً بريطانيا (قنصلا عاما) ، وكان كما عرفنا سردار الجيش المصرى ومعيد فتح السودان وأول حاكم له ، ولما حل محل جورست بدأ يسيطر على فروع الادارة كأنما هو يسيطر على الجيش ، وقام ينافس الخديو فى سلطته ، بل كان يعامله بالازدراء وهو الذى كان بالأمس سردارا فى

---

(١) دافع الهلباوى عن الوردانى ليمحو من أذهان الوطنيين ذكرى دنشواى

جيشه [1] ومرءوسا له ، وأصبح مطلق التصرف في البلاد نافذ الـكلمة ، وصارت اشارته أمرا يُلبى، ولقد كان كرومر يتقرب الى الاعيان، وجورست يستميل الخديوى ، أما كتشنر فكان يتودد الى الفلاحين ويطوف بينهم فى الأقاليم ، ويمنح بعضهم بعض أراضى الحكومة كأنما هو ولى الأمر ، ويفتح بابه على مصراعيه يستقبل كل من شكا ظُلامة ، فلا عجب أن ضغن عليه الخديوى ، وبات كل منهما يود الخلاص من صاحبه .

تطور النظام النيابى : كان من جراء يقظة المصريين، واشتداد حركة المعارضة رغم الضغط ، ومطالبة الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ذاتهما باعادة الحياة النيابية الصحيحة، أن صدر فى أول يوليه ١٩١٣ قانون نظامى جديد يلغى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ويحل محلهما « الجمعية التشريعية » وقد ذكرنا تكوينها واختصاصها من قبل (ص ٢٦١) .

وقد ظهر فى هذه الجمعية حزب معارض يحمل لواءه المغفور له سعد زغلول باشا وكيل الجمعية المنتخب وناظر المعارف السابق ، ويعاضده رجال أعلام نذكر منهم عبد العزيز بك فهمى (هو باشا الآن) والمرحوم عبد اللطيف بك الصوفانى ، ولقد رأينا من الجمعية ـ على قصر عهدها ـ حكمة وحصافة ودراية لا تقل عما نراه فى المجالس النيابية الأوربية .

عهد الحماية ١٩١٤ ـ ١٩٢٢

سافر كتشنر إلى انجلترا فى صيف ١٩١٤، كما سافر الخديو الى الآستانة تاركا رئيس نظاره حسين رشدى باشا نائبا عنه ، وفى الصيف عينه شبت

---

(١) لما وصل كتشنر إلى الاسكندرية من انجلترا على سفينة حربية ، لم يفكر فى زيارة الخديوى وكان فى قصر المنتزه بالاسكندرية بل سافر فى الحال فى قطار خاص إلى القاهرة

نار الحرب العظمى بين انجلترا وفرنسا وروسيا ودول أخرى وبين المانيا والنمسا ، وانضمت تركيا الى المانيا والنمسا .

وعُين كتشنر وزيرا للحربية البريطانية وكان يرى عزل الخديو ، إذ اعتبره مسئولا عن كل معارضة قامت فى وجهه أيام كان معتمدا بريطانيا فى مصر، وعدّه الآن (أى عام ١٩١٤) متآمرا على حكومة بريطانيا مع اعدائها ، لهذا مُنع عباس الثانى من الرجوع الى مصر ، وأعلنت الأحكام العرفية فى مصر (٧ نوفمبر ١٩١٤) وأعلنت الحماية عليها (١٨ ديسمبر ١٩١٤) وفى اليوم التالى (١٩ ديسمبر) أعلنت الحكومة البريطانية أن كلا من تركيا والخديوى قد سقطت عنهما ما كان لهما من حقوق فى مصر لانضمامهما إلى أعدائها ، وانها اختارت الأمير حسين كامل باشا ثانى أبناء المغفور له الخديو اسماعيل باشا ليكون سلطانا على مصر « لسنه وخبرته » .

السلطان حسين كامل : لقد قبل الأمير حسين كامل ـ كما قبل المصريون ـ هذا التغيير كارهين ، وأملوا أن يكون ـ كما صرحت انجلترا ـ ضرورة وقتية وأن تكون حقوق المصريين وديعة فى يدها ، وقد جاء رد عظمة السلطان حسين على خطاب ورد عليه من ملك انجلترا غاية فى الحكمة والحيطة ، اذ شكره فيه على استعداده « للمحافظة على كيان مصر واستقلالها »

ولما استولى السلطان حسين على العرش شعر أنه إنما يرث عرش أجداده ولا فضل للانجليز عليه قط فى اختياره

هذا وقد اختفت وزارة الخارجية وأصبحت المخابرة بين مصر والدول الاجنبية فى يد المعتمد البريطانى الذى صار يلقب بلقب « المندوب السامى »

والسلطان حسين قد أتم دراسته في باريس ونزل فيها ضيفا عزيزاً على نابليون الثالث صديق أبيه ، ثم عاد إلى مصر وتقلب فى عدة مناصب

ونظارات فى عهد أبيه وأظهر فيها دراية ونشاطا ، وكان أكثر ما عنى به شئون الاقتصاد ، وبخاصة جهوده فى إنشاء الجمعية الزراعية ، ولا عجب أن لقب بأبى الفلاح

ولما ولى العرش غَبَرَ طول حكمه يحاول تخفيف الآلام التى رزىء بها شعبه أبان الحرب العظمى .

آلام الشعب المصرى أثناء الحرب العظمى : فى ٧ نوفمبر ١٩١٤ أذاع قائد القوات البريطانية فى مصر منشوراً على المصريين يبلغهم نبأ قيام الحرب العظمى ، ويقول فى هذا المنشور إن انجلترا ستحمل على عاتقها كل أعباء الحرب دون أن تكلف الشعب المصرى شيئا منها ، ومع ذلك فقد تحملت مصر الآلام الآتية : —

(١) فرض الحماية على مصر ، وهو أمر ألِمَت له النفوس جِدّ الألم

(٢) اعلان الأحكام العرفية البريطانية وحلول السلطة العسكرية محل السلطات المدنية فى الحكومة بطريقة مباشرة أوغير مباشرة ، وتعطيل الجمعية التشريعية ، وتنشيط المحاكم العسكرية .

(٣) نفى كثيرين من الأمراء والزعماء والمستنيرين الى مالطة أواعتقالهم فى مصر ، وتقييد حرية الاجتماعات ، وفرض الرقابة على الصحف والمراسلات الخاصة ، وجمع الاسلحة من الخلق .

(٤) جعل مصر أكبر مصدر لِمَوْنِ الجيوش البريطانية ، فانتزعت من الفلاحين محصولاتهم ومواشيهم انتزاعاً ، ولم يبذل لهم من أثمانها إلا قدر يسير ، وفوق ذلك فقد خفض سعر القطن الى حد فاحش لفائدة الانجليز ، أضف إلى ذلك غلاء أسعار الحاجيات ، وكان من أثر ذلك كله أن سقط الفلاح فى أزمة اقتصادية هائلة ألزمته بيع حلى أهله أورهنها ليدفع الضرائب

(٥) الاستعانة بالمصريين فى الحرب ، فقد جمعت السلطة العسكرية



السلطان حسين كامل

نحو ۰۰۰ر۲۰۰ر۱ من « المتطوعين المكرهين » وسيقوا رغم أنوفهم إلى صحراء فلسطين [1] المحرقة للقيام بالاشغال العسكرية ، وقد هلك وجرح منهم كثيرون

وفاة السلطان حسين : توفى السلطان حسين فى ۹ ا كتوبر ۱۹۱۷ وقبل وفاته بيوم واحد تقدم اليه ابنه الوحيد الأمير كمال الدين يعتذر اليه عن قبول العرش وإعبائه وينزل عن كل حق له فى الوراثة

(۱) كان الأتراك قد والوا زحفهم على مصر حتى عبروا قناة السويس فى فبراير سنة ۱۹۱۵ ولكنهم ردوا لأن المصريين لم يتقدموا لمساعدتهم

عظمة السلطان فؤاد

ولى العرش بعد وفاة السلطان حسين أخوه حضرة صاحب العظمة السلطان فؤاد ، وهو حضرة صاحب الجلالة مليكنا الحالى ، أدام الله عهده

وهو أصغر أبناء الخديوى اسماعيل ، وولد فى ٢٦ مارس ١٨٦٨ ودرس في مصر ثم سويسرا ، ولما عزل والده اصطحبه إلى إيطاليا ، وأحبه ملك ايطاليا وأدخله مدرسة تورين الاعدادية الملكية ، ثم مدرسة تورين الحربية العليا ثم قضى عامين فى الجيش الايطالى ضابطا قديراً محبوبا ثم اختاره السلطان عبد الحميد ياورا فخريا له ، ثم عينه ملحقا حربيا بالسفارة التركية فى فينا ، ولقد كان لسمو الامير من ذكائه الفطرى ، وطول مكثه فى أوربة المتمدينة وكثرة المناصب الكبرى التى شغلها فيها ما أعده للقيام بدوره العظيم فى السياسة والحكم .

ولما عاد من اوربة شحذ عزمه واستجمع حزمه ، ووجه نفسه لأعمال الاصلاح والبر ، فهو المؤسس الفعلى للجامعة المصرية (١٩٠٨) وافتتحها بخطبة قيمة ، واستجلب لها أكبر الاساتذة من أوربة ، وبذل لها من ذات يده وذات نفسه ما ثبت دعائمها ، ثم أسس الجمعية الخديوية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع ، وأنشأ جمعية ترغيب السياح ، ورأس جمعية الاسعاف وجمعية الهلال الاحمر ، كل ذلك قليل من كثير نذكره رمزاً لجهوده قبل أن يلى العرش .

« عصر فؤاد » ومميزاته : يتميز « عصر فؤاد »[1] بحركتين كبريين إحداهما إصلاحية والأخرى قومية

الحركة الإصلاحية الكبرى

تقوم الآن فى « عصر فؤاد » حركة اصلاحية كبرى هى مكملة للحركتين الكبيرتين اللتين ازدان بهما عهدا محمد على واسماعيل ، ويتعهد جلالة الملك الحركة الحالية بالرعاية الشاملة ، ولا غرو فهو دائم البحث دائب العمل شديد العزم يشجع العاملين

نهضة التعليم والفنون : نرى نهضة فى جميع مراحل التعليم من الاوّلى الالزامى الى التعليم العالى الى البعوث العلمية الى أوربة وأمريكا، وقد عدلت مناهج التعليم تعديلا ينهض بالثقافة العامة ، وأنشئت الجامعة الاميرية فكان جلالة الملك بذلك منشئها شعبية (١٩٠٨) ثم أميرية (١٩٢٥) . وأفضال جلالته على الفنون جمة ملموسة ، ومن بين هذه الفنون فن الموسيقى فقد عاضده فى المدارس ، وحاط معهد الموسيقى[2] الشرقى برعايته السامية حتى أصبح ذلك المعهد مدرسة يتلقى فيها نحو المائة من التلاميذ دروسهم الموسيقية على أحدث أساليب التعليم

المؤتمرات : وقد اشتركت مصر اشتراكا محمودا فى المؤتمرات الدولية التى من شأنها خدمة علم أو فن أو ناحية من نواحى الاقتصاد أو الاجتماع ، كما عقد بمصر مؤتمرات منها المؤتمر الجغرافى (١٩٢٥) ومؤتمر القطن ومؤتمر

---

(١) اتفق الكتاب على تسمية هذا العصر « بعصر فؤاد » واعترفت الحكومة رسميا بهذه التسمية .

(٢) أنشأ هذا المعهد العظيم عام ١٩١٤ جماعة من هواة الموسيقى على رأسهم حضرة صاحب العزة الموسيقى الأكبر الأستاذ مصطفى رضا بك ، ويبذل المعهد فى نشر الموسيقى وتعليمها مجهودات مباركة إن شاء الله

الاحصاء (١٩٢٧) والمؤتمر الطبى (١٩٢٨) ومؤتمر لموسقى العربية (١٩٣٢) ومؤتمر السكك الحديدية (١٩٣٣)

اصلاحات الري : زيد ارتفاع خزان اسوان ٩ أمتار حتى يستطيع أن يخزن ٥٠٠٠ر٥ مليون من الامتار المكعبة من الماء ، كما أنشئت قناطر نجع حمادى وترعتا الفؤاديه والفاروقية لاصلاح رى نحو نصف مليون من الأفدنة فى جرجا

التقدم الاقتصادى : وقد ضرب المصريون فى « عصر فؤاد » بسهم صائب فى النشاط الاقتصادى ، فبنك مصر دليل ناطق على ذلك النشاط و نشاء الصناعات كالمنسوجات والطرابيش وغيرها باكورة لثمار نجنيها شهية باذن الله تعالى . ولا أطيل الكلام فى وصف النهضة الحالية . فهى بين أظهرنا نلمسها لمسا .

الحركة القومية الكبرى

لقد ظهرت تلك الحركة قوية فى « عصر فؤاد » فجاءت متممة للحركة التى شاهدناها تقف فى وجه الحملة الفرنسية ، وتتجلى فى عهد محمد على ، وتعتز بمناصرة سعيد لها ، ويشتد ساعدها فى عهدى اسماعيل وتوفيق لتحدى الأجانب لها ، ثم يحييها مصطفى كامل بعد أن جهد الانجليز فى اخماد أنفاسها

ولعاهلنا الحالى فضل كبير على تقوية تلك الحركة وتسييرها فى طريق الحكمة والسداد

أسباب ثورة ١٩١٩ :

(١) آلام الشعب المصرى أثناء الحرب العظمى (وقد مر ذكرها)

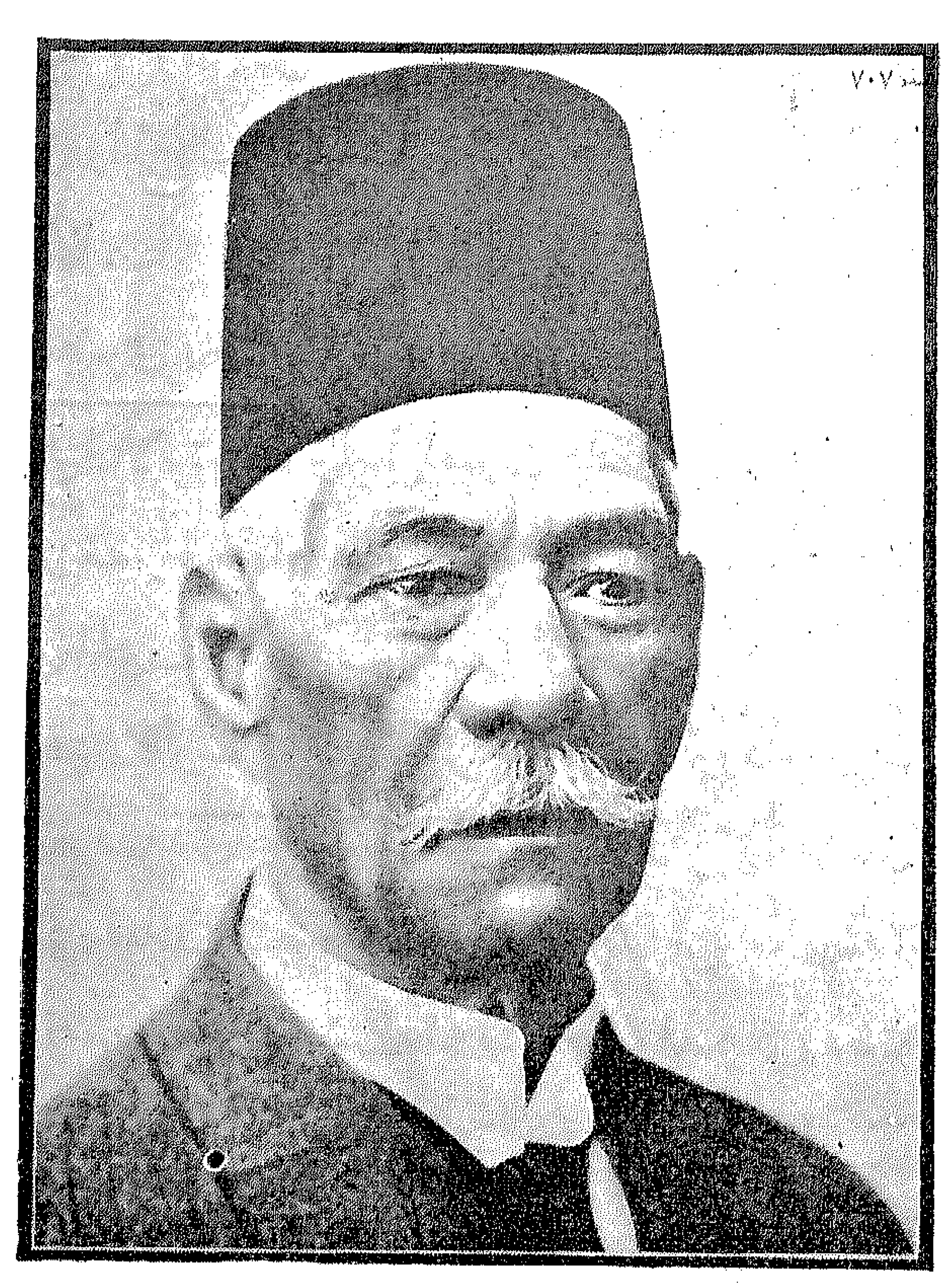
(٢) مشروع برونيات : كان سير برونيات مستشار الحقانية فاقترح فى ١٩١٨ الغاء الامتيازات الأجنبية وجعل القضاء انجليزيا وانشاء برلمان

مصرى يكون ثلث أعضائه من الأجانب ، فحزّ هذا الاقتراح فى نفوس المصريين إذ هو حكمٌ عليهم بالاعدام السياسى والقومى ، وانبرى لتفنيد هذا الاقتراح الشائن المذل المغفور له سعد زغلول باشا وعبد العزيز بك فهمى

(٣) مبادىء ولسن : دخلت الولايات المتحدة الامريكية الحرب العظمى فى جانب انجلترا وحلفائها ، وأعلن ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة مبادئه الأربعة عشر ومن بينها مبدأ حق تقرير الشعوب لمصيرها ، فاعتبر المصريون هذا المبدأ بشرى باسمة ورجاء جميلا للخلاص من الاحتلال والحماية

(٤) نفى سعد باشا وزملائه معالى اسماعيل صدقى باشا وصاحبى السعادة محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا إلى مالطه (٨ مارس سنة ١٩١٩) ، وهذا الامر هو السبب المباشر لقيام الثورة ·

وتفصيل هذا الأمر أن سعد زغلول باشا والمرحوم على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ذهبوا فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ (أى بعد يومين من وقوف رحى الحرب العظمى) إلى دار الحماية وطلبوا إلى سير ونجت المندوب السامى أن تسمح لهم السلطة العسكرية بالسفر إلى أوربة ليقدموا لمؤتمر الصلح المنعقد فى فرساى مطالب المصريين الحقة العادلة التى تتلخص فى الاستقلال التام ، فلم يجب طلبهم ، كذلك طلب المغفور له حسين رشدى باشا رئيس الوزراء وعدلى باشا يكن وزير المعارف السفر إلى لندن للمفاوضة فى مركز مصر السياسى ، فلم يجب طلبهما كذلك ، فترأس سعد باشا المعارضة وألف « الوفد المصرى » من أقدر رجالات الأمة ، وأنابته الأمة عنها فى المطالبه بحقوقها ، وأشرك سعد باشا بعض المسيحيين فى الوفد ليجمع كلمة عنصرى الأمة : المسلمين والمسيحيين، وبدأ يعقد الاجتماعات ويلقى الخطب الوطنية المتقدة ، فانذرته السلطة العسكرية وتوعدته ، فلم يخفه انذارها ووعيدها،كذلك استقالت الوزارة ، فعمدت السلطة العسكرية إلى تنفيذ



سعد زغلول باشا

وعيدها فنفت سعدا باشا واسماعيل صدقى باشا وصاحبى السعادة محمد محمود باشا وحمد باشا الباسل إلى مالطة (٨ مارس ١٩١٩)

الثورة : كان ذلك النفى إيذانا بهبوب ثورة جائحة فى القاهرة والاقاليم . فقام الناس يخربون ويقطعون أسلاك البرق والمسرة وقضبان سكك الحديد ويقيمون المتاريس ويشتبكون بجند الانجليز مسترخصين دماءهم الطاهرة فى سبيل قضيتهم العادلة ، وعجب الانجليز لثورة لم يحسبوا لها حسابا ، وكان من أكثرهم عجبا برونيات الذى قال عن الثورة أول نشوبها « إنها شملة تطفئها بصقة » وأرسلت الحكومة الانجليزيه لورد اللنبي Allenby قائد جيوشها السابق فى فلسطين ليكون مندوبا ساميا بدل ونجت ليرى له رأيا فى تلك

الثورة العجيبة ، وقد أدى به البحث إلى اتخاذ طريق الاعتدال ، فاطلق سراح المنفيين وأباح السفر لمن شاء ، ففرحت الامة بنصرها وزادها النصر استمسا كا بحقها .

الوفد المصرى ولجنة ملنر : سافر الوفد إلى باريس ، فوجد ولسن قد طوته سياسة الاستعمار ، ولم يبق لصوت مبادئه السامية إلا صدى لا يُغْنِي ، وتجاهل المؤتمر مصر وحقها ، فقام الوفد بنشر الدعاوة لمصر وحقها وفضلها على الحلفاء فى الحرب ، فأرادت انجلترا أن تخادع المصريين حتى ينفضوا من حول الوفد ، فأرسلت إلى مصر لجنة برآسة لورد ملنر لتستطلع آراء المصريين وتتعرف مدى مطالبهم ، فقاطعتها الأمة وعلى رأسها أمراء الاسرة المالكة الأمجاد ، فعادت اللجنة مخفقة ، ولم تر بدا من مفاوضة الوفد الذى تجاهلته وأنكرته من قبل ، وعرضت عليه مشروعا رفضه كما رفضته الأمة لِمَا فيه من قيود خفية تجعل الاستقلال أمرا صوريا

تصريح (٢٨ فبراير ١٩٢٢) والاستقلال (١٥ مارس ١٩٢٢) : ظلت الأمة على جهادها ويقظتها [1] ينير سبيلها صاحب تاجها ويتقدمها بطل حركتها سعد باشا ، وقد حدث أن نفى الانجليز سعد باشا مرة ثانية إلى جزائر سيشل ومعه ثمانية من صحبه (ديسمبر ١٩٢١) ثم نقلوه وحده إلى جبل طارق ، ولما رأوا ثبات الأمة المصرية على مبدئها أعلنوا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ على أثر مفاوضة قامت بينهم وبين حضرة صاحب الدولة السياسى القدير المغفور [2] له عبدالخالق باشا ثروت ، وانا نذكر لثروت باشا

---

(١) اضطررنا إلى الاجمال لضيق المجال ، ونعتزم ان شاء الله إصدار كتاب خاص فى تاريخ مصر فى القرن العشرين

(٢) لم يتول ثروت باشا الوزارة إلا أول مارس ١٩٢٢ أى بعد إعلان التصريح وكان يفاوض اللنبى قبل أن يلى الوزارة ، واشترط لقبول الوزارة قبول انجلترا وجهة نظره التى جاءت فى التصريح ، وقد عاضده اللنبى لدى حكومته

فضله الكبير إذ جعل التصريح يعلن من جانب واحد هو بريطانيا بغير أن تتقيد به مصر ، وهذا التصريح يتلخص فى أمرين جوهريين : —

(١) الغاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة [١]

(٢) تحتفظ الحكومة البريطانية بأمور أربعة تبقى على حالتها حتى تبرم بخصوصها اتفاقات بين الحكومة البريطانية وبين الحكومة المصرية ، وهذه الأمور الأربعة هي : —

(ا) تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر

(ب) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة

(حـ) حماية المصالح الاجنبية في مصر وحماية الاقليات

(د) السودان

ولما كانت الحماية قد رفعت عن مصر أعلن عظمة السلطان فؤاد فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ استقلال مصر واتخذ لقب حضرة صاحب الجلالة الملك، واحتفلت الحكومة فى هذا اليوم بالاستقلال رسميا ، وصار يوم ١٥ مارس [٢] من ذلك الحين عيدا وطنيا تعطل أعمال الحكومة فيه ، واعترفت الدول باستقلال مصر ، ورفعت قنصلياتها العامة فى مصر إلى سفارات ، وأعيدت وزارة الخارجية المصرية ، وأنشئت لمصر مفوضيات وقنصليات لتمثيلها فى الخارج ، وألغيت مناصب المستشارين الانجليز من الوزارات ما عدا منصبي المستشار المالى والقضائى ، وصار المستشار المالى لا يحضر جلسات مجلس الوزراء كما كان يفعل قبلا ، هذا ولم تبرم بعدُ الاتفاقات الخاصة

---

(١) إن مصر فى الواقع مستقلة منذ أن أعلنت الحكومة التركية فى مجلس المبعوثان استقلال مصر التام عام ١٩١٥ . فاعتراف انجلترا الآن باستقلال مصر ليس له قوة انشائية بل له الصفة الاعلانية فقط

(٢) إن المنهج ينص على دراسة مصر حتى تاريخ اعلان الاستقلال ، لهذا يقف قلمى عند هذا التاريخ



سمو الأمير فاروق

بالتحفظات الأربعة ، والدعاء لله أن توفق البلاد فى ظل مليكها المفدى إلى تحقيق أمانيها القومية كاملة غير منقوصة

الحكم الدستورى : وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة بمنح شعبه دستورا فألفت لجنة من ثلاثين وضعت دستورا وأصدر فى ١٩ إبريل ١٩٢٣ ، وفى ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ استبدل به دستور جديد أصدر فى وزارة حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقى باشا

وراثة العرش : وقد نص الدستور على أن يكون انتقال ولاية الملك من صاحب التاج إلى أكبر أبنائه ثم إلى أكبر أبناء ذلك الابن وهكذا ، وولى عهد المملكة المصرية زين الشباب وقرة عين مصر حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فاروق

امتداد النفوذ الاوربى

كلمة تمهيدية فى الاستعمار قبل القرن التاسع عشر

كانت التجارة بين أوربة والشرق تمر عن طريق مصر والشام ، فلما امتلك الأتراك حوض شرق البحر الابيض المتوسط ، ضيقوا على الاور بيين سبل الاتجار مع الشرق ، فاعتزم هؤلاء أن يبحثوا عن طريق آخر ، وشجعهم على ما اعتزموا أن النهضة الحديثة قد فتقت عقولهم وأنارت بصائرهم ومحت من قلوبهم فزعا موهوما كان يغشاهم اذا أبعدت سفنهم عن الشاطىء ، ووفق فاسكودى جاما البرتغالى (١٤٩٧) الى بلوغ شاطىء الهند بالسير شرقا حول رأس الرجاء الصالح

كذلك خرج كولمب الجنوى لحساب اسبانيا يريد الوصول الى الهند بالسير فى البحر غربا فوصل الى امريكا ١٤٩٢ ، وتلا الاستعمار الاستكشاف فأنشأ البرتغاليون مستعمرات على شواطىء الهند وفى جزائر الهند الشرقية ، وأنشأ الاسبان لهم مستعمرات شاسعة فى جزائر الهند الغربية وفى أمريكا الجنوبية (ما عدا البرازيل فكانت للبرتغال) وفى أمريكا الوسطى ، والجزء الجنوبى الغربى من أمريكا الشمالية

ولما خضعت البرتغال ومستعمراتها لاسبانيا فى عهد فيليب الثانى ١٥٨٠ صارت لاسبانيا مستعمرات المشرق والمغرب معا ، ولكن اسبانيا وجهت جل اهتمامها المغرب وأهملت المشرق ، فقامت هولندة (التى استقلت عن اسبانيا فى أول القرن السابع عشر) وخلفت البرتغال فى المشرق مستولية على معظم جزائر الهند الغربية

وانطلق الانجليز والفرنسيون كذلك الى الغرب والشرق يستعمرون

انجلترا وفرنسا فى أمريكا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر : فى القرن السابع عشر أنشأ الانجليز لهم على الساحل الشرقى للبلاد التى تعرف الآن بالولايات المتحدة الامريكية ثلاث عشرة مستعمرة بين المحيط الاطلنطى وجبال اليجانى ،

وقد دفع الأنجليز الى المهاجرة من بلادهم واستعمار هذه النواحى فرار من اضطهاد دينى أو سياسى ؛ وأنشأ الفرنسيون كذلك مستعمرات هى اكاديا (نوفاسكوشيا) وكوبك (فى حوض سنت لورنس) ولويزيانا (فى حوض نهر المسيسبى وسميت بهذا الاسم نسبة الى لويس الرابع عشر) ثم قامت بين الانجليز والفرنسيين منافسة وحروب أشهرها حرب السبع السنين ١٧٥٦ — ١٧٦٣ وفيها انتصر الانجليز ؛ وختمتها معاهدة باريس ١٧٦٣ وبها نزل الفرنسيون للانجليز عمّا لهم فى كندا .

ولم يمض طويل وقت حتى ثارت على انجلترا المستعمرات الثلاث عشرة التى بين المحيط الاطلنطى وجبال اليجانى واعترفت انجلترا باستقلالها فى معاهدة فرساى (باريس) ١٧٨٣ وصارت هذه المستعمرات تعرف بالولايات المتحدة الامريكية (وسنعقد لهذا الموضوع فصلا خاصا)

انجلترا وفرنسا فى الهند فى القرنين السابع عشر والثامن عشر : كانت الهند منذ القرن السادس عشر يحكمها أباطرة مسلمون من المغول أولهم بابر من أحفاد تيمورلنك وكانت عاصمتهم دهلى

وكان هؤلاء الاباطرة أقوياء شمل نفوذهم كل أجزاء الهند فى القرنين السادس عشر والسابع عشر

وقد أنشأ كل من الهولنديين والانجليز والفرنسيين شركة غرضها الاتجار فى الهند وجزائر الهند الشرقية ، وتمكنت الشركة الانجليزية [1] من انشاء محاط (شون أو وكالات) لتجارتها فى سورات ومدراس وبمباى وكلكتا ، كما تمكنت الشركة الفرنسية من انشاء محاط أهمها شندرناجور و بندشيرى

وفى أول القرن الثامن عشر تضعضع نفوذ أباطرة المغول فتقسمت الهند أقساما

---

(١) كان رأس مال الشركة الاول ٣٠,٠٠٠ جنيه وساهم فيه بعض كبار تجار لندن وكان المحط (الوكالة) مبانى حول فناء مربع ، وفى المبانى تخزن السلع ويقطن الموظفون ، ويدير شئون المحط رئيس هو كبير التجار يعاونه مجلس من أربع من كبار التجار

يحكم كل منها أمير (نواب) لايدين للامبراطور (أو الپاديشاه) إلا بسيادة اسمية ، وكان أظهر هؤلاء الامراء « عصابة المهراتا » فى وسط الهند وشماليها الغربى ، وكان ديدنهم السلب والنهب ، وظهرت خلاف عصابة المهراتا حكومة قوية فى «النظام» فى الدكن وأخرى فى ميسور

وانتفع الاوربيون هم أيضا بضعف الاباطرة إذ أن الفرنسيين لما شعروا بهذا الضعف ورأوا انقسام الامراء على أنفسهم وامبراطورهم اعتزموا أن يمكنوا لأنفسهم فى الهند حربيا لا تجاريا فقط ، ولما لاحظوا أنه لا توجد أمة هندية بالمعنى الصحيح ذات روح قومية ، اتخذوا من الهنود جيشا أعانوا به أميراً على آخر حتى جمعوا لهم نفوذا كبيراً ، وحاكاهم الانجليز فى ذلك ، وقام بين الفرنسيين والانجليز منافسة وحروب ، أهمها حرب السبع السنين التى انتصر فيها الأنجليز وانتهت بمعاهدة باريس (١٧٦٣) التى قضت بأن يبقى لفرنسا مراكزها التجارية على شريطة ألا يكون لها فيها جيوش ولا حصون



الاستعمار

فى القرن التاسع عشر

استقلت المستعمرات الثلاث عشرة الأمريكية عن انجلترا (بمعاهدة فرساى ١٧٨٣) واستقلت عن أسبانيا مستعمراتها فى أمريكا الجنوبية والوسطى فى أوائل القرن التاسع عشر ، فكان هذا الاستقلال درسا قاسيا للأوربيين وباتوا يعتقدون أن لاخير فى المستعمرات ، وصاروا يشبهونها بالفاكهة التى لايتم نضجها حتى تتساقط ، لهذا ظلوا حتى منتصف القرن التاسع عشر لايولون الاستعمار اهتماما كبيراً ، ولكن فى النصف الثانى من هذا القرن تملكتهم فكرة « الأمبيريالزم Imperialisme » ومعناها إنشاء أمبراطوريات من المستعمرات وقد بعث عليها عوامل أهمها : —

(١) ظهور الصناعات الكبرى الحديثة وما تتطلبه من بقاع تُستمد المواد الأولية منها ، وأسواق تباع فيها السلع المكدسة

(٢) تكوين رءوس الأموال الهائلة والرغبة فى إيجاد مجالات توظف فيها هذه الأموال

(٣) ازدياد عدد السكان ازدياداً جعلهم يضربون فى الأرض ابتغاء الرزق

(٤) تقدم الاستكشاف الجغرافى وبخاصة فى استراليا ومجاهل أفريقية

(٥) فتح قناة السويس وتقدم الملاحة التجارية وانتشار الأسلاك البحرية .

الامبراطورية البريطانية

للانجليز اليوم مستعمرات فى كل ناحية من نواحى العالم وكل ركن من أركانه ، وهم يفخرون بأن الشمس لاتغيب قط عن أملاكهم ، وقد أعانها على امتلاك مستعمراتها الجمة أنها أعرضت عن القارة الأوربية وولت وجهها وكافة اهتمامها نحو البحار وما وراء البحار

(١) انجلترا فى أمريكا الشمالية

كانت لفرنسا مستعمرة كوبك أو كندا السفلى فنزلت عنها لانجلترا فى معاهدة باريس ١٧٦٣ ، ثم فقدت انجلترا مستعمراتها الثلاث عشرة فى معاهدة باريس ١٧٨٣ ، وفى مستهل القرن التاسع عشر كانت كندا مؤلفة من :

كوبك أو كندا السفلى (وقاعدتها كوبك وأصلها للفرنسيين) وكندا العليا (وقاعدتها أونتاريو) وبرنزويك الجديدة واسكتلندة الجديدة (نوفاسكوشيا) وجزيرة البرنس أدوارد وجزيرة نيوفوندلاند ، وكانت كل مستعمرة من هذه المستعمرات الست منفصلة عن الأخرى فى الحكم وعلاقتها مع انجلترا رأسا ، وقد كان للانجليز خلاف هذه المستعمرات الست أملاك شركة خليج هدسن الانجليزية وكانت هذه الأملاك تمتد إلى الشمال والشمال الغربى فى غير حدود معينه تحصرها

تطور نظام الحكم والاستقلال الذاتى : ولما كانت كندا السفلى وكندا العليا أهم هذه المستعمرات الست منحت انجلترا كلا منهما دستورا عام ١٧٩١على نمط الدستور الانجليزى تقريبا ، غير أن الحاكم كان من حقه الغاء أعمال السلطة التشريعية ، وكان يعد نفسه مؤاخذا أمام الحكومة الانجليزية

لا أمام أهل المستعمرة ، فشكا أهل المستعمرتين فلم يستمع لشكاتهم أحد، وأخيراً عمدوا إلى الثورة عام ١٨٣٧ ، وقد شجعهم على هذه الثورة أمران :

أولهما — نجاح حركة الاصلاح النيابى فى انجلترا عام ١٨٣٢

ثانيهما — ما أصاب أهل الولايات المتحدة من خير ونُجح فى ظل نظمهم الدستورية السمحة

وخافت انجلترا أن تفقد كندا كما فقدت الولايات المتحدة من قبل ، فانتدبت لورد دِرْهام Durham (من أقدر رجال حزب الأحرار) ليفحص عن حال كندا ويكتب فيها تقريراً . فلما بلغ كندا تخذ بعض التدابير الشديدة لتهدئة أحوالها كنفى بعض زعماء الثورة ، فحمل عليه بعض قومه لشدته التى لايقرها قانون ، واستدعى إلى انجلترا مغضوبا عليه ، ولكنه رغم ذلك قدم إلى مجلس العموم تقريره الذى يتضمن خطة فى حكم المستعمرات قضت على النظام الاستعمارى القديم .

وتتلخص هذه الخطة فيما يلى :

(١) أن تكون السلطة التنفيذية مؤاخذة أمام السلطة التشريعية ، إذ لايمكن الجمع بين حكم نيابى ووزارة غير مؤاخذة

(٢) أن توحّد المستعمرات حتى يمكن إنشاء المشروعات المشتركة كالجيش الوطنى والسكك الحديدية (الخ) ، وأن يجرب هذا الاتحاد أولا في كندا السفلى وكندا العليا

وأهمل مشروع درهام مدة ثم أُخذ به ووحدت الولايتان عام ١٨٤٠ بعد موافقتهما وأطلق عليهما اسم « كندا » ويدير شئونها حاكم واحد ، ووزارة واحدة ، وبرلمان مؤلف من الحاكم بصفته ممثلا للملك ومن مجلسين أحدهما للأعيان ويُعيّنه الحاكم والثانى للعموم ويختاره الشعب ، وفى الوقت نفسه جُعل لكل ولاية من الولايتين حاكم خاص وهيئة تنفيذية خاصة وسلطة تشريعية خاصة لأدارة شئونها الداخلية .

غير أن السلطة التنفيذية لم تصبح مؤاخذة أمام السلطة التشريعية إلا عام ١٨٤٧ في عهد لورد إلجن حاكم كندا

ثم شعرت بقية ولايات كندا بالرغبة الشديدة فى إتمام الاتحاد ، ونشأ هذا الشعور عن دافعين (أولها) أن سكان كندا أحسوا خطراً يتهددهم من ناحية الولايات المتحدة (ثانيهما) أن تقدم الولايات المتحدة فى ظل الاتحاد جعلهم يرغبون فى محاكاتها ، لذلك انضمت الى كندا اسكتلندا الجديدة وبرنزويك الجديدة ١٨٦٧ وتكونت من الجميع حكومة اتحادية «دمينيون» تسمى كندا أيضا وجعلت عاصمتها اتوا ، ثم دخلت الاتحاد منيتوبا (١٨٧٠) ثم كولمبيا البريطانية على المحيط الهادى (١٨٧١) وجزيرة البرنس أدوارد (١٨٧٣) ثم اشترت كندا أملاك شركة خليج هدسن وكونت منها ولايتى ألبرتا وسسكتشوان وضمتا إلى الاتحاد (١٩٠٥) ، فأصبحت كندا تشمل كل الممتلكات الانجليزية فى أمريكا الشمالية ما عدا نيوفوندلاند التى أبت أن تدخل الاتحاد ، وبقيت حتى اليوم « مستعمرة مستقلة » قائمة بذاتها

وكندا أولى مستعمرات انجلترا المستقلة أى انها وإن كانت مستعمرة من مستعمرات انجلترا ينصب عليها حاكم من قبل انجلترا ويحرم عليها عقد المعاهدات مع الدول إلا أنها مستقلة تماما فى إدارة شئونها الداخلية ، وأنها تستمتع ببعض المظاهر الخارجية للدول المستقلة فمن ذلك أن لها ممثلا سياسيا فى الولايات المتحدة وأن لها من يمثلها فى عصبة الأمم (الخ)

تقدم كندا فى ظل الاتحاد : لقد تقدمت كندا فى ظل الاتحاد فمدت فيها سكة حديد كندا (١٨٨٦) فارتبطت الولايات بعضها ببعض وأيسرت به الاقاليم الغربية وربا عدد سكانها لكثرة من هاجر إليها وصارت كندا الوطن الثانى بعد انجلترا للانجليز السكسونيين

فضل درهام : درهام هو الذى أشار بالحكومة الذاتية ، وذلك النوع

من الحكومة هو الذى وفق حتى اليوم بين استقلال المستعمرات الانجليزية ووحدة الامبراطورية الانجليزية ، وهذا النوع من الحكم هو الذى يميز بعض مستعمرات انجلترا عن مستعمرات غيرها من الدول ، وقد طبق على جزيرة نيوفوندلاند واستراليا وزيلندة الجديدة وجنوبى أفريقية

ولا يفوتنا أن نذكر أن الحكم الذاتى يبعث فى نفوس المستعمرين حنينا إلى الاستقلال التام ، وبخاصة فى المستعمرات التى لا يكون فيها أغلبية السكان من العنصر الانجليزى (مثل جنوبى افريقية) .

(٢) انجلترا فى الاقيانوسية

تملك انجلترا فى الاقيانوسية مستعمرات أهمها استراليا وزيلندة الجديدة وجزء من بورنيو :

(ا) استراليا

لعل أكبر أعمال انجلترا فى القرن التاسع عشر استعمارها قارة بأكملها الا وهى استراليا ، ولم يلق الانجليز في استعمارها عناء كبيراً إذ لم يكن لهم فيها منافس أوربى ينازعهم ، ولم يكن سكانها الاصليون القلائل على أية درجة من درجات الحضارة والقوة حتى يستطيعوا المقاومة

كيف استعمرها الانجليز : كان تسمان الهولندى فى القرن السابع عشر أول من كشف جنوبى استراليا وجزيرة تسمانيا (نسبة إليه) والجزائر التى سماها زيلندة الجديدة ، وأغفل الهولنديون شأن استراليا لانهم لم يهتدوا الى نواحيها الخصبة ، وظلت مهجورة حتى وصل الكبتن كوك الانجليزى مع جماعة من العلماء الى خليج بوتانى عام ١٧٦٨ (وسمى الخليج بهذا الاسم نسبة

الى ما جمعه العلماء هناك من أنواع النبات الكثيرة) وأشار أحد العلماء الذين كانوا يرافقون كوك على الحكومة الانجليزية أن تتخذ خليج بوتانى موطنا للمجرمين الذين غُصّت بهم سجون انجلترا ، فلما فرغت انجلترا من محاربة مستعمراتها الثلاث عشرة فى أمريكا (الولايات المتحدة) أرسلت أول سفينة تحمل ٧٥٠ من المجرمين ومعهم أسراتهم وبعض أنواع الحيوان والطيور ونُصب « كبتن فيليب » حاكما عليهم ، ووصلوا الى خليج بوتانى (١٧٨٧) ولكن كبتن فيليب تحول عن هذا الخليج إلى موضع مدينة سدنى الحالية إذ وجده أجمل ثغر وأصلح موقع ، وأعلن ضم شاطىء استراليا الشرقى إلى انجلترا وسماه ويلز الجنوبية الجديدة ، ثم أرسلت الحكومة الانجليزية ست طوائف أخرى من المجرمين ، وكان يطلق سراح المجرمين إذا أوفوا مدة السجن ، ويمنحون أرضا ، ويولد أبناؤهم أحراراً ، وظهرت صلاحية المستعمرة الجديدة للزراعة ورعى الأغنام

وكان غير المجرمين من الانجليز يرون غضاضة فى النزوح إلى بلاد خصصت للمجرمين واتسمت بميسمهم ، لذلك كان توافدهم عليها بطيئا أول الأمر ، ثم نشط للعسر الاقتصادى الذى انتاب العمال في انجلترا من جراء الانقلاب الصناعى (أى استخدام الآلات) ، ولابطال إرسال المجرمين (١٨٤٠) ولاستكشاف الذهب[1] (١٨٤٩ — ١٨٥١) وكان كلما ازداد السكان أنشئت مستعمرة جديدة منفصلة ، فقد كانت استراليا أول الأمر لا تشمل إلا مستعمرة واحدة فى الجنوب الشرقى وهي ويلز الجنوبية الجديدة ثم أنشئت مستعمرات منفصلة فى : تاسمانيا (١٨٢٥) وفى استراليا الغربية (١٨٢٩)

---

(١) كان سكان مستعمرة فكتوريا ٧٠٫٠٠٠ عام ١٨٥٠ فصاروا ٣٠٠٫٠٠٠ عام ١٨٥٥ ، وتعد استراليا الآن أكبر بلاد الذهب فى العالم اذ أمكن الحصول منذ استكشاف الذهب الى ١٩٠٥ على ذهب تبلغ قيمته ٤٦٠ مليون جنيه

وفى استراليا الجنوبية (١٨٣٤) ، وفصلت مستعمرة فكتوريا عن ويلز الجنوبية الجديدة (١٨٥١) وفصلت عنها كذلك كوينزلند أى أرض الملكة (١٨٥٩) .

تطور نظام الحكم وانشاء الاتحاد : كان حكم الانجليز لكل مستعمرة من مستعمرات استراليا عسكريا بحتا ، ولكن الانجليز فى استراليا الذين ألفوا الحكم النيابى فى بلادهم لا يمكن أن يسكنوا الى حكم عسكرى ، لهذا ألغى الحكم العسكرى فى المستعمرات الهامة ومنحت مجالس محلية ينتخب الأهالى بعض أعضائها ، ولكن كان عملها استشاريا بحتا ولا حق لها فى مؤاخذة الحكومة .

وكانت الحكومة الانجليزية ترى أول الأمر أن النظم الدستورية لا تتفق ووجود المجرمين ، فلما أن أبطل إرسال المجرمين منذ عام ١٨٤٠ وأشار درهام بمنح الحكم الذاتى للمستعمرات الناضجة ، سمحت الحكومة الانجليزية لكل مستعمرة من مستعمرات استراليا أن تضع لنفسها مشروع دستور ، فعرضت ويلز الجنوبية الجديدة وفكتوريا واستراليا الجنوبية وتسمانيا مشروعاتها المختلفة فوافق عليها البرلمان الانجليزى عام ١٨٥٥ ولما فُصلت كوينزلند عن ويلز الجنوبية الجديدة عام ١٨٩٥ أنشىء بها دستور خاص ، وفى ١٨٩٠ ظهر الحكم الدستورى كذلك فى استراليا الغربية .

وكانت المستعمرات الاسترالية تعيش كل منها منفردة لا ترتبط باختها ، ولكن بدأ المفكرون فى هذه المستعمرات يرون وجوب إنشاء اتحاد حتى تُمحى المكوس التى تجبى على السلع إذا ما انتقلت من مستعمرة لأخرى ، وحتى يمكن بدء المشروعات المشتركة كالسكك الحديدية والرى والملاحة النهرية وقوى الدفاع عن البلاد ، لهذا أرسل برلمان كل مستعمرة بعض رجاله ليمثله فى مؤتمر عقد ١٨٩١ فى سدنى ، وتمخض المؤتمر عن دستور للاتحاد ، وعرض هذا الدستور على برلمانات المستعمرات الأسترالية المختلفة ، فلما

أقرته عام ١٩٠٠ أقرته الحكومة الانجليزية في العام عينه وفي أول ١٩٠١ بدىء ذلك النظام الاتحادى الذى يسمى Commonwealth أو ولايات استراليا المتحدة ، وينص دستور الاتحاد على وجود حكومة برلمانية مؤلفة من حاكم تعينّه انجلترا يعاونه سبعة وزراء مسئولين أمام البرلمان ، والبرلمان مكون من مجلسين أحدهما للشيوخ (وهو مؤلف من ٣٦ عضوا تختار كل ولاية ستة منهم) والآخر للعموم (وهو مؤلف من ٧٥ عضوا) .

وفى عام ١٩٠٣ عقد اتفاق بين انجلترا من جهة واستراليا وزيلندة الجديدة من جهة أخرى يحدد نصيب كل من استراليا وزيلندة فى الدفاع عن الامبراطورية البريطانية ، وبناء على ذلك الاتفاق شرعت استراليا تنشىء لها أسطولا تدير أمره وقت السلم وتضعه تحت تصرف امارة البحر الانجليزية وقت الحرب .

وفي عام ١٩٠٥ وضعت نيوجينى الانجليزية تحت حكم استراليا .

(ب) زيلندة الجديدة

لقد كان يسكن زيلندة الجديدة وقت استعمار الانجليز لها شعب يعرف بالماورس (Maoris) ، وكان أرقى من سكان استراليا الاصليين وأشد منهم مراسا ، لهذا لاقى الانجليز منه مقاومة عنيفة ، ولما مُنحت زيلندة الجديدة الحكم الذاتى (١٨٥٢) وأصبح لها برلمان ذو مجلسين (أحدهما للشيوخ والآخر للنواب) سوى بين الانجليز والماورس فى الحقوق وصار للماورس أربعة نواب فى مجلس النواب ، وفى سنة ١٩٠٧ منحت زيلندة الجديدة لقب « دومنيون » وتعتبر اليوم أرقى مستعمرة فى المبادىء الديموقراطية فى الدولة الانجليزية إذ يتمتع بحق الانتخاب فيها الناس جميعا لا فرق بين غنى وفقير ورجل وامرأة .

ولقد سبقت زيلندة الجديدة أمم الأرض فى تجربة مسائل الاجتماع

التى يطالب بها أنصار الاشتراكية المتدلة ، فقامت الحكومة — ورائدها منفعة الأهلين — تدير حركة السكك الحديدية والبرق والمسرة ومحال التأمين على الحياة وصناديق التوفير والمناجم ، وتوزع الأراضى على أكبر عدد من الأهلين ، وتفرض الضرائب بحيث ترتفع نسبة الضريبة على الفرد كلما زاد دخله ، وتمنح الرجل أو المرأة معاشا إذا بلغ الخامسة والستين من العمر ولم يبلغ دخله ستة ريالات فى الأسبوع ، وأنشئت وزارة للعمل تقاوم البطالة وتوفق بين العمال وأصحاب المصانع .

الانجليز فى أفريقية

الأوربيون وافريقية قبل القرن التاسع عشر : لم يكن الاوربيون يعرفون من افريقية فى قديم الزمان إلا سواحلها الشمالية ، ثم بدءوا فى القرن الخامس عشر يكشفون سواحلها الغربية ، ثم داروا حول الرأس وساروا وسواحلها الشرقية حتى وفق فاسكودى جاما البرتغالى إلى بلوغ الهند وقد ألهى الاوربيين كنوزُ الهند وبيرو والمكسيك عن ارتياد مجاهل أفريقية (أو القارة المظلمة كما كانوا يسمونها)

الاوربيون وافريقية أول القرن التاسع عشر : ولما وقفت رحى الحرب بين نابليون وأوربة عام ١٨١٥ كان شمالى أفريقية (مصر وطرابلس وتونس والجزائر) تابعا لتركيا تبعية فعلية أو اسمية ، وكان للبرتغاليين السيادة على اصقاع على الساحل الشرقى تجاه مدغشقر ، وكان للانجليز والفرنسيين وغيرهم على الساحل الغربى محاط أو مستعمرات ، وكان كل ما للانجليز فى أفريقية هو غمبيا وسيراليون وساحل الذهب على الشاطىء الشرقى ومستعمرة الرأس فى الجنوب وجزائر سنت هيلانه واسنشن وموريشس وسيشل

وقد نبه الدول الأوربية على استعمار داخل افريقية مستكشفون أبطال

مغامرون رموا بانفسهم فى مجاهل القارة ليميطوا اللثام عنها، ومن أمثال هؤلاء سبيك وبيكر ولفنجستون وستانلى

وقد أشرنا من قبل إلى مساعدة مصر لبعض هؤلاء المستكشفين ، وتلا الاستكشافَ تنافس شديد بين الدول الاوربية على امتلاك نواحى أفريقية حتي لم يبق اليوم فيها من بلاد مستقلة الا مصر والحبشة وليبريا

الانجليز وافريقية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين : وقد أضاف الانجليز خلال القرن التاسع عشر إلى مستعمراتهم السابقة ناتال والاورنج والترنسفال (وتكون من هذه الثلاثة ومستعمرة الرأس اتحاد جنوبى أفريقية) وبتشوانالاند ونيسالاند وبسوتولاند وروديسيا وإفريقية الشرقية البريطانية وأوغندا ونيجيرياوالسومال، ولما هزمت ألمانيا فى الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨) انتُدبت انجلترا لادارة بلاد تنجانيقا (الألمانية) كما انتدبت حكومة اتحاد جنوبى أفريقية لادارة أفريقية الجنوبية الغربية (الألمانية)

ولا يتمتع من كل هذه المستعمرات بالحكم الذاتى إلا اتحاد جنوبي إفريقية ، لهذا نتكلم عنه ببعض التفصيل :

كيف امتلك الانجليز مستعمرة الرأس : كان الهولنديون قد أنشئوا لهم مستعمرة عند رأس الرجاء الصالح لتكون محطا تتزود منه سفنهم التي تتجر مع الشرق ، ويُعرف المستعمرون الهولنديون بالبوير ، وهي كلمة معناها الفلاحون ، ولعلها أطلقت عليهم لاشتغالهم بالزراعة وإيثارهم لها على أية مهنة أخرى ، ولما تدخلت فرنسا فى شئون هولندة فى عهدى الثورة الفرنسية ونابليون وأخضعتها لحكمها ، قامت انجلترا عدوة نابليون وانتزعت مستعمرة الرأس من هولنده (١٨٠٦) لأنها قدرت قيمة تلك المستعمرة فى حفظ مواصلاتها مع الهند .

وأقر مؤتمر ڤينا عام ١٨١٥ ضم الرأس إلى انجلترہ كفاء تعويض يعطى لهولنده وقدره ستة ملايين من الجنيهات

النزاع بين الانجليز والبوير : غيّر الانجليز النظم الحكومية التي اعتادها البوير كما جعلوا اللغة الانجليزية اللغة الرسمية ، فحنق البوير وأحسوا أنهم فقدوا حريتهم ، واشتد حنقهم لما ألغت انجلترا الرق (١٨٣٤) ، وكان البوير يستعينون بالأرقاء على فلح الأرض، ولم تمنح الحكومة الانجليزية البوير إلا ثلاثة ملايين من الجنيهات تعويضا ، وهذا القدر لا يكاد يساوى ثلث خسارتهم بهذا الالغاء ، لكل هذا فكر غالب البوير فى الارتحال عن مستعمرة الرأس إلى الشمال والشمال الشرقى حيث يستطيعون أن يعيشوا أحرارا لا يستلب حريتهم أحد ، فبدءوا « الانسحاب العظيم The Great Trek» عام ١٨٣٦ فخرجوا طوائف تهيم فى مجاهل البلاد ومعهم قطعانهم وثيرانهم وعجلاتهم الساذجة تجر الواحدة منها سبعة أو ثمانية أزواج من الثيران وتحمل أمتعتهم وأثقالهم ، وبلغ عدد المنسحبين نحو ١٠٫٠٠٠ من بينهم غلام نجيب يسمى كروجر (سيكون له شأن فيما بعد) ونزل بعض المنسحبين ناتال والبعض الآخر استوطن مابين نهر الاورنج وفرعه المسمى الڤال ، وقطن آخرون باقليم شمالى نهر الڤال

وأنشأ البوير هم فى ناتال جمهورية (١٨٣٨) ولكن الانجليز تعقبوهم هناك أيضا وضايقوهم وأعلنوا ضم جمهوريتهم عام ١٨٤٣ بدعوى أن البوير رعاياهم أنى حلوا ، وبحجة أن مستعمرة الرأس يهددها نزاع متواصل بين البوير فى الناتال وجيرانهم المتوحشين المعروفين « بالكافير »[1] أو الكفرة

لم ير غالب بوير الناتال بدًّا من أن ينسحبوا مرة أخرى من الناتال وينضموا إلى اخوانهم النازلين بين الأورنج والڤال ، فكان ذلك مبدأ تأسيس

(١) كلمة الكافير كلمة مشتقة من كافر العربية

« ولاية الاورنج الحرة » فاعلنت انجلترا ضمها أيضا (١٨٤٨) ، فخرج كثير من البوير مرة ثالثة لينضموا إلى اخوانهم الذين عبروا الفال فى الهجرة الأولى وكونوا معهم جمهورية الترنسفال أو جمهورية جنوبى إفريقية (١٨٤٩)، فاعترفت انجلترا باستقلالها (١٨٥٢) قائمة بضمان حرية التجارة فيها ، والذى حدا بالانجليز إلى الاعتراف باستقلال الترنسفال أنهم بدءوا يحسون ثقل التبعة الملقاة على عواتقهم لكثرة مستعمراتهم ، وفى عام ١٨٥٤ نزلت انجلترا عن سيادتها على ولاية الاورنج لأنها رأت أنها تتحمل عبء الدفاع ونفقاته عن هذه الولاية فى وجه قبائل البسوتو المتوحشة المجاورة ، وظلت ولاية الاورنج حتى سنة ١٨٩٦ صديقة لمستعمرة الرأس الانجليزية

إذن : صارت للبوير جمهوريتان مستقلتان هما الاورنج والترنسفال ، وللانجليز مستعمرتان هما الرأس والناتال

النزاع بين بوير الترنسفال والانجليز : فى عام ١٨٧٧ أعلن لورد بيكنزفيلد رئيس الوزارة الانجليزية وزعيم المحافظين ضم الترنسفال إلى الأملاك الانجليزية ، بحجة أن فتنا متواصلة تقوم بين البوير والوطنيين فى الترنسفال فتهدد ممتلكات انجلترا

ثم تولى غلادستون زعيم الاحرار الوزارة بعد بيكنزفيلد (١٨٨٠) ولم يكن غلادستون قد اعتنق الآراء الاستعمارية بعد ، فاراد أن يرضى البوير ، ولكن هؤلاء ثاروا بزعامة ثلاثة من رجالهم أظهرهم كروجر وهزموا الجيش الانجليزى فى وقعة « تل ماجوبا » فى فبراير ١٨٨١ ، ولم تكن الوقعة من الوقعات الحربية المجيدة ، إلا أن البوير اعتزوا بها واغتروا بأنفسهم غروراً جنى عليهم فيما بعد ، واعترف غلادستون باستقلال الترنسفال (١٨٨١) تحت سيادة انجلترا

ولكن البوير أنفوا أن يكون لأحد سيادة عليهم ، فنازعوا الانجليز

حتى عقد الانجليز معهم معاهدة لندن (١٨٨٤) نزلوا فيها عن هـذه السيادة فى مقابل ترخيص البوير للأوربيين جميعا فى استيطان جمهوريتهم والاتجار فيها .

عودة النزاع بين الترنسفال والانجليز : فى عام ١٨٨٥ كُشف الذهب فى الترنسفال ، فلم يُقبل البوير إقبالا كبيراً على استخراجه لأنهم لا يروقهم إلا الاشتغال بالزراعة ورعى الماشية ، واجتذب الذهب إلى بلادهم أفواجا عظيمة من الأوربيين لاسيما الانجليز ، حتى أربى عددهم على عدد البوير ، ونشأت مدينة جوها نسبرج فى بضع سنوات ومُدت سكك الحديد

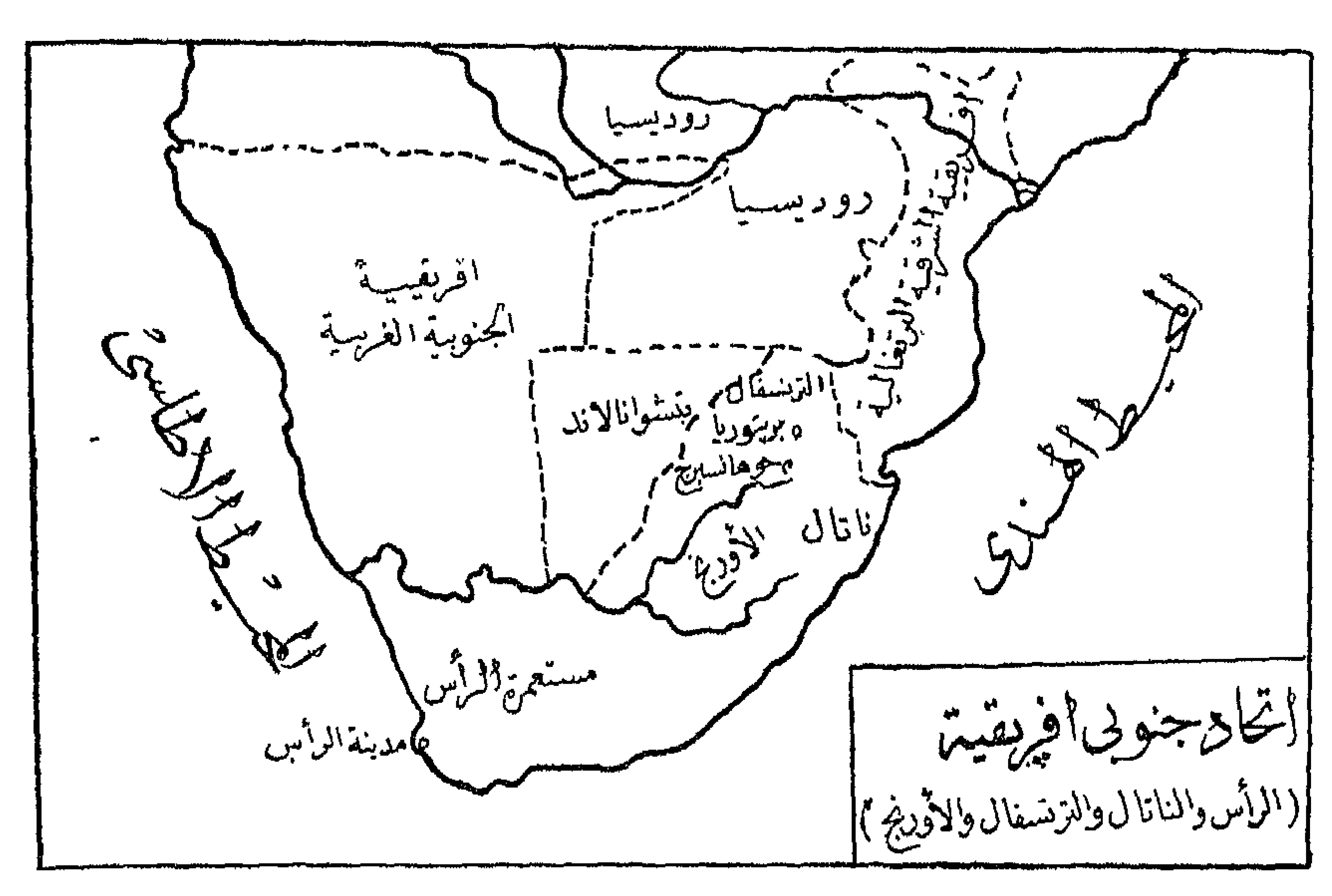
كذلك كشف الماس فى ولاية الأورنج فنزح إليها الأوربيون أيضا .

سسل رودس : كان من بين مَنْ نزح إلى جنوبى أفريقية سسل رُودْسْ الانجليزى ، فانه بعد أن أتم دراسته فى اكسفورد ذهب يبحث عن الماس ، وكان مصدورا فشفى ، وأثرى إثراء عظيما ، وصار رئيس وزراء مستعمرة الرأس ، وأخـذ ينشر فكرة الجامعة البريطانية التى تنطوى على انشاء امبراطورية إفريقية تمتد من الرأس إلى القاهرة والسعى فى « تلوين معظم إفريقية باللون الأحمر الانجليزى » ، وأنشأ عام ١٨٨٩ « شركة إفريقية الجنوبية » على مثال شركة الهند ، وتمكنت الشركة عام ١٨٩٠ بمعاضدة الحكومة الانجليزية من إنشاء مستعمرة فى حوض نهر الزمبيزى سميت روديسيا (نسبة إلى رودس منشئها) .

الانجليز يضايقون بوير الترنسفال : إن استقلال البوير فى جمهوريتهم ليتعارض ومشروع رودس ، لذلك اعتزم رودس أن يقضى على ذلك الاستقلال ، وشاركته الحكومة الانجليزية فى عزمه ، لذلك نرى الانجليز يستولون على الساحل الشرقى من الناتال الى إفريقية الشرقية البرتغالية فيقطعون على الترنسفال الطريق إلى البحر ، كذلك نرى « شركة إفريقية الجنوبية » تنشىء اقليم روديسيا

فتقطع على الترنسفال طريق التوغل إلى الزمبيزي شمالا وتهددها كذلك أحاطت هذه المستعمرات الانجليزية بالترنسفال والأورنج ، وأدرك البوير ما ينتويه الانجليز لهم ، فرأى كروجر رئيس جمهورية الترنسفال ضرورة اتباع سياسة حازمة فعارض في المهاجرة الى جمهوريته، ولما طلب الأجانب (Outlanders) أن يُسمح لهم بحق الانتخاب لينتخبوا من يرعى لهم مصالحهم أبى البوير عليهم ما أرادوا فاستنجد الأجانب بسسل رودس ، وصادف هذا الاستنجاد هوى في نفسه، فبعث اليهم بحملة يقودها الدكتور جيمسن ، فأسرها البوير في يناير سنة ١٨٩٦ ، وسلموها لانجلترا تسامحا وكرما كي تعاقبهم كما تشاء ، فلم تعاقبهم، فاستيقن البوير ان انجلترا تشارك رودس آراءه، ثم انتدبت انجلترا لورد الفرد ملنر حاكم الرأس ليفاوض البوير في السماح للاجانب بحق الانتخاب ، فاجتمع ملنر بكروجر رئيس جمهورية الترنسفال وحضر الاجتماع رئيس جمهورية الأورنج بصفة غير رسمية ،وأبى كروجر إباء شديدا أن يسمح للأجانب بحق الانتخاب ، مستمسكا بأن « افريقية للافريقيين » أي للبوير ، فنصح ملنر لحكومته بالحرب .

حرب البوير ١٨٩٩ — ١٩٠٢ :نشبت الحرب بين الانجليز والترنسفال، وانضمت جمهورية الاورنج إلى شقيقتها ، وأظهر البوير وهم لا يزيدون عن ٣٠٠٠٠ استبسالا عجيبا في وجه أقوى دولة أوربية . وأغاروا على الناتال والرأس وحاصروا أهم مدنهما . وكان أهم قوادهم بوثا Botha ، وكانت انجلترا تستخف بادىء الأمر بالبوير ، ولكنها لما رأت ظفرهم جمعت من بلادها ومستعمراتها جيشا هائلا وأمّرت عليه لورد روبرتس أعظم قوادها، ثم أمدته بلورد كتشنر ، وبدأ الجيش الانجليزي يكتسح بلاد البوير مخربا، وقام كتشنر يحتجز النساء والاطفال كرهائن في نقط عسكرية ولم تراع في حجزهم وسائل الصحة والتغذية، فكان يهلك منهم الألوف، فأكره البوير على الصلح اشفاقا



على نسائهم وأطفالهم ، وقد كانوا يستطيعون أن يداوموا القتال

وخسر الانجليز فى هذه الحرب نحو ٢٠٠ مليون من الجنيهات ونحو ربع جيشهم ، ومات سسل رودس (أو نابليون الرأس كما يسميه قومه) قبل أن يعقد الصلح بثلاثة أشهر ودفن فى رودسيا ، وتم الصلح بمعاهدة ڤرينيجنج Vereeniging فى مايو ١٩٠٢ على يد ملنر وزعماء البوير ، وأهم شروطها :

(١) ضم الترنسفال والاورنج الى الممتلكات الانجليزية

(٢) إحترام لغة البوير كلما سمحت بذلك الأحوال

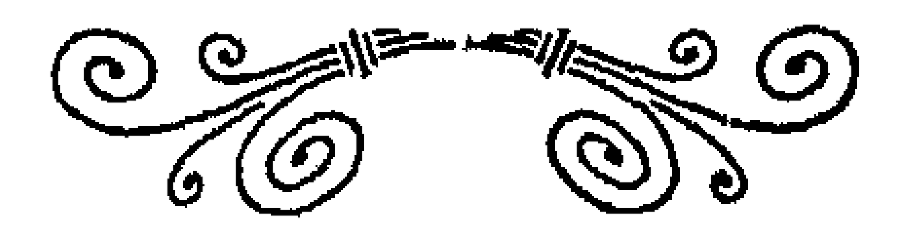
(٣) تكفل انجلترا بمنح المال اللازم لاصلاح ماخربته الحرب

وعهد الى ملنر إدارة ولايتى الترنسفال والاورنج ، وفى عام ١٩٠٧ منحت انجلترا كلا من الولايتين الحكم الذاتى (وكانت الكاب والناتال قد منحتا من قبل هذا النوع من الحكم)

وفى ١٩٠٩ وافق البرلمان الانجليزى على إنشاء «اتحاد جنوبى أفريقية» المكون من الرأس وناتال والترنسفال والاورنج ، ويتولى أمر هذا الاتحاد حاكم عام تعينه انجلترا ووزارة مسئولة مقرها بريتوريا وبرلمان ذو مجلسين

أحدهما للشيوخ[1] والآخر للنواب ، ومقر البرلمان مدينة الرأس ، وجعلت الهولندية والانجليزية لغتين رسميتين ، وهذا النظام شبيه بنظام ولايات كندا المتحدة .

وبدىء ذلك النظام عام ١٩١٠ وكان بوثا قائد البوير أول رئيس وزارة للنظام الجديد[2]



(١) مجلس الشيوخ مؤلف من ٤٠ عضوا ، ثمانية عن كل مستعمرة وثمانية يعينهم الحاكم

(٢) غالب السلطة التشريعية اليوم من البوير ، وهم سائدون فى مناصب الحكومة ويحاولون التخلص من كثير من الموظفين الانجليز

الانجليز والهند

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر

إصلاحات كليف ١٧٦٥ — ١٧٦٧ : رأينا الشركة الانجليزية تنتصر على الفرنسيين فى الهند فى حرب السبع السنين ، وقد تشجع عمال الشركة بهذا النصر على ابتزاز الأموال من الحكام والرعايا الوطنيين ، وكان عمال الشركة (ومن بينهم كليف نفسه) قد انصرفوا عن العناية بشئون الشركة إلى مزوالة الاتجار لحسابهم الخاص حتى أثروا اثراء عظيما ، فى حين أن الشركة كادت تفلس

وكان كليف قد سافر إلى انجلترا عقب ظفره فى حرب السبع السنين فأعادته الشركة (١٧٦٥) ليكون حاكما للشركة في بنغالة ، والغريب أن كليف قد عاد إلى الهند نزيها أمينا على عكس ما كان فيها أول الأمر ، فضرب على أيدى المبتزين ، ومنع عمال الشركة من الاتجار لحسابهم، وحرم عليهم قبول الهدايا والمنح من الهنود واستخلص للشركة من الامبراطور المغولى حق جمع دخل إقليم بنغاله وإدارة ذلك الدخل ، وتقدم الشركة للامبراطور فى نظير ذلك مبلغاسنويا قدره ٣٠٠٠٠٠ جنيه ، فأصبح للشركة السلطتين العسكرية والمالية فى بنغالة ولم يبق لنوابها (أميرها) إلا نفوذ وهمى ، وعاد كليف إلى انجلترا عام ١٧٦٧

قانون أصلاح ١٧٧٣ : عاد الاضطراب مرة ثانية إلى شئون الشركة بعد رجوع كليف ، وشارفت الافلاس مرة أخرى ، فى حين أن المتقاعدين

من عمالها كانوا ينعمون بثروة هائلة تُروَى عن منشئها قصص مخجلة، وفى عام ١٧٧٠ حدث فى بنغالة قحط هائل. فاضطرَّ البرلمان الانجليزى إلى التدخل فى شئون الشركة وسن قانونا عام ١٧٨٣ وبه صار حاكم بنغاله حاكما عاما على كل مناطق الشركة (أى فى بنغاله ومدارس وبمباى) يساعده مجلس من أربعة يعينهم البرلمان، وقضي القانون أن تعرض الشركةُ على الحكومة الانجليزية مكاتباتها الخاصة بالمسائل السياسية والحربية..

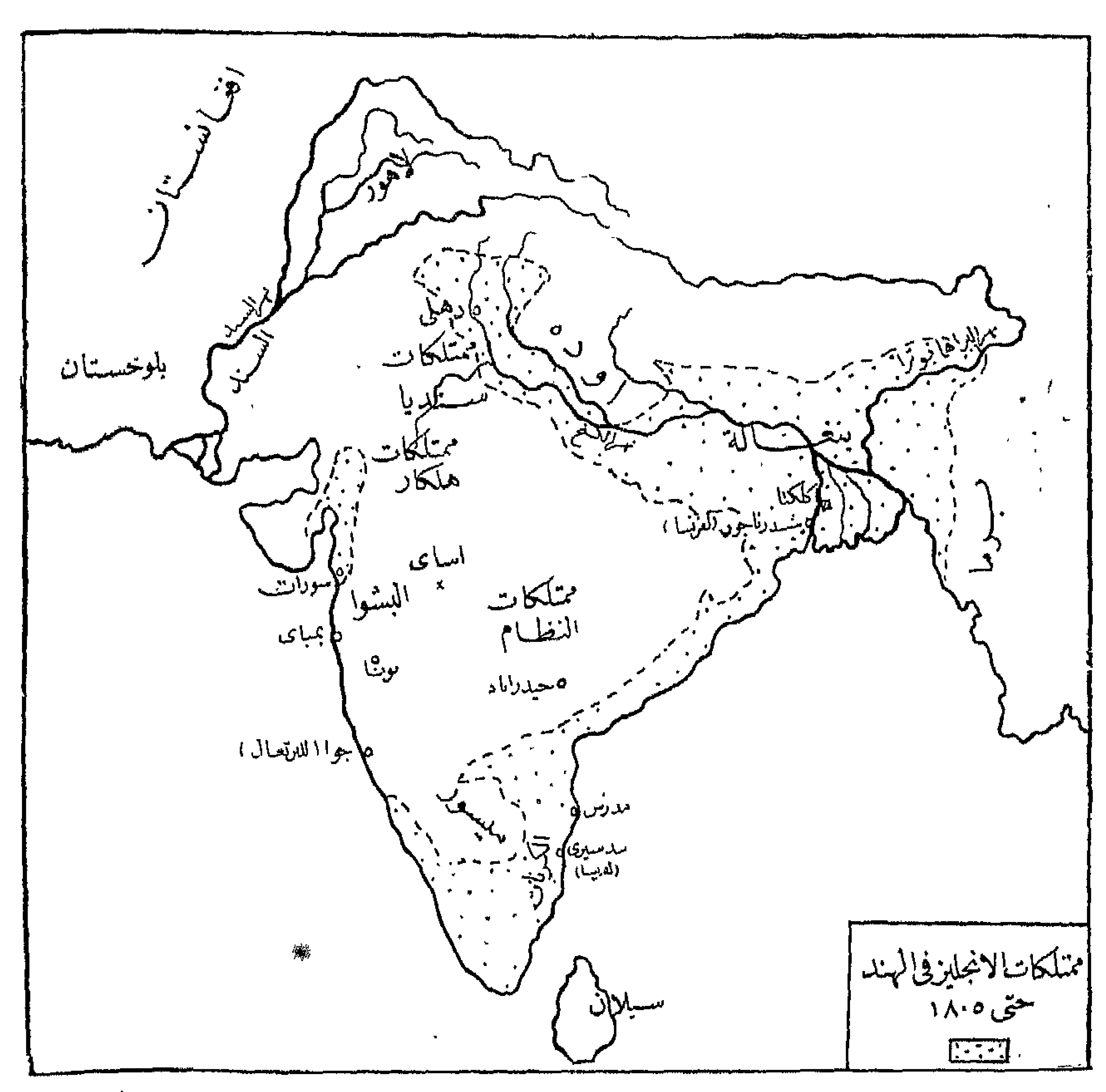
قانون ١٧٨٤ : سن البرلمان قانونا آخر ١٧٨٤ وبه أصبح حاكم الهند العام وكبار الموظفين تعينهم الحكومة لا الشركة، وقُصر عمل الشركة على ادارة المالية ليس غير، أما الشئون السياسية فنزعت منها ووضعت فى يد مجلس تعينه الحكومة على رأسه وزير خاص من وزراء الدولة

الهند فى القرن التاسع عشر

بدأ القرن التاسع عشر وللشركة الانجليزية فى الهند بنغاله ومدارس وبمباى، كما بدأ القرن وللشركة حاكم من اعظم حكام الهند وهو رتشرد ولزلى وكان يساعده اخوه ارثر ولزلى (دوق ولنجتن فيما بعد)

أهم عمال رتشرد ولزلى : (١) كان كل من «نظام» حيدرأباد وتبو صاحب حاكم ميسور يستخدم جيشا فرنسيا وينصاع إلى نصائح الفرنسيين، فاستطاع ولزلى عن طريق السياسة أن يُفقد الفرنسيين نفوذهم وجيشهم لدى «النظام»، وأن يقنعه بانشاء جيش من السيبوى Sepoys (أى الوطنيين الهنود) تحت إمرة ضباط من الانجليز (١٨٠٠)، ثم حارب ولزلى ميسورَ ووضعها تحت حماية الشركة (١٧٩٩)

(٢) كان أمراء المهراتا (وهم قطاع طرق) يضايقون الشركة ويعترضون نموها، وكان رئيسهم الاسمى يلقب بـ (البشْوَا) وكان عاصمته بونا، غير أن السلطه الفعلية كانت فى يد سِنْديا و بُنْسِلاَ وهُلْكار لاسيما سنديا الذى فرض



حمايته على الامبراطور المغولى الاعمى، فسير رتشرد ولزلى اخاه آرثر لمحاربة المهراتا، فهزمهم وكسر شوكتهم فى وقائع أهمها أساى التى هُزم فيها سنديا (١٨٠٣)

(٣) اتفق ولزلى وبعض الحكام الوطنيين على أن يترك لهم الادارة الداخلية و ن يقبلوا لديهم مندوبا انجليزيا ، وأن يضعوا شئونهم الخارجية والحربية تحت تصرف الشركة، وفى نظير ذلك يقدم هؤلاء الحكام للشركة الاعتمادات اللازمة لهذه الشئون . وأهم الولايات التى قبلت هذا الاتفاق (او اضطرت الى قبوله) الكرنات وسورات وأوْدْهْ

ثم اختلف ولزلى ومديرى الشركة فى أمرين (أولهما) أنه كان من أنصار حرية التجارة ، أما مديرو الشركة فكانوا يحاربونها حتى لا يفقدوا مالهم من امتياز احتكار التجارة ، (وثانيهما) أنه كان ينفق كثيرا على الحروب

مما أدى إلى نقص أرباحهم التي هي الغرض الأول لشركتهم. ولهذين الامرين نرى ولزلى يعتزل منصبه عام ١٨٠٥ وقد ترك الشركة مسيطرة على دهلى (دلهى) وامبراطورها

أهم فتوح الشركة الأخرى فى الهند : استولى الانجليز على ما جاور دهلى (١٨١٣) وأتموا اخضاع المهراتا [1] (١٨١٨) ، وفتحوا برما (١٨٢٤) [2] والسند (١٨٤٣) ، وحاربوا قبائل السيخ مرتين حتى أخضعوهم (١٨٤٠ — ١٨٤٨) وكانت هذه القبائل تسكن البنجاب وكانت حربية عتيدة ، ثم ضم الانجليز أوده (١٨٥٨)

وظلت الشركة توسع من أملا كها فى الهند حتى أصبح ٢٢٠ مليونا من السكان خاضعين لحكم الانجليز المطلق و ٦٧ مليونا يحكمهم حكام وطنيون يحتمون بحمى الانجليز ولا يبرمون أمرا إلا بارشادهم

ثورة الهند ١٨٥٧ : قامت فى حوض الكنج وفى البنجاب عام ١٨٥٧ ثورة لأسباب أهمها : —

(١) كره الجنود للحكم الأجنبى وحقد الامراء المخلوعين وقلق الامراء الذين لم يخلعوا بعد

(٢) غضب الهنود لتحريم الانجليز بعض عادات الهنود مثل : احراق الأرامل ووأد البنات والتبنى ، وسخطهم لأن الانجليز قرروا أن تُضم الى الشركة أملاك الامراء الذين يموتون عن غير أبناء ترثهم، وتبرمهم لأن الانجليز قرروا أن يعبر الجنود السيبوى (Sepoys) البحر لفتح برما ودينهم يحرم عليهم عبوره ، ولأنهم (أى الانجليز) تمسكوا بأن يحاكم كهنة البراهمة أمام المحاكم العادية كغيرهم .

(٣) تشجع الهنود للهزائم التى لاقاها الانجليز فى الافغان وللاشاعات التى

---

(١) على يد لورد هيستنجس Hastings

(٢) على يد لورد امهرست Amherst

روجها الزعماء عن انهزام الانجليز فى حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦)

(٤) استخدام (خرطوش) يُعَض قبل استعماله وهو مدهون بدهن البقر وهو مقدس عند الهنود وشحم الخنزير وهو نجس عند المسلمين ، وهذا الامر هو السبب المباشر للثورة ، إذ أن هذا (الخرطوش) لَمَّا أعطى لبعض الجنود الهنود قرب دلهى أبوا أن يستعملوه ، فحوكموا وسجنوا ، فقام اخوانهم بالثورة وقتلوا الانجليز (مايو ١٨٥٧) وولوا عليهم نانا صاحب أحد الامراء الذين قلعهم الانجليز ، واحتلوا دلهى ومدائن أخرى فى حوض الكنج والبنجاب ، وقد ارتكبت إبان الثورة فظائع مروعة من الثائرين ومن الانجليز ، ولم يستطع الانجليز التغلب على الثورة إلا بعد عام ونصف (أى من مايو ١٨٥٧ الى ديسمبر ١٨٥٨)

وتمتاز هذه الثورة بأنها كانت مقصورة على فئة واحدة وهى الجنود، وعلى منطقة واحدة وهى حوض الكنج والنيجاب ، وانها كانت قصيرة المدى

ضم الهند الى التاج البريطانى : كانت النتيجة المباشرة للثورة أن قرر البرلمان إلغاء شركة الهند (١٨٥٨) لسوء تصرفها ، وكان الحكم قبل إلغائها مشتركا بينها وبين التاج (كما أوضحنا)، فأصبحت الهند ولاية من ولايات التاج ، وصار يشرف على شئونها من لندرة وزير الهند يُعاونه مجلس مؤلف من خمسة عشر عضوا من الخبيرين بشئون الهند ، ويباشر حكمها حاكم عام يلقب بنائب الملك أو الوالى (Viceroy) يقيم فى دلهى من سنة ١٩١٠ ويعينه فى الادارة مجلس تنفيذى مؤلف من رؤساء الادارات المختلفة ومجلس تشريعى مؤلف من أولئك الرؤساء ومن أعضاء غير موظفين أوربيين وهنود يعينهم الوالى ، ووزير الهند وواليها مسئولان أمام البرلمان الانجليزى ، هذا وقد أُلغيت الامبراطوريه المغولية التى كانت لا تزال قائمة فى دهلى ، وفى عام ١٨٧٦ سميت الهند امبراطورية وتوجت فكتوريا ملكة الانجليز امبراطورة عليها ، وكان ذلك فى عهد وزارة بيكنزفيلد

منزلة الهند عند الانجليز : يعد الانجليز الهند درة تاجهم إذ هى أغنى مستعمراتهم وأكبر سوق لتجارتهم ، وكفى دليلا على ذلك أن منشستر تصدر إليها كل عام منسوجات قطنية تبلغ قيمتها ثلاثين مليونا من الجنيهات، لذلك لا نعجب أن رأينا الانجليز يحرصون عليها حرص البخيل على ماله والكمى على سلاحه ويحيطونها بسياج مكين يرد عنها من أراد بها السوء ، فبسطوا نفوذهم على برما شرقا وبلوخستان والعراق غربا والتبت شمالا ، كما يحاولون حتى اليوم أن يبسطوا نفوذهم على أفغانستان وفارس ، كذلك نراهم يستحوذون على نقط هامة على طول المسالك الرئيسية الموصلة إلى الهند فامتلكوا في البحر الأبيض جبل طارق ومالطة وقبرس واحتلوا مصر وهيمنوا على قناة السويس ، واستولوا فى البحر الأحمر على عدن وفى المحيط الاطلنطى على اسنشن وسنت هيلاية ومستعمرة الرأس،وفى الشرق الأقصى على ملقا وسنغافورة

تقدم الهند الاقتصادي : جهد الانجليز بعد الثورة فى إصلاح أحوال الهند المادية ، وجُعل حكام الهند لأول مرة مسئولين عن الوفيات الناشئة عن القحط [1] والجوع ، وشقت الطرق ومدت السكك الحديدية وحفرت الترع وانشئت مصلحة خاصة للزراعة ارتقت فى ظلها الزراعة ،ونشطت الصناعة حتى صارت الهند من أشهر البلاد التى تصدر المنسوجات

حركة الاستقلال : لقد اشترك الهنود فى مجالس وزير الهند ووالى الهند منذ عام ١٨٩٢ ، ثم انشئت مجالس مديريات (١٩٠٧و١٩٠٩) ، ولما نشبت الحرب العظمى وظهر ولسن رئيس الولايات المتحدة بمبادئه السامية (ومن بينها حق تقرير الشعوب لمصيرها) قام الهنود يطالبون بالاستقلال، فاراد الانجليز أن يرضوهم بعض الشيء ، فاصدر البرلمان الانجليزى فى ديسمبر

(١) الهند عرضة للقحط فقدحدث عام ١٨٧٧ قحط هلك فيه نحو خمسة ملايين

١٩١٩ قانونا يقضى بأن يُنتخب فى مديريات الهند مجالس تشريعية وأن تؤلف فى تلك المديريات هيئات تنفيذية (وزارات) مؤاخذة أمام هذه الهيئات التشريعية[١] ، غير أن الهنود لم يقنعهم هذا النظام وقاموا بزعامة الزعيم الكبير غاندى يطالبون بالاستقلال التام ، وقد أعلن غاندى انجلترا انها إن لم تمنح الهند استقلالها قبل ١٢ مارس ١٩٣٠ رفع راية العصيان المدنى وعدم التعاون مطلقا مع الانجليز ، ولما لم تعلن انجلترا الاستقلال رفع راية العصيان المدنى وسجنه الانجليز أكثر من[٢] مرة ، ولاتزال المشكلة الهندية الانجليزية حتى اليوم بغير حل ، وكان فى موقف الهنود إزاء انجلترا نقطتا ضعف (أولاهما) الخلاف بين الهندوس والمسلمين وهو أمر لم يحل بعد (وثانيتهما) الخلاف بين طبقات الهندوس ، إذ من بين هذه الطبقات طبقة المنبوذين وعددهم حوالى ٦٠ مليونا ، ولم يكن يعترف لهم طبقات الهندوس الاخرى بحقوقهم المدنية والاجتماعية والدينية (مثال ذلك أنهم لم يكن يُسمح لهم بدخول المعابد للتعبد فيها لأنهم أنجاس فى نظر الطبقات الاخرى)[٣] ، وكانت انجلترا تريد أن تحتفظ لنفسها بحق حماية المنبوذين على اعتبار أنهم أقلية ، فتمكن غاندى من حمل الطبقات[٤] الهندوسية الاخرى على الاعتراف بحقوق هذه الاقلية (المنبوذين) حتى يقضى على دعوى انجلترا فى حماية الاقليات

وعسى أن يوفق الهندوس والمسلمون فى إزالة مابينهما من أسباب الخلاف حتى تعتز حركتهم بوحدتهم القوميه

---

(١) للانجليز فى الهند خمسة عشرة مديرية أدخل هذا النظام فى ثمانية منها ولم يدخل فى السبعة الباقية

(٢) هو الآن مسجون (فبراير ١٩٣٣)

(٣) ينتظر إصدار دستور يعتبر المسلمين وحدة مستقلة بالنسبة للانتخابات فى بعض الأقاليم التى تكون لهم فيها أغلبية واضحة

(٤) هدد غاندى الهندوس بالصوم إن لم تسمح الطوائف الهندوسية للمنبوذين بالحقوق ، وصام فعلا حتى أشرف على الموت ، فنزل الزعماء على رغبته فأفطر

الاستعمار الفرنسى فى شمالى افريقية

أسلفنا أن حرب السبع السنين (١٧٥٦ — ١٧٦٣) قد أفقدت فرنسا أملاكها فى كندا وقضت معاهدة باريس التى ختمت هذه الحرب أن تبقى لفرنسا محاطها[1] التجارية في الهند على شريطة ألا تحصن والا تحميها جنود

وبدأ القرن التاسع عشر وليس لفرنسا الا مستعمرات ضئيلة الشأن أهمها : محاطها التجارية فى الهند وجزيرتا البوربون وريئيون فى المحيط الهندى، وجواديلوب ومارتينك فى جزائر الهند الغربية، وجيانا فى أمريقا الجنوبية ، وحاول نابليون أن يستعمر مصر ففشل كما قدمنا لأسباب أكبرها قوة انجلترا في البحر ، وهذه القوة بعينها هى التى أكرهته على بيع مستعمرة لويزيانا فى حوض نهر المسيسبي للولايات المتحدة (١٨٠٣) ، لأنه قدّر صعوبة الدفاع عنها فى وجه انجلترا القابضة على أزمّة البحار

ثم نشطت فرنسا للاستعمار من جديد عام ١٨٣٠ حتى أصبح لها اليوم فى إفريقية وآسيا مستعمرات مساحتها نحو فرنسا عشرين مرة ، وأهم هذه المستعمرات جميعا شمالى افريقية

وكان شمالى أفريقية أول بقعة جذبت أنظار الفرنسيين عند ما أرادوا معاودة النشاط الاستعمارى (١٨٣٠) ولا غرو فان شمالى إفريقية طيب الهواء ، وافر الغلات ، قريب من أوربة حتى ان الأوربيين يعدونه جزءا من بلادهم كما يعدون افريقية مبتدئة من الصحراء الكبرى

فتح الجزائر

كانت الجزائر تابعة للدولة العثمانية ، وكان يقطن بها ثلاثة أجناس :

(١) قبائل البربر (أو القبيل) : وهم نسل سكان افريقيه الأقدمين من

---

(١) هى بوندشيرى وشندرناجور وكريكال وماهى ويانون

أيام قرطاجنة . وقد اعتنقوا الاسلام ، ويسكن أكثرهم جبال الأطلس

(٢) العرب : وقد نزحوا من مصر فى القرن الحادى عشر ، وسكنوا السهول أمام جبال الأطلس وخلفه

(٣) الأتراك : وقدجاءوا إبّان القرن السادس عشر جنوداً ، ونزلوا المدن القريبة من السواحل .

وكان سلاطين العثمانيين يولون على الجزائر الولاة ، حتى اذا ما بدأ نفوذ السلاطين يتضعضع منذ أواسط القرن السابع عشر قام لصوص البحار (القرصان) وطردوا الوالى العثمانى من البلاد (١٦٦٩) ، وصاروا يولون رئيسا من بينهم يقال له «الداى» مقره مدينة الجزائر ، غير ان هذا « الداى» لم يكن حاكما على كل بلاد الجزائر فقد كان على وهران «داى» آخر ، وعلى قسطنطينة والجزء الشرقى من بلاد الجزائر « باى » ، كما كانت قبائل البربر تكاد تكون مستقلة

الفرنسيون يخضعون الأتراك : فى ١٨٢٧ حدث خلاف بين الحكومة الفرنسية وداى الجزائر على بعض الشئون المالية ، وزاد الأمر تفاقما عند ما احتدم النقاش بين الداى والسفير الفرنسى وأهوى الداى على وجه السفير بمذبة كانت فى يده (ابريل ١٨٢٧) ، ومر على هذا الحادث ثلاثة أعوام ولم تحرك فرنسا ساكنا حتى إذا ما اشتدت المعارضة فى وجه شارل العاشر ملك فرنسا أراد شارل أن يحرز نصراً يخفف من حدة المعارضين ، فانتهز فرصة اعتداء رجال الداى على إحدى سفنه وأرسل على الجزائر جيشا فى صيف ١٨٣٠ فتصدى له الداى ، ولكن غُلب على أمره ودخل الفرنسيون مدينة الجزائر (٥ يوليه) واستولوا على مليونين من الجنيهات كانت فى خزانتها ونفوا الداى الى نابلى

ومع انتصار جيش شارل العاشر فى الجزائر لم يُبق الشعبُ على عرشه ،

بل ثار فى آخر يوليه ١٨٣٠ وخلعه وولى مكانه لويس فيليب دوق اورليان، فرأى هذا أن الانسحاب من الجزائر يلصق بأسرة اورليان عاراً ، فاعتزم أن يتمم العمل الذى شرع فيه سلفه ، وما زالت جنوده تقاتل حتى تخلصت من الأتراك نهائيا بالاستيلاء على قسطنطينة وكانت آخر مدينة لهم(١٨٣٧)

الفرنسيون يخضعون العرب : كان العرب يظنون أن الفرنسيين إنما جاءوا بلادهم ليؤدبوا الداى ثم يتراجعون ، ولكنهم لما رأوهم يتوغلون فى الفتح ويعلنون رسميا ضم البلاد اليهم ، دفعهم الشمم العربى الى مناضلتهم ، واختاروا لزعامتهم الأمير السيد عبد القادر وهو ذلك البطل العظيم الأبىّ النفس المنتسب الى الحسين رضى الله عنه، واستعان الأمير بسلطان مراكش فأعانه، ولاقى الفرنسيون على يدى عبد القادر هزائم أكرهتهم على مصالحته وعلى الاعتراف بسلطانه فى اقليم وهران ١٨٣٧ ، غير أنه عاد بعد عامين فناصبهم العداء ، فرأوا أن يتخلوا عن خطة الدفاع التى اتبعوها حتى ذلك الوقت وأن يرسلوا عليه أشد قوادهم مراسا وأن يجمعوا لقتاله مائتى ألف من جنودهم ، وما زالوا به يقاتلونه ويهزمون أصدقاءه المراكشيين ويستميلون بالمال قبائل كانت من قبل الى جانبه ، حتى غُلب على أمره فى النهاية عند وقعة سيدى ابراهيم ١٨٤٧ ،وحمل الى فرنسا أسيراً وسُجن حتى أطلقه لويس نابليون عام ١٨٥٢ ومات فى دمشق ١٨٨٣

الفرنسيون يخضعون قبائل البربر : لم يبق أمام الفرنسيين إلا قبائل البربر يناصرهم بعض العرب فأخضعوا عام ١٨٥٧ على عهد الامبراطور نابليون الثالث

وكانت تنشب فى بلاد الجزائر من وقت لآخر ثوارت أظهرها ثورة ١٨٧١ ، ولكنها كانت تخمد بغير عناء كبير

نظام الحكم : شجعت الحكومة الفرنسية رعاياها على استيطان بلاد الجزائر ،حتى أنها كانت تشجع جنودها على التزوج من فتيات فقيرات وتمنح أولئك الأزواج أرضا فى الجزائر ، كذلك رحبت بغير الفرنسيين من الاوربيين،وهى تجتهد حتى اليوم فى إدماج العنصرين الفرنسى والعربى وتأمل فى زوال الفوارق بين العنصرين يوما ما

وقد جرب الفرنسيون نظما[1] مختلفة لحكم الجزائر حتى استقر رأيهم فى النهاية على نظام يلخص فيما يلى : —

(١) تعتبر الجزائر جزءاً من الجمهورية الفرنسية لا مستعمرة من مستعمراتها

(٢) تولى الحكومة الجمهورية على الجزائر حاكما عاما يساعده فى الحكم بعض المجالس الاستشارية ، ويُعيِّن الحاكم مديراً (Prefect) على كل مديرية من المديريات الثلاث (وهران والجزائر وقسطنطينة) ، وكل مديرية تنقسم إلى منطقتين : أحداهما مدنية والاخرى عسكرية ، فالمدنية هى القريبة من السواحل ويكثر فيها الأجانب ، وموظفوها مدنيون ، والمنطقة العسكرية هى النائية عن السواحل ويقل فيها الاجانب ، ويقوم بالأمر فيها بدل المدير ضابط عظيم

(٣) ترسل الجزائر ثلاثة أعضاء يمثلونها فى مجلس الشيوخ الفرنسى ، وترسل كذلك نائبين عن كل مديرية من مديرياتها الثلاث لتمثيلها فى مجلس النواب الفرنسى

التقدم الاقتصادى : اجتهدت الحكومة الفرنسية فى تحسين المواصلات واستغلال المعادن وتنشيط الزراعة ووسائل الرى وقد أثمرت جهودها

---

(١) فى عام ١٨٤٨ حكم الفرنسيون الجزائر حكما دستوريا أى أن الجزائر كانت ترسل نوابا لمجلس النواب الفرنسى،ثم لما جاء نابليون الثالث استبدل بهذا الحكم حكما عسكريا ، وفى عام ١٨٥٨ أنشأ فى باريس وزارة للجزائر على مثال نظام حكم الهند،ثم ألغى نابليون هذا النظام وأحل محله حكما عسكريا،ثم تغير هذا النظام (١٨٧٩) ونصب حاكم مدنى

فتح تونس

تقع الجزائر بين تونس ومراكش الإسلاميتين ، فصممت فرنسا فى الاستيلاء على هذين الأقليمين أيضا لتنشىء من الثلاثة امبراطورية فى شمالى أفريقية

ولقد بدأ الفرنسيون بعد أن فرغوا من اخضاع الجزائريين يمهدون للاستيلاء على تونس حتى «لايدعوا مفتاح بيتهم فى يد أجنبية» (مشيرين بذلك إلى أن تونس طريق الاغارة على الجزائر) فزينوا لباى هذه البلاد ادخال المدنية الفرنسية فاستمع لقولهم ، واستخدم رجالهم ، واستعان بأموالهم حتى أفلست حكومته ١٨٦٩ فكان هذا الافلاس ممهداً لتدخل الفرنسيين فى شئونها ، ونشبت فى هذا الوقت حرب السبعين (١٨٧٠ — ١٨٧١) وفقدت فيها فرنسا الألزاس واللورين ، فقوى عزمُها على فتح تونس حتى تعوض ما فقدت ، وشحذ هذا العزمَ أن ايطاليا كانت تتطلع الى تونس وتقول ان الجغرافيا والتاريخ يحتمان ضم تونس اليها ، فهى جغرافيًّا مواجهة لايطاليا ، والتاريخ يشهد ان تونس كانت أول بلاد فى افريقية ضُمت الى رومية ، ولما عقد مؤتمر برلين ١٨٧٨ للنظر فى شئون تركيا واستولت انجلترا في أثناء انعقاده على قبرص خشيت هذه أن يندد بها الفرنسيون فحرضتهم على انتزاع تونس، كذلك حرضهم بسمرك ليزج بهم فى ميدان الاستعمار حتى ينصرفوا عن التطلع الى الالزاس واللورين

فرنسا تبسط الحماية على تونس : عبرت بعض قبائل تونس حدود الجزائر ، فتذرعت فرنسا بهذا الاعتداء وأرسلت جيوشها على تونس واحتلتها ، فلم يبد الباى شمما ولا مقاومة ، وعقد مع الفرنسيين معاهدة باردو[1] (١٢ مايو سنة ١٨٨١) وبها قبِل أن يضع تونس تحت حماية فرنسا ،

---

(١) باردو مكان بقرب تونس

وتمهد ألا يفاوض الدول الا عن طريق دار الحماية الفرنسية

نظام الحكم : الباى حاكم تونس اسميا ، ووزراؤه تسعة : سبعة من الفرنسيين واثنان من التونسيين، والواقع أن المندوب السامى الفرنسى هو الحاكم الفعلى ، وهو فى الوقت نفسه وزير الخارجية

وقد انشىء فى تونس عام ١٨٩٦ مجلس استشارى يجتمع مرتين فى العام لانظر فى الميزانية ولم يدخل هذا المجلس نواب من الاهالى إلا عام ١٩٠٧ ، وقد قسمت البلاد مناطق يشرف على كل واحدة منها مراقب فرنسى

وتحاول فرنسا ادماج الفرنسيين في أهل تونس ، غير أن فى تونس اليوم حركة ناشئة ترمى الى نيل الاستقلال الذاتى وإنشاء حكومة وطنية

التقدم الاقتصادى : تونس أخصب من الجزائر أرضا وقد صار معظم هذه الأرض الى أغنياء الفرنسيين وشركاتهم ، وتقدمت الزراعة ، وكشفت مناجم الحديد والفوسفات ومدت سكك الحديد ، ونشطت الاصلاحات المختلفة، وانتظمت مالية الحكومة

مراكش

كانت أوربة تعد مراكش إحدى الدول الشرقية المشرفة على الموت وهى : مُرَّاكِش وتركيا وفارس

أهمية موقع مراكش[1] : مراكش ذات موقع جغرافى هام فهى تطل على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي ، لهذا طمعت فى التسلط عليها كل من اسبانيا وفرنسا وانجلترا والمانيا

وقد كان لاسبانيا فى مراكش منذ القرن السادس عشر بعض الموانىء، ولكنها لم تستطع أن تمد فتوحها إلى مدى بعيد فى داخل البلاد

اتفاقية ١٩٠٤ : كانت لفرنسا وانجلترا مصالح كبرى فى مصر ومراكش،

---

(١) تسمى مراكش « المغرب الاقصى » أى أقصى اقليم غربا فى العالم الاسلامى

وكانتا تتنافسان فى البلدين حتى أحس كل منهما القلق من ازدياد قوة المانيا ، فتقاربا حتى عقدا اتفاقية ١٩٠٤ (الاتفاق الودى) وبه أُطلقت يد انجلترا فى مصر ، ويد فرنسا في مراكش ، وفى العام عينه عقدت الدولتان مع اسبانيا اتفاقا خاصا حفظتا فيه حقوقها في مراكش

المانيا تعترض فرنسا : ألمانيا عدوة فرنسا الصريحة وتعمل على مناوأتها واذلالها، ولماهزمت اليابان روسيا صديقةَ فرنسا(١٩٠٥)تشجع غليوم الثانى امبراطور المانيا على مناوأة فرنسا ، فزار طنجة فى مراكش في ٣١مارس ١٩٠٥ ، واجتمع بمندوبين من قِبَل سلطان مراكش وصرح بأنه يستمسك بسيادة صديقه السلطان واستقلاله ، وبالمساواة الاقتصادية،وانه لايقبل أى تغيير ينشأ فى مراكش بغير رضاه

وكان من أثر هذا التصريح أن رفض سلطان مراكش ادخال اصلاحات أشارت بها لجنة فرنسية ، وطلب الى الدول (بايعاز من المانيا) أن يجتمع مندوبون عنها بمندوبين عنه فى مؤتمر لدرس الاصلاحات المطلوب ادخالها، فرحبت المانيا طبعا بفكرة المؤتمر ، ورفضتها فرنسا ، وكادت حرب أن تقوم بين الدولتين ، لولا ان أذعنت فرنسا ايثاراً للسلم، واجتمع المؤتمر فى عام ١٩٠٦ فى الجزيرة (Algeciras وهى مدينة صغيرة في اسبانيا على مقربة من جبل طارق) ، وتجلت نية كل من المانيا وفرنسا فى المؤتمر ، ففرنسا تريد التسيطر على مراكش والمانيا تأبَى إلاّ المساواة ، وقد ناصرت انجلترا حليفتها فرنسا فى المؤتمر ، لذلك نرى المؤتمر يقرر احترام استقلال مراكش والمساواة الاقتصادية، ويعترف فى الوقت نفسه لفرنسا بمركزها الخاص فى مراكش كما ناط بفرنسا واسبانيا انشاء بوليس مراكشى فى الموانى المراكشية وتدريبه .

غير أن فرنسا واسبانيا لم يرسما للعمل خطة مشتركة ،فاستمرت الفوضى حتى قُتل بعض الانجليز والفرنسيين ولم تكن حكومة السلطان قوية لتضرب

على أيدى المعتدين ، لهذا بعثت فرنسا بجيش احتل فاس ١٩١١ ، فاحتجت ألمانيا ، وبعثت بمدرعة إلى ميناء مهجور فى جنوبى مرا كش يسمى أغادير بحجة أن لها رعايا ورءوس أموال يهددها الاضطراب السائد فى مرا كش ، وكادت الحرب أن تقوم بين فرنسا وألمانيا مرة أخرى لولا أن آثرت ألمانيا الاعتدال لسببين (أولهما) أن انجلترا ناصرت حليفتها فرنسا مرة أخرى (وثانيهما) أن حربا نشبت بين تركيا وايطاليا من أجل طرابلس ، وكانت الدولتان صديقتين لالمانيا ففت ذلك فى عضدها

لهذا نكصت المانيا وقبلت فى مؤتمر آخر فى الجزيرة (نوفمبر ١٩١١) أن تعترف بالحماية الفرنسية على مرا كش ، وفى نظير ذلك تنزل فرنسا لها عن جزء من الكنغو الفرنسية وتقبل مبدأ المساواة الاقتصادية بين جميع الدول ، وتُعد هذه التسوية خذلانا عظيما لالمانيا

نظام الحكم : أعلنت فرنسا حمايتها على مرا كش فى اتفاقية (٣٠ مارس ١٩١٢) وصار السلطان يحكم تحت اشراف المندوب السامى الفرنسى ، وصارت الشئون الخارجية فى يد هذا المندوب ، وتسمى حكومة السلطان « المخزن » ، ويعين الوزير الداخلانى (وزير الداخلية) حكام المديريات

والفضل الكبير فى توطيد دعائم النظام واخماد حركة المتمردين على الحماية الفرنسية يرجع الى القائد « ليوتى Lyautey » (١٩١١ — ١٩٢٣)

وقد أنشأ الفرنسيون جيشا من الاهالى يرأسه ضباط من الفرنسيين على مثال جيش الجزائر ، ذلك الجيش الذى أدى لفرنسا خدمات جُلى فى الحرب العظمى

اسبانيا فى مرا كش : فى سنة ١٩١٢ حُددت منطقة النفوذ الاسبانى فى مرا كش اذ جُعلت اقليم الريف ، وقد تصدى لمقاومة الاسبانيين الزعيم الكبير عبد الكريم ، ولم يستطع الاسبان قهره إلا بعد أن تضافروا والفرنسيين عليه

ربط شمالى افريقية بغربيها ووسطها : بينما كانت فرنسا تبسط نفوذها في شمالى افريقية كانت فى الوقت عينه تتوغل في قلب افريقية من الجزائر فى الشمال ومن السنغال فى الغرب، حتى صار لها واداى، والسودان الفرنسي، وغانه، وساحل العاج، وداهومى، وربطت كل هذه الممتلكات الشاسعة بعضها ببعض عن طريق الصحراء الكبرى

الولايات المتحدة الأمريكية

مستعمرات انجلترا الثلاث عشرة : ذكرنا أن كثيرا من الانجليز هاجروا الى امريكا الشمالية وانشئوا لهم فيها ثلاث عشرة مستعمرة (ولاية) بين ساحل المحيط الاطلسي وجبال اليجانى، وكانت هجرتهم لما لاقوه من الاضطهاد الديني فى عهد أسرة ستيوارت والاضطهاد السياسى فى عهد كروموبل .

تمتع المستعمرات بالحرية : كان فرار المستعمرين من انجلترا من أجل الحرية ، فكان من الطبعى أن ينعموا بها فى وطنهم الجديد ، والواقع أنهم كانوا أحرارا فى تدبير شئون مدنهم وكنيستهم ومستعمرتهم، وكانت صحفهم حرة وتفكيرهم حرا ، وكان لكل مستعمرة من تلك المستعمرات الثلاث عشرة مجلس نيابى خاص يدير شئونها الداخلية ، وكان قانون الانتخاب أوسع حرية من قانون انتخاب انجلترا ذاتها، وكان لا يربط مستعمرة بأخرى إلا تبعية كل منها للتاج البريطانى

العلاقة بين المستعمرات وانجلترا : كانت المستعمرات تكاد تكون مستقلة عن الحكومة الانجليزية فى جميع الامور عدا أمرين هما: الدفاع والتجارة، فقد كان المستعمرون فى حاجة الى انجلترا لتدفع عنهم شر الفرنسيين المستعمرين كوبك (أى كندا السفلى) فى كندا، وكانت انجلترا تقبل الدفاع عنهم كفاء الفوائد المادية التى تحصل عليها منهم، فقد فرضت عليهم « قوانين الملاحة »

التى تحتم عليهم ألاَّ ينقلوا متاجرهم إلا على سفن انجليزية ، وألا يشتروا سلعا غير انجليزية إلا عن طريق انجلترا والسفن الانجليزية ، وألا يقيموا صناعة فى بلادهم اذا كانت لها مثيلة فى انجلترا ، فكأن انجلترا بفرضها هذه القوانين لم تكن خيرا من اسبانيا التى كانت تعد المستعمرات وسيلة لا لنفع المستعمرين بل لنفعها هى ، وقد أذعن المستعمِرون لهذه القوانين القاسية فى نظير دفاع انجلترا عنهم

ثورة المستعمرات واستقلالها

غضب المستعمرات من انجلترا : نشبت حرب السبع السنين (١٧٥٦ — ١٧٦٣) بين انجلترا وفرنسا فى ثلاثة ميادين هي : أوربة والهند وأمريكا ، وانتصرت انجلترا ، وأُخرجت فرنسا من كندا ، فزال خطر اغارة الفرنسيين على المستعمرات الثلاث عشرة

وقد زادت الحرب دينَ انجلترا من ٧٠ مليونا من الجنيهات الى ١٤٠ مليونا ؛ ولما كان بعض هذا المال أُنفق على الدفاع عن المستعمرات الثلاث عشرة ، وكان الانجليز يريدون انشاء جيش قائم فى هذه المستعمرات للدفاع عنها قام البرلمان الانجليزى يفرض بعض الضرائب عليها ، فبدأ فى عام ١٧٦٥ بفرض ضريبة «تمغة» على الورق الذى يستعمله المستعمِرون (أى الامريكيون) فى معاملاتهم الرسمية وفى مخاطبتهم الحكومة ، وقد قُررت هذه الضريبة رغم تحذير وليم بِت الاكبر (لورد تشاتام) ، ولقد قابل الامريكيون هذه الضريبة بالسخط الهائل ، فدقوا أجراسهم ونكسوا أعلامهم وأغلقوا حوانيتهم وأقاموا المظاهرات وقاطعوا التجارة الانجليزية ، اذ اعتبروا أن فرض ضريبة عليهم بوساطة برلمان ليس فيه من يمثلهم اعتداء صارخ على حريتهم ، وأبوا أن يقبلوا الضريبة وشجعهم على رفضها أنهم أصبحوا فى غنى عن حماية انجلترا لهم بعد إخراج الفرنسيين من كندا ، وأعلن بِت « سروره العظيم لان

المستعمرين قد قاوموا» وسحبت الضريبة (١٧٦٦) ولكن البرلمان أيد حقه في فرض مثل هذه الضريبة في أي وقت .

وهدأت الحال في المستعمرات عند ما عاد إلى الوزارة بت معبود هذه المستعمرات (١٧٦٦)، غير أن من تهكم الأقدار أن تغضب المستعمرات غضبتها الكبرى على عهد معبودها، وذلك أنه اشتدت به العلة حتى قعدت به عن العمل ، فقرر زملاؤه (١٧٦٧) فرض ضرائب على ما يدخل المستعمرات من الزجاج والشاي والورق والرصاص وألوان التصوير ، فاعترض الأمريكيون على هذه الضرائب معلنين أنها ليست من اختصاص البرلمان الانجليزى ، واستمسك الملك جورج الثالث وأغلبية البرلمان الانجليزى بتنفيذ القرارات بالقوة ، غير أن لورد نورث الذى تولى الوزارة بعد بت حاول التوفيق بين الفريقين ، فألغى الضرائب كلها إلا ضريبة الشاي وهى سبعة بنسات على الرطل الواحد ، ولم يكن غرضه جمع المال بل تثبيت مبدأ حق انجلترا في فرض الضرائب على المستعمرات ، فرفض المستعمرون ضريبة الشاى أيضا لا تململا لثقل الضريبة بل تمسكا بألا تُفرض عليهم ضرائب رغم أنوفهم ، إذ في ذلك مضيعة لحرياتهم التى بذل أجدادهم في إحرازها مقاومةً لملوكهم واغترابا عن أوطانهم .

بدأ الأمريكيون المقاومة بالاضراب عن شراء الشاي، وفي عام ١٧٧٣ بلغت ميناء بوسطن سفن شركة الهند الشرقية تحمل الشاى ، فانقض عليها الأمريكيون وطرحوا الشاى في البحر ، فتميز جورج الثالث من الغيظ (ولم يكن ثابت العقل) ، واعتزم التنكيل بالمتمردين ، ورأت حكومته ما رأى ، فقررت اقفال ميناء بوسطن ومحاكمة الثائرين كما قررت اجراءات أخرى لعقاب مستعمرة مساتشوستس التى فيها بوسطن .

مؤتمر فيلادلفيا : خشى أهل المستعمرات الأخرى أن تصل يد العقاب اليهم أيضاً فاجتمع مؤتمر منهم في فلادلفيا (٥ سبتمبر ١٧٧٤) وقرر قطع

العلاقات التجارية مع انجلترا حتى تزول أسباب الخلاف ، وقرر فى الوقت نفسه الولاء للتاج البريطانى، غير أن البرلمان الانجليزى ركب الشطط وقرر عقاب تسع مستعمرات أخرى بما عاقب به مساتشوستس .

وقبل أن ينعقد المؤتمر مرة ثانية (١٧٧٥) فى فلادلفيا كانت المناوشات قد بدأت بين الفريقين ، فقرر المؤتمر جمع جيش من المستعمرات ، وعهد بقيادته الى جورج واشنجطن .

جورج واشنجطن: كان واشنجطن أحد أغنياء مستعمرة فرجينيا، وقد ابان عن مهارة حربية جليلة فى قتال الفرنسيين فى كندا فى حرب السبع السنين ، وكان قد ناهز الثالثة والأربعين من العمر حين عهد اليه أمر قيادة جيوش الدفاع الوطنى ، وكان شجاعا مخلصا صادق العزم ، متواضعا يكره الزهو ، صريحا يكره الملق ، تقيا ثابت الايمان ، وقد وصفه أحد مواطنيه بأنه « كان أول الناس فى الحرب وأولهم فى السلم وأولهم منزلة في قلوب قومه » لكل هذا كان المؤتمر موفقا كل التوفيق في اختيار واشنجطن .

اعلان الاستقلال : بينما كانت الحرب ناشبة اجتمع المؤتمر فى فلادلفيا وقرر [1] ونشر « اعلان الاستقلال » فى ٤ يولية ١٧٧٦ .

الحرب : وفى الأمريكيون بما عاهدوا أنفسهم وربهم عليه، فبذلوا أرواحهم وما يملكون فى سبيل الذياد عن حقهم ، وكانت فرنسا حاقدة على انجلترا التى أخرجتها من كندا والهند ، فساعدتهم بالمال سرا (كما ساعدتهم وساعدت

(١) اقر « اعلان الاستقلال » كل الولايات ماعدا نيويورك، ومما جاء فى الاعلان: « نحن ممثلى الولايات المتحدة الامريكية ، المجتمعين فى هيئة مؤتمر عام نشهد الحكم العدل على شريف مقاصدنا ، وننشر ونعلن فى إيمان باسم وتفويض شعب الولايات الكريم أن هذه الولايات المتحدة أصبحت حرة ومستقلة ،ويجب عدلا أن تكون حرة مستقلة . . . . . وقد تعهدنا بأن نصون هذا الاستقلال بحياتنا وأموالنا وشرفنا مؤمنين بعون الله » . وصار هذا الاعلان يقرأ سنويا فى عيد الاستقلال .

غيرهم من الشعوب من قبل بافكار كتابها أمثال روسو) ، وأرسلت الولايات المتحدة إلى فرنسا بعثة على رأسها بنيامين فرنكلين (Benjamin Franklin) تلتمس مساعدتها ، فترددت فرنسا خوف بطش انجلترا ، غير أن كثيراً من الفرنسيين تطوعوا لمساعدة الأمريكيين ، وكان أظهر هؤلاء المتطوعين لافيت (Lafayette)

وقد ذكرنا أن المناوشات بدأت عام (١٧٧٥) ، وفى العام عينه حارب واشنجطن القائد الانجليزى هاو (Howe) فى بنكر زهل (Bunker's Hill) ثم طرده من بوسطن فى مارس ١٧٧٦ ، وفى أكتوبر ١٧٧٧ أرغم القائد الانجليزى بورجوين (Burgoyne) على التسليم للقائد الأمريكى جيتس (Gates) فى سراتوجا وكان لهـذا التسليم أثران (أولهما) تشجع الأمريكيين أنفسهم (وثانيهما) أن فرنسا استيقنت أن الأمريكان جديرون باحترامها فاعترفت باستقلالهم وأعلنت الحرب على انجلترا (١٧٧٨) مساعدة لهم ، وأنجدتهم بقوات برية وبحرية .

وانتقل ميدان القتال إلى الجنوب ، وأرغم القائد الانجليزى كورنوالس (Cornwallis) على التسليم فى يوركتون لواشنجطن وزميله القائد الفرنسى روشامبو (Rochambeau) ، والقى كورنوالس هو وجيشه بسلاحهم وانقلبوا راجعين يسيرون فى خزى وكآبة بين صفى الأمريكان والفرنسيين ، ولم تر إنجلترا بدا من قبول معاهدة فرساى (يناير ١٧٨٣) التى اعترفت فيها إنجلترا باستقلال الولايات المتحدة التام ، ونُص فى المعاهدة على أن المسيسبى هو حد الولايات المتحدة غربا وأن فلوريدا الاسبانية هى حدها جنوبا

وهكذا تكونت تلك الدولة التى أصبحت اليوم من أعظم دول العالم ، وعلى الأمم الراغبة فى الاستقلال أن تحذو حذو الولايات المتحدة ، وعلى زعمائها أن يقتدوا بواشنجطن محررها العظيم .

ويرجع انتصار الأمريكيين إلى أنهم كانوا يحاربون فى قلب بلادهم التي يعرفون فجاجها ، ولأنهم كانوا يقدسون الحرية ، ويستميتون فى الدفاع عنها ولأنهم كانوا يدافعون عن حق لا عن باطل ، ولأن الانجليز كانوا يسيرون وراء جورج الثالث الطائش العقل والسياسة ، ولأن الامريكيين كانوا يتلقون الوحى من واشنجطن الكمى المخلص الصابر على ما اعترضه من عقبات فى المؤتمر والجيش ، ولأن فرنسا ساعدتهم بمالها ورجالها وأسطولها .

ولتلك الثورة الامريكية نتائج بعيدة الأثر أهمها :

(١) تغيير سياسة انجلترا فى المستعمرات حتى لا تفقدها كما فقدت الولايات المتحدة (كما ذكرنا في الكلام على كندا)

(٢) قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ لأن الامريكيين ضربوا لهم مثلا فى الإباء ومقت الذل

(٣) ثورة مستعمرات أسبانيا الامريكية واستقلالها عنها (وسنورد ذكر هذا الامر)

اعتزال واشنجطن : اعتبر واشنجطن أن مهمته قد انتهت بعد الفراغ من الحرب ، فقدم استقالته إلى رئيس المؤتمر وأعلن أنه لا يقبل أى مركز في الحياة السياسية ، وسافر إلى قريته لينعم فيها بحياة هادئة وأرسل إلى لافيت[١] خطابا جاء فيه « لقد أصبحت فردا من آحاد الناس أعيش عيشة العزلة على ضفاف نهر بوتماك تحت ظلال التين والعنب بعيدا عن متاعب الحرب والسياسة ، . . إنني لا أحسد أحدا ولا أنافس أحداً ، انظر إلى الناس جميعا كأنهم أصدقائى واخوانى »

(١) زار لافيت أمريكا عام ١٨٢٤ أى بعد ٤٠ سنة من الاستقلال فقرر البرلمان أن يهدى اليه ٢٠٠٫٠٠٠ دولار و ٢٤٫٠٠٠ فدان فى فلوريدا جزاء ما أنفق وتحمل وقت أن تطوع لمساعدتهم

وضع المؤتمر الأمريكي خلال الحرب السالفة الذكر دستورا اتضح لهم أنه لا يلائمهم ، لذلك انتخب الامريكيون جمعية وطنية اجتمعت فى فلادلفيا — تلك البلدة التاريخية — لتضع دستورا جديدا ، ولقد قامت بين الأعضاء مشاحة طويلة وجدل عنيف لاختلاف وجهة نظرهم ، فحزب الاتحاديين كان يتمسك بانشاء حكومة اتحادية ذات سلطان كبير تهيمن به على الولايات . وكان حزب الجمهوريين يرى إنشاء حكومة قوية فى كل ولاية من الولايات وتقليل نفوذ الحكومة الاتحادية ، وانتهى الامر بالتوفيق بين وجهتي نظر الحزبين بأن جُعلت حكومة كل ولاية تستقل بشئونها الخاصة التى لا تشاركها فيها ولاية أخرى ، وجعلت الحكومة الاتحادية تدير الشئون المشتركة أى التى تهم الاتحاد كله . ولنذكر الآن هذا الدستور ببعض التفصيل : —

(١) حكومات الولايات : جُعلت كل ولاية من ولايات الاتحاد مستقلة بشئونها الداخلية ولها حاكمها المنتخب وفى يده السلطة التنفيذية ، ولها هيئتها التشريعية ، ولها لوائحها ومحاكمها وقضاتها

(٢) الحكومة الاتحادية (أو العليا) : وعملها الاضطلاع بالشئون المشتركة أى التى تهم الاتحاد كله ، وأهم هذه الشئون : كل ماله مساس بعلاقة الاتحاد بالدول من حرب وسلم ومعاهدات وقوات فى البر والبحر ، وكل ما يتصل بالتجارة الخارجية والداخلية ، والقوانين المالية وعقد القروض والعملة ، والبريد ، وفرض الضرائب اللازمة للقيام بهذه الشئون ، وحَظَّر الدستور على حكومات الولايات أن تفتئت بشأن من هذه الشئون

والحكومة الاتحادية (أو العليا) مؤلفة من سلطات ثلاثة هى : —

(١) السلطة التنفيذية : ويتولاها رئيس الجمهورية الذى يختاره الشعب

مباشرة لأربعة أعوام ويجوز تجديد انتخابه مرة أخرى ، ويمتاز رئيس الجمهورية عن أمثاله فى أوربة بالسلطة الواسعة فهو الحاكم الحقيقى إذ هو الذى يعين الوزراء من غير أعضاء المؤتمر (أى السلطة التشريعية) ولايعدهم إلا وكلاء له أو رؤساء مصالح له حق إقالتهم انَّى شاء ولا يؤاخَذون أمام المؤتمر بل يؤاخذون أمامه وحده ، وهو رئيس جيوش البر والبحر ، ومدير السياسة الخارجية وله حق إمضاء المعاهدات وتعيين السفراء وكبار الموظفين وقضاة المحكمة العليا ، ولكن يشترط فى قراراته الهامة أن يقرها مجلس الشيوخ ، وليس للمؤتمر حق عزله

(ب) السلطة التشريعية : ويتولاها المؤتمر وهو مؤلف من مجلس النواب ومجلس الشيوخ (السناتو) ، فمجلس النواب ينتخب[1] أعضاءه سكانُ الولايات لمدة سنتين بالاقتراع العام بحيث يكون لكل ١٧٤٫٠٠٠ نسمة ممثل واحد . أما مجلس الشيوخ فتنتخب أعضاءه مجالسُ الولايات باعتبار اثنين عن كل ولاية مهما بلغ عدد سكانها ، ويتجدد ثلث هذا المجلس كل عامين ، ووظيفته التشريعية الاقتراع مع مجلس النواب على القوانين، أما وظيفته التنفيذية فهى الموافقة على كبار المستخدمين الذين يعينهم الرئيس كالسفراء والقناصل وقضاة المحكمة العليا وقبول أو رفض ما يعقده الرئيس من المعاهدات ، أما وظيفته القضائية فهى محاكمة رئيس الجمهورية ومن يرى مجلس النواب محاكمتهم

(حـ) السلطة القضائية : وتتولاها المحكمة العليا وهى مؤلفة من تسعة قضاة يعينهم رئيس الجمهورية في مناصبهم مدى الحياة ، واختصاصها النظر

---

(١) كان قد حدث خلاف على السؤال الآتى : — هل يكون عدد النواب متساويا فى جميع الولايات أو يكون بنسبة السكان ؟ وللتوفيق بين الرأيين تقرر أن يكون عدد النواب متساويا فى مجلس الشيوخ ، متناسبا والسكان فى مجلس النواب .

فى كل خلاف يقوم بين الولايات أو بين رئيس الجمهورية والمؤتمر ، كذلك لها حق ابطال أى قرار أو إجراء تراه متعارضا والدستور ، وهذه المحكمة هى فى الواقع نقطة التوازن فى الدستور الامريكى حتى أن بعضهم يطلق على حكومة الولايات المتحدة اسم « حكومة القضاة »

نظرة فى هذا الدستور : (١) وُضع الدستور الأمريكى على قاعدة الفصل بين السلطات التى نادى بها منتسكيو

(٢) يمتاز عن دساتير غربى أوربة بما يأتى : — (ا) السيادة العليا ليست للسلطة التشريعية (ب) لايتوقف كيان السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية بل على الشعب مباشرة (ح) لم يقرر الدستور مبدأ مؤاخذة الوزراء أمام المؤتمر ومبدأ حل الرئيس للمؤتمر ، وذلك نقص فى الدستور ، وذلك لأنه إذا اختلف الرئيس والمؤتمر بقى كل منهما حتى تنتهى مدته وبقى الخلاف قائما (د) إن الحكومة العليا مقيدة التصرف بما هو مخول لحكومات الولايات من الحقوق (ه) المحكمة العليا هى نقطة التوازن فى الدستور

ولقد نجح هذا الدستور على غرابته نجاحا عظيما ولم يدخل عليه إلا تعديلات قليلة حتمتها الظروف

انتخاب واشنجطن لرياسة الجمهورية : لم يستمتع واشنجطن بعزلته طويلا إذ انتخبه الشعب رئيسا للجمهورية (عام ١٧٨٩) ، فلما انقضت الأعوام الأربعة اختير مرة أخرى، ولما شارفت المدة الثانية الانتهاء أعلن أنه لا يقبل الرآسة مرة ثالثة ، فصار العُرف منذ ذلك التاريخ ألا يتولى الرآسة أحد أكثر من مرتين متتاليتين

وكان انتخاب واشنجطن من أكبر العوامل على تقوية الروابط التى تربط الولايات بعضها ببعض ، وذلك لنفوذه الكبير وشخصيته الخلابة وتعلق الأمريكيين به ، فهو إذن قد خدم بلاده فى ميدان القتال أولا ثم فى ميدان

السلم ثانيا، ومات فى ١٤ ديسمبر ١٧٩٩ ، ويلقبة قومه (بابى الوطن)،وقد أمر نابليون أن تجلل أعلام فرنسا بالسواد عشرة أيام حدادا عليه ، وأنشئت مدينة واشنجطن بعد وفاته تخليداً لذكراه .

علاقة الولايات المتحدة بأوربة

قبل أن يموت واشنجطن حذر قومه التورط فى محالفات أو حروب مع الدول الأوربية ، وطلب اليهم أن يحسنوا علاقاتهم مع جميع الدول ، ورغم ذلك قد ساقتهم الظروف إلى غير ما أراده لهم واشنجطن .

الحرب الثانية مع انجلترا : (١٨١٢ — ١٨١٤) حاربت إنجلترا نابليون حربا لم تنقطع من ١٨٠٣ إلى ١٨١٤ ، وأباحت إنجلترا لنفسها حق تفتيش سفن الدول المحايدة حتى لا تحمل سلعا إلى فرنسا والدول الخاضعة أو الموالية لها ، فغضبت الولايات المتحدة لتفتيش سفنها واشتبكت وانجلترا فى حرب انتهت بصلح غنت فى بلجيكا (ديسمبر سنة ١٨١٤) والغريب أن الصلح لم يقرر شيئا بخصوص حق التفتيش الذى أدى إلى الحرب ، ولهذه الحرب نتائج هى :

(١) أفهمت الولاياتُ المتحدة العالم للمرة الثانية أنها تستطيع أن تدافع عن حقها وكرامتها .

(٢) كان أصحاب رءوس الأموال الكبيرة (لاسيما فى شمالى الولايات المتحدة) يزاولون التجارة ، فلما قامت الحرب انصرف كثير منهم عن التجارة إلى الصناعة حتى لا يعتمدوا على السلع الانجليزية (وبخاصة السلع القطنية) لذلك يسمى الأمريكيون هذه الحرب « الحرب الاستقلالية الثانية » لأنها علمتهم الاستقلال عن انجلترا صناعيا بعد أن استقلوا عنها سياسيا عام ١٧٨٣ .

أملاك أوربة فى أمريكا تحول دون اتساع الولايات المتحدة : بدأت القوة تتجمع للولايات المتحدة فى بداءة القرن التاسع عشر ، ولما أرادت أن

تسخر هذه القوة فى مد رقعتها ، وجدت دول أوربة عقبة كأداء فى سبيلها: فاسبانيا كانت تمتلك مناطق تمتد من رأس هورن الى شمالى سان فرنسسكو (ما عدا البرازيل التى كانت للبرتغال وجيانا التى لاتزال للانجليز والهولنديين والفرنسيين) كذلك كانت تمتلك اسبانيا جميع المناطق التى تقع غربى المسيسبى، وفلوريدا ، وتملك فى جزائر الانتيليس كوبا وبورتوريكو ، لكل ذلك رأت الولايات المتحدة انها لن تتمكن من توسيع رقعتها إلا اذا قضى على نفوذ الاسبان فى امريكا ، ولم تكن اسبانيا وحدها التى تعترض نمو الولايات المتحدة ، بل كانت روسيا مالكة لاقليم الاسكا ، وكانت انجلترا تتطلع الى اقليم الاوريجون وهو الممتد من الجبال الصخرية الى المحيط الهادى ومن حدود الاسكا الى حدود كاليفورنيا

استقلال مستعمرات اسبانيا الامريكية : وكانت مستعمرات الاسبان فى أمريكا تتبرم بحكمهم تبرما شديدا للضرائب الفادحة التى كانوا يفرضونها عليها ، وللقيود الثلاثة التى قيدوا بها تجارتها وصناعتها وزراعتها ، فقد حرموا عليها الاتجار مع غيرهم ، وصناعة سلعة تصنع مثيلتها بلادهم ، وزراعة غلات تنبتها أرضهم، أضف إلى ذلك الضغط السياسى الذى عُرفت به أسرة البربون فى اسبانيا ، وقد شجع هذه المستعمرات على الثورة أمور هى :

(١) كتب فلاسفة فرنسا وما حوت من تمجيد للحرية، فكانت فرنسا بذلك رسول الحرية لدى كل من أمريكا البسا كسونية (الولايات المتحدة) وأمريكا اللاتينية (أى الاسبانية لأن اسبانيا لاتينية الأصل).

(٢) ثورة الولايات المتحدة واستقلالها عن انجلترا القوية

(٣) الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩

ولما غزا نابليون الاول اسبانيا وانتزع العرش من ملكها البربونى وولى

عهده وولّى عليها أخاه يوسف بونابرت (١٨٠٨) ثار الاسبان في وجهه ثورة هائلة، وألفوا حكومة مؤقتة تتولى الدفاع باسم ملكهم المنفى، وقامت المستعمرات الاسبانية فى أمريكا واعترفت بهذه الحكومة المؤقتة ، ورغم هذا الاعتراف كانت تدير شئونها بنفسها بغير الرجوع الى الحكومة المؤقتة فى شيء ، ولما عاد فردنند السابع إلى عرش اسبانيا بعد سقوط نابليون (١٨١٤) أراد أن يعيد حكمه الرجعى ، وأبى أن يجيب مطالب الأحرار الذين قاوموا أعداءه واحتفظوا له بعرشه ، كما أبى أن يمنح المستعمرات الحكم الدستورى التى قامت تطالب به ، فقامت الثورة فى اسبانيا وكذلك ثارت المستعمرات (بزعامة بوليفار وأضرابه) وطالبت بالاستقلال التام بعد أن كانت لا تطالب إلا بالحكم الدستورى ، ووفقت المستعمرات فى جهادها ، وأنشئت فى هذه المستعمرات عدة جمهوريات تعرف بالجمهوريات اللاتينية (لأن اسبانيا لاتينية الأصل)

وفى عام ١٨١٩ نزلت حكومة اسبانيا للولايات المتحدة عن فلوريدا

مبدأ منرو Monroe : كان فى أوربة منذ عام ١٨١٥ عصبة أوربية تعرف بالمحالفة الرباعية وأعضاؤها النمسا وانجلترا وروسيا وبروسيا وضُمت إليها فرنسا عام ١٨١٨ ، وفي عام ١٨٢٢ اجتمع مندوبو هذه الدول فى مؤتمر ڤيرونا ليبحثوا فى إخماد ثورة اسبانيا ومستعمراتها ، وطلبت فرنسا أن تُنتدب لقمع ثورة اسبانيا ، فوافقت الدول جميعا لميولها الرجعية ، ماعدا انجلترا فانها عارضت لأسباب أهمها :

(١) انتداب دولة لاخماد ثورة قائمة فى دولة أخرى معناه التدخل فى الشئون الداخلية للدول

(٢) ان إخماد فرنسا لثورة اسبانيا مما يزيد نفوذها فيها، وهذا أمر لا ترضاه انجلترا

(٣) أن الانجليز (بعد تقلص حكم الاسبان من مستعمراتهم) قد جمعوا رءوس أموال كبيرة وتاجروا بهام هذه المستعمرات فإذا أعيدت المستعمرات

إلى حظيرة الاسبان ، أعاد هؤلاء فيها القيود التجارية التى تحرم على المستعمرات الاتجار مع غيرهم فيفقد الأنجليز بذلك غنما كبيراً

ولما رأت انجلترا أن الولايات المتحدة الأمريكية قد اعترفت بالجمهوريات اللاتينية فى ٤ مايو ١٨٢٢ ، أرادت أن تتفق معها على حماية هذه الجمهوريات من العصبة الأوربية ، غير أن حكومة الولايات المتحدة لم تشأ أن تشرك معها دولة أوربية فى الدفاع عن بلاد أمريكية خصوصا أن واشنجطن قد حذرها عاقبة التورط فى محالفات أوربية ، ثم تقدم منرو Monroe رئيس جمهورية الولايات المتحدة وأعلن في المؤتمر تصريحا فى ٢ ديسمبر ١٨٢٣ جاء فيه : « إن قارتى أمريكا اللتين حصلتا على الاستقلال وحافظتا عليه لا تُعتبران من الآن فصاعدا عرضة لاستعمار أوروبى مقبل » وفى عبارته هذه تعريض بالروسيا التى تطمع فى إقليم كاليفورنيا وبفرنسا التى تطمع فى المكسيك ،

وجاء فى التصريح أيضا : « وإننا لم يسبق لنا الاشتراك فى حروب أوربية لأن ذلك لا يتفق وسياستنا ، ورغم ذلك فإننا نرى الدول الأوربية تحاول جهدها أن تمتلك بعض أقطارنا لتكون خطرا على سلامنا وراحتنا »

ومن هذا التصريح نشأ مبدأ « أمريكا للأمريكيين »

وأعلنت انجلترا انها تؤيد « تصريح منرو » لأنه يبعد اسبانيا عن مستعمراتها القديمة وذلك ما ترجوه حتى تبقى لها مصالحها التجارية

تحليل معنى تصريح منرو : كان تصريح منرو ظاهره يرمى إلى دفع شر أوربة عن أمريكا، وباطنه يرمى إلى إبعاد أوربة عن أمريكا حتى تجد الولايات المتحدة لها فى أمريكا مجالا للتوسع ، وقد نجح التصريح فى وجهيه الظاهر والباطن .

تصريح منرو يرد أوربة : لم تجرؤ العصبة الأوربية على التقدم لإخضاع الجمهوريات اللاتينية (أى المستعمرات الأسبانية سابقا)

وحدث كذلك أن غزا الأمبراطور نابليون الثالث المكسيك ، وكانت الولايات المتحدة مشغولة بحربها الداخلية فلما فرغت منها احتجت عليه عام ١٨٦٥ وذكرته بمبدأ منرو فسحب جيوشه منها (١٨٦٦)

تصريح منرو يساعد على مد أطراف الولايات المتحدة : كانت المكسيك إحدى الجمهوريات التي دافع عنها منرو عام ١٨٢٣ وأبعد عنها شر أوربة ، وهى التي أبعدت الولايات المتحدة عنها نابليون الثالث ، ومع ذلك كله فاننا نرى الولايات المتحدة تنتزع منها بقاعا شاسعة ، ومن هذه البقاع ولاية تكساس

وبناء على مبدأ منرو أو مبدأ « أمريكا للأمريكيين » اشترت الولايات المتحدة ألاسكا من روسيا (١٨٦٧)

وتحقيقا لمبدأ منرو امتلكت الولايات المتحدة كوبا وكانت تابعة لاسبانيا، وتفصيل هذا الأمر أن كوبا (أوملكة الأنتيليس) كانت دائمة الثورات كراهة منها فى حكم الاسبان الغاشم ، وحدث أن أرسلت الولايات المتحدة إحدى سفنها للمحافظة على رعاياها فى الجزيرة ، ونسفت السفينة وغرقت واتهمت الحكومة الأسبانية بإغراقها وأعلنت الولايات المتحدة الحرب على إسبانيا وحطمت أسطولها الضعيف،وفي ١٠ ديسمبر ١٨٩٨ عقدت معاهدة باريس وبها نزلت اسبانيا [1] عن كوبا ، ولم يمض طويل وقت حتى وضعت الولايات المتحدة يدها عليها فأصبح لها كل النفوذ على خليج المكسيك وبحر الأنتيليس

دخول الولايات المتحدة الحرب العظمى : [2] اعتدت الغواصات

---

(١) واشترت الولايات المتحدة من إسبانيا جزيرة بورتوريكو وجزيرة الفلبين بمليون جنيه ، وقد جعل امتلاك الولايات المتحدة للفلبين فى البحار الشرقية نفوذا لا تنظر إليه اليابان بعين الرضا

(٢) المنهج لا ينص على دراسة تاريخ الولايات المتحدة فى القرن العشرين لذلك

الألمانية على سفن تجارية إبان الحرب العظمى ، فكان يغرق الأبرياء ، ومن بينهم رعايا أمريكيون، ولم ير ولسن رئيس الولايات المتحدة بدا من دخول الحرب (ابريل ١٩١٧) فى جانب الحلفاء (أعداء ألمانيا) عقابا لها على ما أسلفت وانتصر الحلفاء وغقد صلح فرساى (١٩١٩)

الحرب الأهلية الأمريكية ١٨٦١ — ١٨٦٥

الرقيق فى الولايات المتحدة : كان الأوربيون النازلون هذه البلاد يستجلبون الأرقاء من سواحل إفريقية ليسخروهم فى الزراعة إذ كان هؤلاء الأرقاء أقدر من غيرهم على العمل تحت أشعة الشمس المحرقة

ولما زادت زراعة القطن فى جنوبى الولايات المتحدة (باختراع آلة لحلجة عام ١٧٩٣ بعد أن كان حلجه باليد يتطلب نفقات كبيرة) استُخدم الأرقاء فى زراعته بكثرة .

الدستور والرق : لم تُذكر فى الدستور لفظة (أرقاء) مرة واحدة بل عُبر عنهم بهذه العبارة (أشخاص يحتفظ بهم للخدمة أو العمل) وهذا دليل على أن الجمعية الوطنية التى وضعت الدستور كانت تحس غضاضة فى استخدام الرقيق .

وحرم الدستور استجلاب الأرقاء ابتداء من ١٨٠٨ ، وترك لكل ولاية من الولايات القديمة الحق فى الابقاء على نظام الاسترقاق أو إلغائه ، أما ما يستجد من الولايات فيترك للحكومة العليا أمر البت فى إطلاق الرق فيها أو تحريمه

الخلاف بين الشمال والجنوب من أجل الرق : بدأ شمالى الولايات

أذكر هذا الأمر موجزا لمجرد إتمام العلاقة بينها وبين أوربة

المتحدة منذ الحرب مع انجلترا (١٨١٢-١٨١٤) يتحول إلى أقليم صناعى لا حاجة له إلى الأرقاء، فاشتراهم الجنوب منه

ولما بدأت ولايات جديدة تُضم إلى الاتحاد، بدأ الخلاف يظهر جليا بين الجنوب والشمال فالجنوب يريد أن يباح الرق في كل ولاية جديدة تضم وذلك حتى تكون أغلبية الولايات على مبدئهم كي يأمنوا على مصالحهم من أن تعبث بها الحكومة العليا، أما الشمال فكان يريد أن تدخل كل ولاية جديدة الاتحاد بصفتها «ولاية حرة» أي لا يباح فيها الرق، والذى حدا بالشمال إلى مقت الاسترقاق أمور هي: —

(١) انه (أي الشمال) ليس فى حاجة إلى الأرقاء لأنه أقليم صناعى

(٢) قد ظهرت منذ الثورة الفرنسية حركة كبرى مناوئة للاسترقاق على اعتبار أنه أمر مناف للانسانية والمسيحية معا. وقامت دول أوربة تباعا تلغى الرق وتندد به فى كل بقعة من بقاع الأرض، وشعر أهل الشمال أن الاسترقاق وصمة فى جبين الديموقراطية الأمريكية

الشمال يحاول مناهضة الرق: أسس أهل الشمال الجمعيات وكتبوا الرسائل لمناهضة الرق، وبنوا المدارس لتعليم الزنوج (ومن أشهر الجماعات التي عملت على مقاومة الاسترقاق جماعة الكويكرز Quakers وهم أشبه الناس بالمتصوفين في الاسلام) وأخذ الأدباء يصورون بؤس الأرقاء وما يترتب على بقاء الاسترقاق من تأخر

وفي عام ١٨٥٤ تألف فى الشمال «الحزب الجمهورى» ومبدؤه التمسك بسلطان الحكومة الاتحادية (العليا) واستخدام هذا السلطان فى محاربة الاسترقاق.

ولم يقف الأمر عند حد الجدل الكلامى بل تعداه إلى العمل، فقد قام أحد أعداء الاسترقاق واسمه جون براون وعزم غزو الاسترقاق فى

فرجينيا وهى الولاية التى تعنى بتربية الأرقاء واستجلابهم والاتجار فيهم ، فبنى فى جبالها حصنا يلوذ به كل رقيق يفر من سيده ، وجمع نحو عشرين فارسا وهاجم بهم مستودع ذخائر للحكومة الاتحادية لينتزع منه سلاحا وذخائر لأعوانه . فلم يصب نجاحا وقبض عليه وحوكم وشنق (١٨٥٩)

ذعر أهل الجنوب وخيل إليهم أن هذا الحادث بدء حركة جدية لتحرير الأرقاء ، وخافوا إن استولى الحزب الجمهورى على رآسة الجمهورية شد أزر هذه الحركة ، وتألف بينهم حزب معارض للحزب الجمهورى يسمى الحزب الديموقراطى ، ومبدؤه تمسك كل ولاية بحقها فى التصرف فى شئونها حتى تستطيع المحافظة على نظام الاسترقاق

ابراهام لنكولن : ولد عام ١٨٠٩ في كنتكي من أبوين فقيرين ودرس عاما واحدا ثم تقلب فى عدة حرف ، ثم دأب فى دراسة القانون حتى صار محاميا وجال فى السياسة جولة موفقة ، وكان من اشد اعداء الرق ورشحه الحزب الجمهورى لرآسة الجمهورية ففاز في ٦ نوفمبر ١٨٦٠

انفصال الجنوب : وكان لانتخاب لنكولن معنيان فى نظر أهل الجنوب (أولهما) أن أهل الشمال (الجمهوريين) أكثر عددًا من أهل الجنوب ، ولهذا يتغلب مرشح الشمال على مرشح الجنوب ، وهذا يجعل الشمال اكثر نفوذا وأكبر سلطانا من الجنوب (وثانيهما) ان لنكولن معروف بمقته الاسترقاق فاختياره قد يكون نذير حرب تُشهَر فى وجه الاسترقاق

لهذين الامرين فكر أهل الجنوب فى الانفصال عن الشمال وعن لنكولن «الغورلا» — كما يسمونه تقبيحا لصورته — وبدأت ولاية كارولين الانفصال وتلتها الولايات الجنوبيه الاخرى ، وفي ٤ فبراير ١٨٦١ اجتمع مندوبو الولايات الاحدى عشرة المنفصله فى مؤتمر واطلقوا على أنفسهم «ولايات امريكا المتحالفة» ووضعوا لأنفسهم دستورا يتميز بسيادة الولايات

والاعتراف بالرق ، وانتخب جفرسون دڤيز رئيسا لجمهوريتهم واتخذت رتشموند عاصمة لها

لنكولن يدعو الجنوب للرجوع : حز فى نفس لنكولن انفصام الاتحاد وخجل أن يقول العالم إن الديموقراطية الأمريكية تجربة أصابها الفشل ، فقام يترضى الولايات المنشقة لتعود إلى حظيرة الاتحاد ، فأعلن أنه لا رغبة له ولا حق له فى التدخل فى موضوع الأرقاء فى ولايات الاسترقاق وانه إنما يهمه الاتحاد ولا يسمح مطلقا بفصم عراه ، ومما قاله فى ذلك مخاطبا أهل الجنوب : « فى أعناقكم يامواطنى الغاضبين لا فى عنقى أنا ماينجم عن الحرب الأهلية من عواقب خطيرة الشأن . . . . إنكم لم تقسموا أن تحطموا الحكومة كما أقسمت أنا قسما مقدسا أن أحافظ عليها وأدافع عنها » ويقول كذلك : « لسنا أعداء بل أصدقاء ، ويجب أن نكون أصدقاء » غير ان أهل الجنوب أصموا آذانهم لأنهم وإن كانوا قد اطمأنوا من ناحية الرق إلا أنهم كرهوا أن يعودوا إلى اتحاد ليسوا فيه الا أقلية. لم يجد لنكولن بعد ذلك بدا من أن يشمر للحرب ونادى بالتطوع فأهرع إليه الناس وهم ينشدون :

We're coming Father Abraham, six hundred thousand strong.

الحرب : تعرف هذه الحرب « بالحرب الأهلية الأمريكية » وتعد من أهول المعارك التى وعاها التاريخ لكثرة الرجال الذين اصطلوا بنارها وهلكوا فيها ، ولاتساع رقعة ميادينها ، ودامت أربعة أعوام (١٨٦١ — ١٨٦٥) انتصر فيها الشمال ، لأنه كان أوفر من الجنوب عددا ؛ ولأنه كان قويا بدفاعه عن حقين عظيمين هما المحافظة على الاتحاد والدفاع عن الحرية ، ولأنه كان يهتدى بإصالة رأى [1] لنكولن ، ويستمد الإقدام من روحه ؛ ولأنه كان إقليما صناعيا حول غالب مصانعه إلى مصانع للأسلحة وكل ماتتطلبه

(١) من ذلك أنه أعلن إلغاء الرق رسميا فى الولايات المتحده لأنه رأى أن ذلك يضعف مركز أهل الجنوب أمام العالم المتمدين ، وأمام أرقائهم أنفسم

الحرب ، ولأنه كان كثير السفن التجارية فسلحها وحاصر بها شواطئ الجنوب فلم يستطع الجنوب أن يصدر قطنه الى اوربة (فأصابته خسارة كبرى) ولم يستطع كذلك أن يتلقى أسلحة وذخائر من أوربة ، ولأن دول أوربة المحتاجة إلى القطن لم تجرؤ على مساعدة قوم يستمسكون بالاسترقاق.

وقد انتصر جرانت قائد الشمال على روبرت لِى قائد الجنوب وانتزع منه مدينة رتشموند مركز القيادة وأكرهه على التسليم فى أبريل ١٨٦٥ ، وقد عامل الظافر المقهورين بكرم مما جعل الفريقين يفترقان وهما متحابان ، فمن ذلك أن جرانت حفظ على روبرت لى سيفه ولم يشأ أن يذله بانتزاعه منه ، وجلس إليه يحادثه عن أيام الصبا وقد كانا تلميذى مدرسة واحدة ، وترك جرانت لجنود الجنوب خيولهم « لينتفعوا بها فى المستقبل فى مزارعهم ».

ولم ينقض على تسليم لى خمسة أيام حتى قام ممثل مختلط العقل من أهل الجنوب ووثب على لنكولن فى ملهى وقتله ، والأمة تذوب عليه حسرة ، ولا غرو فهو المنشئ الثانى بعد واشنجطن للولايات المتحدة .

نتائج الحرب : إن الحرب وإن أفقدت الولايات المتحدة نحو ألف ألف رجل ما بين شهيد وعاجز وأبلغت دينها ٦٠٠ مليون من الجنيهات ، فقد أسفرت عن نتيجتين ساميتين (أولاهما) أنه أُدخل فى الدستور تعديل ينص على إلغاء الرق إلغاء تاما فى الولايات المتحدة ، وأن المؤتمر قرر منح العبيد الحقوق السياسية التى يتمتع بها البيض (وثانيتهما) أنه استقر المبدأ القائل بأن الولايات المتحدة « أمة واحدة لاتتجزأ » لاجملة ولايات تنسحب الواحدة منها متى شاءت

وإن كان قد بقى فى نفوس أهل الجنوب آثار من جراح الحرب فقد أبرأها ما يهدد البلاد من خطر نابليون الثالث الذى غزا المكسيك متجاهلا مبدأ منرو .

المشكلة السوداء : إن إلغاء الاسترقاق ليس معناه أن المشكلة السوداء

قد حلت ، فإن العبيد كانوا قبل ۱۷۹۰ دون المليون ، أما الآن فقد أصبحوا نحو عشرة ملايين أى نحو عشر مجموع السكان ، ولا يزال البيض يختصونهم بالاحتقار لاختلاف الفريقين فى الجنس واللون والعادات ، ولميل العبيد إلى العربدة ولاعتدائهم على النساء ولبيعهم أصواتهم فى الانتخاب ، ولتراخيهم في العمل ، وللسود عربات خاصة فى السكك الحديدية والترام ، وأماكن خاصة فى الفنادق والكنائس ، والبيض وإن كانوا يتبرمون بهم وبوجودهم بين أظهرهم إلا أنهم يرون أنفسهم مسئولين عن مستقبلهم ، لأنهم - أى السود - لم يفدوا على أمريكا مختارين بل مكرهين ، ويفكر الأمريكيون اليوم فى إبعاد العبيد إلى جزر الفلبين أو إلى أى مكان آخر فى ممتلكاتهم يكونون فيه بمعزل

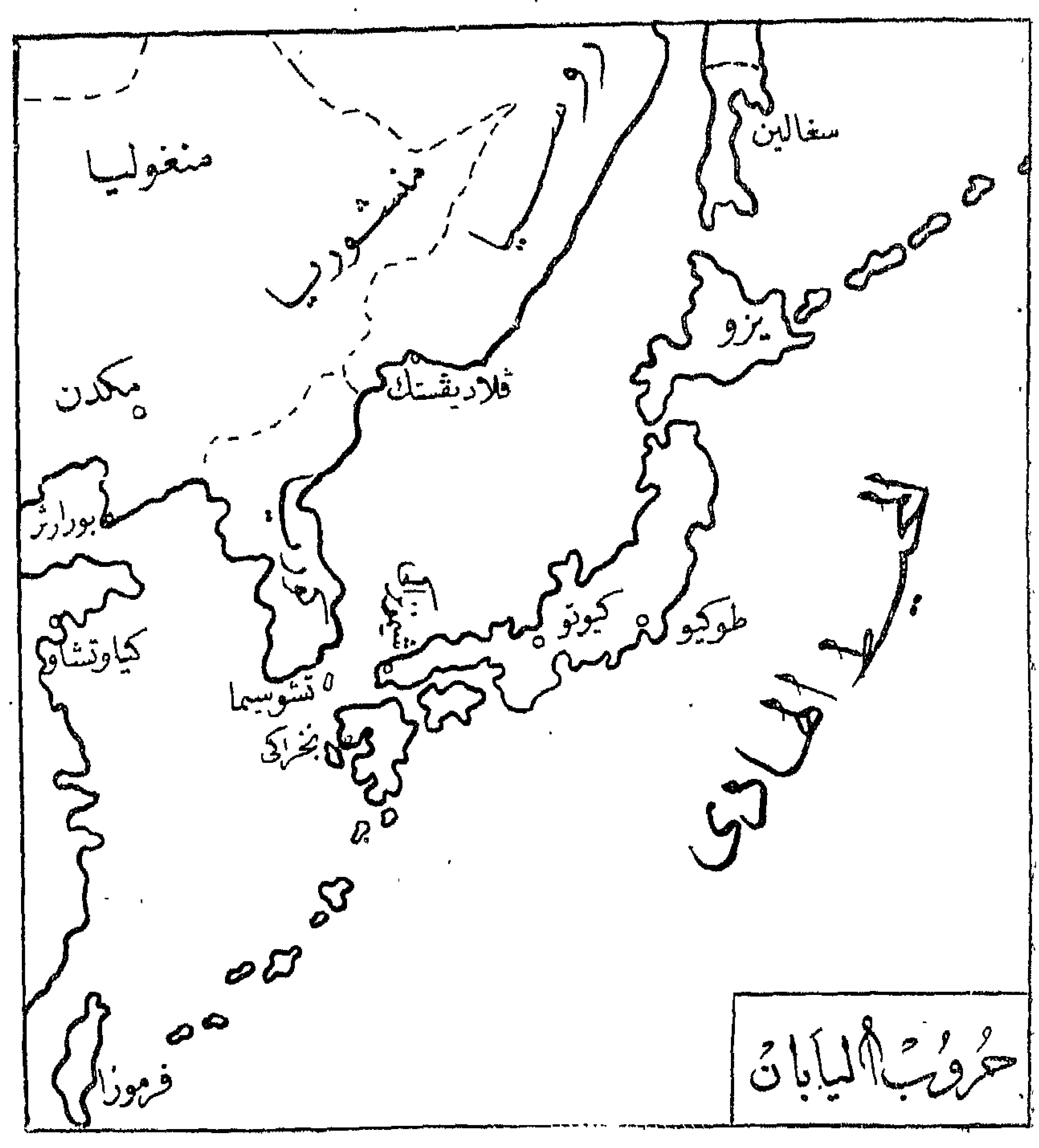
اتساع رقعة الولايات المتحدة وازدياد نفوذها

كان علم الولايات المتحدة على أثر استقلالها (۱۷۸۳) مزينا بثلاثة عشر خطا : أبيض فأحمر وهكذا ، وهذه الخطوط رمز للولايات الثلاث عشرة الأصلية ، وفى ركن من أركان العلم ثلاث عشرة نجمة بعدد الولايات أيضا ، أما اليوم فنرى النجوم قد بلغت ٤٨ أى صارت الولايات ٤٨ ، وصارت تمتد من المحيط الاطلنطى إلى المحيط الهادى ، وكان سكانها وقت استقلالها لا يزيدون على ٤ ملايين ، أما اليوم فصاروا نحو المائة مليون وترجع هـذه الزيادة المدهشة إلى ما نعمت به البلاد من يسر فى ظلال الاستقلال والدستور ، وإلى تهافت الألمان على المهاجرة إليها عقب ثورات ١٨٤٨ فى بلادهم ، وإلى نزوح كثيرين من الإيرلنديين إليها على أثر نقص محصول البطاطس فى إيرلنده عامى ١٨٤٧ و ١٨٤٨

وكان فرديننـد دلسبس قد أنشأ شركة لفتح قناة فى برزخ بنما ، ولكن

الشركة لم تفلح، واشترت الولايات المتحدة امتياز فتحها، وفتحتها عام ١٩١٤ ، وهذه القناة جليلة الأثر لأنها تقصر المسافة بين الشرق البعيد وشرقى أمريكا ، وقيمتها للولايات المتحدة تماثل قيمة قناة السويس لانجلترا

والولايات المتحدة اليوم من أعظم دول الأرض جيشا وأسطولا وثروة وتأثيرا فى مجرى سياسة العالم



نهضة اليابان

انتقلت اليابان من التأخر والجمود إلى التقدم والنهوض فى مدى عشرين عاما (١٨٧٠ — ١٨٩٠) ولم يمض عشرون عاما أخرى حتى صارت إحدى دول العالم العظمى التى تتحكم فى مصير أمم الأرض ، وإن نهوضها بهذه السرعة الخلابة من أعجب ما دون التاريخ وما وعى ، كما أن تقدمها هذا ليثبت للغربيين أن الشرق ليس أخا جمود كما كانوا قديما يزعمون

أثر جغرافية اليابان فى أخلاق أهلها : بلاد اليابان أرخبيل مؤلف من أربع جزائر كبرى ونحو أربعة آلاف جزيرة صغيرة ، ويسميها أهلها « أرض الشمس المشرقة » ولما كانت بلادهم تهددها الزلازل والبراكين أبدا ، ألِفَ أهلها احتمال المكاره والشدائد حتى أصبحوا فى الحروب كماة باسلين ، يزينهم الصبر والتضحية بالنفس في سبيل وطنهم المقدس

أصل اليابانيين ومدنيتهم الأولى : اليابانيون من أصل مغولى نقلوا أصول مدنيتهم الأولى عن الصين

نظامهم فى الحكم قبل التطور الحديث : كان اليابانيون فى عصورهم الأولى يحكمهم أباطرة سلطانهم مطلق وينزلهم شعبهم منزلة الآلهة ، ثم أخذ سلطان هؤلاء الأباطرة يتضاءل منذ القرن الثانى عشر لاطراد نمو نفوذ الأشراف ، حتى إذا ما طلع القرن السابع عشر كان الأمر قد صار للأشراف (الدايميوش[١]) وزعيمهم الشوجن (القائد العام) ، وصار منصب الشوجن وراثيا فى أسرته ، واتخذ مقره فى ييدو

---

(١) كانت تتبع هذه الطبقة طبقة أخرى من الاشراف تزاول الجنديه وتعرف بالساموراى

أما الميكادو (أى الامبراطور) فقد بات فى مقره كيوتو وليس له من الأمر إلا سلطان إسمى

اليابان والأجانب : كانت اليابان كالصين تكره الأجانب ولا تتعامل معهم ، حتى دخلها بعض البرتغاليين حوالى منتصف القرن السادس عشر ، ثم دخلها بعض المبشرين الكاثوليك فتنصر على يدهم نحو خمسين ألفا ، ثم شعر اليابانيون بتدخل هؤلاء المبشرين فى شئون بلادهم فسخطوا عليهم وعلى من تنصّر ، وقاموا يضطهدونهم ويقتلون منهم ، وتدرج الأمر حتى حرّمت الحكومة — حول منتصف القرن السابع عشر — دخول الأجانب بلادها ، كما حرمت على اليابانيين الخروج منها ومعاملة الأجانب ما عدا الهولنديين الذين خُصصت لهم تجاه بخزاكى جزيرة منفصلة ينزلون فيها للاتجار ، وظلت اليابان على تلك الحال حتى عظم شأن الولايات المتحدة ، وصار فى مقدورها الدفاع عن صوالح رعاياها فى الممالك المختلفة ، وكانت سفن رعاياها — لا سيما الصائدون منهم — كثيرا ما يصيبها العطب على مقربة من شواطىء اليابان فيستأذنونها فى الالتجاء إلى بعض ثغورها ليصلحوا من شأن سفنهم فلا تأذن لهم ، وخاطبت حكومتهم حكومة اليابان فى ذلك الأمر فلم تظفر منها بجواب ، لذلك أرسلت حكومة الولايات المتحدة بعض أسطولها عام ١٨٥٣ بقيادة پرى أمير البحر ، فأشرف على ييدو ، وظن أن الشوجن هو الميكادو ، وقدم إليه رسالة من رئيس الجمهورية إلى الامبراطور « صديقه الطيب العظيم » ويطلب اليه فيها فتح ميناءين ، وأنذره بالقتال ، فاستمهل الشوجن پرى حتى يستشير فأمهله عاما ، واستشار الشوجن الأشراف فأشاروا عليه بالاذعان ما داموا لا يملكون وسائل الدفاع من مدافع وأساطيل ، فلما انقضى العام وعاد پرى (١٨٥٤) عاهده الشوجن على فتح ميناءين للأجانب ؛ وهكذا كانت الولايات

المتحدة هي التي دفعت اليابان الدفعة الأولى نحو المدنية والعظمة .

وقامت الدول الأوربية (١٨٥٥ — ١٨٥٦) واستخلصت لنفسها امتيازات كالولايات المتحدة ، ولم يقف الأمر عند حد فتح الموانى ، بل صار للدول حق تعيين وزراء مفوضين لدى الشوجن ولم يكن ذلك لهم من قبل . وغضب الميكادو على الشوجن لأن هذا منح الأجانب الامتيازات بغير أن يعنى بعرض الأمر عليه ، وانقسمت البلاد حزبين :

(١) حزب مع الميكادو وينقم من الشوجن عقد معاهدات مع الاجانب والسماح لهم بأن تطأ أقدامهم أرض بلادهم المقدسة ، ويعد عمله خيانة عظمى وينادى بتجريده من سلطته وتوطيد سلطة الميكادو

(٢) وحزب مع الشوجن ويرى أن الشوجن لم يكن يستطيع أن يأبى على الأجانب ما أرادوا

ومضت نحو عشرة أعوام والبلاد يمزقها الانقسام وتنتابها الفتن حتى مات الشوجن (١٨٦٦) ولحق به الميكادو فى العام التالى وكان متسو هيتو الميكادو الجديد غلاما قد شارف الخامسة عشرة ، ومع ذلك فقد وفق بأنصاره أن يظفر بالشوجن الجديد فى حرب ، ونقل مقره إلى ييدو (يونية ١٨٦٨) وأطلق عليها اسم طوكيو (ومعناه العاصمة)

نهضة اليابان : لما أن قبضت الحكومة الجديدة (أى حكومة الميكادو) على أزمة الأمور أدركت أن خير سياسة تنتهجها هي الاختلاط بالغربيين والأخذ عنهم فى العلوم والفنون والصناعة وقوات الحرب حتى تستطيع أن تجاريهم فى مضمار الحياة والقوة ، وأقسم الميكادو العظيم أن ينفذ السياسة الجديدة بعزم لا يهن ولا يلين ، وبر بقسمه

وظهرت وطنية اليابان القديمة جلية واضحة ، إذ قام الأشراف ونزلوا عن امتيازاتهم الاقطاعية (١٨٧١) فحلت محلها المساواة أمام القانون ، ولما

انتصرت ألمانيا على فرنسا فى حرب السبعين إنصرف اليابانيون عن محاكاة الأنظمة الحربية الفرنسية ، وجعلوا الخدمة العسكرية إجبارية (١٨٧٢) على نحو ما يفعل الألمان ، وشرعوا فى إنشاء أسطول حربى وآخر تجارى ، ومدوا السكك الحديدية والأسلاك البرقية (الخ) ، وجعلوا التعليم إجباريا وعلى الطرق الحديثة ، وأنشأوا جامعتين فى طوكيو وكيوتو ، واستقدموا لها كبار الأساتذة من البلاد الغربية ، ورحل عدد كبير من طلاب العلم لبلاد الغرب ، وطلعت على الناس ألوف الكتب المصنفة أو المترجمة والصحف (ظهرت أول صحيفة عام ١٨٦٩ ولم يحل عام ١٨٨٢ حتى أربى عدد الصحف على المائة) ، وصمم الميكادو فى النزول عن سلطته المطلقة وإشراك شعبه معه فى الحكم فاختار لجنة برآسة الأمير إيتو (١٨٨١) سافرت إلى أوربة لدرس النظم الدستورية فلما رجعت وُضع مشروع دستور وأُصدر فى شكله النهائى (١٨٨٩) ، وينص هذا الدستور على أن السلطة التنفيذية فى يد الميكادو يعاونه وزراؤه ، والسلطة التشريعية فى يد مجلس للشيوخ ومجلس للنواب .

وهكذا قد حصل اليابانيون فى نحو عشرين عاما ما حصلته أوربة من قبلهم فى قرون .

بعض مميزات نهضة اليابان : (١) لم يحاول اليابانيون أن يقضوا على مدنيتهم الأولى ويحلوا الغربية مكانها ، بل كل ما فعلوه أن أضافوا إلى مدنيتهم بعض عناصر المدنية الغربية ، فلا يزالون حتى اليوم يحافظون على أنظمتهم الاجتماعية وأزيائهم ومعابدهم وألعابهم . فكأننا بهم قد طعّموا مدنيتهم كما يطعم البستانى نوعا من الفاكهة بنوع آخر .

(٢) لم يأخذ اليابانيون جميع عناصر تقدمهم عن دولة غربية واحدة بل أخذوا عن كل دولة خير ما عرفت به : مثال ذلك انهم نقلوا تنظيم الجيوش

وتعبئتها عن الألمان بعد أن ظهر تفوقهم على الفرنسيين في حرب السبعين، وانهم بنوا أسطولهم على مثال أسطول بريطانيا ، وانهم أخذوا فنونهم عن فرنسا .

(٣) إن النهضة الصناعية قد قامت على عاتق الحكومة ، لا على عواتق الأفراد أو الشركات كما هو الشأن فى أوربة ، فالحكومة لم تقف مكتوفة اليدين حتى تنضج مدارك الأفراد ويغامروا فى مضمار الصناعة الكبرى، بل قامت تنشىء مصانع الانتاج ثم تسلمها إلى الشركات وتشرف عليها وتمدها بالمال إن انتابها الخسر .

السياسة الخارجية

إلغاء الامتيازات : للدول امتيازات فى اليابان ،(ومن بين هذه الامتيازات ألا تفرض اليابان ضريبة جمركية أكثر من ٥ ٪ من ثمن السلع التى ترد عليها ، ومن بينها كذلك أن يختصم الأجانب أمام محاكم سفرائهم لا أمام محاكم اليابان) ، فقامت اليابان تسأل الدول النزول عن هذه الامتيازات فأبت الدول عليها ماسألت ، غير أنها عادت فأذعنت الواحدة منهن بعد الأخرى بعد أن رأت وأكبرت نهضة اليابان وحسبت لها حسابا ، وما انقضى القرن التاسع عشر إلا وأصبح الميكادو ملكا حقيقيا يخضع له ولمحاكمه كل من ينزل بلاده .

إنشاء امبراطورية شرقية : بعد أن تخلص اليابانيون من الامتيازات ، اعتزموا إنشاء امبراطورية شرقية تتناسب وما تجمّع لهم من قوة ، وتكون مجالا يفد عليه سكانها الذين يتكاثرون تكاثرا مطردا سريعا ، وتكون سوقا لتصريف منتجات مصانعهم ــ تلك المنتجات التى ظلت فى اطراد حتى غمرت أسواق العالم اليوم . وكما أن فرنسا قد اجتذب أنظارها ومشاعرها استعمار

شمالى أفريقية لقربه منها ومواجهته لها، كذلك اجتذبت أنظارَ اليابان واطماعها كوريا والصين لقربهما منها ومواجهتهما لها .

الحرب مع الصين (١٨٩٤ — ١٨٩٥) : كانت الصين تعد كوريا جزءا من أملاكها ، وكان الحكم فى كوريا فاسدا والنظام مضطربا ، وكانت روسيا تحاول مد حدودها جنوبا نحو كوريا ، فخشيت اليابان أن تتخذ روسيا من الاضطرابات القائمة فى كوريا سببا للاستيلاء عليها ، فى حين أن كوريا ذات مكانة خاصة لليابان من وجهين (أولهما) أنه إذا استولت روسيا على كوريا هددت استقلال اليابان أو على الأقل هددت تجارتها ، وقد قال بعض الكتاب عن كوريا واليابان « إذا احتلت دولة معادية لليابان كوريا استطاعت أن تقذف منها على اليابان جيشا ، إذ كوريا كالخنجر المصوب أبدا إلى صدر اليابان » (وثانيهما) ان كوريا فى نظر اليابانيين جزء هام من الامبراطورية التى يعتزمون إنشاءها .

لهذا قامت اليابان تفاوض الصين فى الاشتراك معا فى إصلاح كوريا ، فأبت الصين عليها التدخل فى أمر هو من اختصاصها وحقها وحدها ، فلجأت اليابان فى يوليه ١٨٩٤ إلى السيف ، فكان ذلك حربا بين القديم والحديث أو بين التطور والجمود ، لهذا طرد الحديثون المتأخرين من كوريا ، واستولوا على بور أرثر وهددوا بكين ذاتها ، فطلبت الصين الصلح ، فعقد فى ١٧ إبريل ١٧٩٥ فى شيمونزاكى وأهم شروطه : (١) أن تنزل الصين لليابان عن بور أرثر وشبه جزيرة لياوتنج وجزيرة فرموزا (٢) وأن تدفع غرامة حربية قدرها ٢٥ مليونا من الجنيهات (٣) وأن تعترف باستقلال كوريا التام .

ولكن هذه المعاهدة لم ترق روسيا طبعا ، وتظاهرت بالعطف على الصين ، وانبرت للدفاع عنها ، وأثرت فى فرنسا وألمانيا حتى وقفا إلى جانبها

فى الدفاع عن الصين باسم الأنسانية والعدالة ، (والحقيقة أن هذه الدول الأوربية ساءها أن تنزل ميدانَ الاستعمار معهم أمةٌ من أمم الشرق ، فتواصوا على مناوأتها .) وطالبت الدول الثلاث اليابان بالجلاء عن بور أرثر وشبه جزيرة لياوتنج ، لأن بقاءها هناك « يجعل حاضرة الصين فى خطر دائم ويجعل استقلال كوريا أمرا صوريا فقط ويهدد سلام الشرق الأقصى بأجمعه » فلم تجد اليابان بدا من الاذعان لثلاث دول حربية قوية ، ونزلت عن بور أرثر وشبه جزيرة لياوتنج فى نظير غرامة جديدة قدرها ۱٫۲۰۰٫۰۰۰ جنيه وبعد أن تعهدت الصين ألاّ تنزل عن بور أرثر لدولة من الدول

الحرب بين اليابان والروسيا : (فبراير ١٩٠٤ – سبتمبر ١٩٠٥)

كره اليابانيون روسيا لأنها أفقدتهم بور أرثر ، وزادوا لها كرها لما رأوها تتوغل فى منشوريا وتحصل فيها على امتيازات (١٨٩٦) وتمد إليها فرعا من سكة حديد سيبريا ، وتبعث اليها بفصائل من جندها لحراسة ذلك الفرع ، وكاد يقتلهم الغيظ لما ان استأجرت ميناء بور ارثر من الصين ومدت إليها فرعا من تلك السكة الحديدية ، واتخذت هذه الميناء قاعدة حربية كبرى ، وقامت تبسط نفوذها على كوريا ، فأخذ اليابانيون يستعدون للقتال حتى يردوا الروسيين عن منطقة يعدونها منطقة نفوذهم الطبيعية ، فكأننا بهم يعتنقون مبدأ شبيها بمبدأ منرو ويتمسكون بأن تكون « آسيا للآسيويين »

وسعت اليابان حتى أفلحت فى عقد محالفة دفاعية مع انجلترا (١٩٠٢) وفحواها أن تحافظ الدولتان على الصين وكوريا لتكونا سوقا تجاريا للدول كافة ، واذا أدت هذه المحافظة الى حرب تخوضها إحدى الحليفتين بقيت الحليفة الأخرى محايدة مادامت الحليفة لا تحارب إلا عدوًّا واحدا ، أما اذا زاد الأعداء عن واحد حاربت الحليفتان معا

وبعد ابرام هـذه المحالفة طالبت اليابان روسيا بالجلاء عن منشوريا

وبور ارثر فماطلت ، فحاربتها اليابان بغير اعلان حرب سابق ، ولقد وقف العالم مشدُوها لا يكاد يصدق ان القزم اليابانى قد أقدم على قتال الجبار الروسى الذى يضع قدما في الغرب وأخرى فى الشرق ، غير ان القزم ظفر بالجبار لعوامل أهمها :

(١) بُعد الروسيا عن ميدان القتال ولا يربط روسيا بالميدان الا سكة حديد سيبريا ذات الخط الفردى والتى تعترضها بحيرة بيكال (وذَرعها ١٠٠ ميل تقريبا) وذلك يؤخر الامدادات بعكس اليابان القريبة من الميدان

(٢) كره شعب روسيا لحكومته المستبدة فلم يكن بينهما تعاون قوى على عكس اليابان ، ومن أمثلة التعاون بل التضحية فى اليابان ان امرأة فقدت فى الحرب زوجها وأولادها فبكت فسئلت فقالت « أبكى إذ لم يبق لى بعدُ ولد أبعث به الى الميدان »

(٣) أهل اليابان عودتهم كوارث الزلازل احتمال الخطوب فكانوا فى الحرب أبطالا مردة

الحرب : لم يمض على قيام الحرب ثلاثة أيام حتى أغرق اليابانيون ٤ سفن روسية فى بور أرثر وحبسوا الباقى فى الميناء وحوصرت الميناء ، وهُزم اسطول ڤلادڤستك (فى مايو) فصار اليابانيون سادة البحر فسهل عليهم مون جيوشهم ، وطردت جيوشهم البريةُ الروس من كوريا ، وسلمت بور ارثر (أول يناير سنة ١٩٠٥) ثم هُزم الروس فى وقعة مكدن الدموية (مارس ١٩٠٥) التى خسر الفريقان فيها ١٢٠٫٠٠٠ وأُسر من الروس ٤٠٫٠٠٠ ، ثم أرسلت روسيا أسطول البحر البلطى عن طريق رأس الصالح فدمره أمير البحر طُوجو (Togo) فى بضع ساعات عند تشوسيما (٢٧ مايو ١٩٠٥) ، فطلبت روسيا الصلح على يد روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، فعقد فى بورتشموت فى الولايات المتحدة فى ٥ سبتمبر ١٩٠٥ وأهم شروطه : —

(١) تجلو روسيا عن منشوريا وأن تعترف بحماية اليابان على كوريا وتنزل عن بورأرثر لليابان

(٢) تنزل روسيا عن نصف جزيرة سغالين الجنوبي لليابان

وهكذا وقفت اليابان وقفة منرو وحافظت على كيان الصين، وصارت اليابان من الدول العظمى ولم ينقض عام ١٩١٠ حتى أدمجت اليابانُ كوريا فى مُلكها .

المنافسة بين اليابان والولايات المتحدة : استراحت اليابان من منافسة روسيا لها فى الشرق الأقصى ، ولكن الولايات المتحدة التى احتلت جزائر الفلبين قامت تنافسها فيه وتنازعها السيادة على المحيط الهادى وتطالب ببقاء الصين[١] مستقلة حتى تبقى سوقا لتجارتها .

تحالف اليابان وانجلترا : وضحت لانجلترا قوة اليابان ، فعقدت معها عام ١٩٠٥ محالفة دفاعية هجومية تتعهد اليابان فيها بالاشتراك معها فى الدفاع عن الهند ، وتقتسم الحليفتان السيادة فى بحار آسيا ، فيكون لانجلترا السيادة على المحيط الهندى وتنفرد اليابان بالسيادة على المحيط الهادى ، وقد جُدد هذا التحالف عام ١٩١١ ، ودخلت اليابان الحرب العظمى فى جانب انجلترا والحلفاء واستولت على كياوتشاو من المانيا

اطراد تقدم اليابان : ولا تزال اليابان تتقدم تقدما مطرداً عجيبا، وارتقت صناعاتها ورخص ثمنها حتى زاحمت السلع الأوربية مزاحمة مدهشة ، وصارت بأسطولها الحربى وأسطولها التجارى فى مقدمة دول البحار ، واستحقت لقب « انجلترا الشرق »

---

(١) اليابان تحارب الصين اليوم من أجل منشوريا فى الصين رغم أن ذلك يضايق الولايات المتحدة وبعض الدول الأخرى .

إيران

يغلب على إيران اسم فارس ، وقد أطلقه عليها كتاب الافرنج ، لأن فارس أو فرس اسم مقاطعة من مقاطعاتها ، أما العرب فأسموها العجم

الأسرة القاجارية : تتابع على حكم إيران أسرات عدة (لا يتسع المجال لذكر تاريخها) وفى عام ١٧٨٨ انتزعت الأسرة القاجارية العرش من آخر ملك من ملوك الأسرة الزندية (نسبة إلى مؤسسها كريم خان زند) وكانت قبيلة قاجار تقطن بشمالي إيران من أمد بعيد .

التنافس الانجليزى الروسى فى أفغانستان : بينما كان الانجليز يتوغلون فى آسيا من الجنوب (من الهند) ، كان الروس يتوغلون فيها من الشمال (من القوقاز) ، حتى صار لهم نفوذ كبير فى إيران (١٨٢٨) ولم يبق أمامهم الأبسط نفوذهم على أفغانستان أيضا حتى يصبح طريق الهند مفتوحا أمامهم

وفى عام ١٨٣٧ قام الايرانيون بإيعاز من الروس يحاصرون مدينة هرات فى أفغانستان، ولو سقطت فى يدهم لأصبحت كإيران خاضعة لنفوذ الروس، وذلك خطر يهدد الانجليز فى الهند ، لذلك كان ضباط المحاصِرين من الروس وضباط المحاصَرين من الانجليز ، وبعد عشرة شهور رُفع الحصار عن المدينة، واعتزم لورد أكلند حاكم الهند أن يعزل دُسْت محمد أمير الأفغان وصديق روسيا حتى يطمئن على الهند ، فأرسل جيشا ينفذ به ما اعتزم ، واستولى الجيش على كابل وفر دست محمد ونصب الانجليز مكانه الأمير شجاعا رغم أنف الأفغانيين (١٨٣٩) وبقى جيش الانجليز إلى جانب شجاع يحميه ، ولم يصبر الأفغانيون على هذا الضيم وهم أباة شم الأنوف يحرصون على استقلالهم، فثاروا فى وجه الجيش وكان خمسة عشر ألفا ، وطاردوه ولحقوا به فى ممر خيبر واعملوا القتل فيه حتى لم ينج منه إلا رجل قد أسعده الجد فتخلف

عن بقية الجيش إعياء ونصبا (١٨٤٢) وأعيد دست محمد إلى العرش .

وفي عام ١٨٠٠[1] أرسلت حكومة الهند جيشا غزا الافغان وولى عليها الأمير عبد الرحمن وعقد الانجليز معه محالفة فحواها : ان الانجليز يمدونه بمبلغ سنوي وذخائر وأسلحة ويدفعون عنه كل غارة خارجية، وفي نظير ذلك يتبع نصائح انجلترا في الشئون الخارجية ويقطع علاقاته الخارجية مع الدول جميعا ماعدا الهند . وهكذا أصبحت أفغانستان واقعة في نفوذ الانجليز

التنافس الانجليزي الروسي في إيران : قلنا إن الروس أصبح لهم نفوذ كبير في إيران منذ عام ١٨٢٨ ، وذلك أزعج الانجليز ، ولم يسكن روعهم حتى عقدوا مع الروس اتفاقا عام ١٨٣٩ يقضي بالمحافظة على استقلال إيران ، ورغم هذا الاتفاق نجد كلا من روسيا وانجلترا تسعى في كسب امتيازات اقتصادية في إيران تمهد لها سبيل التدخل في شئون الحكومة الايرانية

وقد ساعد الدولتين على التغلغل في ايران ومواردها وشئونها خرقُ شاهاتها ، وعدم وجود مجلس نيابي يرعى صالح البلاد

الشاه ناصر الدين (١٨٤٨ — ١٩٨١) : كان الشاه الذي يجلس على عرش إيران يستبد بأمرها ، ولم يكن من غضاضة في هذا الاستبداد مادام الحكم رشيداً عادلا

ولكن لما استوى ناصر الدين (رابع الاسرة القاجارية) على العرش انصرف الى الملاذ وجمع المال والجواهر ، فمن ذلك انه أمر بأن يبنى له قبو تحت قصره واكتنز فيه حليا وجواهر تُقوَّم بعشرين مليونا من الجنيهات ونقودا ذهبية قدرها ستون مليونا من الجنيهات ، وكان كلما أعوز حكومته المال اقترضه من المصارف الاوربية في نظير منحه الاوربيين بعض الامتيازات ، وقد وصف صحفي إيراني بلاده عام ١٨٩٠ بقوله : « إن شئون الحكومة كلها

---

(١) اقتصرنا على ذكراهم حروب قامت بين الانجليز والأفغان

بيد قوم جهلاء لئام النزعة ، وحقوق الأمة فيها تباع تودداً لساسة الدول الأجنبية ، ومراتب الحكومة ومناصبها ألعوبة فى يد أصحاب الأغراض السافلة ، وجيشنا ضحكة العالم، ومدائننا كلها بؤر وقاذورات، والطرقات عندنا أقبح من مسارب الحيوان .»

واغتنم الانجليز والروس فرصة ذلك الخلل وهذه الفوضى وقاموا يحصلون على امتيازات . فمن ذلك أن البارون روتر استخلص من حكومة الشاه امتياز السكك الحديدية والبرق ومرافق أخرى ، ثم أنشأ فى ١٨٨٩ البنك الامبراطورى ، وصار من حق هذا البنك إصدار الاوراق المالية ، وفى ١٨٩٠ منح الشاه شركة انجليزية حق احتكار تجارة (التنباك) نظير قدر معين من الارباح ، وحملت الروح القومية علماء ايران على الافتاء بتحريم التنباك ، فأضرب الاهالى عن تدخينه ، ففقد الامتياز قيمته فالغاه الشاه (١٨٩٢) بعد أن دفع للشركة تعويضا قدره خمسمائة الف جنيه

وحصل الروسيون كذلك على بعض الحقوق : منها حق الجنود الروسية فى حماية التجارة على الطريق بين طهران وبحر قزوين

وكان السيد جمال الدين الافغانى (١٨٣٨ — ١٨٩٧) معاصرا لناصر الدين ، ورأى كيف صار الحكم الاستبدادى شرا على إيران بل على أمم الشرق جميعا ، فقام يحارب هذا النوع من الحكم ويدعو الامم الاسلامية إلى إنشاء حكومات دستورية وتوثيق الروابط بين بعضها وبعض

وكان لتعاليم السيد جمال الدين أثر كبير فى مصر وتركيا وفى إيران وغيرها، فالحركة القومية التى أفقدت الانجليز مزايا احتكار التنباك فى إيران هى غرس يديه الكريمتين، والحركة القومية التى سنراها تعصف بالحكم الاستبدادى فى إيران هى كذلك أثر من آثاره الخالدة

وفى عام ١٨٩٦ قتل ناصر الدين ايرانى لحقته مظلمة من الحكومة .

وفى العام التالى توفى فى الآستانة بطل الاسلام السيد جمال الدين

مظفر الدين ١٨٩٦ — ١٩٠٧ : كان طيب القلب يمقت القسوة وسفك الدماء ويصبو إلى إرضاء شعبه ، غير أنه كان من ناحية أخرى خائر العزم تنقصه القدرة — لا الرغبة — على الاصلاح ، وكانت لا تفرغ له إلى المال حاجة ، وفطن الروسيون إلى حاجته هذه فأنشئوا « بنك التسليف » (١٨٩٩) وأقرض هذا البنك الشاه مالا كثيرا مشترطا عليه أن يدفع ما للبنك الأمبراطورى (الانجليزى) من ديون ، ثم غير بنك التسليف اسمه وصار يعرف « ببنك الرهونات » ووضع يده ضمانة لدينه على إيرادات الجمارك والأقاليم الشمالية ، وانتُدب بلجيكيون لادارة الجمارك ولاصلاح المالية عامة .

ولم يقتصر الروس على تدخلهم فى شئون ايران المالية ، بل أصبح على جيش إيران وشرطتها قائدٌ ومعلمون حربيون روسيون : لكل أولئك كان الروس أصحاب النفوذ الأول لدى الشاه فى أوائل القرن العشرين

وقد سخط الايرانيون على الشاه لكثرة ما اقترض ، ولكثرة ما منح الروسيين من امتيازات

ولقد ألقى الانجليز على نيران هذا السخط حطبا حسدا للروسيين على نفوذهم ، واجتمع فى دار السفارة الانجليزية نحو ١٢٫٠٠٠ من أهل إيران وسألوا الشاه وهم في معقلهم هذا أن يمنح البلاد مجلسا نيابيا ينهض البلاد من كبوتها ، فأجاب سؤلهم بعد تردد ، وافتتح المجلس النيابى فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٠٦ . وقرر هذا المجلس وضع دستور ، وتحريم الاقتراض من روسيا وانجلترا ، وتحديد نفقات (البلاط) ، وإنشاء مصرف وطنى ، وتعديل الضرائب ، والتخلص من الموظفين الاجانب

وتم الدستور ووقعه مظفر الدين فى ٣٠ ديسمبر ١٩٠٦ ومات بعد خمسة أيام

محمد على ميرزا ١٩٠٧ — ١٩٠٩ : تولى بعد مظفر الدين وأقسم أمام المجلس على المصحف الشريف أن يحافظ على الدستور ، غير أنه لم يكن فى قسمه مخلصا ، إذ كان يبيِّت للمجلس الشر ، واشتدت نقمته على هذا المجلس عندما أنشأ مجالس المديريات وأصلح نظام الضرائب وشرع فى معالجة شئون اصلاحية أخرى

وحرض السلطان عبدالحميد الرجعى الشاه على القضاء على المجلس، كذلك حرضته روسيا التى باتت قلقة على نفوذها من ذلك المجلس ، وأمدت الشاه بالمال سرا ، وباع هو جواهره وجواهر زوجه ، وحمله لؤم طبعه على استئجار جنود روسية من القوزاق ليقضى بهم يوما على حريات شعبه

وفى هذه الاثناء كانت فرنسا التى عقدت الاتفاق الوُدى مع انجلترا عام ١٩٠٤ تحاول أن تصلح ما بين صديقتيها روسيا وانجلترا (المتنافستين فى الشرق) ليتكون من الثلاثة كتلة تستطيع أن تقف فى وجه ألمانيا ، ووفقت فرنسا فى سعيها وعقدت انجلترا وروسيا اتفاقاعاما (أغسطس ١٩٠٧) وأهم نصوصه : —

(١) تقسم فارس الى منطقتى نفوذ : منطقة روسية فى الشمال وقيمتها تنحصر فى وجود أقاليم غنية ، ومنطقة انجليزية فى الجنوب ، وقيمتها تنحصر فى توافر البترول بأرضها ووجود ميناء بندر عباس التى تشرف على الخليج الفارسى ، وجُعل بين المنطقتين منطقة حياد لكل من الدولتين الحق فى الحصول على امتيازات فيها

(٢) تعهدت انجلترا ألاّ تغير الحالة السياسية القائمة بأفغانستان (أى أنها لا تحاول ضمها أو الدخول فى شئونها الداخلية)، وتعترف روسيا بأن أفغانستان خارجة عن منطقة نفوذها

الثورة الايرانية : ألقى الشاه القبض على « ناصر الملك » وكان متخرجا

فى اكسفورد ، ورئيس وزراء سابق ، وأحد أنصار الدستور ، وقذف به فى السجن وسلكه فى الاغلال ، فهاج هائج القوم ، ولكن السفير الانجليزى توسط بين الشاه وشعبه حتى أطلق ناصر الملك (ديسمبر ١٩٠٧) ، وفى ٣ يونيه ١٩٠٨ غادر الشاه عاصمته طهران الى باغى شاه (أى حديقة الشاه وهي ضاحية من ضواحى طهران) محتجا بأنه لايستطيع الاقامة فى طهران والحزب الوطنى (أى أنصار الدستور) يأتمرون على دمه، ثم أمَّر على جنوده القوزاق ضابطا روسيا يسمى ليا كوف ، وساقهم على طهران فاقتحموها وخربوا دار مجلس النواب وقتلوا كثيراً من أعضائه ، ونصَّب الشاه ليا كوف حا كما عسكريا على طهران وأعاد الحكم الاستبدادى البغيض .

وفى يوليه ١٩٠٨ قام الأتراك بثورتهم واسقطوا عبد الحميد سلطانهم الرجعى العتيد ، وبلغ نبأ الثورة الايرانيين فهاجهم النبأ واستنفرهم ، فثاروا ، وما وافى شهر مارس ١٩٠٩ حتى شملت الثورة أنحاء كثيرة فى ايران ، وكان أظهر هذه الانحاء تبريز ، فخاف الانجليز والروس على مركزهما الجديد أن تقضى عليه الثورة فنصحتا للشاه أن يعيد الحكم النيابى حتى تخمد الثورة ، غير أن الثوار لم تطمئن نفوسهم لتوسط الدولتين الطامعتين فى بلادهم ، وأمعنوا فى ثورتهم وأرسلوا على طهران جنودا دخلتها فى جوف الليل (١٦ يوليه ١٩٠٩) بغير أن تحس جنود الشاه بمقدمهم ، ولما أصبحوا عسكروا فى مكان دار المجلس ، فاحتمى الشاه بالسفارة الروسية ، وفى المساء أعلن زعماء الثائرين عزل الشاه رسميا ، واختاروا ابنه « احمد مرزا » خلفا له ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، وقام بالوصاية عليه « أسد الملك » رأس قبيلة قاجار ، وأعيد الحكم الدستورى ،

إزالة نفوذ الروسيا وانجلترا : — طفقت الدولتان تعملان على تثبيت نفوذهما فى منطقتيهما حتى نشبت الحرب العظمى عام ١٩١٤ ، وحدث إبَّانها الانقلاب

البولشفى المعروف فى روسيا ١٩١٧ وتخلت روسيا على أثره عن سياستها القديمة القائمة على الاستعمار ومد الفتوح ونزلت عن اتفاق ١٩٠٧ فأصبح بذلك ملغى ، أما انجلترا فأرادت أن تعوض هذا الاتفاق فقامت تفاوض ايران حتى عقدت معها اتفاقا (أغسطس ١٩١٩) يتلخص فى أن تقبل ايران (فارس) من انجلترا قرضا وأن تتخذ لها مستشارين من الانجليز ومدربين لجيشها من الانجليز ، ولما عُرض هذا الاتفاق على المجلس النيابى الفارسى رفضه إذ رأى فيه وسيلة لتسيطر الانجليز على بلادهم ، ثم قام هذا المجلس يجد فى الاصلاح ، ويعقد المحالفات مع تركيا وافغانستان وغيرها من الدول التي يحتمل أن تشد أزرها ولا تطمح إلى حكمها

الشاه رضا خان بهلوى : كان جنديا ثم خدمه التوفيق حتى صار وزيرا للحربية والحاكم الحقيقى للبلاد (١٨٢١) ثم رئيسا للوزراء (١٨٢٣) ، ولما كان أحمد ميرزا غافلا عن شئون ملكه لاهمّ له إلا التجوال فى أوربة وانفاق الأموال الطائلة فيها،قام رضا خان وعزله فى خريف ١٩٢٥ بغير أن تراق قطرة من دم ، فانقضى بذلك حكم أسرة قاجار التى اقترن عهدها بالخطوب والأزمات .

واختار مجلس النواب رضا خان شاها ، فقام يجد فى إصلاح بلاده ، ويضرب على أيدى المفسدين ، ويقوى جيشه وينشىء فيه سلاحا للطيران، ويتخذ لحكومته مستشارين من الامريكان ، وقد قال مرة لمراسل إحدى الصحف الأمريكية « على ايران أن تتعلم السير وحدها بغير الأجانب . ولا تنسي أنها ورثت حُنكة عظمى ، لأنها كانت فيما مضى من الزمان تحكم أمبراطورية نائية الأطراف »

النهضة التركية الحديثة

تمهيد (1)

لقد كان الأتراك وقت دخولهم القسطنطينية عام ١٤٥٣ ذوى بأس شديد ، فاكتسحوا البلقان والمجر وهددوا ڤينا ، فظهرت فى عالم السياسة الأوربية المسألة الشرقية (أى السؤال الشرقى The Eastern Question) وهذه المسألة هى : —

من يستطيع أن يدفع عن أوربة خطر الأتراك الأقوياء ؟ فكانت أسرة هابسبرج النمسوية هى التى أجابت عملياً عن هـذا السؤال إذ تصدت للأتراك وردتهم عن بقية أوربة .

ثم دار الفلك دورته وانتاب الأتراك الضعف والوهن (لأسباب أجملناها فى صفحة ٦٧ من هذا الكتاب) وتغير معنى المسالة الشرقية نتيجة لهـذا الضعف فصار : هل يبقى الأتراك فى أوربة أو يطردون منها ؟ وإذا طردوا فكيف توزع أملاكهم ؟ ولاصطدام مطامع الدول فى أملاك بنى عثمان لم يتفقوا على رأى واحد فى حل هذه المسألة وقد فتح بابها عدة مرات : —

أولا — عند ما قامت اليونان فى وجه الأتراك لتستقل (١٨٢١ — ١٨٢٩)

ثانياً — عند ما حاول محمد على الاستقلال بمصر (١٨٣٢ — ١٨٤١)

ثالثاً — عند ما أرادت روسيا افتراس تركيا بحجة حماية الرعايا الأرثوذكس فى الدولة العثمانية ، ووقفت انجلترا وفرنسا إلى جانب تركيا لحمايتها من روسيا فى حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦)

رابعاً — عند ما ثارت الهرسك وشعوب البلقان فى وجه تركيا (١٨٧٥) وحاربتها

---

(١) يراجع هذا التمهيد مفصلا فى منهاج السنة الرابعة

وانضمت إليها روسيا (١٨٧٧ — ١٨٧٨) وانتهى الأمر باستقلال البغدان والأفلاق (رومانيا) والصرب والجبل الأسود، واستقلال بلغاريا استقلالا ذاتياً

خامساً — عند ما قامت دول البلقان الناشئة حديثاً تحارب الأتراك لتنزع من يدهم بعض نواحي البلقان، وتعرف هذه الحرب بالحرب البلقانية الأولى أو الحلف المقدس ١٩١٢ — ١٩١٣

سادساً — عند مادخلت تركيا الحرب العظمى بجانب ألمانيا والنمسا و بلغاريا، وانتصر الانجليز وحلفاؤهم عليها وعلى حليفاتها، وحكموا عليها بالموت السياسي لولا وقفة البطل الكبير الغازي مصطفى كمال باشا (وسنفصل هذا الدور فيما يجيء)

محاولات الاصلاح قبل عهد مصطفى كمال : —

(١) حاول السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) إدخال الأنظمة الاوربية الحديثة، وبدأ بالقضاء على الانكشارية (١٨٢٦) وإعداد جيش على النمط الاوربي شارك في إعداده ڤون مولتيك البروسي، وأراد السلطان كذلك أن يسوى بين جميع الاجناس المسلمين منهم وغير المسلمين، ولكن حال دون نجاحه في الاصلاح جمود شعبه اذ ذاك، ذلك الجمود الذى حدا بهم الى تلقيبه بالكافر، أضف الى ذلك اشتغال السلطان بمحاربة اليونان ومحمد على وغيرهما

(٢) وقام السلطان عبد المجيد يحاول الاصلاح و يعاونه وزيره المشير رشيد باشا وأصدر «الخط الشريف» — أى الفرمان الشريف — (نوفمبر ١٨٣٩) وهو شبه دستور يمنح الحرية لرعايا السلطان جميعاً لافرق بين مسلم وغير مسلم، ولكن لم ينفذ «الخط الشريف» لان روسيا لم تترك للحكومة العثمانية فرصة للاصلاح، إذ قامت تنازعها وتحاربها (حرب القرم ١٨٥٣ — ١٨٥٦)، وقبل أن تنتهى هذه الحرب بمعاهدة باريس (١٨٥٦) استصدرت الدول من السلطان «الخط الهمايونى» وهو لايخرج فى مغزاه عن «الخط الشريف»

(٣) فى خريف ١٨٧٥ شبت ثورة فى الهرسك وانضمت إلى الهرسك الشعوب

البلقانية الأخرى ، وانقلبت الثورة حربا ، وفى أثنائها اعتلى العرش السلطان عبد الحميد الثانى (٣١ أغسطس ١٨٧٦) وهزم الثائرين

غير أن حزب « تركيا الفتاة » بزعامة مدحت باشا أراد إصلاح تركيا حتى يتقى شر دخول الدول فى شئونها ، فانتزع من السلطان دستوراً ينص على ايجاد مجلس للنواب وآخر للشيوخ ووزارة مسئولة (ديسمبر ١٨٧٦)

واجتمع المجلس النيابى فى أول مارس ١٨٧٧ ، غير أنه استسلم لادارة السلطان المستبد لما رأى — أى المجلس — أن السلطان قد نفى الزعيم مدحت ثم قتله ، و بلغ من استسلام المجلس أن أُطلق عليه لقب « ايفت افندم » (أى حاضر افندم كناية عن التسليم بلا معارضة) ، ولما اعلنت روسيا الحرب على تركيا مساعدة لشعوب البلقان الثائرين (١٨٧٧) انتهز السلطان فرصة القلق و انصراف الناس إلى هذه الحرب المزعجة وحل البرلمان وسحب الدستور (١٨٧٨) و بدأ عهده الاستبدادى المرعب ، فزادت البلاد ضعفاً على ضعف

(٤) لم يقنط انصار الدستور والإصلاح فوضعوا فى جنيف أساس جمعية تعرف « بجمعية الاتحاد والترقى » ، و طفق الأحرار ينضمون إليها

و لما بدأت الدول تتدخل فى شئون تركيا (كفرض الرقابة المالية عليها عام ١٨٨١ ، قررت الجمعية اشعال ثورة فقامت الثورة (يوليه ١٩٠٨) فأُسقط فى يد السلطان وأعلن الدستور (٢٤ يوليه ١٩٠٨)

(٥) فى عام ١٩١٤ قامت الحرب العظمى وقرر الاتحاديون (أى حزب الاتحاد والترقى) خوض غمارها فى جانب الألمان وحلفائهم ، ولما انتصرت انجلترا وحلفاؤها فرضت على تركيا شروطا هى فى الواقع حكم عليها بالإعدام السياسى ، غير أن الله قيَّض لها مصطفى كمال فبعثها من الموت ، و يعمل حتى اليوم على انهاضها وانعاشها ، ولنفصل الآن جهود هذا البطل الكبير ،

مصطفى كمال

نشأته : على رضا رجل البانى نزح من جبال البانيا إلى سلانيك ، ووفق إلى وظيفة كاتب جادت عليه برزق يسير لا يسد الحاجة ، فلجأ إلى تجارة متواضعة يزاولها فى أوقات فراغه

وكانت زوجته زبيدة تقية وطنية ذكية الفؤاد يغلب عليها روح التسيطر ، واحتسب الزوجان ولدا ساعة مولده وبقى لهما ولدان هما مصطفى ومقبولة

ولد مصطفى عام ١٨٨٠ ، ومات أبوه وهو صغير ودخل مدرسة حربية فى سلانيك ، وأظهر من المهارة ما جعل أحد أساتذته واسمه مصطفى يعهد اليه بتعليم بعض من هم دونه من التلاميذ وسماه أستاذه مصطفى كمال لتمييزه عن اسمه هو ، ثم أتم مصطفى كمال علومه الحربية فى مناستر ثم في الآستانة ، ثم اشترك فى جمعية سرية تسمى الوطن ، وكانت تحمل على الحكومة المستبدة الخائرة وقبض عليه وسجن ثم عفى عنه « لكفايته » ولأمل الحكومة فى اخلاصه فى المستقبل ، غير أنه لم يتخل عن التآمر ، وفى ١٩٠٦ انضم إلى جمعية الاتحاد والترقى التى أنشئت حديثا والتى كانت تعمل فى الخفاء وتعرّف إلى زعمائها أمثال أنور ونيازى وجمال وطلعت ، غير أنه كان يحتقرهم ويعدهم رجال أقوال لا أفعال ، ولما رفعت الجمعية لواء الثورة عام ١٩٠٨ لم يشترك فيها مصطفى إذ لم يرقه ما اتخذ لها من معدات ، ولكن الثورة نجحت وقبض أنور وطلعت وجمال وغيرهم على مقاليد الحكم وقام مصطفى كمال ينتقد علنا سياستهم لاسيما تدخل الألمان فى شئون تركيا [1]

---

(١) الواقع أن المانيا كانت تتقرب الى تركيا منذ عام ١٨٨٩ حين زار غليوم الثانى السلطان عبد الحميد وصار يعلن انه صديق السلطان والمسلمين .

ولما دخلت تركيا الحرب العظمى فى جانب ألمانيا أكل الغيظ قلبه ، إذ كان يرى من الفطنة أن تلتزم الحيدة حتى ترى أى الفريقين أقرب إلى النصر، ولما أنزل الانجليز جنودهم فى غاليبولى ليتملكوا الدردنيل ثم الآستانة (فبراير ١٩١٥) ابلى مصطفى كمال بلاء حسنا فى قتالهم حتى أكرههم على الجلاء (ديسمبر ١٩١٥) ولقبته الصحف « بمنقذ الدردنيل والعاصمة » ، رغم أن القيادة العليا كانت فى يد ألمانى .

الهدنه بين تركيا والحلفاء ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ دارت الدائرة على ألمانيا وحليفاتها ، وعقدت تركيا مع الحلفاء هدنة فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ ، واجتمع مؤتمر للصلح في فرساى .

مصطفى كمال ينقذ تركيا

مصطفى كمال يهيج الأناضول : — أدرك مصطفى كمال ماينتويه الحلفاء للأتراك ، وكان من حسن طالع تركيا أن السلطان اختاره مفتشا عاما على الجنود المرابطة فى شمالى الأناضول . فبلغ سمسون (على البحر الأسود) فى ١٩ مايو ١٩١٩ ، وشرع يستنفر أهل الأناضول (وهم أتراك صميمون وبعيدون عن تأثير الحلفاء) ويدخل فى روعهم أن الحلفاء لابد عازمون على محق استقلالهم والتحكم فى رقابهم ، وقد أمنت الحوادث على ما قال ، فان اليونان احتلوا أزمير ١٥ مايو ١٩١٩ (أى قبل وصوله سمسون بأربعة أيام) وتسلم الفرنسيون الشام من يد الانجليز (ديسمبر ١٩١٩) . فلا عجب إن التف أهل الأناضول حول مصطفى كمال لكل ذلك .

وكان السلطان وحيد الدين فى ذلك الوقت لا يعنى إلا بعرشه ، وخيل إليه أن خير وسيلة تحفظ هذا العرش عليه هي أرضاء الحلفاء لاسيما الانجليز ، ولما كان استعداد مصطفى كمال للمقاومة يغضب هؤلاء الحلفاء أرسل السلطان إليه يستدعيه إلى الآستانة، فأبى مصطفى كمال وأبرق إليه يدعوه هو ليتولى

بنفسه إنقاذ بلاده ، فأرسل إليه السلطان يعزله من منصبه .

الحالة فى الآستانة : افتتح المجلس النيابى (مجلس المبعوثان) في الآستانة (٢٨ يناير ١٩٢٠) ، وفى ١٦ مارس احتل الحلفاء الآستانة ، وبدأ الانجليز يسيطرون على السلطان وحكومته ، وحدث أن طلب قائد جيش الاحتلال عزل وزير الداخلية ، فعارض المجلس ، فقبض الانجليز على اثنى عشر من زعماء المعارضين ونفوهم إلى مالطة ، وتمكن بعض المعارضين [1] من الفرار إلى الأناضول، وتولى الوزارة الداماد فريد باشا صهر السلطان والمعروف بعدائه للحركة الوطنية فى الأناضول ، وفى ١٠ ابريل حل السلطان مجلس المبعوثان، ثم استصدر من شيخ الاسلام فتوى بعصيان زعماء الحركة الوطنية .

الجمعية الوطنية الكبرى (المجلس الوطنى الكبير) : لم يفت فى عضد مصطفى كمال وصحبه مسلك حكومة الآستانة حيالهم ، فقرروا عمل انتخاب لمجلس يجتمع في أنقرة ، واجتمع المجلس فى أنقرة فى ٢٣ ابريل ١٩٢٠ ، وكان مؤلفا من ٣٥٠ عضواً (منهم ٢٧٠ عضوا منتخبا و٦٨ عضوا من أعضاء مجلس المبعوثان الذين انضموا إلى الحركة ، والاثنى عشر عضواً الذين نفاهم الانجليز إلى مالطة وقد اعتبروا أعضاء فى المجلس) ، وسمى هذا المجلس الجمعية الوطنية الكبرى .

والجمعية الوطنية الكبرى شبيهة بالمؤتمر الأمريكى الذى نظم المقاومة فى وجه انجلترا وأعلن استقلال الولايات المتحدة ، وركزت في الجمعية السلطتان التشريعة والتنفيذية وجعل المجلس غير قابل للحل ، ويتجدد انتخابه كل عامين .

كره الانجليز للحركة الوطنية : يكره الانجليز الحركة الوطنية لسببين

---

(١) من هؤلاء جلال الدين عارف بك رئيس المجلس وبكر سامى بك عضو المجلس ، وخالدة أديب الكاتبة الشهيرة وزوجها عدنان ، وعصمت وفوزى الحربيان

رئيسيين (أولهما) ان هذه الحركة خطر على احتلال الآستانة والبوغازين الذى يريده الانجليز إلى ما شاء الله (وثانيهما) ان الانجليز يخشون أن تحذو شعوب الشرق حذو الأتراك فى رفع نير الغربيين عنهم وأن تتعاون معهم على رفع هذا النير.

وقد حاول الانجليز أن يقضوا على هذه الحركة بجنود السلطان، فلم يلق هؤلاء الجنود نجاحا، بل أن كثيرا منهم انضم إلى «الوطنيين» — أى أنصار مصطفى كمال —، فعمدت انجلترا إلى اليونانيين المحتلين أزمير وأطلقتهم على الوطنيين، فبدأ اليونانيون هجومهم فى ٢٢ يونيه ١٩٢٠.

حكومة الآستانة توقع على معاهدة سيفر: فى ١٠ أغسطس ١٩٢٠ وقعت حكومة الآستانة على معاهدة سيفر[1] التي تعترف فيها بوضع مصر تحت الحماية البريطانية وانتداب إنجلترا لادارة شئون فلسطين والعراق، وفرنسا لادارة شئون سورية، وانتداب فرنسا وايطاليا لبعض شواطى الأناضول (فرنسا فى كيليكيا وإيطاليا فى أضاليا)، وضم تراقيا وجزء من ساحل الأناضول (وفيه أزمير) لليونان، ووضع الآستانة وكذلك البوسفور والدردنيل بعد تحطيم قلاعهما تحت رقابة لجنة دولية، واستقلال أرمينية، وتعترف المعاهدة كذلك بالشريف حسين ملكا على الحجاز.

وقع المعاهدة على الأتراك: لم تُبق المعاهدة للأتراك إلا قلب الأناضول وأسى مُمِضًا فى قلوبهم، ونهض مصطفى كمال لانقاذ بلاده وشرع يلهب شعبه الحزين بكلمات تحز فى النفوس حزاً كأن يقول لهم «لقد كنا سادة فلن نكون بعد ذلك عبيداً» أو يقول «لأن كنا قد فقدنا الامبراطورية العثمانية، فلا أقل من أن ننقذ تركياذاتها» وتهافت الشعب على الالتفاف حوله

انتصار الأتراك: ذهل الحلفاء، إذ لم يدر بخلدهم أن تركيا تجرؤ على

---

(١) مكان قرب باريس مشهور بصناعة الخزف المعروف باسمه

رفض قراراتهم فى حين أن ألمانيا ذاتها قد تقبّلت قضاءهم فيها ، غير أنهم وقفوا حيارى ، فقد سرحوا غالب جيوشهم ، وانجلترا كانت تشغلها شئون ايرلندة ومصر والهند ، وفرنسا يقلقها أهل سورية ، وإيطاليا تخشى خطر البولشفية وتتحرز منه ، وبينا الحلفاء فى حيرتهم هذه إذتقدم إليهم فنزيلوس رئيس وزارة اليونان وعرض عليهم جيش بلاده لارغام الأتراك على قبول الصلح ، ولا عجب فيما فعل ، فاليونانيون أكثر من أصاب مغنما من تراث بنى عثمان ، وحركة الأناضول إن لم يُقض عليها عصفت بما غنموا ، وقبل الحلفاء من فنزيلوس ما عرض ، وأمدته إنجلترا بالمال ومعدات القتال .

وكان نصيب اليونانيين النصر أول الأمر ، وتوغلوا فى قلب الاناضول واستولوا على اسكى شهر (١٩ يوليه ١٩٢١) وتراجع الجيش التركى الى شرقى نهر سقاريا ، فذعر الشعب التركى ونال منه اليأس حتى أن المجلس الوطنى الكبير قام ينادى بالانتقام من مصطفى كمال الذى غرر بهم حتى ورطهم فى هذا الموقف العصيب ، ولكن مصطفى كمال واجه المجلس هادئا وسكّن من روعهم ومناهم بالنصر وقال لهم يستحثهم « هل تقبلون اليوم خضوعا لمن كانوا خدامكم بالأمس » ونُصب مصطفى كمال القائد الأعظم (وكانت القيادة العليا فى يد عصمت باشا) ومُنح سلطة « الدكتاتور » (٥ أغسطس) وبعد تسعة أيام فقط بطش باليونانيين بطشة هائلة فى موقعة سقاريا (١٤ أغسطس ١٩٢١)

وفرح الاتراك فرحا عظيما بانتصارهم ومنحوا بطلهم لقب « الغازى » وتطايرت اليه رسائل التهنئة من أفغانستان والهند وروسيا وأمريكا وحتى من إيطاليا وفرنسا .

وتقدمت روسيا البلشفية تساعد تركيا بمال وذخائر ، ودفعها إلى هذه المساعدة كراهتها لانجلترا ، وبدأت فرنسا و إيطاليا تنسحبان من منطقتى نفوذها فى الأناضول وعزمت فرنسا أن توثق صلاتها بهذه الحركه الفتية

فعقدت مع الأتراك معاهدة انقرة السرية (٢٠ اكتوبر ١٩٢١) ، وعلى أثرها أطلقت فرنسا سراح ٨٠٫٠٠٠ تركي كانوا في أسرها في الشام ، وأهدت الى الاتراك أسلحة لاربعين ألفا من الجنود ، وعقدت روسيا البولشفية وأفغانستان وفارس وغيرها معاهدات صداقة مع الأتراك

والحرب بين الأتراك واليونانيين لم تنته بعد سقاريا ، إذ اليونانيون لا يزالون في الأناضول ، وانقضى على سقاريا نحو العام ، فاستجمع مصطفى كمال قوته للوثوب على اليونانيين ثم وثب في ٢٦ أغسطس ١٩٢٢ وشتتهم وساقهم أمامه حتي وصلوا أزمير ، فدخلها في أثرهم (في ٩ سبتمبر) . ففر منهم من فر ، وغرق منهم من غرق ، وكانت في ميناء أزمير سفن للحلفاء فلم تطلق إحداها قنبلة واحدة على الظافرين .

معاهدة لوزان : اضطر الحلفاء إزاء ما تبين لهم من حماسة الأتراك وبطولتهم الى إعادة النظر في معاهدة سيفر ، واجتمع مؤتمر في لوزان وتمخض عن معاهدة لوزان (٢٤ يوليه ١٩٢٣) وبها استعاد الاتراك كل الآستانة ، وكل ما كانوا يملكون في الأناضول وتراقيا الشرقية (بما فيها أدرنه) ، وخففت عنها الغرامة الحربية التي قضت بها معاهدة سيفر ، ونزلت الدول عن امتيازاتها في تركيا .

وغادرت آخر قوة للحلفاء الآستانه في ٢ اكتوبر ١٩٢٣ : وهكذا أحيا مصطفى كمال شعبا بعد أن حُكم عليه بالفناء

مصطفى كمال ينهض بتركيا

قد ظهرت في السنوات الأخيرة في تركيا عدة مؤلفات تبحث في كيفية انهاض تركيا وتجديدها ، ومن بين هذه الكتب كتاب اسمه « مصطفى كمال » وواضعه « قابيل آدم » ، والواقع أن الكتاب يعبر عن آراء مصطفى كمال ذاته ، والكتاب يصف العقلية الاوربية بانها ارتقائية ، وانها

تتفق وحاجات الحياة الدنيا وتؤدى الى سعادة الناس ، وانها ناضلت رجال الدين وتعاليمهم الجامدة ، وأن اليابان ما تقدمت إلا لتتبعها وسائل العقلية الأوربية ، أما العقلية الآسيوية فهى جامدة رجعية تعمل لا لهذه الدنيا بل للدار الأخرى ، لهذا أذعنت لتعاليم رجال الدين ولم تحاول أن تعرف كنه الحقائق فى الحياة الدنيا ، لذلك لم تسلم الامم الآسيوية يوما من الفقر والتعس ، وهذه العقلية هى السبب المباشر فى سوء النظام والفقر والعادات القبيحة كتعدد الزوجات ، وأن العقلية الآسيوية هي التي جعلت الأتراك يعتقدون أنفسهم عبيدا للسلطان « ظل الله فوق الأرض » ، وظل الله على الأرض لم يمنح عبيده إلا الفقر والجوع وانتقاص الأملاك واستجداء الغرب ، وظل الله صنم فاقد القوة والروح كأى صنم من أصنام بوذا فى الهند ، وتحطيم الأصنام واجب كما حطم النبي أصنام الكعبة ، ويقول المؤلف إن تركيا لا يمكن إصلاحها بنقل أجزاء من الحضارة الغربية بل بنقل الحضارة الغربية بأجمعها وإحلالها محل الحضارة الآسيوية فان التجارب التى أجريت فى الماضى للتوفيق بين الحضارتين قد أسفرت عن الفشل

فلا غرو أن يقوم الأتراك ورائدهم تلك الفلسفة باحداث انقلاب شامل نجمله فيما يلى : —

(١) إلغاء السلطنة : فى أول نوفمبر ١٩٢٢ (أى قبل جلاء جيش الاحتلال عن تركيا) قرر المجلس الوطني الكبير إلغاء السلطنة ، وطُرد السلطان وحيد الدين من الآستانة فى ١٧ نوفمبر ، وحجتهم فى طرده انه لم يساعد الحركة بل كان عليها حربا ، ولم يجرؤ الانجليز في الآستانة على مساعدته

واختار المجلس عبد المجيد ابن أخى وحيد الدين ليكون مجرد خليفة على المسلمين بدون سلطة زمنية قط ، وجعلت الآستانة مقره

(٢) إنشاء الجمهورية التركية : فى أكتوبر ١٩٢٣ (أى بعد معاهدة لوزان) قرر المجلس جعل أنقره العاصمة والبلاد جمهورية ومصطفى كمال رئيس هذه الجمهورية

(٣) إلغاء الخلافة أيضا : فكر مصطفى كمال فى إلغاء الخلافة لأمرين رئيسيين (أولهما) أنه كما يقول هو « قد آن الوقت الذى تقصر فيه تركيا جهودها على شئونها وحدها وتنفض يدها من شئون العرب والهنود وغيرهم ، والخلافة رباط يربط تركيا بغيرها من الأمم الاسلامية » (وثانيهما) أن الساخطين على النظام الحديث (الجمهورية) قد تجمعوا حول الخليفة عبد المجيد فى الآستانة وأرادوا أن ينصبوه سلطانا دستوريا ، فحقد عليه مصطفى كمال

ولما قامت انجلترا ــ عدوة تركيا ــ تدافع عن الخليفة وتوعز إلى الهنود بالاحتجاج على حرمانه السلطة الزمنية، غضب المجلس الوطنى الكبير، ورأى مارآه مصطفى كمال من وجوب الغاء الخلافة حتى لا تنشق الامة وحتى لا تجد انجلترا وسيله للتفرقة بين صفوفهم ، فألغيت الخلافة وأزيلت صبغة البلاد الدينية (٣ مارس ١٩٢٤) ، وفى الليله عينها أخرج الخليفة من الآستانة ولم يمط إلاحقيبة ملابس وبعض المال اللازم لرحيله، وبعد يومين ألحق به أمراء بنى عثمان وأميراتهم ، وأغلقت الرّباطات (التكايا) وأخرج من فيها ليعملوا لأنفسهم وبلادهم لا ليعيشوا فيها عيالا على غيرهم

(٤) ادخال المدنية الغربية ومظاهرها : أدخل الاتراك المدنية الغربية بحذافيرها حتى يقطعوا كل صلة بماضيهم، فمن ذلك أنهم وحّدوا اللباس التركى واستبدلوا القبعة بالطربوش[1] والعمامة وغيرها من غطاء الرأس ، وألغوا

---

(١) قال مصطفى كمال عن الطربوش « انه شارة الجهل » ولبس القبعة وألبسها جنوده ولكن الشعب نفر منها لانه عدها لباس المسيحيين ، فاستصدر مصطفى كمال

حجاب المرأة ، ومنحوها ما للرجل من حرية فى المنزل وفى الطريق وفى العمل وفى المدرسة ، فصار منهن محاميات وطبيبات وأديبات وعاملات وموظفات فى دور الحكومة ، وألزم أصحاب الفنادق والقهاوى استخدام التركيات ، وصار لهن حق الانتخاب للمجالس البلدية ، وانتخب منهن أربعة فى مجلس بلدى الآستانة ، وعين منهن قاضيتان فى أنقرة ، ووقفت مقبولة إلى جانب أخيها مصطفى كمال تعاضده في كل أعماله ، وبالاجمال قد صارت المرأة التركية لا تقل عن أختها الغربية فى المظهر أو العمل

وأدخل مصطفى كمال الرقص ، وصناعة التماثيل — وكان لا يُسمح بها من قبل — وأنشئت مدرسة لدراسة الأجسام العارية ويدخلها الرجال والنساء معا ، وأبطلت التحية القديمة وحل محلها رفع القبعة

(٥) إدخال القوانين الغربية : في صيف ١٩٢٦ أُدخل فى تركيا القانون المدنى السويسرى والقانون التجارى الالمانى والقانون الجنائى الايطالى ، وكان من أثر إدخال القانون المدنى السويسرى مساواة جميع الاجناس ، وتغير نظام الأسرة التركية ، إذ حرم تعدد الزوجات

(٦) إدخال الحروف اللاتينية وتعميمها : فى عام ١٩٢٨ استبدلت الحروف اللاتينية بالحروف العربية فى الكتابة وأصبح الكلام التركى يكتب بها كما يُنطق ، ودرس مصطفى كمال استعمالها بنفسه ، وقام هذا « المدرس الأعظم » يدرسها لحاشيته على سبورة ، وطفق يطوف الأقاليم بسبورته يعلم من من استطاع تعليمه ، وكان الذين يعرفون القراءة والكتابة فى تركيا حتى

من المجلس قانونا يحرم لبس الطربوش ويعد لبسه جريمة (١٩٢٦) ، وقام البوليس يصادر الطرابيش ، وحوكم من قاوم البوليس فى المصادرة ، فخاف الناس وبحثوا عن القبعات فلم يجدوا منها مايكفيهم ، ويروى أن جماعة من الشعب اقتحموا حانوتا لبيع قبعات النساء وكان صاحبه الامريكى فى بلاده وانتزع الرجال القبعات ولبسوها على مابها من شرط وريش وزهور ، كل ذلك خوف العقاب

١٩٢٥ لا يزيدون على ١٢ ٪. ففكرت الحكومة فى تعميم الكتابة الجديدة مرة واحدة فأجبر كل شخص دون الخامسة والأربعين ذكرا كان أو انثى أن يتعلمها فى مدة أربعة أشهر يمتحن فى نهايتها ، فان رسب مُنح مهلة أخرى وهكذا ، وحُتم على كل موظف أو طالب بالمدارس العالية والثانوية أن يعلم هذه الكتابة بعد فراغه من عمله اليومى ، وصارت المساجد والأندية العامة والمقاهى والفنادق والمستشفيات ومحاط السكك الحديدية حتى الشوارع والميادين معاهد يتلقى فيها الناس دروسهم ، وأُبقى المسجون فى سجنه بعد انقضاء أمد سجنه حتى يتعلم الكتابة ، وتُرجم القرآن من اللغة العربيـة إلى التركية وكتب بالكتابة الجديدة


(٦) الاهتمام بالشئون الاقتصادية : — شجعت الزراعة بانشاء النقابات الزراعية وإقراض الفلاحين بعض المال ، كما شجعت الصناعة بوضع ضرائب جمركية على المصنوعات الأجنبية التى يصنع مثلها فى البلاد ، وسنت قوانين تقيد الأجانب فى تجارتهم فى تركيا مما جعل الأجانب لا يقدمون على تثمير أموالهم فيها ، ومن هذه القيود أن تكون نسبة معينة من رأس مال الشركات للأتراك ونسبة معينة من موظفيها من الأتراك وأن تكون حساباتها باللغة التركية


(٧) تركيا للاتراك : ورغم إدخال المدنية الغربية ومظاهرها ، فان مصطفى كمال يتمسك بأن تكون خيرات تركيا للأتراك لا للأجانب ، وقصر بعض المهن على الأتراك كالمحاماة والطب ، وهو شديد الايمان بمستقبل أمته إذ يقول « لقد خبرت الشعوب ، ودرستهم فى الميادين وتحت وابل الرصاص وبين فكى الموت حيث تظهر أخلاق الناس سافرة ، وها أنا أقسم لكم يا بني قومى أن فى نفوسكم من القوة المعنوية ما لا تُرى فى شعب آخر من شعوب الأرض »

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢٩	١٣	استمع جيزو إلى تيير	استمع جيزو الى بالمرستون
١٣٠	١٤	عن طريق الصحراء	الا عن طريق الصحراء
١٧٤	٦	٤٠٠ر٠٠٠	٤٠٠ر٠٠٠ جنيه
١٨١	١٥	١٧٨٨	١٨٧٨
١٨٥	٤	على عاتق الخديو لمسلكه	على عاتق حكومة الخديو لمسلكها
٢٦١	١٦	الجمعية التشريعية	الجمعية العمومية
٢٨٠	١٥	١٨٠٨	١٩٠٨
٣٢٥	١٧	جزائر الهند الغربية	جزائر الهند الشرقية
٣٣٤	١٥	١٨٩٥	١٨٥٩
٣٣٦	١٩	الساحل الشرقى	الساحل الغربى
٣٤٥	٣	١٧٨٣	١٧٧٣
٣٤٥	١٩	وحارب	ثم حارب
٣٨١	١٠	بخزا كى	نجزا كى
٣٨٥	١٨	١٧٩٥	١٨٩٥
٣٩٠	٢	١٨٠٠	١٨٨٠
٣٩٠	١٤	١٩٨١	١٨٩٦
٣٩٥	١١	١٨٢١	١٩٢١
٣٩٥	١١	١٨٢٣	١٩٢٣

هذا وقد أغفلنا الأغلاط البدهية اعتماداً على فطنة القارئ






Bibliotheca Alexandrina
04866578